

موسوعة الشخصيات الإسلامية
المجلد الثاني

أعلام الصحابة والتابعين الكرام



أعلام الصحابة
والتابعين الكرام

(٧٩)

آل البيت النبوي

الحمد لله الذي أوجد الأشياء بلا معين، وامتن على عباده المؤمنين ببعثة سيد الأنبياء والمرسلين، وجعل له أزواجاً وذرية من أهل الصلاح والتقوى والدين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل على آل سيدنا إبراهيم سلاماً وبركات تتلى في كتابه المبين: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾.

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي شرف الله به الكائنات وجعل له عترة طاهرة زكية يتبارك بهم في كل وقت وحين. فقال عز من قائل: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا أيها الإخوة: توفي سيدنا رسول الله ﷺ وترك ابنة وتسعاً من أمهات المؤمنين وجارية واحدة.

أما البنت فهي السيدة الطاهرة البتول فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وكانت متزوجة من سيدنا علي رضي الله عنهما، وقد بلغ الأسى بما مبلغه، وكانت تقول للصحابة كيف استطاعت قلوبكم أن تدفنوا رسول الله ﷺ وتهيلوا عليه التراب؟! فكانوا يقولون: ما إن دفنا رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا. ووقفت السيدة فاطمة الزهراء على قبر سيدنا النبي وراحت تمرغ وجهها بتراب القبر وتقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمدٍ ألا يشم مدى الزمان غواليها
صُبّت عليّ مصائب لو أنّها صُبّت على الأيام عُدن لياليها

وترك رسول الله ﷺ جارية واحدة هي السيدة مارية القبطية أم سيدنا إبراهيم رضي الله عنهما التي أصبحت حرّة بوفة الحبيب الأعظم ، أعتقتها ولدها لأنها أم ولد .
وأما أمهات المؤمنين اللواتي توفي عنهن فتسع: السيدة سودة بنت زمعة، والسيدة عائشة بنت أبي بكر، والسيدة حفصة بنت عمر، والسيدة زينب بنت جحش ،
السيدة أم سلمة بنت زاد الركب، والسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، والسيدة ميمونة بنت الحارث، والسيدة جويرة بنت الحارث، والسيدة صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنهم أجمعين.

واعتدت كل واحدة منهن أربعة أشهر وعشراً إلا السيدة مارية فشهران وخمسة أيام لأنها جارية. والتي وجد الصديق أنه لا قسم لها من الغنائم والفبيء كبقية أمهات المؤمنين فالزم نفسه بالإنفاق عليها، وكذلك فعل الفاروق بعد وفاة الصديق رضي الله عنهما.

هؤلاء هم - أيها الاخوة - الذين يلقبون بأسمى لقب بعد لقب الرسول والنبى، إنه لقب أهل البيت المحمدي، أعني بهم أزواج وأولاد وأحفاد وذرية سيدنا محمد ﷺ. وأولاده ﷺ وهم أفضل من جميع الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ، لأن الإمام مالكا رضي الله عنه إمام دار الهجرة يقول: "لا أفضل على بضعة رسول الله ﷺ أحداً".

وقد وقفت فيكم اليوم لأسعد معكم بالحديث عن أهل بيت هم أفضل من سيدنا الصديق والفاروق وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم آل البيت الذين كتب رب العزة على نفسه أن يطهرهم من كل دنسٍ وعيب :

﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾.

وأمر حبيبه المصطفى أن يطلب من المسلمين أن يجوهم ويحترموهم ويوقروهم فقال لنبيه الكريم: ﴿ قل: لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾.

آل البيت النبوي الذين قال عنهم جدهم النبي المصطفى فقال: (حا- بز- أبو يعلى عن أبي ذر):

- ألا إنّ مثلَ أهل بيتي فيكم مثلُ سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق. وقال فيهم: (ت- حا: زيد بن أرقم): "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي".

وكما: (أن النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق فأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف فإذا خالفها قبيلة اختلفوا فصاروا حزب إبليس ".

هذه هي وصية سيدنا النبي في ذريته، ولهذا أجمع العلماء من أهل السنة أنّ حبّ آل البيت فرض ، وأنه يجب علينا أن نطلب ودّهم، اسمع إلى حبيبك المصطفى وأنت تصلي عليه وعلى آله يقول: وقد شكّا إليه العباس بن عبد المطلب (ه- حا) فما هي هذه الشكوى؟.

نص الشكوى يقول: إنا كنا نلقى النفر من قريش وهم يتحدّثون فيقطعون حديثهم.

هذا هو نص الشكوى، فماذا كان جواب سيدنا رسول الله ﷺ ، إنه جمع الناس وقال لهم: « ما بال أقوام يتحدّثون فإذا رأوا الرجل من أهل بيتي قطعوا حديثهم : والله لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبّهم الله ولقرابتهم مني ».

اللهم اشهد بأننا نحب أهل بيت نبيك الأعظم ﷺ.

وبهذا وردت الأحاديث المستفيضة في وجوب حب آل البيت النبوي:

(هـ- أبو الشيني- الديلمي) يقول ﷺ : " لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه، وتكون عترتي أحبّ إليه من عترته، وتكون أهلي أحبّ إليه من أهله، وتكون ذاتي أحبّ إليه من ذاته ".

بل إنّ بعض الأحاديث صرّحت أن بغض أهل البيت سبب في دخول العبد نار جهنم.

يقول ﷺ (حا): "لا يبغيضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار" والعياذ بالله.

ويقول ﷺ (حا): "يا بني عبد المطلب إنّي سألت الله أن يثبت قائلكم ، ويهدى ضالككم، وأن يعلم جاهلكم، وأن يجعلكم رحماء، فلو أنّ رجلاً ضُفِنَ بين الركن والمقام فصلّى وصام ثم لقي الله مبغضاً لأهل بيت محمد دخل النار".

فمن هم أهل البيت رضي الله عنهم؟ إنهم أولاده وأحفاده وزوجاته الشريفات كلهم من السيدة خديجة إلا سيدنا إبراهيم . وأولاده ﷺ سبعة على الصحيح : ثلاثة ذكور وأربع بنات.

أولهم: سيدنا القاسم رضي الله عنه، ولد بمكة المكرمة وعاش قريباً من السنتين، وتوفي قبل البعثة بمكة أيضاً.

ثانيهم: السيدة زينب رضي الله عنها ولدت بمكة المكرمة قبل البعثة بعشر سنوات، وهي أكبر أخواتها.

أدركت الإسلام وتزوجت ابن خالتها سيدنا أبا العاص بن الربيع الذي أسلم قبل وفاته، وهاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت سنة ثمان من الهجرة، ولها ولدان سيدنا علي، وبنت اسمها أمامة. وحين توفيت السيدة فاطمة تزوجها سيدنا علي بن أبي طالب. وتوفيت السيدة زينب ودفنت في البقيع رضي الله عنها.

ثالثهم: سيدتنا رقية:

التي أدركت الإسلام وهاجرت مع زوجها الثاني سيدنا عثمان إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولهذا كانت تلقب بذات الهجرتين.

تزوجت أولاً من عتبة بن أبي لهب قبل البعثة، ثم عملت حماها حمالة الحطب على طلاقها بقصد إزعاج سيدنا النبي ﷺ، فكان عملها هذا خيراً وأي خير.

ثم تزوجت سيدتنا رقية سيدنا عثمان فكانت النور الأول الذي دخل حياته رضي الله عنهما، وأنشدت نسوة قريش:

أحسنُ شخصين رأى إنسان رقية وبعّلها عثمان

فولدت له سيدنا عبد الله ﷺ وبه كان يكنى، ومات صغيراً. ومرضت هي مرضاً شديداً قليل غزوة بدر، فأمر النبي سيدنا عثمان أن يبقى مع زوجته لتمرّضها، فتوفيت أثناء الغزوة ودفنت في البقيع. وهي أول من مات من أخواتها رضي الله عنهن، وكان عمرها سبع وعشرون سنة.

لكن سيدنا النبي لشدة حبه بسيدنا عثمان زوجته ابنته الثالثة كوكب الإسلام السيدة أم كلثوم رضي الله عنها.

والسيدة أم كلثوم: ولدت بعد البعثة، وتزوجها الابن الثاني لأبي لهب (عتيبة) وتركها وكانت ما تزال بكرًا رضي الله عنها، وطلقت منه كأختها، وبقيت بلا زواج عشرة سنوات حتى تزوجها سيدنا عثمان، فكانت النور الثاني الذي دخل حياة سيدنا عثمان، ولُقّب بعدها بذي النورين. وعاشت معه ولكنها لم تنجب. وشهدت قبل زواجها به حصار قريش لرسول الله ﷺ في مكة، فكانت تتألم كثيراً، ومع هذا كانت تبسم لوالدها الحبيب الأعظم وتخفي عنه ألمها وتبشره بالنصر من الله تعالى.

وهاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت سنة تسع من الهجرة، وألقى رسول الله ﷺ بإزاره إلى أسماء بنت عميس التي غسلتها لتجعله أحد أكفائها تبركا بأثره الشريف (صلوا عليه). وطُيّب سيدنا النبي قلب سيدنا عثمان وقال له: لو كان عندي عشر بنات لزوجتهن لك يا عثمان (واحدة بعد واحدة).

والخامسة: جدتي وقرة عيني سيدتنا فاطمة الزهراء . وهي الابنة الرابعة في الترتيب للسيدة خديجة رضي الله عنها.

ولدت قبل البعثة بخمس سنوات، وهي من خير نساء العالمين، ومن سيدات أهل الجنة كما صرحت به الأحاديث النبوية الصحيحة.

خطبها سيدنا علي عندما بلغت الثامنة عشر من العمر، بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة بخمسة أشهر، ثم زُفَّ إليها بعد رجوع المسلمين من بدر. وعاشا على الكفاف لأن سيدنا عليا لم يكن له حظ من مال مكتسب أو موروث،

ولم يعمل برعي أو تجارة وإنما شُغل بالجهاد وبصحبة الهادي (صلوا عليه). وكانت كلما حانت فرصة لهما في التماس الغنى من الغنائم ذهباً لرسول الله ﷺ يشكوان له الجهد وقلة ذات اليد، فيوجههما رسول الله ﷺ إلى ما هو أفضل من الغنى والمال.

أيها الإخوة :

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى المدينة المنورة، وقد وصل إليها غنائم وسي من الجهاد.

وها هو سيدنا علي سيف الله ذو الفقار والسيدة فاطمة يسرعان فيطلبان شيئاً مما أفاء الله على رسوله، فقال لهما الحبيب الأعظم: لا والله لا أعطيكما و أدع أهل الصّفة (فقراء المسلمين الذين لا منزل لهم إلا المسجد وهم حوالي الثلاثين رجلاً) ، وأهل الصفة تتلوى بطونهم.

ثم قال لهما: أخبر بخير مما سألتماني ؟ فقالا : بلى. قال: كلمات علمنيهن جبريل تسبحان دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أوتيتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين.

ومرة اشتد الأمر على سيدة نساء العالمين، وعانت من قلة الطعام وشظف العيش مع سيدنا علي، (أريدكم أيها الاخوة أن تنقلوا هذا الحديث إلى نساءكم، لتسمع النساء كيف كانت تعاني سيدة نساء العالمين بنت سيدنا محمد ﷺ).

قالت السيدة فاطمة لسيدنا علي:

- وَاللَّهِ لَأَشْكُونَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ.

فانطلقت وانطلق سيدنا علي بإثرها، فقام حيث سمع كلامها وهي تقدم الشكوى لوالدها سيدنا محمد ﷺ لقلة ذات يد سيدنا علي وطبعه الحامي الشديد، فماذا قال لها

الحبيب الأعظم؟ قال لها:

- يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا إمرة لامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت. [يعني يجب على المرأة أن تحقق لزوجها ما يريد بناء على حدسها وفهمها بالإشارة وبالتلميح دون أن يحتاج الزوج إلى الكلام والتصريح].

إنه لا إمرة لامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت. وهنا قال سيدنا علي: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: وَاللَّهِ لَا آتِي شَيْئًا تَكْرِهِيَنَّهُ. فكان من السيدة فاطمة منتهى الطاعة، وكان من سيدنا علي منتهى اللباقة رضي الله عنهما. وأعقبت السيدة فاطمة ثلاثة ذكور وبنتين، وأما البنات فالسيدة زينب والسيدة أم كلثوم.

والسيدة زينب هي البنت الكبرى التي ولدتها في العام الخامس من الهجرة سماها رسول الله ﷺ زينب على اسم خالتها، لكنها توفيت بعد ولادتها بثلاث سنوات.

والسيدة أم كلثوم تزوجها سيدنا عمر بن الخطاب فيما بعد.

وأما الذكور فسيدنا الحسن وسيدنا الحسين، والثالث سيدنا محسن توفي صغيراً. رضي الله عنهم، وبارك مولانا عز وجل في ذرية الحسن والحسين، فخرج منهما آل البيت المحمدي، وستكلم عنهما إن شاء الله تعالى.

أيها الأحبة : توفيت السيدة فاطمة بعد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ بستة أشهر وهي ابنة تسع وعشرين سنة، وصلى عليها الصديق وهي أول من حُمل على النعش، ودفنت في البقيع.

الابن السادس : لسيدنا رسول الله ﷺ هو سيدنا عبد الله الطيب والطاهر رضي الله عنه لُقِبَ بهذين اللقبين لأن ولادته كانت في الإسلام ، وتوفي صغيراً بعد البعثة وبوفاته كان عدو الله العاصي بن وائل يقول: إن سيدنا محمداً أبتر وسينقطع نسله بعد وفاة أولاده فنزل قوله تعالى مدافعاً عن نبيه الكريم:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فصلوا عليه وسلموا تسليماً.

الابن السابع: سيدنا إبراهيم رضي الله عنه ابن السيدة مارية القبطية الجارية التي أهداها للنبي المقوقس عظيم القبط، ولد في السنة الثامنة للهجرة، وفي اليوم السابع علمنا رسول الله ﷺ ما نفعل بالمولود حيث حلق له شعر رأسه وسماه إبراهيم، وتصدق بزنة شعره فضة.

وكان يكبر ويزداد شبهاً بسيدنا النبي ﷺ، لكن ما إن بلغ قريباً من السنتين حتى لحق بربه عز وجل، وصادف أن كسفت الشمس يوم وفاته، فقال الناس: إنه لموت سيدنا إبراهيم بن سيدنا رسول الله ﷺ.

فلما وصله الخبر قال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة".

وحين توفي سيدنا إبراهيم قال عنه الحبيب الأعظم (ه): "إن له مرضعاً في الجنة". وقال: لو عاش لأعتقت أحواله من القبط وما استرق قبطي. وفي رواية: لو عاش لوضعت الجزية عن كل قبطي".

وهنا عرف المسلمون أن مصر ستفتح عليهم وسيدفع القبط الجزية، فكانت هذه بشارة من سيدنا رسول الله ﷺ (يا سعد من صلى عليه).

إخوتي في الله : هؤلاء السبعة هم أولاد نبينا الأعظم. وهم أفضل الصحابة جميعاً، وكل ذرية آل البيت من بني عبد المطلب وبني هاشم إذا كانوا موحدين شاهدين لسيدنا النبي بالرسالة فهم ناجون يوم القيامة بإذن الله تعالى، نطق بهذا

السيد الأعظم (حا) حيث قال: وعدني ربي في أهل بيتي من أقرّ منهم بالتوحيد ولي بالبلاغ أن لا يعذبهم.

وعند الطبراني بسند رجاله ثقات قال ﷺ للسيدة فاطمة:

« إِنَّ اللَّهَ عز وجل غير معذبك وولدك » .

بل إن أول من يشفع لهم رسول الله ﷺ يوم القيامة هم أهل بيته، فعند الطبراني وغيره (قط) قال ﷺ: "أول من أشفع له يوم القيامة أهل بيتي ثم الأقرب فالأقرب ثم الأنصار ثم من أحسن لي واتبعني من أهل اليمن، ثم سائر العرب ثم الأعاجم، ومن أشفع له أولاً أفضل " . وقال لبني هاشم (أحمد في المناقب) : "يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبياً لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم".

وقد قال رجال من الصحابة إن أقارب رسول الله ﷺ ورحمه لا ينفعهم انتسابهم إلى رسول الله ﷺ. فقام النبي الكريم على المنبر فقال؟ (أحمد- في المناقب):

"ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه يوم القيامة؟! بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة". فكان عليه الصلاة والسلام يقول:

"كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، وكل ولد آدم فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فأنا أبوهم وعصبتهم " (يا سعد من صلى عليه).

معاشر المسلمين : هذه الأحاديث وسواها تدل على نسبه الشريف ﷺ وذريته الطاهرة ينفعهم يوم القيامة، وأنهم أسعد الأنام في الدنيا والآخرة، وحاشا رسول الله ﷺ أن يشفع للأباعد ويضيع أهل بيته وينسى قرابتهم له.

ولهذا كانت وصية سيدنا رسول الله ﷺ أن نكرم آل البيت ونعتني بهم ونحترمهم. يقول ﷺ (ت- ص): "إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتهم به لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله ﷻ جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما".

ووقف النبي الكريم في حجة الوداع يقول للناس:

إني فرطكم على الحوض، وإنكم تبغي، وإنكم توشكون أن يردا على الحوض
فأسألكم عن ثقلي كيف خلفتوني فيهما. فقام رجل من المهاجرين فقال: ما
الثقلان؟ قال: الأكبر منهما كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم
فتمسكوا به.

والأصغر عترتي فمن استقبل قبلي وأجاب دعوتي فليستوص بهم خيراً فلا تقتلوهم
ولا تقهروهم ولا تقصروا عنهم. وإني سألت اللطيف الخبير أن يردوا على الحوض
كهاتين (وأشار بالمسيحتين).

"وأنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بها اتخذ إلى الله
سبيلاً" (من نظم الدرر)، (أبو سعد في شرف النبوة).

أيها الاخوة: كان الصحابة رضي الله عنهم شديدي الاحترام والتوقير لآل
البيت ينفذون وصية سيدنا رسول الله ﷺ.

فقد قربت لسيدنا زيد بن ثابت بغلته ليركبها فتقدم ابن عباس رضي الله عنه
ووضع يده ليركب سيدنا زيد. فقال له زيد:

- مه يا بن عم رسول الله ﷺ.

- فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء.

فأخذ سيدنا زيد يد ابن عباس وقبلها وقال: وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت

نبينا ﷺ.

إليكم كلّ مكرمة تؤول وكلّ مهمّة بكم تؤول
كفاكم يا بني الزهراء فخراً إذا ما قيل جَدّكم الرسولُ
أبوكم فارسُ الهيجا عليّ وأُمّكم المطهّرة البتولُ
وأنتم ملجأ اللاجئين ذخراً وفي التنزيل مدحكم جليلُ
إذا افتخر الأنام بمدح قوم بمدحكم تشرف جبرائيلُ

علينا واجبان أكيدان : حب القرابة واحترام الصحابة هنا وهناك وأعود بكم من
هناك إلى هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى
الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك

أمهات المؤمنين

رضي الله عنهن

(٨٠)

السيدة خديجة بنت خويلد (١)

الحمد لله الذي أنار الوجود بطلعة خير البرية، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، قمر الهداية، وكوكب العناية الربانية، مصباح الرحمة المرسله وشمس دين الإسلام، من تولاه مولاه بالحفظ والحماية والرعاية السرمدية، وأعلا مقامه فوق كل مقام. وفضله على جميع الأنبياء والمرسلين ذوي المراتب العلية فكان للأولين مبدأً وللآخرين ختام.

وأشهد أن الله فرد يعبد وأن خير خلقه محمد رسوله المتمم المجدد وكل من صدقه مخلص بغير شك في جنان الخلد.

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تعبد فحذرنا ناراً وبشر جنّةً وعلمنا الإسلام فالحمد لله محمد تعاليت رب العرش عن قول جاحد فياياك نستهدي وإياك نعبد فذو وشق له من اسمه ليجله العرش محمود وهذا محمد

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وأنزلهم في مقعد صدق عندك يامليكننا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً.

أما بعد فيأحماة الإسلام وحراس العقيدة:

يتحامل كثير من الحاقدين والمغرضين والشعوبيين على العرب، ويتهمونهم ظلماً وعدواناً بصفات لا تمت إلى الإنسانية بصلة، وليت هؤلاء المتحاملين والحاقدين اقتصروا بنسبة هذه الصفات الذميمة على بعض أفراد من العرب إذاً لفعلوا شيئاً من

الانصاف والحق، وكان العرب كغيرهم من كل أمة من أمم الدنيا لا يخلون من أفراد يتنكبون الجادة، يتعدون عن كريم الخلق وسبيل المجد، ولا يعيب ذلك الأمة العربية ولا ينقص من مجدها وكرامتها ومكانتها، لأن الحكم على الأمة بالعظمة والمجد والخلود، أو بعكس ذلك، إنما يكون بالنظر لمجموعها ولنظمها وتقاليدها العامة، وإننا لدى البحث الدقيق والنظر المنصف نجد أن العرب قد انطوا في مجموعهم على كثير من خصال الخير والبر والكرم والنجدة وحتى الرحمة والعطف والحنان والرأفة بالبؤساء.

إننا اليوم بصدد عرض نموذج من أفراد هذه الأمة العربية الخالدة يعبر عما يكمن في نفوسها من خير وبر وهدى وتقى وإيمان، هذا النموذج الذي سأقدمه لكم ستجدونه في شخص امرأة عاشت في فترتين من الزمن، وأدركت عهدين مختلفين: عهد جاهلية قائمة مظلمة.

وعهد اسلام مشرق وضاء.

هذه المرأة هي السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

إنها السيدة التي نالت لقبين عظيمين، نالتهما عن استحقاق وجدارة:

اللقب الأول: هو ما كان يصفها به العرب معاصروها:

سيدة قريش الطاهرة

واللقب الثاني: هو ما وصفها به مؤرخو الرومان:

امبراطورة الصحراء (١)

أيها السادة: إننا مع الحلقة الثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية

من جامع الدرويشية ، وفي بداية هذه الحلقة ادعكم لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها الإخوة: نحن اليوم نزل زائرين على هذه السيدة الطاهرة أعني:

السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من قريش، تلتقي في نسبها مع رسول الله ﷺ في جده الرابع قصي بن كلاب. وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم واسمه جندب بن هرم بن رواحة ابن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي من قريش أيضاً.

ولدت بمكة عام ٥٥٦ م الموافق عام ٦٨ قبل الهجرة.

وكان أبوها من أشرف مكة وموسريها، وزاد شرفاً عندما حالف بني عبد الدار، ثم مات في حرب الفجار وعندما بلغت السيدة خديجة سن الزواج تزوجها أبو هالة النباش من زارة من تميم وأنجبت منه ولداً هو هالة، ثم مات أبو هالة فتزوجها عتيق بن عابد من مخزوم وولدت له بنتاً هي هند ثم لم يلبث عتيق أن مات عنها، فعاشت الأرملة الشريفة الغنية الجميلة متفرغة لتربية أولادها، متاجرة في مالها، وكانت معروفة بالحزم وجودة الرأي ورجاحة العقل والعفة والطهارة والشرف والعطف والمواساة.

يضاف إلى هذا أنها كانت تتمتع بشهرة واسعة في الشام والعراق وفارس والروم لعراقة بيتها في الشرف من ناحية، ولاستيلائها على تجارة العطور والديباج والحرير في الهند واليمن وبلاد الفرس من ناحية أخرى.

وكانت قوافلها التي تعدُّ عَشْرَةَ آلاف من الجمال تنقل التجارة إلى أسواق البلاد الهندية فيقبل تجار هذه الأسواق على شرائها واقتنائها، بل لقد كان للسيدة خديجة عمال من الروم والغساسنة والفرس في دمشق والحيرة والقسطنطينية وفي عاصمة كسرى.

وكانت تسكن بيتاً فخماً في مكة مؤلفاً من طابقين، وقد كثرت فيه النوافذ والشرفات المصنوعة من المرمر وأحدقت به أبراج من القرميد الأحمر تماثل أبراج القصور في الهند وفارس، وقد خصص في هذا البيت أمكنة للضيوف ورجال القوافل الذين كانت تستأجرهم ليصبحوا تجارها إلى الشام وإلى العراق ولم يكن في مكة بيت

يمثل بيت السيدة خديجة في العظمة والأناقة إلا بيت عبد الله بن جدعان شيخ القرشيين إذ ذاك وزعيمهم.

أيها السادة:

بعد كل هذا الجاه العريض والثروة الضخمة أسأل هذا السؤال: هل كان هذا الجاه العريض حاملاً لخديجة على الكبرياء والعظمة والترفع والأناقة؟
إنني وأنا أطالع الصفحات المشرقة من تاريخ هذه السيدة الطاهرة لأراها في حياتها قبل الإسلام محسنة إلى البائسين، تعطف على الفقراء والأيتام والمعوزين، تراهم يغشون دارها حاملين أبناءهم الجياع، فلا تتردد تلك المرأة الشريفة في قبولهم ورعايتهم والإحسان إليهم.

إنني أستطيع أن أقول من خلال قراءتي لتاريخ هذه السيدة أنها كانت أمّاً لكل طفل بائس في مكة، وراعية لكل أسرة فقيرة فيها، ونراها الآن ترعى طفلها وتقدم لهما العطف كله والحب كله والشفقة كلها، لأنهما فقدا والديهما وهما في سن الصغر، ومن أجل هذين الطفلين أحبت السيدة خديجة الطفولة في الفقراء والبائسين، فكانت تزور بنفسها بيوت المعوزين في مكة فتحول رؤسهم إلى سرور، وضيقهم إلى سعة، وشقاوتهم إلى سعادة، تكرر هذا العمل الإنساني كل حين حتى لقبت بسيدة قريش الطاهرة.

أيها السادة:

كان من أبرز الرجال الذين كانت تستأجرهم السيدة خديجة والذين يسيرون مع تجارتها، غلامها ميسرة، وكانت السيدة خديجة تعتمد عليه في شؤون تجارتها وتطمئن إليه في إدارتها، وكان أميناً حازماً صادقاً فجعلته موضع ثقته ومديراً عاماً لتجارتها التي تجوب أنحاء الأرض في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام.

ولكن بدأ يطرق سمعها اسم جديد يتحدث الجميع عنه في كل نادٍ، وفي كل حفل، وفي كل مكان، يتحدثون عن صدقه وزمانته وكرمه وأخلاقه وعراقته في النبيل

والشرف والمجد ذلك الاسم الجديد هو سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ورغبت السيدة الطاهرة في أن يكون أمين مكة مع أولئك الرجال الذين يسرون في تجارتها على أجر معلوم.

واسمحوا لي - **معشر السادة** - أن أنتقل بكم إلى هناك لأشهد معكم عقد المضاربة الذي عقدته سيدة قريش الطاهرة مع سيدنا محمد ﷺ ها هو يدخل إلى قصرها ويجلس أمامها فتقول له:

إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك.

وهنا قبل سيدنا محمد ﷺ هذا العرض من السيدة الطاهرة، وسار مع خادمها الخاص ميسرة يقودان هذه القافلة العريضة إلى بصرى الشام، وراح ميسرة يرقبه كيف يبيع ويشترى، لأن التاجر -أيها الاخوة- عليه أن يتصف أولاً بصفات منها: حرف التاء من (كلمة تاجر) ويعني تقي، وحرف الألف من كلمة تاجر يعني أمين، وحرف الجيم ويعني جريء وحرف الراء ويعني رحيم.

كان ميسرة ينظر إلى أمين مكة فيجده يتصف بهذه الصفات، وجده صادقاً في بيعه أميناً في شرائه وسيدنا محمد ﷺ يقول: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين» (ت - هـ - ح: ض).

رأى ميسرة سيدنا محمداً ﷺ لا يحلف في بيعه ولا ينفق سلعته في الحلف الكاذب لأن سيدنا النبي كان يقول (م ١٠٦) «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب عظيم (كررها ثلاثاً) فقال الصحابة: خابوا وخسروا من هم يارسول الله؟ فقال: المسبل (إزاره) والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وفي حديث آخر أنه قال: التاجر هم الفجار. قالوا: يارسول الله! أليس الله قد أحل البيع؟ قال: بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون و«إن التاجر يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى وبرّ وصدق».

وبقي ميسرة يرقب أمين مكة، راح يسمعه ينصح كل مشتر، ويبين له البضاعة التي بين يديه، لأن شعاره «من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار» و«من باع بيعاً لم يبيته لم يزل في مقت الله»، ولم تنزل الملائكة تلعه.

ذهل ميسرة من هذا التصرف الراقى، فلم ير على ممر خدمته لتجارة السيدة خديجة مثل هذه الأمانة والصدق في المعاملات التجارية، فتعلم ميسرة ولأول مرة أسلوب التجارة من سيدنا محمد ﷺ تعلم أربعة أمور وشعاراً، أما الأمور الأربعة فهي:

فالأول: ألا يثني على السلعة ولا يمدحها بما ليس فيها.

والثاني: ألا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً.

والثالث: ألا يكتم من وزنها ومقدارها شيئاً.

والرابع: ألا يكتم من سعرها ما لو عرفه المشتري لامتنع عن شرائها.

وأما شعاره في التجارة فهو: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى» خ.

أيها السادة:

شهد ميسرة هذا كله بأم عينه ودونه في ذاكرته، وجهاز القافلة لتعود أدراجها إلى أم القرى ثم سبقها ليزف إلى سيدته خبر أرباح التجارة أضعافاً مضاعفة، بل حدثها عن الغرائب التي شهدتها من ابن عبد الله وعن المستقبل المشرق الذي ينتظره، وقال لها: لقد اشتد علينا وهج الشمس في الصحراء المحرقة مما جعلنا نضيق بالحياة ذرعاً رغم أننا أبناء هذه الصحراء فقد رأيت سحابة تظلل من الشمس حيث سار وحيث أقام.

وكان من جملة حديثه أنه قال لها: لقد نزل محمد في ظل شجرة عن كعب من منسك لراهب نصراني يدعى نسطورا، فخرج الراهب إلي فقال: من يكون هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة فقلت له: هذا رجل من قريش أهل الحرم. فقال

الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ثم قال لي: أفي عينيه حمرة فقلت نعم لا تفارقه، فقال الراهب: هو نبي، وهو آخر الأنبياء (ض).

ثم حدّثها عن رجل اشترى سلعة منهما فوقع بينه وبين الأمين محمد تلاح (ملاومة ومجادلة) فقال له الرجل: احلف باللات والعزى فقال أمين مكة: ما حلفتُ بهما قط وإني لأُمُرُّ فأعرض عنهما. فقال الرجل له: القول قولك. ثم التفت إلي (يقول ميسرة) وقال: هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم.

أيها السادة الكرام: إن ميسرة حدّث السيدة الطاهرة بكل شيء جرى في هذه الرحلة المباركة، وكان في كل لحظة يحدثها فيها يزداد تقديرها لهذا الفتى القرشي، فأَي مكافأةٍ خبأت امبراطورة الصحراء وسيدة قريش الطاهرة لفتى مكة، أي هديه أهداها مولانا للنبي الأمي أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى، وأعود بكم من هناك الى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله



(٨١)

السيدة خديجة أم المؤمنين (٢)

الحمد لله الذي جعل من بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهرًا، وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها إلى الزواج جبراً، ثم عظم الأنساب فجعل لها قدراً، وندب إلى النكاح وحث عليه استحباباً وأمرًا . فقال تعالى : ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله أنزل عليه مولانا قوله: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ /الرعد: ٣٨/.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يامليكننا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين، وسلم تسليمًا.

أما بعد فياحمداً الإسلام وحراس العقيدة:

كان فرح ميسرة بنجاح تجارة السيدة خديجة كبيراً حيث سبق القافلة قبل وصولها ليزف البشرى إلى سيدته ويحدثها عن هذه الرحلة الموفقة ويثني عليها اختيارها للأمين سيدنا محمد ﷺ ليرأس قوافلها فانقلب فرحها بربح تجارتها حباً وتقديراً وإعجاباً بهذا الفتى العربي الهاشمي، فامتلاأت علماً و يقيناً بأن أمين مكة يمتاز عن شباب مكة بما لا يحصى من الخلق والفضيلة والأمانة وبعد النظر وأن له مستقبلاً عظيماً وزعامة عالمية عالية.

فما هو إلا أن استأذن عليها سيدنا محمد ﷺ ليدخل عليها فيسلمها ما ربحته القافلة من هذه الرحلة المباركة.

أيها السادة الكرام:

اسمحوا لي أن انتقل بحضراتكم إلى هناك إلى مكة المكرمة لأشهد معكم الحلقة الواحدة والثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ولأننا ننزل ضيوفاً على بلدة التوحيد مكة نرفع جميعاً معكم شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

ورأته خديجة والتقى والزهد فيه سجية و الحياء
وأتاه أن الغمامة والسر ح أظلمته منهما أفياء
وأحاديث أن وعد رسول الله بالبعث قد حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحسن ما يبلغ المني الأذكيا

أيها الإخوة الكرام:

جلس الصادق الأمين أمام السيدة خديجة يحدثها عن تجارتها وهو مطرق الرأس مما مكن السيدة خديجة أن تتفرس في هذه الشخصية الفذة.

شاب يافع ممتلئ رجولةً وجمالاً، في سن الخامسة والعشرين ليس بالطويل الممتد ولا بالقصير وسطاً بين القوم، مسرح الشعر ليس بالعظيم الجسم ولا المستدير الوجه في صغر، أبيض البشرة والوجه مشربّ بحمرة، أسود العينين، طويل أهدابها، جليل عظام رؤوس المفاصل، عريض ما بين الكتفين، دقيق شعر الصدر الممتد إلى السرة، غليظ الكفين والقدمين، إذا مشى لم يثبت قدميه، كأنما يمشي فيما انحدر من الأرض إذا أراد أن يلتفت التفت بكل جسمه، أجود الناس كفاً وأجراً الناس صدراً، حسن العشرة، من رآه الأولى هابه، ومن خالطه أحبه، يتألاً وجهه تالؤ القمر ليلة البدر بين كتفيه خاتم النبوة:

رحمة كل وحزم وعزم ووقار وعصمة وحياء
 كرمت نفسه فما يخطر ال سوء على قلبه ولا الفحشاء
 وسع العالمين علماً وحلماً فهو بحر لم تعيه الأعباء
 لا تقس بالنبي في الفضل خلقاً فهو البحر والأنام إضاء
 كل فضل في العالمين فمن فضل النبي استعاره الفضلاء

راحت السيدة خديجة تتأمل وتتفرس في أمين مكة وحديثه الصادق الفصيح
 البليغ، وتراه مطرق الرأس يستحيي أن ينظر إليها، أشد حياءً من العذراء في خدرها،
 يحب الحلواء والعسل، ويعجبه اليقطين، يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن ويشرب
 ثلاثاً، يحب الطيب، ويكره الريح الكريهة، يمزج ولا يقول إلا حقاً، يحب التيامن في
 شأنه كله، يتفقد أصحابه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ما خير بين أمرين إلا اختار
 أيسرهما ما لم يكن إثماً، يأسعد من صلى عليه.

أيها الإخوة الكرام:

كل تلك الصفات الخيرة رأتها السيدة خديجة في سيدنا محمد ﷺ فجعلت وهي
 في الأربعين من عمرها، وهي التي ردت من قبل أعظم شخصيات قريش نسباً
 وشرفاً، جعلت تود أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظراته وكلماته إلى
 أعماق قلبها، فما هو إلا أن ولى مودعاً بمثل ما استقبل به من حفاوة وتكريم، حتى
 أرسلت إلى أعز صديقاتها وهي السيدة نفيسة بنت منبه وتحدثت إليها عن رغبتها
 بالزواج من الأمين محمد ﷺ.

أيها السادة:

ما زلنا معكم في مكة المكرمة، وأرى بعين الإيمان واليقين السيدة نفيسة تذهب
 وسيطاً لتمهد لهذا العقد المبارك دون أن تريق ماء وجه السيدة خديجة، فدخلت
 على سيد الخلق وحبيب الحق وسألته، وسمعوا هذه المحاورة اللطيفة المختصرة الموجزة،
 قالت له:

- ما يمنعك أن تتزوج؟

قال: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تحيب؟

قال: فمن هي؟ قالت: خديجة. قال: كيف لي بذلك؟ قالت: علي ذلك

(ض).

أيها السادة:

وعادت السيدة نفيسة تحمل الخبر السار إلى صديقتها الحميمة فلم تبطئ سيدة قريش الطاهرة، إذ حددت اليوم والساعة التي يحضر فيها سيدنا محمد مع أعمامه لعقد الزواج، ثم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر مجلس العقد سادات قريش في هيئة وجلال، ثم جاء السيد الأعظم برجولته ونوره يشع وجهه كأنه القمر، ومعه عمه حمزة وأبو طالب ورؤساء مضر.

أيها السادة:

هيا بنا نشهد هذا المجلس المبارك، نشهد زواج أشرف العالمين وسيد المرسلين بحضور سادات قريش وأشرافها هاهو أبو طالب يقف ليتكلم فأصغوا إلي بأسماع أفهامكم واسمعوا خطبة النكاح، قال سيد قريش:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعلنا حصنة بيته وشوكة حرمه، وجعل لنا بيتاً محفوظاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمداً بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح (قولوا نشهد) وإن كان في المال قلّ، فالمال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد ممن عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق أربعمئة درهم وإني يامعشر قريش أشهدكم على ذلك.

ولما أتم أبو طالب خطبته قام ورقة بن نوفل فقال:

« الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عدّدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبتنا في الاتصال بحيكم وشرفكم فاشهدوا علي معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمئة درهم». لكن الراجح أن الذي زوجها هو أبوها خويلد بن أسد(١).

وهنا بدأت صفحة مشرقة جديدة من حياة هذه المرأة الفاضلة النبيلة التي جمعت إلى جمال الخلق أدب النفس وإشراق الذهن وشرف العمل، وتكشف لها عن أشرف الأزواج شعوراً وأصدقهم قولاً وأجملهم خلقاً وأشدهم لصوقاً بالفضيلة، مجلسه مجلس أنس وحلم وحياء وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تذكر فيه النساء، مجلس تواضع وتوقير للكبير ورحمة للصغير، رآته وهو يتألف أصحابه ويتفقدهم ويكرم كريم كل قوم، يعفو ويصفح لا يضرب خادماً ولا امرأة ولا شيئاً قط . قالت عنه ، بل قال عنه كل من عرفه : عن أنس بن مالك . مسلم (٢٣٣٠) «ما مسسنا ديباجاً قط ولا حبراً ألين من كف سيدنا محمد ﷺ ولا شمنا رائحة قط أطيب من رائحة سيدنا محمد ﷺ»، لقد وجدت السيدة خديجة في هذا الرؤوف الرحيم أباً شقيقاً وصديقاً رفيقاً وزوجاً مواسياً.

أيها الإخوة:

وتتوالى الأشهر والسنون على هذا الزواج الموفق، فإذا حصاده أطفال كاللؤلؤ المنشور، وراح هذان الزوجان يتعهدان هذه الرياحين النضرة بالحب والعطف والرعاية وهم ستة أولاد:

١ - سيدنا القاسم: وبه كان يكنى ﷺ ولد بمكة وعاش قريباً من السنة، وتوفي

قبل البعثة.

٢- السيدة زينب: ولدت بمكة قبل البعثة بعشر سنوات وهي أكبر أخواتها، أدركت الإسلام، وتزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، وبقيت في مكة، ولم تهاجر إلى المدينة حتى كانت السنة الثانية للهجرة، وبعد غزوة بدر أسر أبو العاص وفداه أخوه، وبعثت السيدة زينب معه بقلادة لها كانت للسيدة خديجة، فأراها رسول الله ﷺ فعرفها وذكر السيدة خديجة وقال: إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها على زينب قلادتها. ففعلوا رضي الله عنهم.

وأخذ النبي عهداً عليه أن يرد إليه ابنته، ففعل، وقدمت السيدة زينب إلى المدينة ثم جاء أبو العاص مسلماً مهاجراً في السنة السابعة من الهجرة، فزوجها رسول الله ﷺ منه ثانية، لكن السيدة زينب ما لبثت أن توفيت بعد أن تركت ولدين: علي، وأمامة، هذه أمامة تزوجها سيدنا علي بن أبي طالب بعد وفاة السيدة فاطمة. ودفنت السيدة زينب في البقيع بعد أن عاشت ٣٥ سنة.

٣- السيدة رقية: تزوجت لأول مرة من عتبة بن أبي لهب، ثم طلقته منه وتزوجها سيدنا عثمان بن عفان فكانت النور الأول الذي دخل عليه حياته وأنشد نسوة من الأنصار:

أحسن شخصين رأى إنسان رقية وبعلاها عثمان

وهاجرت معه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فكانت تلقب بذات الهجرتين، وحين تجهز المسلمون لمعركة بدر تمنى عثمان أن يكون مع المجاهدين إلا أن زوجته السيدة رقية كانت تحتضر بعد مرض شديد قيل إنه الحصبة، فأذن رسول الله ﷺ لعثمان بالتخلف ليكون إلى جوارها، ولكنها ما لبثت أن لبت نداء مولانا في رمضان أثناء غزوة بدر ولها من العمر ٢٧ سنة، وكانت أولى بنات النبي لحوقاً برها عز وجل.

وعاد رسول الله ﷺ من المعركة ليجد ابنته قد دفنت تحت التراب فدعا لها وحزن من أجلها وكانت قد ولدت لعثمان ولداً ولكنه مات صغيراً، ومن شدة حب رسول الله ﷺ لعثمان زوجه ابنته:

٤ - السيدة أم كلثوم (كوكب الإسلام): وقد ولدت قبل البعثة وتزوجها الابن الثاني لأبي لهب ثم تركها بكرةً لأنه أبي أن يدخل في الإسلام وبقيت بلا زواج عشر سنين حتى تزوجها عثمان فكانت النور الثاني الذي دخل حياته ولقب بعدها بذي النورين، فعاشت معه ولكنها لم تنجب.

وشهدت قبل زواجها به حصار قريش لرسول الله ﷺ في مكة فكانت تتألم كثيراً، ومع ذلك كانت تبسم لوالدها الحبيب الأعظم وتحفي عنه ألمها وتبشره بالنصر من الله تعالى، وهاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت سنة تسع من الهجرة، وألقى رسول الله ﷺ بإزاره إلى أسماء بنت عميس التي غسلتها لتجعله أحد أكفائها تبركاً بأثره الشريف. وطيب رسول الله ﷺ قلب عثمان وقال له:

- لو كان عندي عشر بنات لزوجتهن لك يا عثمان (يعني واحدة بعد واحدة).

٥ - جدتي وقرة عيني سيدتنا فاطمة الزهراء، ولدت قبل البعث بخمس سنوات وهي من خير نساء العالمين ومن سيدات أهل الجنة، وحين بلغت الثامنة عشر بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة بخمسة أشهر خطبها سيدنا علي ثم زف إليها بعد رجوع المسلمين من بدر، وكانت من قلة الطعام وشظف العيش مع سيدنا علي فانطلقت إلى رسول الله ﷺ تشكو حالها معه، فصبرها وأمرها بطاعة زوجها واحتمال شظف العيش معه.

أيها الإخوة: أعقبت السيدة فاطمة ثلاثة ذكور الحسن والحسين ومحسن وبناتان توفيت أحدهما بعد ولادتها بثلاث سنين وتزوج الثانية سيدنا عمر بن الخطاب. (ومحسن توفي صغيراً).

وأكرم الله الحسن والحسين فخرج منهما آل البيت النبوي كان منهم سادة وقادة وأئمة في العلم والدين والجهاد والزهادة.

٦ - سيدنا عبد الله الملقب بالطيب والطاهر لأنه ولد في الإسلام بعد البعثة ولكنه توفي صغيراً، وبوفاته قال العاصي بن وائل: إن سيدنا محمداً أبتر وسينقطع

نسله فأنزل مولانا دفاعاً عن نبيه الكريم: ﴿إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر﴾ / الكوثر: ١ - ٣.

وكل أولاده ﷺ توفوا قبله إلا السيدة فاطمة فإنها تأخرت بعده بستة أشهر.
أيها الإخوة:

هؤلاء هم أولاد نبينا الأعظم من السيدة خديجة، وكل من ينكر أحد هؤلاء الستة أنه ليس من أولاده ﷺ فهو منافق بين لنا النفاق، كل من يقول إن أولاد النبي فقط هي السيدة فاطمة فهو منافق بل زعيم المنافقين وحقيرهم يريد أن يفرق كلمة المسلمين، وهذه الدعوى النفاقية ظاهرة البطلان لأنها تكذب صريح القرآن، لأن مولانا خاطب نبيه الكريم فقال:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدلن عليهن من جلايبهن...﴾ / الأحزاب: ٥٩ / إن رب العزة يشهد أن لبنينا بنات وليس بنتاً واحدة ولو أصّر هذا المنافق على دعواه تلك فإنه يكفر لتكذيبه صريح القرآن.
وأما نحن أمة الإسلام فنشهد ﷻ بأننا نحب أولاد نبينا بعد حب نبينا ﷺ هذه هي عقيدة أهل السنة «حب القرابة واحترام الصحابة».

احفظوا هذه العقيدة الإيمانية وتمسكوا بها يقول ﷺ:
«الزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي ﷻ وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا». هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد ﷻ.



(٨٢)

وفاة السيدة خديجة (٣)

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك الآمال، وعلى وفق مشيئة تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغير الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش والمعارج والطول والإكرام والجلال.

وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا محمداً عبده ورسوله ونبيه، وخيرته من خلقه وصفيه، وخليله ووليه وحببيه المفضل.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والفضل الشامخ والعلم الراسخ والجمال والكمال، وسلم تسليماً.
أما بعد: فياحماتة الإسلام وحراس العقيدة.

ما زلت معكم حول شخصية راقية من شخصيات الإسلام، شخصية تفوقت على نساء العالمين قال عنها سيد العالمين ﷺ: خير نساء السماء والأرض مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، (ق). وقال أيضاً: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت سيدنا ومولانا محمد ﷺ (ق).

إنها المرأة الحجة على جميع النساء في الوفاء لزوجها.
أول امرأة آمنت بالله ﷻ ورسوله من هذه الأمة، المرأة التي جمعت من الخيرات ما لم تجمع لغيرها: فهي أول امرأة تزوج بها رسول الله ﷺ؛ ولم يتزوج عليها غيرها، وإن كل أولاده ﷺ منها إلا إبراهيم، وهي المرأة التي لم تسؤ قط، ولم تغاضبه ولم ينلها عتب

ولا هجر منه ﷺ، إنها المرأة التي دفعت بكل مالها وتجارتها في سبيل تثبيت الدعوة الإسلامية.

إننا باختصار مع الحلقة الثانية والثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

أيها السادة:

إننا اليوم في سبيل الرد على أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه، فقد ظن هؤلاء الأفاقين أنهم واجدون في موضوع زواج النبي من نسائه مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن يشوه سمعة نبي الإسلام وتخلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوان الغارق في لذة الجسد، العازف في معيشتة المنزلية ورسائله العامة عن عفاف القلب والروح.

اليوم نرد على هؤلاء ونلجم أفواههم ونخرسهم إلى الأبد، إن زواج نبينا من السيدة خديجة ظل قائماً حتى توفيت وقد ناهز النبي الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج من أي امرأة أو فتاة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية فما الذي حدث؟ لسمع الأفاكون والمجرمون إن نبينا تجاوز كل تلك الفترة من (٢٠ إلى ٥٠) من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث زوجة أو أمة، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف بين الناس، هذا على الرغم من أنه تزوج السيدة الطاهرة وهي أيم وكانت تكبره بما يقارب عمره. لو كان رسول الله كما يقولون لكان أخرى به أن يستجيب للوطر والرغبة الجنسية في الوقت الطبيعي لهذه الرغبة، خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالي الفكر ليس له من هموم الدعوة

ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية والطبيعية. لكنه لم يفعل، بل بقي على امرأة واحدة طيلة فترة ٢٥ / سنة. لكنهم خصوم الإسلام لذلك لن ألقى لهم بالاً فهم أحقر من أن نهتم بهم أكثر من ذلك.

أيها السادة:

اسمحوا لي أن أنتقل إلى البيت المبارك الذي ضم أم المؤمنين الأولى، لتتابع الحلقة الأخيرة من حياة هذه المرأة التقية النقية.

فقد كان زواج سيدنا رسول الله ﷺ من السيدة خديجة مفاجأة لقريش، وذلك لفارق السن بينهما، فلم يكن مستساغاً في ذلك الوقت أن يتزوج الرجل امرأة تكبره خمس عشرة سنة، وخاصة أنها انصرفت عن أشراف قريش وزهدت فيهم جميعاً وأثرت عليهم سيدنا محمداً بن عبد الله الأمين الصادق.

وتوقع الناس ألا يستمر هذا الزواج، لكن الزمن كذب جميع توقعاتهم فقد عاش الزوجان أسعد ما يكون في حياة يظللها الحب والسكن والمودة، وكانت أول ثمرته:

السيدة زينب، وتلتها السيدة رقية فاعتبرهما والدهما بشارة خير وبركة، ثم جاءت بعدهما السيدة أم كلثوم وزاد البيت سروراً وفرحة ولم يضق الأبوان بمولد الأنثى الثالثة، كعادة القوم في ذلك الزمان وفي كل زمان، ثم ولد القاسم على المشهور، وسيدنا عبد الله ولكنهما ما لبثا أن توفيا ثم جاءت السيدة فاطمة رضي الله عنها وهي آخر من أنجبته السيدة خديجة وقد ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة في العام نفسه الذي تم فيه تحديد بناء الكعبة. وكان بين كل ولدين من أولاده ﷺ سنة على ما رواه ابن سعد في الطبقات، ومعنى ذلك أن السيدة خديجة انتهت من فترة انجابها في سن الخمسين.

وتمضي الأيام ويشاء الله ﷻ للهدى أن يعم البشرية، وللرحمة أن تهدى إلى العالمين، وللنور أن يبدد الظلام، ظلام الجاهلية والكفر، فيختار نبيه سيدنا محمداً ﷺ ليكون

خاتم الأنبياء والمرسلين، فجاء الشهر المبارك شهر الهدى والفرقان فنزل الملك عليه في غار حراء وهو يتعبد نزل بأول الآيات القرآنية من سورة العلق.

وارتاع رسول الله ﷺ مما سمع ودهش مما رأى، وجعل يحرق في الأفق ليستوثق من هذا الطيف الذي رآه وإذا به يلوح له واضحاً جلياً في صورة لم تقع العيون على أجمل منها، ويقول له بصوت رخيم فيه كثير من الأنس والطف: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل (خ).

وما أن انصرفت صورة الملك حتى رجع رسول الله ﷺ ممتلئاً بما أوحى إليه وفؤاده يجفُّ وقلبه يضطرب خوفاً وهلعاً، ودخل على السيدة الأولى الطاهرة وهو يقول: زملوني زملوني.

وكانت السيدة خديجة مثال المرأة الفاضلة في برها بزوجه، وحذبها عليه، ومشاطرتها له مفارحه وأحواله، وقد حبتها السماء احساساً رقيقاً وشعوراً عالياً، وحديثاً عذباً تسكن إليه النفوس المتألّمة، فكان موقفها منه من أشرف المواقف التي تحمد لامرأة في الأولين والآخرين، تهافتت على السيد العظيم فطمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدة أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً، فاطمأن إلى كلامها، وسكن إلى حديثها، وكانت تنظر إليه نظرة ملؤها اليقين والاكبار والإعجاب، وراحت وهي تغطيه وتسكن من روعه تستعرض في نفسها بسرعة خاطفة ما انطوت عليه نفسه الكريمة من خير وبر وأمانة وصدق، وما حدّثها به ميسرة عن شمائله العظيمة، فأيقنت أن الله ﷻ قد أراد به الخير، واندفعت مصرحة بذلك قائلة له بحب غامر:

أبشر يا ابن العم، والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

أيها السادة:

واطمأن سيدنا رسول الله ﷺ وألقى على السيدة خديجة نظرة شكر ومودة،

ثم أحس جسمه متعباً فراح في نوم عميق. وانطلقت السيدة الطاهرة فلجأت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل عالم مكة، وراحت تخبره بما جرى لزوجها الحبيب وتخبره بما رأى وما سمع فقال ورقة:

قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقلولي له فليثبت. «وهنا عادت السيدة خديجة الطاهرة إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقد عزمت على أن تستوثق بنفسها من أن الذي يأتيه من الوحي ليس من الشيطان، فقالت: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك. قال: نعم، قالت: إذا جاءك فاخبرني به، قال: فلما جاء جبريل عليه السلام أخبرها. قالت: فاجلس على فخذي، ثم سألته هل تراه. فقال: نعم فإذا بالسيدة خديجة تحسر عن رأسها وتلقي خمارها فسألته هل تراه: قال: لا. وهنا قالت: يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان، لو كان شيطاناً ما استحيا» (ض) (سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩).

أيها السادة:

وتتابع الوحي بعد فتوره مدة، وعلمه الوحي كيف يصلي لربه صلاة الإسلام فعلم النبي السيدة خديجة الوضوء والصلاة، فكانت أول من آمن به وبما جاءه من عند الله، ثم دخل في الإسلام سيدنا زيد بن حارثة ثم سيدنا علي ثم الصديق أبو بكر وكبار صحابة نبينا وأولاده ﷺ.

وكان طبيعياً أن تسارع السيدة خديجة إلى الإيمان به وقد جربت عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة، وأهل البيت - كما يقولون - أدرى بمن فيه. فوقفت الزوجة المحبة المؤمنة إلى جانب زوجها تنصره وتشد من أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عدداً.

يقول ابن اسحق: «كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من الردّ عليه وتكذيبه فيحزنه ذلك فيرجع إلى السيدة خديجة إلا تثبته وتهوّن عليه أمر الناس».

فلما قضى على بني هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبي طالب، بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علّقت في جوف الكعبة، حينها لم تتردد السيدة الطاهرة في الخروج مع زوجها ودعمها له بكل ما أوتيت من مال وخدم، وتخلت عن دارها الحبيبة مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها، وقامت بكل شجاعة وإقدام تتبع رجلها ونبيها، وقد كبرت في السن وناءت بأثقال الشيخوخة والاضطهاد، وبقيت على ذلك ثلاثة سنوات تذوقت مع سيدنا رسول الله ﷺ والصحابة أهوال الحصار المنهك، وتكافح الوهن الذي أخذ يدبُّ إلى جسدها منذ جاوزت الستين، متشبثة بالحياة في نضال رائع كي تظل إلى جانب رجلها في معركته الإيمانية الفذة التي يلقي فيها بقلّة مؤمنة عزلاء جبوت الوثنية والشرك وجموع القرشيين ذوي العدد والعدة، وخاصة بعض الأقربين وعلى رأسهم أبو لهب وزوجته حمالة الخطب تبت يداهما.

ونزل سيدنا جبريل يحمل لها سلاماً خاصاً من مولانا رب العالمين ويبيشرها ببيت في الجنة من قصب (لؤلؤ) لا صخب فيه ولا نصب، تحية من الله رب العالمين (م): (٢٤٣٤).

ثم فشل الحصار أمام ذلك الإيمان الراسخ وآن لرسول الله ﷺ أن يعود إلى مكة إلى بيته وبيتها، فتحاملت السيدة الطاهرة حتى فراشها، وقد نال منها الإعياء واستنفذ الاضطهاد والعذاب ما أبقي لها الزمن من قوة في عامها الخامس والستين، فمات أولاً أبو طالب وما أن انقضى ثلاثة أيام حتى اشتد المرض على السيدة الطاهرة وزوجها إلى جانبها لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار.

أيها السادة: علم رسول الله ﷺ أن قضاء الله عز وجل لا بد نازل، فجلس

إلى جوار سرير زوجته يؤانسها ويحادثها بمكانتها عند الله تعالى وأنها زوجته في الجنة، وأن ضرائرها ينتظرها في الجنة: قال لها: يا خديجة بالكره مني، سلمي على ضرائرك في الجنة، فقالت: أتزوجت قبلي يا رسول الله. فقال: لا، ولكن الله زوجني في الجنة بآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران وكلثم أخت موسى.

لكن السيدة خديجة ما لبثت أن انتقلت إلى جنات ونهر، وأسلمت الروح بين يدي الرجل الذي أحبه وآمنت به وصدقته وذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات أعني في السنة العاشرة للبعثة في رمضان. وخرج رسول الله يحمل جثمانها مع صحابته الكرام إلى مقبرة مكة في الحجون، ونزل في حفرتها فدفنها بيديه ودعا لها واستودعها مولانا عز وجل.

أيها السادة الكرام:

بقي رسول الله يذكر السيدة الوفية طيلة حياته ويقدرها حق قدرها، وبقي شديد الوفاء لها والحفاظ على عهدها وذكرها بعد موتها، بل يحرص أشد الحرص على صلة أصدقائها من بعدها.

لقد كانت السيدة الطاهرة ملء حياة رسول الله حية وميتة، وما جاوزت السيدة عائشة الحق حين قالت مرة للحبيب الأعظم (خ): (كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة). حتى صارت السيدة عائشة وهي حب رسول الله (تقول: ما غرث امرأة ما حسدت خديجة وما تزوجني رسول الله إلا بعدما ماتت. وكان ربما يذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في أصدقاء خديجة، تقول السيدة عائشة فأغضبته يوماً فقلت: خديجة!!! فقال: إني رزقت حبها) (م).

(تقول السيدة عائشة: إن سيدنا رسول الله كان لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا حمراء الشدق (عجوزاً) قد أبدلك الله خيراً منها. تقول السيدة عائشة: فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: لا والله ما

أبدلني الله خيراً منها) - (م- أحمد- طب):

١- آمنت بي إذ كفر الناس.

٢- وصدقتني إذ كذّبي الناس.

٣- وواستني في ماها إذ حرمني الناس.

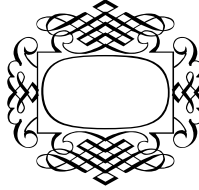
٤- ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء (أحمد).

تقول السيدة عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً.

أيها السادة: هذه هي السيدة خديجة، ساعد الرسول الأيمن في بث دعوة الإسلام وتثبيت دعائمه، كانت مثلاً رائعاً للمرأة الوفية التي تساهم في إعلاء الحق ورفع مناره، إنها نقطة تحول وتفوق للمرأة في ظل الاسلام وتلك في الحق بداية للطريق الجديدة التي سوف تسير فيها المرأة الجديدة في ظل الاسلام الحنيف.

فرضي الله عنها وأرضاها ورضي عن أولادها وذرياتها.

هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.



(٨٣)

السيدة سودة بنت زمعة

الحمد لله المبدئ المعيد، الغني الحميد، ذي العفو الواسع، والعقاب الشديد، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد ومن أرشده إلى سبيل النجاة ووفقه فهو الرشيد كل الرشيد. أحمدته سبحانه وتعالى وأشكره، قسم الخلق قسمين وجعلهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير إن ربك فعال لما يريد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد.

وأشهد أن سيدنا وحيينا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا محمداً عبده ورسوله أشرف من أظلت السماء وأقلت البيد.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا مليكن المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين، وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين.

أما بعد: فياحمات الإسلام وحراس العقيدة.

نتناول اليوم طرفاً من حياة رسولنا العربي الأمي الذي قال مولانا فيه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وقال لنا يصف أخلاقه العالية: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ /التوبة: ١٢٨.

وسنرى اليوم هذه الرأفة والرحمة متمثلة بجانب من حياته ﷺ مع زوجته الثانية، أعني بها:

السيدة سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس من قريش.

وأما الشموس بنت قيس بن زيد من بني عدي من بني النجار من الخزرج.

تزوجت أولاً من السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، فأسلمت هي وزوجها وأخوها مالك، وأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا مع من هاجر فراراً إلى الله ﷻ بدينهم.

وبعد إسلام سيدنا عمر وسيدنا حمزة رضي الله عنهما سمع من كان بأرض الحبشة من المهاجرين أن أهل مكة أسلموا كلهم، فرجعوا إلى مكة، وكانت سودة وزوجها مع العائدين قبيل نقض الصحيفة.

وبعد عودتها رأت في المنام كأن النبي ﷺ أقبل يمشي حتى وطئ على عنقها فأخبرت زوجها بذلك، فقال:

- وأبيك لئن صدقت رؤياك لأموتن وليتزوجنك رسول الله ﷺ. فقالت: حجراً وسيراً (أي تدعو بأن يمنعها الله ﷻ ويسترها مما تعنيه الرؤيا من أن زوجها سيموت). وفي مرة أخرى رأت أن قمراً انقضَّ عليها من السماء وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت وتتزوجين بعدي.

واشتكى الصحابي السكران من يومه، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وكانت وفاته مواكبة لوفاة السيدة خديجة، وظهرت على الحبيب الأعظم بسبب موت زوجته الوفية آثار الحزن والتأثر، كما ترك موت السكران فراغاً في حياة السيدة سودة وخاصة أنها لم تنجب.

أيها السادة:

إننا مع الحلقة الثالثة والثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا عالياً شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة: بقيت السيدة سودة مهیضة الجناح معرضة للنكال من كفار قريش، بل ربما من أبيها الذي كان على الشرك، فلا سند لها ولا معيل.

وهكذا نرى هذه السيدة تعاني من محنة الاغتراب إلى الحبشة، ومن محنة الترميل ومحنة التعذيب من أهلها، فكان واجب المسلمين المستضعفين أن يضم رجل مسلم مثل هذه الأرملة المهدة في دينها، المطعونة في طمأنينتها المستوحشة بفقدان عشيرتها.

والتعدد - أيها الاخوة - ليس سنة مستحدثة في العرب، بل ذلك حالهم منذ القديم، وأولى الناس بضم مثلها من لا زوجة له مثل رسول الله ﷺ. ولكن الصحابة لم يتقدموا إلى رسول الله ﷺ إبّان حداده على زوجه الوفية وأم أولاده، لم يتقدموا للتحدث في موضوع الزواج، فلما انتهت أيام الحداد كانت الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم السلمية زوجة سيدنا عثمان بن مظعون هي التي سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة فقالت له:

- يا رسول الله! كأني أراك قد دخلتك خلّة (حاجة) لفقد خديجة؟

فأجابها الحبيب الأعظم ﷺ: أجل، كانت أمّ العيال وربة البيت.

وهنا فاتحته في الزواج ليجد الرعاية والراحة، ولتجد طفلته التيمية فاطمة وأم كلثوم الرعاية والخدمة، فوافق رسول الله ﷺ فاقترحت عليه الزواج بتلك الأرملة العجوز الكسيرة الفؤاد المعرضة للفتنة عن دينها. وينقل لنا الطبري في تاريخه أن السيدة خولة بنت حكيم ذهبت إلى سودة فقالت:

- ألا تعرفين ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ فسألت سودة وهي لا تدري مرادها: وماذا ياخولة؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه. وجاهدت سودة لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة، ثم قالت في صوت مرتجف: وددت، أدخلي على أبي فاذكري له ذلك.

أيها السادة : اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى مكة المكرمة لأنقل لكم هذا الحدث ضمن عام الحزن الذي اجتاح مكة كلها.

هاهي السيدة خولة تدخل على شيخ كبير تخلف عن الحج فحيته بتحية الجاهلية، ثم قالت:

- إن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سودة. فقال الشيخ: كفاء كريم، فماذا تقول صاحبتك. أجابت خولة: تحب ذلك. فسألها أن تدعوها إليه. فلما جاءت تلقاها بقوله:

- أي سودة، زعمت هذه أن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك وهو كفاء كريم، أفتحبين أن أزوجه؟. فلم تقل السيدة سودة إلا كلمة واحدة: نعم.

أيها الاخوة: يقول ابن سعد: إن الزواج المبارك كان في رمضان من السنة العاشرة من النبوة، وقد زوجها حاطب بن عبد شمس وكان صداقها أربعمئة درهم.

أيها السادة: أريد أن أوجه انتباهكم إلى أمر هام: لقد تزوجها رسول الله ﷺ لتكون مدبرة لبيته ومربية لابنتيه لا لتكون متعة حس ولذة مضجع، تزوجها لتكون في كنفه وتنعم بظله وعطفه، ولتجد في الزواج من سيدنا رسول الله ﷺ شرفاً وعزاً، وعاصماً من النكال والردة، ولتحل بين أبناء دينها الجديد أرفع مكانة تصبو إليها المرأة المسلمة «مكانة أم المؤمنين».

وتذكر كتب السيرة أن سيدنا رسول الله ﷺ وصاحبه هاجرا إلى المدينة في ربيع الأول، وأسس أول مسجد في الإسلام في قباء، ثم انتقل إلى حيث أراد له الله تعالى، وأقام في بيت أبي أيوب حتى بني مسجده وبيوته حول المسجد النبوي، وعندما استقر برسول الله ﷺ المقام بالمدينة بعث إلى ابنتيه وزوجه سودة فجاء بهن إلى المدينة زيد بن حارثة ومولاه أبو رافع.

ويحدث ابن سعد بسنده إلى السيدة سودة أنها قالت لسيدنا رسول الله ﷺ: «صليت خلفك الليلة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم، فضحك سيدنا رسول الله ﷺ» وكانت تضحكه بالمشي أحياناً.

وكانت طيبة القلب، يروي ابن اسحق صاحب السيرة قال:
قدم بأسرى بدر وسودة بنت زمعة زوج النبي عند آل عفراء في مناحتهم على
عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب.
تقول سودة:

واللَّهُ إني لَعندهم إذ قيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعتُ إلى بيتي ورسول
اللَّهُ فيه وإذا بسهيل بن عمرو أخو زوجها في ناحية الحجرة يده إلى عنقه بحبل، فلا
واللَّهُ ما ملكت نفسي حين رأيته كذلك أن قلت: أي أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا
متم كراماً. فو اللَّهِ ما أبغطني إلا قول رسول اللَّهِ من البيت: يا سودة أعلى اللَّهِ
ورسوله تحرضين. قلت: يا رسول اللَّهِ والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين
رأيت أبا يزيد مجموعةً يده إلى عنقه أن قلتُ ما قلتُ (ابن هشام ٢ / ٣٣٥).

أيها السادة: وتمر الأيام على أم المؤمنين الثانية، وتحس هذه العجوز الطيبة
القلب بعد سنوات أنها أصبحت عبئاً على كرم رسول اللَّهِ ﷺ وقد تجاوزت السبعين
من العمر، فاستأذنته أن تظل في بيته وتعفيه من حقوق الزوجية، ثم قالت له:
- أمسكني (اتركني عندك) واللَّهُ ما بي على الأزواج من حرص ولكني أحب
أن يبعثني اللَّهُ يوم القيامة زوجاً لك.

وحين جاءت السيدة عائشة رضي اللَّهُ عنها بعد سنوات إلى الدار فَسَحَتْ لها
سودة المكان الأول وسهرت على راحتها وظلت السيدة عائشة تذكر هذا الجميل
فتقول: «ما من امرأة أحبُّ إلي من أن أكون في مسلاخها (خيرها وبركتها) من
سودة بنت زمعة».

واسمعوا معي إلى السيدة عائشة تروي لنا فتقول:
كانت سودة بنت زمعة قد أسنت، وفي رواية أنها ثبطة ثقيلة، وكان رسول اللَّهِ
لا يستكثر منها، وقد علمت مكاني من رسول اللَّهِ ﷺ وأنه يستكثر مني، فخافت
أن يفارقها وضنت بمكانها عنده فقالت: يا رسول اللَّهِ يومي الذي يصيبني لعائشة،

وَأنت منه في حل، فقبله نبينا ﷺ (ت - حسن - الفتح ٩ / ١٤٤) وفي ذلك أنزل مولانا قوله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ / النساء: ١٦٨.

أيها السادة: وهكذا بقيت السيدة سودة في بيت رسول الله ﷺ متنازلة عن ليلتها لغيرها، راضية بالعبادة والطاعة، وناقلة لكل ما تقع عليه عينها من شؤون هذا البيت العظيم، ورواية لأحاديثه ﷺ وحجت معه حجة الوداع، ففي الصحيح عن السيدة عائشة (م ١٢٩٠):

«استأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة أن تدفع قبل حطمة الناس، وكانت امرأة ثبطة (أي ثقيلة) فأذن لها. حتى قالت السيدة عائشة: وددت أني كنت استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة فأصلي الصبح في منى قبل أن يجيء الناس».

أيها الإخوة الكرام:

وهكذا نرى السيدة سودة تعيش في البيت النبوي في كنف أعظم زوج أمّاً للمؤمنين، ولم تصب منه ولداً إلى أن مات ﷺ، فلزمت بيتها كما أمرها مولانا عز وجل، وامتد بها العمر إلى أواخر حياة سيدنا عمر، فقد أخرج ابن سعد بسند صحيح عن محمد بن سيرين أن سيدنا عمر بعث إلى سودة بغرارة من دراهم فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت في غرارة مثل التمر؟! قال: ففرقتها رضي الله عنها.

أيها السادة: بقيت السيدة سودة حتى بلغت مئة عام وتوفيت آخر خلافة عمر ودفنت في البقيع في المدينة (فقولوا رضي الله عنها).

أيها الإخوة: إن السيدة سودة بنت زمعة أول زوجة بعد السيدة خديجة، وهي زوجة شرف في الدنيا لا أكثر، فهل في زواج نبينا ﷺ من سودة أية شبهة أو شهوة كما يزعمه أعداء الإسلام!!

فمن هي أم المؤمنين الثالثة في دخول بيت النبوة؟.
أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى وأعود بكم من
هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد
الله تعالى.

(٨٤)

السيدة عائشة بنت الصديق (١)

الحمد لله البر الجواد، الذي جَلَّتْ نعمه عن الإحصاء بالأعداد، المانّ باللطف والإرشاد، الهادي إلى سبيل الرشاد.

وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الغفار وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا وحبينا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا محمد ﷺ وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا مليكنا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فحدثنا اليوم عن سيدة نساء عصرها تقوى وورعاً، عن امرأة حملت شطر علم رسول الله ﷺ، وكانت ضمن النفر الذين أسلموا في أول الدعوة وهي يومئذ صغيرة، إذ أنها ولدت بعد المبعث بأربع سنين، امرأة أسلم أبوها وجدها وأمها وأخواتها بل أهل بيتها كلهم أعني بها أم المؤمنين الثالثة في دخولها بيت النبوة: الصديقة بنت الصديق السيدة عائشة بنت أبي بكر واسمه عبد الله بن عثمان القرشي التيمي، وأمها أم رومان بنت عامر الكنانية من أوائل المسلمات المهاجرات قال عنها نبينا ﷺ:

«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» (ابن سعد:

مرسل) (٨ / ٢٧٧).

فحديثنا سيكون عن هذه السيدة القرشية التي تبوأ مكانة أم المؤمنين وهي بعد ما زالت في سن التاسعة من العمر.

أيها السادة:

إننا مع الحلقة الرابعة والثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

أيها الإخوة المسلمون:

لغط المستشرقون أعداء الإسلام بأمر زواج رسول الله من هذه السيدة القرشية فقالوا: كيف يتزوج رسول الإسلام الذي شارف على الخامسة والخمسين من بكر حول سن العاشرة؟

وللإجابة عن هذا الإشكال الذي أوقع به المستشرقون أنفسهم علينا أن نعلم: أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل لجير بن مطعم بن عدي، وتركها لإسلامها وإسلام أبيها، إذن الفتاة - أولاً - كانت مقدمة على الزواج.

وثانياً: كانت خطبة هذه السيدة من قبل السيدة خولة بنت حكيم بعد أن رأت حزن رسول الله واستيحاشه لوفاة السيدة خديجة، فبادأته هي أن يتزوج منها.

وثالثاً: كان الناس في الماضي لا يتزوجون بناء على شهادات الميلاد، بل كانوا يتزوجون بأنوثة المرأة ورجولة الرجل، بل كانت المرأة تعرف بأطوار نموها البدني، كما يعرف الزارع نضوج الثمرة في حقله، ثم هل من المعقول أن يوافق الصديق على زواجها لو لم تكن أهلاً لذلك الزواج، فحين خطبها رسول الله من أبيها قال الصديق: يا رسول الله أوتحل لك؟! قال: نعم. قال: ألسن أخاك؟ قال: بلى في الإسلام وهي لي حلال.

بل لو كان هذا الزواج يخالف سنة العرب لاتخذ الكفار والمشركون والمنافقون

منه طعنًا برسول الله ﷺ، ونحن في العصر الحديث شهدنا زيجاتٍ عديدةً مثل هذه، ومن الخلط في التفكير أن يوزن الحدث منفصلاً عن زمانه ومكانه وظروف بيئته جميعاً.

وأما ما يقال عن كبر سن نبينا وصغر سن السيدة عائشة، فهذا كان عند العرب مألوفاً وسائداً فقد تزوج عمر بن الخطاب من بنت سيدنا علي بن أبي طالب وهو يفوق والدها بالعمر.

أيها الاخوة:

لن نخوض في هذه المسألة كثيراً، لأن الذي تولى مهمة التمهيد لهذا الزواج هو الله رب العالمين، فقد دلت الروايات أن مولانا أرسل الأمين جبريل مناماً إلى حبيبه ومصطفاه ليخبره بخبرها ويهيئ قلبه ومشاعره للزواج منها بعد وفاة زوجها السيدة خديجة، واسمعوا إلى نبينا الأعظم ﷺ يقول للسيدة عائشة:

«أرئتك في المنام مرتين أو ثلاثة، أتيت بك (بصورتك) في سَرَقَةٍ حرير (قطعة) فأكشفها فإذا هي صورتك. فيقال: هذه امرأتك. فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه» (ق).

أيها السادة:

وتم ما أَرَادَهُ مولانا عز وجل، إذ أن نبينا ﷺ عقد عليها وهي بنت ست، وبني بها وهي بنت تسع وكان دخوله بها في شوال في السنة الثانية للهجرة، ففي الصحيح عن السيدة عائشة قالت: «تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين وبني بي وأنا بنت تسع فقبض وأنا بنت ثماني عشر سنة».

ولم يتزوج بكرةً غيرها وكانت تكنى أم عبد الله، كانها رسول الله ﷺ بابن اختها عبد الله بن الزبير، اسمعوا إليها تحكي قصة زواجها من الحبيب الأعظم ﷺ تقول:

تزوجني النبي وأنا بنت ست سنين (عقد عليها) فقدمنا المدينة فنزلنا في بني

الحارث بن الخزرج، ومكثنا أياماً في منزل أبي بكر، ثم قال أبو بكر: يا رسول الله ما يمنعك من أن تبني بأهلك. قال رسول الله: الصداق. فأعطاه أبو بكر الصداق اثنتي عشرة أوقية ونشا. فبعث بها رسول الله إلينا.

تقول السيدة عائشة: فأتتني أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعني صواحب لي فصرخت بي فأتيته لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يؤمئذ بنت تسع سنين (خ ٣٨٩٤).

أيها السادة:

كان سيدنا حارثة بن النعمان من الأنصار (شهد بداراً والمشاهد كلها مع رسول الله) كان يسكن إلى جوار حجراته وكان كلما أتت أم للمؤمنين ترك لها غرفة من بيته وانتقل لبيني غيرها حتى استحيا منه رسول الله، وإليكم هذا الحوار الذي دار بين رسول الله وحارثة قال: لقد استحييت من حارثة. فقال حارثة: إنما أنا ومالي لله ورسوله، والله يا رسول الله للذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدع. فقال له: صدقت بارك الله عليك.

أيها السادة:

وتذكر كتب السيرة أن زفاف السيدة عائشة إلى رسول الله كان في يوم أربعاء من شهر شوال من السنة الأولى للهجرة بعد سبعة أشهر من قدومه المدينة. وكان عليه الصلاة والسلام يدللها تدليل الكبير للصغيرة، وكان يأتيها في السنوات الأولى من زواجها بآتراها وصديقاتها ليلعبن معها بالدمى والعرائس كبقية الصبايا اللواتي في مثل سنها. تقول السيدة عائشة (م ٢٤٤٠):

«كنت ألعب بالبنات (اللعب) عند رسول الله ﷺ وكانت تأتيني صواحي وكن ينقمعن (يستترن) من رسول الله ﷺ وكان يسرهن (يُرسِلُهُنَّ) إلي فيلعبن معي». .
وفي رواية (ق): أن نبينا قدم من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر (في مخدعها غطاء) فهبت الريح فكشفته عن بنات لعائشة لعب، فقال ﷺ:

- ما هذا ياعائشة؟ قالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان. فقال ﷺ: وما هذا الذي وسطهن؟. قالت: فرس. قال: فرس له جناحان. قالت: أما سمعت أن لسليمان عليه السلام خيلاً لها أجنحة؟. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (خ).

أيها الإخوة:

ولكن مدة لعب السيدة عائشة في بيت رسول الله ﷺ لم تمتد طويلاً، فسرعان ما أحست بالتبعة بعد أن صارت أمّاً للمؤمنين، وعرفت أن لهذه الأمومة ضريبتها، فاقتربت من رسول الله ﷺ تسمع منه وتحفظ عنه، تعي وتستفسر عما غمض وتشرح للنساء ما يستحي منه رسول الله ﷺ من توضيحه وبيانه، حتى صارت أكثر أمهات المؤمنين رواية للحديث، فقد ذكر صاحب شذرات الذهب عن الحافظ الذهبي: أنها روت ألفين ومئتي حديث وعشرة أحاديث، فتأتي بعد أبي هريرة وعبد الله بن عمر في الإكثار من الرواية.

يقول عنها الإمام الزهري: لو جُمع علم السيدة عائشة إلى جميع علم أزواج رسول الله ﷺ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

ويذكر ابن سعد: أن السيدة عائشة كانت تفتي في عهد عمر وعثمان، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ عمر وعثمان يرسلان إليها بعد وفاته ﷺ فيسألانها عن السنن.

وقال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض.

وقال عطاء بن رباح: كانت السيدة عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة.

أما ابن أختها عروة فيقول: ما رأيت أحداً أعلم بفقهه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، وما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً.

وكانت كريمة سخية كأبيها، يقول عنها عروة: رأيتها تتصدق بسبعين ألفاً. وقالت جاريتها أم ذرة: بعث إليها ابن الزبير بمال يقدر بمئة ألف فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة، فجعلت تقسمه في الناس، فلما أمست دعت بإفطارها فقالت لها جاريتها: يأم المؤمنين أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً. فقالت: لو ذكرتني لفعلت.

وفي أواخر حياتها فكر معاوية في شراء بيتها ليضم إلى مسجد رسول الله ﷺ بعد وفاتها، وقال لها أنت أولى بالشفعة، ثم أرسل إليها بمئة وثمانين ألف درهم. قال: فما رامت من مجلسها حتى قسمت كل المال.

أيها الإخوة:

كانت السيدة عائشة في مقدمة الزوجات في بيت النبوة فهي أصغرهن سناً وأقربهن إلى قلب رسول الله ﷺ سألهم عمرو بن العاص: يارسول الله ﷺ من أحب الناس إليك. قال ﷺ: عائشة. قال عمرو: إنما أقول من الرجال. قال: أبوها (م) (٢٢٨٤).

لهذا كله كنا نراها أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، وكانت متميزة بعطر الحب الذي يغمرها في بيته ﷺ حتى إنها ما كانت تحدث عنه إلا بذلك التعبير الشفاف: حيي رسول الله ﷺ قال كذا.

ولقد قال فيها سيدنا أنس بن مالك: أول حبٍ كان في الإسلام حب النبي لعائشة رضي الله عنها.

وكانت واثقةً من مكانتها في قلب النبي وأنها هي الأثيرة عنده، ولكنها في كل الأحوال أنثى، كانت تملكها الغيرة من أن ينبض هذا القلب الكبير بحب آخر، وكانت بين الفينة والفينة تسأل رسول الله عن هذا الحب، قال له مرة: يا رسول الله كيف حبك لي؟ فقال: كعقدة الحبل. (أي أنه حب وثيق مبرم لا تنحل عروته ولا تنفك عقده). فكانت تقرّ عينها بما تسمع. ولكن كلما لمح رسول الله بلمحة وفاء لذكرى الزوج الراحلة خديجة نراها تداعبه وتساءل عن عاطفته نحوها فتقول:

- كيف العقدة يا رسول الله؟ فيقول لها: هي على حالها.

بل كان رسول الله يصرح بحبه لهذه الزوجة الحبيبة حتى في موقف الجد أو في سياق العتاب، ومن ذلك ما ذكرته السيدة عائشة قالت: ذهبت فاطمة تذكرها (تشكوها) عند رسول الله فقال: يا بنية حبيبة أبيك.

إنها جملة تغني عن أي كلام في هذا المقام، لم يجد رسول الله حلاً للشكوى إلا في هذه الكلمة الموجزة التي تشبه أن تكون رجاءً منه لابنته أن تتجاوز عن شكايتها لأنها تذكر حبيبة أبيها، وحق عليها أن تكرم أباه بالصفح عن حبيبته مهما تكن الأسباب، فلغة الحب وحدها هي التي تذهب كل عتاب أو مشكلة.

أيها السادة:

ارفعوا رؤسكم عالياً بسيدنا محمد ﷺ فأنتم تنتسبون لأفضل نبي، ترون ذلك حين تتابعون أخبار هذا الحب المتناثرة في كثير من الكتب، اسمعوا الأجل:

إننا نرى رسول الله يسقي السيدة عائشة من كأس فترشف منه رشفة، ثم يأخذه ليشرب منه فيضع فمه موضع فمها حيث شربت. (صلوا عليه).

ونجد رسول الله ﷺ يسابقها في بعض غزواته فتسبقه حين كانت خفيفة الحركة، حتى إذا كانا في غزوة أخرى وامتلأ جسمها باللحم سابقتها فسبقها فقال لها: هذه بتلك.

أسمعتهم أحلى من هذه المداعبة بين زوجين، إنها بحق حبيبة رسول الله ﷺ، ولهذا كان بعض الرواة حين يروي عنها يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة.

وهكذا - أيها السادة - نزلنا اليوم زائرين على هذه السيدة التقية النقية، فما هو الدرس الإيماني التالي الذي تلقاه أصحاب رسول الله ﷺ ببركة هذه الصديقة؟
أدع هذا السؤال لأجيب عنه بإذن الله تعالى في الجمعة القادمة وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.

(٨٥)

السيدة عائشة (٢)

وحدِيث الْإِفْكَ

الحمد لله الذي فتح أقفال هذا العالم بمفتاح ظهور سيد السادات، وجعل أمته وسطاً وفضلها على سائر الأمم في العبادات.

فسبحان من فضل بعض النبيين على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، فأعطى آدم الصفوة، وإبراهيم الخُلَّة، وموسى تسع آيات بينات، وبعث عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الأموات، واتخذ سيدنا محمداً حبيباً وشفيعاً ورفعته إلى ما فوق سبع سموات.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله تنزه عن الوزير والنظير والمشير في سائر الحالات.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أزاح بنور وجوده ظلم الجهالات. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين لم تأخذهم لومة لائم في سائر الأوقات، وسلم تسليمًا. أما بعد:

ما زلنا أمام قمة شامخة من قمم العلم والمجد، مازلنا ننزل زائرين على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى زوجه الصديقة بنت الصديق حبيبة سيدنا رسول الله ﷺ أعني بها السيدة الطاهرة عائشة بنت سيدنا أبي بكر قولوا رضي الله عنهما. فإن آل أبي بكر كلهم بركة وكل ما يجري معهم تجري بركته على الأمة الإسلامية تقول السيدة عائشة (عند البخاري ٣٣٤):

«خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي -» وفي رواية أنها استعارته من أختها أسماء - فأقام رسول

اللَّهُ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء. فجاء أبو بكر ورسول الله وأضع رأسه على فخذي قد نام. فقال: حبست رسول الله والناس ليسوا على ماء وليس معهم ماء. قالت فعاتبني أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله على فخذي، فنام رسول الله حتى أصبح على غير ماء - وأرادوا أن يصلوا الفجر - فأنزل الله آية التيمم وفيها: ﴿فَتِيمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ وهنا قال أسيد بن حضير، وهو أحد النقباء من الأنصار يوم العقبة - ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، وفي رواية: (خ ٣٣٦) [جزاك الله خيراً فو الله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيراً].

[تقول السيدة عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحت].

أيها السادة : اسمحو لي أن أنتقل بكم عبر الزمن الممتد إلى الماضي، إلى السنة السادسة للهجرة، وها أنا أرى بعين الإيمان واليقين الحبيب الأعظم يعود أدرجه من غزوة بني المصطلق منصوراً مؤزراً، ومعه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فينزل مع الجيش في ليلة قريباً من المدينة المنورة ليرتاح معه قليلاً من عناء ومشقة السفر. فما الذي حدث؟.

أجيب عن هذا السؤال مع الدرس **الخامسة والثمانون** من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

وخير ما نستهل به حلقتنا اليوم تلاوة عطرة من كتاب مولانا عز وجل على موجات سورة النور:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾.

أيها الإخوة الكرام:

هذه الآيات الكريمات تضمنت الدفاع عن أم المؤمنين السيدة عائشة فيما نسب إليها من حديث الإفك والزور والبهتان، فأنزل الله تعالى براءتها في عشر آيات من القرآن الكريم تتلى عبر الأجيال على تعاقب الزمان، وفضح الله المنافقين وأحبط أعمالهم.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها (فيما يرويه الإمام أحمد خ ٤١٤١ - م وغيره):

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ في غزوته تلك، فلما قفل (انتهى) من الغزوة ونصره الله تعالى ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقممت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني (حاجتها) أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه. قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشيهن

اللحم إنما يأكلن العلفه من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم ليس بها دأع ولا مجيب، فتميمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي.

فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلى (وكان رضي الله عنه يتأخر عن الناس في الغزوات فيقوم فيصلي ثم يتبعهم فيجمع ما يسقط منهم على الطريق فيأخذه فيأتي به أصحابه)، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رأي، وكان قد رأي قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبائي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها فانطلق يقود بي على الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزل موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول فقدما المدينة فاشتكت حين قدمناها شهراً (مرضت شهراً) والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، والذي يريني فيوجعي أني لا أرى من رسول الله اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟. فذلك الذي يريني، ولا أشعر بالشر.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل قضاء الحاجة (وهو متبرزنا) ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم ابن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثه بن عباد بن عبد المطلب، قالت: فأقبلت أنا وهي قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت

أم مسطح في مرطها. فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئسما قلت تسبين رجلاً
شهد بدراناً؟

فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول
أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله
ﷺ فسلم ثم قال: كيف تيكمن؟ فقلت له: أأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا
حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ.

فجئت أبوي فقلت لأمي: يأماته ماذا يتحدث الناس به. فقالت: أي بنية هوني
عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضئعة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها
فقالت السيدة عائشة: سبحان الله أوقد تحدث الناس بها، تقول: فبكيث تلك
الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي. قالت:
فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما
ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي
يعلم في نفسه لهم من الود. فقال:

- يارسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً.

وأما علي بن أبي طالب فقال: يارسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها
كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة! هل رأيت من شيء
يريبك عن عائشة. فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط
أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن
فتأكله.

كما استشار رسول الله ﷺ الفاروق عمر فأجابه بما عهد فيه من حزم ووضوح في
الرأي قائلاً:

- من زوجها لك يارسول الله؟

قال: **اللَّهُ** تعالى. قال: أفتظن أن **اللَّهُ** دلس عليك؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.
أيها السادة الكرام:

وهكذا استيقن رسول **اللَّهُ** ﷺ براءة السيدة عائشة فقام من يومه فاستعذر من عبد **اللَّهُ** بن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر:

يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فواللَّهِ ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي **اللَّهُ** عنه فقال: أنا أعذرک منه يا رسول **اللَّهُ**، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک. قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ: - كذبت، لعمر **اللَّهُ** لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل.

فقام أسيد بن حضير (وهو ابن عم سعد بن معاذ) فقال لسعد بن عبادة: - كذبت لعمر **اللَّهُ** لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن منافقين. فتشاور الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول **اللَّهُ** على المنبر، فلم يزل رسول **اللَّهُ** يخفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول **اللَّهُ** ﷺ.
أيها المسلمين:

وبقيت السيدة عائشة تبكي يومها عند أهلها بعد شهر من الإشاعات لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم وهي تقول:
- وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول **اللَّهُ** ﷺ فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا

يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد رسول الله حين جلس. ثم قال: أما بعد: يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي أجيبني رسول الله فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني بريئة - لا تصدقوني، ولئن اعترفت بأمره والله يعلم إني منه بريئة - لتصدقني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ / يوسف: ١٨.

قالت: ثم تحولت إلى مضجعي على فراشي، وأنا والله أعلم حينئذ إني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن يُنزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يرئني الله بها.

أيها الأخوة: تقول السيدة عائشة:

فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرجاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فسري عن رسول الله وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال:

- أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك.

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي، قال تعالى:

﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾
/ النور: ١١/ (١).

أيها الإخوة الكرام:

فما كانت نتيجة هذا الامتحان الرهيب الذي وقعت فيه السيدة عائشة، ما هو الخير الذي نزل ببركتها، كيف انتهى هذا الحدث في حياتها.
أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الحلقة القادمة بإذن الله تعالى.
وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.

(٨٦)

السيدة عائشة ونهاية حديث الإفك

الحمد لله المنفرد بالبقاء الذي حكم على جميع خلقه بالانتقال عن دار الشقاء.
أحمده سبحانه وتعالى وأشكره في السراء والضراء.

أحمدك يا من ذلت بالموت رقاب الجبابرة، ويا من أنهيت بالموت آمال القياصرة،
فنقلتهم بعظمة الموت من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد،
ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوان والديدان.

سبحانك سبحانك كل شيء هالك إلا وجهك، كل باك فسيكى، وكل ناعٍ
فَسَيُنْعَى، وكل مذكور سُنْسَى، وكل مَذْخُور سيفنى، ليس غير الله يبقى من علا
فالله أعلى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا تأخذه سنة ولا نوم ولا فناء.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح
الأمّة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى لبي داعيه وأنزل
عليه مولانا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فإننا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى
أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وأنزلهم في مقعد صدق عندك
يامليكنا المقتدر، وفي رحمتك يا أرحم الراحمين، وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته
رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فقد كنت قد علقت معكم سؤالاً في الجمعة الماضية حول نتيجة الامتحان
الرهيب الذي وقعت فيه السيدة الطاهرة، أعني بها أم المؤمنين الثالثة السيدة عائشة

بنت سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ونحن اليوم بإذن الله تعالى ومعاونته نتناول هذه القضية الإيمانية، فقد تعلمنا من منظومة العقيدة:

واجزم بمعراج النبي كما رووا وبرئن لعائشة مما رموا

وقد بدا لدينا بكل وضوح المؤامرة الدنيئة التي استهدفت بيت النبوة، والتي شبك خيوطها حقير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وظهر لنا خطر المنافقين على دولة الإسلام، حين استهدفوا عرض صاحب الرسالة العصماء وسيد الرسل والأنبياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ إذ أرادوا أن يلوثوا سمعته الطاهرة بالطعن في عفاف زوجه الصديقة، ولكن الله جل في علاه كشف خبثهم وتآمرهم، وبرأ أم المؤمنين من ذلك البهتان العظيم، وأعطى درساً للأجيال ودليل مجد وفخار لبيت النبوة ولجميع أمهات المؤمنين.

أيها الإخوة الكرام:

أضع اليوم أمامكم نهاية هذه القضية الإيمانية

وخير ما نستهل به حلقتنا اليوم تلاوة عطرة من كتاب مولانا عز وجل، حيث ينصح مولانا أهل الغفلة من المؤمنين على موجات سورة النور:

قال تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ /النور: ٤/. ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾ /النور: ١٥ - ١٧/.

أيها الإخوة الكرام:

هذه الآيات القرآنية أنزلها رب العزة والجلال في شأن عبد الله بن أبي بن سلول وغيره من المنافقين، لتعرف الأمة خطرهم وضررهم وتأخذ الحيطه والحذر من كل

منافق عليم اللسان يدعو إلى شق الصف الإسلامي ونشر الفاحشة في صفوف أفراد الأمة.

لقد كشف لنا القرآن عن شناعة الجرم وبشاعته، فقد تناولت هذه التهمة أولاً أكرم إنسان على الله تعالى ثم أكرم إنسان على رسول الله ﷺ وهو صديقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم تناولت عرض زوجته وأحب نسائه إليه، ثم تناولت عرض رجل من خيرة الصحابة وهو سيدنا صفوان بن معطل الذي شهد له رسول الله ﷺ بأنه لم يعرف عنه إلا كل خير.

فهذا الحادث حادث الإفك، قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، فقد زرع في بعض النفوس الشك والريبة في قلوب هؤلاء جميعاً شهراً كاملاً حتى نزلت البراءة ناصعة للزوجة العفيفة وبراءة المؤمن المجاهد صفوان وإدانة أهل النفاق وحزب الضلال.

لكن من المؤسف أن يغترّ بهذه التهمة النكراء بعض المسلمين، وأن يتناقلها السُّدج البسطاء منهم وهم في غفلة عن مكائد المنافقين ومؤامراتهم ومخططاتهم التي يستهدفون بها الإسلام، فقد وقع في حبال ابن أبي بن سلول ثلة من المؤمنين المشهورين بالتقى والصلاح أمثال:

مسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش أخت السيدة زينب أم المؤمنين رغم أن السيدة زينب نبهتها على هذه الفرية المكذوبة من أن تروجها ضد بيت النبوة ولكن حمنة لم تسمع، فقد سأل رسول الله ﷺ السيدة زينب فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ (خ) (٤١٤١) (٢٥٩٣).

فقالت: يا رسول الله: أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. لكن حمنة (أختها) راحت تحارب لأجل هذه الفكرة وتروج لها حتى أظهر الله الحق وزهق الباطل، وأمر مولانا أن يجلدوا ثمانين جلدة، أن يجلد كل واحد من هؤلاء

الثلاثة ثمانين جلدة حتى لا يقع المسلمون بهذا الأمر ثانية ولا يروجون الإشاعات دون التمحيص والتحقيق في أصلها وصدقها.

وأدب مولانا الباقيين من المسلمين بآداب شرعية منها:

١ - أن لا يظن المؤمنون ظن السوء، وأن يحسنوا ظنهم بجميع المؤمنين وهذا الأدب مستمد من قوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ /النور: ١٢/.

٢ - الثاني: عدم الكلام بهذا الإفك والبهتان على أم المؤمنين زوجة نبينا، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله تعالى يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك الزنى والفاحشة، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوج سيد ولد آدم سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

وأما الأدب الثالث: فهو لمن سمع هذا الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكتر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى:

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا (وهو الحد) وفي الآخرة (بالعذاب الأليم)﴾ /النور: ١٩/.

ولهذا كله أجمع العلماء رحمهم الله تعالى قاطبة على أن من سب السيدة عائشة ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، واختلفوا في سواها من أمهات المؤمنين:

فذهب بعض العلماء إلى كفر من قذف إحدى أمهات المؤمنين، وهذا ما رجحه ابن كثير رضي الله عنه، وذلك لما ورد من الوعيد الشديد في حق قاذفهن كما قال تعالى ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ /النور: ٢٣/ حتى ذهب ابن عباس إلى عدم قبول توبته، وحجة هؤلاء: أن قذف أمهات المؤمنين طعن في رسول

اللَّهُ ﷻ وجرح لكرامته، ومن استباح الطعن في عرض رسول اللَّهِ فهو كافر مرتد عن الإسلام.

واسمعوا إلى ما يقوله العلامة الألوسي في تفسير آيات الإفك، قال:
وظاهر هذه الآية كفر قاذف أمهات المؤمنين، لأنَّ اللَّهَ عز وجل رتب على رميهن عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين، والذي ينبغي أن يعول الحكم عليه بكفر من رمى إحدى أمهات المؤمنين بعد نزول الآيات وخاصة أن مولانا قال: الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات.

فكأن مولانا يقول ما كان اللَّهَ ليُجعل السيدة عائشة زوجة رسول اللَّهِ إلا طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً.

أيها الإخوة:

والظاهر أن يحكم بكفر ابن أبي لعنه اللَّهَ لأنه كان مستباحاً وقاصداً الطعن على رسول اللَّهِ، لكنه لا يحكم بكفر من لم يستبح كحسان ومسطح وحمنة، فإن الظاهر أنهم لم يكونوا قاصدين الطعن على سيد المرسلين وإنما قالوا ما قالوا تقليداً فوجخوا على ذلك توبيخاً شديداً.

أيها السادة: كل من يشك في براءة السيدة عائشة بعد تبرئة اللَّهَ لها فهو مكذب لله عز وجل وطاعن في رسول اللَّهَ فيكون كافراً بلا تردد، واسمعوا إلى الحكم الالهي في ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ /الأحزاب: ٥٧/.

هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد اللَّهَ تعالى.

(٨٧)

السيدة عائشة مهركة الجمل

الحمد لله الذي اصطفى لدينه خلاصة العالمين، وهدى من أحبه للتفقه في التوحيد والدين، حمداً نسلك به منهاج العارفين وتمنح به دخول رياض الموحدين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الموقنين .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بهجة الموحدين، الحاوي لجميع فضائل المرسلين، من نبه العقول لتحرير تنقيح أحكام الدين، البحر المحيط، القدوة العظمى في الدين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا ملكنا المقتدر . وفي رحمتك يا أرحم الراحمين وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً .
أما بعد:

لقد كانت الآيات التي نزلت مبرئة السيدة عائشة مما نسب إليها من حديث الإفك ضربة قاصمة للمنافقين وعلى أسفلهم حقيرهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي بدأ حديث الإفك، وللأسف أن بعض المؤمنين السذج أمثال مسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش قد روجوا لهذه الإشاعة فجاء بهم رسول الله ﷺ فجلد كل واحدٍ منهم حد القذف وهو ثمانون جلدة.

وأدب الله ﷺ المؤمنين الباقيين بأداب ذكرها في سورة النور، فكانت هذه السورة نوراً على نور، وجاءت الأحكام تبين أن كل من يتهم السيدة عائشة بذلك بعد تبرئة

اللَّهُ لها فهو كافر مرتد عن الإسلام، ولهذا جعل العلماء موضوع براءتها من أصول العقائد فقال صاحب منظومة الجوهرة:

واجزم بمعراج النبي كما رووا وبرئن لعائشة مما رموا

أيها الإخوة:

إننا مع الحلقة السابعة والثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

أيها السادة: بقيت السيدة عائشة رضي الله عنها في مقدمة الزوجات في بيت النبوة، وقد أحست هي بهذه الخطوة، فكانت تقول: خلال فيّ تسع لم تكن في أحد من النساء إلا ما أتى الله مريم بنت عمران، والله ما أقول هذا فخراً على أحد من صواحي. فسئلت: ما هن؟ فقالت: نزل جبريل بصورتي في حيرة، وتزوجني رسول الله لسبع سنين، وأهديت إليه لتسع سنين، وتزوجني بكرة ولم يشركه في أحد من الناس، وكان يأتيه الوحي وأنا وهو في لحاف واحد، وكنت أحب الناس إليه، ونزل في آية القرآن، بعد أن كادت الأمة أن تهلك، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري (رأته في صورة الصحابي دحية الكلبي فأقرأها السلام)، وقبض في بيتي بين سحري ونحري ودفن في بيتي (صلوا عليه).

وعاشت السيدة عائشة في كنف زوجها الحبيب الأعظم ﷺ تسع سنوات وبضعة أشهر، شهدت خلالها مولد الأمة، وإقامة الدولة، وتنزل الوحي، وكمال الدين، وتمام النعمة، وشهدت أحداث الغزوات والسرايا: عاشت انتصار بدر، ودرس أحد، وأزمة الخندق وعظمة الفتح المبين، كما عاشت أحداثاً تتصل بالدعوة كما تمس شخصها، وعاشت ما أنزل الله من قرآن يتلى وأحكام وحدود وآداب.

وفي ذي الحجة من العام العاشر للهجرة حج رسول الله و زوجاته ومئة ألف

مسلم حجة الوداع (أو ثمانين ألفاً) وعاد إلى المدينة وقد بين للناس مناسكهم في خامس دعامة من دعائم الاسلام: وهي الحج.

وجاء صفر من السنة الحادية عشرة، وفي ليلة من لياليه خرج رسول الله ﷺ في جنازة بالقيع ورجع فوجد عائشة تشكو صداعاً وتقول: وأرأساه.. فقال لها: بل أنا وأرأساه، وأراد أن يداعب زوجه ليخفف عنها ما ألمَّ بها فقال لها: ما ضرك لو مت قبلي وغسلتك وكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك قالت عائشة: لكأني بك قد فعلت ذلك ورجعت إلى بيتك فأعرست ببعض نسائك، فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدئ بوجعه الذي توفي فيه ﷺ (ق).

وخرج من عند السيدة عائشة، وكعاده كل يوم يطوف بزوجاته حتى كان يوم ميمونة فاشتد وجعه وغلبه على نفسه فدعا نساءه واستأذن أن يمرض في بيت عائشة فأذن له. وبقي الصديق يصلي بالناس حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو على صدر عائشة ودفن في حجرتها (خ).

أيها السادة: وعاشت السيدة عائشة بعد رسول الله ﷺ سبعاً وأربعين سنة كلها تعليم وتثقيف وتفقيه للمسلمين والمسلمات في أمور دينهم كما علمها رسول الله ﷺ تماماً.

وشهدت السيدة عائشة حروب الردة، وعاصرت سياسة عصرها، ولكن والدها الصديق وخلفته عمر، ثم عثمان تولوا سياسة البلاد ولم يسمحوا لها بمشاركتها بقضايا السياسة وأمور الحرب والسلام، فقد كان كبار الصحابة يتولون دفة الحكم حتى جرت الفتنة؟. فتنة قتل الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان وهروب قتلته إلى العراق ودخولهم في جيش سيدنا علي، وكانت السيدة عائشة في طريق عودتها من الحج إلى المدينة، فسار إليها الصحابيyan الجليلان طلحة بن عبيد الله ﷺ والزبير بن العوام وطلبا منها أن تتوسط لدى الخليفة الجديد في تسليم قتلة عثمان للقصاص منهم. فعادت إلى مكة وقامت خطيبة من وراء حجاب في أهلها وحثت على طلب

دم عثمان فاستحاب لها بنو أمية وجمع من الناس كثير، واتفقت كلمتهم على التوجه للبصرة لشحذ العزائم للأخذ بثأر عثمان وإقامة الحد على قتلته.

إلا أن جمعاً من الصحابة مكثوا في بيوتهم وعدّوا ذلك من إثارة الفتنة فلم يلتحقوا بسيدنا علي ولا بالسيدة عائشة رضي الله عنها.

أيها الإخوة: وتناهى الخبر إلى سيدنا علي في المدينة توجّه السيدة عائشة إلى البصرة فتوجه إلى الريزة ليحول بينهم وبين البصرة بجيش من المدينة، ولكن موكب السيدة عائشة كان قد مر من الريزة متوجّهاً إلى قَدَرِه في البصرة.

وما أن وصل موكب السيدة عائشة إلى البصرة حتى انضم إليها بعض أهلها، فأبى واليها عثمان بن حنيفاً أن يقاتل كل من وقف إلى جوار أم المؤمنين، وكانت مقتلة عظيمة حتى ناداهم منادي السيدة عائشة ينشدهم الكف للصلح ووقف القتال، وقرروا مراسلة سيدنا علي الذي خرج بجيش من الكوفة مع جيش المدينة، والتقى الأطراف في ذي قار. وقد نادوا بالصلح ودرء الفتنة.

لم تعجب رؤوس الفتنة كلمة الصلح فباتوا بِشَرِّ ليلة وهم يتشارون في كيفية إنشابه الحرب في السر، فقام جماعة منهم لكل طرف في الظلام فقتلوا جماعة من كل حي من أحياء العرب، فأصبح الناس يومها ورأوا القتلى فثاروا ثورة واحدة، يظنون أن كل طرف قد نقض الصلح وأبى إلا القتال.

وعادت السيدة عائشة من جديد تستعد للخروج لعل الله يصلح بها كما أصلح من قبل، فركبت هودجها على جملها (عسكر)، وألبست هودجها الأذراع ثم بعث الجند الجمل.

أيها السادة: اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك لأنقل لكم بثاً حياً لما فعله السبئيون أعداء الإسلام من المنافقين، فقد أشعلوا الحرب في صباح يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة حتى صلاة العصر من سنة ٣٥ هـ.

وأرى السيدة عائشة تبرز من البيوت نحو ساحة المعركة فرأت الناس منهزمين، فلما رأوا الجمل وهو مقبل إلى أرض المعركة وقد حَقَّتْ به مُضَر، عاد الناس المنهزمون قلباً واحداً كما كانوا، وعادوا إلى القتال من جديد فما كان من أم المؤمنين إلا أن دفعت المصحف لأحدهم ليقبل به على القوم للصلح فرشقوا حامل المصحف بالسهم فقتلوه، ورموا السيدة عائشة في هودجها وهي تنادي: اللَّهُ اللَّهُ، فيأبون إلا إقداماً، فقالت:

أيها الناس: العنوا قتلة عثمان وأشياعهم، وضج أهل البصرة بالدعاء، وسمع سيدنا علي فقال: ما هذه الضجة؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم، فأقبل علي يدعو ويقول: اللَّهُم العن قتلة عثمان وأشياعهم. وراح القوم في القتال حتى عقر الجمل الذي عليه السيدة عائشة وحمل هودج أم المؤمنين بأمر الخليفة سيدنا علي إلى داخل البصرة، وراح يطمئنون على أم المؤمنين بعد أن هدأت الحرب، وكان أولهم سيدنا علي جاء إليها وقال لها: غفر اللَّهُ لك، قالت: ولك، ما أردتُ إلا الإصلاح.

وإذا برجل يدعى أعين بن ضبيعة المجاشعي يطلع في الهودج ويهتك ستر أم المؤمنين فقالت له:

- إليك لعنك اللَّهُ، فقال: وَاللَّهِ ما أرى إلا حميراً، فقالت: هتك اللَّهُ سترك وقطع يدك وأبدى عورتك، قال فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عرياناً في خربة من خرابات الأزد.

أيها السادة: نزلت السيدة عائشة في البصرة بأعظم دار، فلما فرغ علي من أمر معركة الجمل أتاه وجوه الناس يسلمون عليه ويبايعونه فسمع سيدنا علي رجلاً ينال من السيدة عائشة فأمر أن يجلد مئة جلدة.

فلما أرادت أم المؤمنين الخروج إلى البصرة بعث إليها سيدنا بكل ما ينبغي من متاع ومركب، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة وسير معها أخاها محمد

بن أبي بكر، فلما كانت على أطراف البصرة وودعت الناس ودَّعت لهم قالت: يابني لا يعتب بعضنا على بعض، وإنه والله ما كان بيني وبين علي في القِدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار . فقال علي : والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

أيها السادة:

عادت السيدة عائشة إلى مكة المكرمة إلى أن حجت عامها سنة ٣٦ ثم رجعت إلى المدينة، وبقيت تذكر هذه الحادثة وتؤرقها طيلة حياتها، وكانت تتمنى أن تموت قبل يوم الجمل حتى قالت ساعة الاحتضار:

- والله لوددت لو أني كنت شجرة أُسِّح وأقضي ما علي.

وكانت إذا ذكرت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ / الأحزاب: ٣٣/ تبكي حتى تبل خمارها.

وحين حضرته الوفاة جاءها عبد الله بن عباس ليعودها يقول ذكوان مولاهما: فأدخلته، فلما جلس قال: أبشري. قالت: بم؟. قال ما بينك وبين أن تلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد. كنت أحب نساء رسول الله، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتك يوم الأبواء فأصبح رسول الله ليطلبها حين يصبح في المنزل فأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله أن ﴿فَتِيْمَمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾، فكان ذلك من سيبك وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا وهي تتلى فيه آناء الليل والنهار.

فقالت: دعني منك يا ابن عباس، فوالله الذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً.

أيها الإخوة: هاهي السيدة عائشة قد تجاوزت السبعين من عمرها تصعد روحها الطاهرة إلى جنات ونهر في رمضان من السنة الثامنة والخمسين للهجرة، واجتمع

الناس للصلاة عليها وتشيعها حتى لم تر ليلة أكثر ناساً منها، وصلى عليها أبو هريرة أمير المدينة وحملت لتدفن مع أمهات المؤمنين في البقيع بعد الوتر كما أوصت. فاللهم ارض عنها وعن أبيها وأهل بيتها وسائر صحابة رسول الله ﷺ أجمعين. فمن هي أفضل السيدة عائشة أم السيدة خديجة أم السيدة فاطمة؟. اعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها بإذن الله ﷻ في الجمعة القادمة وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا هنا، مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.



تذكر عزيز الموحّد :

- عقد رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم على السيدة عائشة وهي بنت سبع.
- وتزوجها وهي بنت تسع بعد سبعة أشهر من قدومه المدينة.
- كانت السيدة عائشة أعلم نساء عصرها وأتقاهن.
- روت / ٢٢١٠ / أحاديث.
- كانت سخية كريمة.
- كانت غيرة على مكانتها عند رسول الله ﷺ.
- نزل بفضلها آية التيمم.
- أدب الله ﷻ ببركتها المؤمنين ونزل لأجلها حدّ القذف.
- قالت في المحنة (فصبر جميل والله المستعان على ما تصنعون).
- نزلت براءتها من لدن مولانا عز وجل في القرآن الكريم.
- من رماها بعد نزول براءتها فهو كافر لمخالفته صريح القرآن.

(٨٨)

السيدة حفصة بنت عمر

الحمد لله مدبر الملك والملوك، المنفرد بالعزة والجبروت، بيده مقاليد الأرض والسموات ومصائر جميع المخلوقات، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله اتقى الله فوقاه، وتوكل عليه فكفاه واعتمد عليه فأيده بنصره وآواه.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يامليكننا المقتدر وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فياحمات الإسلام وحراس العقيدة:

قبل أن أنتقل بكم إلى زيارة أم المؤمنين الرابعة فإنني أجيب اليوم بعون الله تعالى عن سؤال كنت قد علقتة معكم في الجمعة الماضية:

حول أي نساء نبينا أفضل؟، بعد أن اتفق العلماء أن أفضل زوجاته ﷺ السيدة خديجة والسيدة عائشة، والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم أي هاتين السيدتين الصديقتين أفضل؟

فقد عرفنا مكانة السيدة خديجة وتأثيرها الكبير في أول الإسلام، وكيف تسلي سيدنا رسول الله ﷺ وتثبته وتبذل دونه مالها، وكيف أدركت عزة الإسلام واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكانت نصرتها لسيدنا رسول الله ﷺ في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها، وهذه ميزة لم تشركها السيدة عائشة ولا غيرها، ثم هي أم أولاده ﷺ الستة، وبعث لها رب العزة والجلال

سلاماً عطراً مع الأمين جبريل كما في الصحيحين عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل عليه السلام إلى نبينا ﷺ فقال: هذه خديجة قد أتت ومعها إناء فيه إدام (طعام أو شراب) فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني، وبشرها ببیت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب.

وأما السيدة عائشة رضي الله عنها فكان تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة وانتفاع بنبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، وأرسل إليها الأمين جبريل سلاماً مع نبينا ﷺ وقال فيها عليه الصلاة والسلام: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (ق).

وسبب الخلاف في تفضيل كل منهما ما ثبت من قوله ﷺ لعائشة حين قالت له: قد رزقك الله خيراً منها.

فغضب ﷺ حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال:

«لا والله ما أخلف الله لي خيراً منها، لقد آمنت إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها إذ حرمني أولاد النساء» أحمد في المسند.

كان هذا الجواب من سيدنا رسول الله ﷺ سبباً في تفضيل السيدة خديجة على عائشة رضي الله عنهما.

لكن العلماء وهم يتحدثون عن أفضليتهما نراهم يفضلون عليهما السيدة فاطمة، حتى قال الإمام مالك: بأفضليتهما على سائر الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا نرى شيخ الإسلام مولانا الشيخ زكريا الأنصاري حين سئل عن أفضلية السيدة خديجة أم السيدة فاطمة يقول: إن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «بضعة مني» ولا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحد، وكذلك اختار الإمام السيوطي أن فاطمة أفضل النساء، وعليه فهي أفضل من أمها السيدة خديجة رضي الله عنها، وإنما فضلت سيدتنا خديجة على سيدتنا فاطمة باعتبار الأمومة لا باعتبار السيادة.

أيها السادة:

فما الذي يجب علينا اعتقاده في هذه القضية الإيمانية من أقوال العلماء قاطبة؟
أضع أمامكم اليوم موجزاً هاماً عليكم حفظه جيداً واعتقاده والتمسك به وهو
أن: أفضل الأمة من جهة البضعية سيدة نساء الدنيا والآخرة السيدة فاطمة الزهراء
رضي الله عنها، ومن جهة السابقة والمؤازرة والمعاونة والمناصرة على الدين السيدة
خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومن جهة العلم والتعليم وانتفاع الأمة ونشر
الشريعة مع حب رسول الله السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها.

أيها السادة:

إننا مع الحلقة الثامنة والثمانين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من
جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

فتحن اليوم نزل زائرین علی السيدة الرابعة في ترتيب دخولها إلى بيت النبوة ألا
وهي السيدة حفصة بنت سيدنا عمر بن الخطاب من بني عدي بن كعب بن لؤي
القرشية العدوية. وأمها زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون الرجل الصالح.
ولدت السيدة حفصة في العام نفسه الذي ولدت فيه جدتي سيدتنا فاطمة بنت
سيدنا رسول الله ﷺ في السنة الخامسة أو السابعة قبل البعثة.

وشبت في عز أبيها سيدنا عمر فقد كان من رجالات قريش وساداتها البارزين
وشجعائها المعروفين فلما كانت السنة السادسة للبعثة أكرم الله بالهداية سيدنا عمر
فأسلم وأسلم معه أهل بيته ومنهم حفصة.

وتسامع المهاجرون إلى الحبشة بأن مكة قد أسلمت وبأن الله قد أعز الإسلام
بجمرة بن عبد المطلب وبعمر بن الخطاب، فرأى أغلبهم العودة إلى مكة بلدهم
الحبيب لينضموا إلى مواكب الإيمان تحت قيادة سيدنا رسول الله ﷺ فكان من بين

العائدين خنيس بن حذافة بن قيس بن سعد السهمي فخطب السيدة حفصة من أبيها وتزوجها.

وقد تزوجت السيدة حفصة من سيدنا خنيس بن حذافة السهمي أحد السابقين إلى الإسلام، وشهد بدرًا وأحداً، وأصابه بها جراحة فمات منها في المدينة المنورة، وترك السيدة حفصة أرملة شابة لا تتجاوز الثامنة عشرة، وسيدنا عمر - أبيها السادة - رجل جاد، يأخذ العدل في حياته مأخذ الجد الذي لا هوادة فيه، فلم يجد من العدل أن تظل ابنته الشابة من غير زواج يصونها ويُذهب عنها لوعة الترميل ودُّلَّهُ، والمسلمون في دار الهجرة قِلَّةٌ بين العرب، ومن واجب المسلمين بإزار زوجات شهدائهم المترملات أن يحسنوا إليهن بالزواج.

وإلى جانب ذلك بدأت الغزوات وتساقط المسلمون شهداء بالغزوات وكثرت المترملات، فكان لابد من كل مسلم أن يحمل أعباء تركه أخيه في الدين، فيصون زوجة أخيه عن الترميل والوحشة ويعصمها من الفتنة أو المذلة، ويدفع عنها الحاجة لا بصدقة تأبأها أو تهدر قدرها بل بزواج يقيم ظهرها ويرفع رأسها. بهذا تدرك كل مسلمة أن الجهاد في سبيل الدين لن تكون عاقبته الخذلان والخسران وزوال الستر عن كل ذات حذر.

أيها السادة:

هكذا تفكر عمر تماماً، وعلى هذا الإحساس ذهب والد الأرملة الشابة في حدّه الصارم يَنْشُدُ لها زوجاً، فحدث سيدنا أبا بكر الصديق فرفض الزواج منها، وحدث سيدنا عثمان الذي كان متزوجاً من السيدة رقية بنت سيدنا رسول الله ﷺ ثم ماتت عنده وبقي محزوناً عليها لا يتزوج، لكن عثمان رفض هو الآخر التزوج من السيدة حفصة. فماذا يفعل سيدنا عمر رضي الله عنه؟! أتدرون ماذا فعل؟ لقد توجه إلى القائد الأعلى للأمة سيدنا محمد ﷺ وقص عليه ما حدث، فواساه رسول

اللَّهُ وطيب خاطره ثم قال له: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة» (أبو يعلى - الفتح).

ويتعجب الفاروق، لكن عجبه زال عندما زوّج رسول الله ﷺ سيدنا عثمان من أم كلثوم، وتزوج النبي من حفصة. وهكذا يسوي رسول الله ﷺ في المصاهرة بين صاحبيه ووزيره أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وإليكم هذا الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر وهو يعرض لهذه القضية فيقول: «إن عمر حين تأمّت حفصة من خنيس بن حذافة وكان شهد بداراً وتوفي بالمدينة، لقي عثمان فقال: إن شئت أنكحتك حفصة قال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي. فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج قال عمر: فقلت لأبي بكر: إن شئت أنكحتك حفصة. فصمت، فكنت عليه اوجد مني على عثمان. فلبث ليالي ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال:

- لعلك وجدت علي حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً؟. قلت: نعم. قال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك إلا أنني علمت أن النبي ذكرها، فلم أكن لأفشي سره، ولو تركها لقبلتها» .

أيها الإخوة: هذا لعمر الحق هي الشبهة الحقة، بل هي الرجولة الصادقة تظهر في فعل الفاروق عمر، فهو يريد أن يصون عرضه، فلا يرى في نفسه غضاظة أن يعرض ابنته على الكفاء الصالح لأن الزوج خير وسيلة للمجتمع الفاضل، فأين نحن اليوم من جهل المسلمين بأحكام الإسلام وجماله الناصع يتركون بناتهم عوانس حتى يأتي الخاطب ذو المال الكثير والثراء الوفير.

أيها السادة:

تم هذا الزواج الميمون سنة ثلاث من الهجرة عند أكثر العلماء، وقدمت السيدة حفصة، وكان عند النبي السيدة عائشة والسيدة سودة، فأصبحت صديقتهما وشكلن حزباً واحداً كما ذكرت لكم فيما مضى، مقابل حزب السيدة زينب بنت

جحش. وأمر رسول الله ﷺ الشفاء بنت عبد الله أن تعلم السيدة حفصة الكتابة (أحمد)، ويبلغ سيدنا عمر أن حفصة تراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان فيحذرهما من فوره عقوبة الله ﷻ وغضب رسوله ويقول لها: لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنهما وحب رسول الله ﷺ إياها، والله ﷻ لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك.

هل سمعتم - أيها السادة - الهدف من زواجه ﷺ من السيدة حفصة، لقد أنطق الله ﷻ سيدنا الفاروق الملهم عن سبب هذا الزواج إنه: الاحترام والمحبة لسيدنا عمر وتعليق وسام المصاهرة على صدره أبد الدهر. وتمضي الأيام على السيدة حفصة والسنوات في بيت النبوة وهي تتابع حفظ كتاب الله ﷻ تعالى جيداً حتى حفظته كله وفهمته وعملت به.

أيها السادة :

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى المدينة المنورة إلى المسجد النبوي الشريف وهاهو رسول الله ﷺ يجلس مع أصحابه يبشرهم ببشارة عظيمة فإن ابن سعد يروي لنا في حديث الحديبية وبيعة الرضوان أن رسول الله ﷺ ذكر عند حفصة أصحابه الذين بايعوه تحت الشجرة في الحديبية فقال: «لا يدخل النار إن شاء الله ﷻ أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها». فإذا بالسيدة حفصة تقول: بلى يارسول الله ﷻ. فانتهرها. فقالت: ألم يقل الله ﷻ تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ / مريم: ٧١ / وهنا قال عليه الصلاة والسلام: والله ﷻ يقول ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ / مريم: ٧٢ / (أحمد - م ٢٤٩٦).

وتذكر كتب التفسير أن حفصة رأت النبي ﷺ في حجرتها مع مارية القبطية، فلما خلت معه قالت: لقد رأيت من كان عندك، والله ﷻ لقد سببت وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك.

وأكب النبي يطيب خاطرها، ولكي يترضاها أسرَّ إليها أن مارية حرام عليه، ثم أوصاها ألا تحدث أحداً بهذا، فإذا بالسيدة حفصة تُسرُّ بالحديث لعائشة. فأنزل مولانا عز وجل على نبيه قوله:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ لِبَعْضِ نَسَائِهِ حَدِيثًا...﴾ الآية /التحريم: ٣/.

وفي الصحيحين أن القصة في شرب العسل التي ذكرناها سابقاً. ويروي ابن حجر من طرق شتى أن رسول الله ﷺ طلق حفصة تطليقة واحدة ثم ارتجعها، وقيل: إنه ارتجعها لأجل عمر، وأن جبريل نزل على نبينا فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر. وفي رواية أنه قال له: «أرجع حفصة فإنها صَوَّامة قَوَّامة وإنها زوجتك في الجنة» .

وقد شعرت هي بالندم لإذاعة السر، فما كان لها وهي في تلك المنزلة من العبادة والتقوى والدين أن تذيع سرّاً ائتمنها عليه رسول الله ﷺ، لذلك عندما طلقها رسول الله ﷺ قال عمر لابنته:

- لعل رسول الله ﷺ قد طلقك؟! إن كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً.

أيها السادة:

بقيت أم المؤمنين الرابعة تعيش في كنف أعظم زوج وخير معاشر حتى انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى فلم تر باكية أشد منها يومذاك، وشهدت حفصة خلافة الصديق ثم خلافة أبيها عمر وشهدت فتوحات الشام والعراق ومصر في عهده، وفي سنة ٢٣ هـ دوت الصرخات في المدينة المنورة عندما نودي بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبي لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة، وتعاين هذه السيدة التقية من هذه المأساة الإسلامية الشيء الكثير، وينتقل المصحف الشريف الذي كتبه الخليفة أبو بكر وانتقل بعده إلى عمر، ينتقل إلى حفصة ويبقى عندها حتى طلبه عثمان فنسخه عدة نسخ ثم أرسله إلى الأمصار وأعادته إليها ثانية، ولكن القدر وبعد سنوات من

خلافة عثمان تفجع الأمة العربية بمحاولة قتل واغتيال أمير المؤمنين عثمان فتسارع السيدة حفصة إلى عائشة لترافقها إلى البصرة فيعزم عليها أخوها عبد الله ألا تذهب خشية تلك الفتنة التي بدأت باستشهاد الخليفة الثالث بالشكل المروع المعروف (١).

وتبقى السيدة حفصة بالمدينة تتابع طريق الدعوة إلى دين الله إلى أن توفيت في عهد معاوية سنة ٤٧ هـ ويشيعها أهل المدينة إلى مثواها الأخير في البقيع مع أمهات المؤمنين.

أيها السادة:

هذا هو الراجح الذي نقله علماء التاريخ فالسيدة حفصة دفنت بالبقيع وليس في باب الصغير بدمشق فتنبهوا لهذا معشر الإخوة الكرام.

فمن هي السيدة الخامسة في الترتيب في دخولها بيت النبوة؟
أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

أنظر كتابنا: نفحات منبرية في تاريخ المئة الأولى الهجرية - الجزء الثاني.

(٨٩)

السيدة زينب بنت خزيمة

الحمد لله الذي عمت رحمته كل شيء ووسعت، وتمت نعمته على العباد وعظمت، ملك ذلت لعزته الرقاب وخضعت. وهابت لسطوته الصعاب وخشعت. وارتاعت من خشيته أرواح الخائفين وجزعت. كريم تعلقت برحمته قلوب الراجين فطمعت، بصير بعباده يعلم ماكنت الصدور وأودعت، نحمده على نعم توالى علينا واتسعت.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي قائلها من النار يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي جاهد في الله حق جهاده حتى علت كلمة التوحيد وارتفعت.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ما ابتهلت الوفود بالمشاعر العظام وتمت، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يامليكننا المقتدر وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.

نحن اليوم ننزل زائرين على من؟

على أية امرأة من اللواتي أكرمهن الله بأسمى لقب: لقب أم المؤمنين؟

ما هي الخصوصية التي اختصت بها بهذه السيدة الكريمة؟

ما هو سبب زواج سيدنا رسول الله ﷺ منها؟

ما هو رقمها في دخول بيت النبوة؟ بل ما هي القضية الإيمانية التي نستفيد منها من

ذكر هذه السيدة؟

أيها السادة: أجب عن هذه التساؤلات مع الحلقة التاسعة والثمانين من

سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة
أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها السادة:

أنزل معكم اليوم ضيوفاً على سيدة كريمة سخية اشتهرت بالإحسان إلى الفقراء
وكثرة التصدق عليهم، وكانت رغم فقرها تقدم لهم الطعام والشراب حتى لقبت لقب
«أم المساكين» من كثرة إحسانها إليهم، إنها السيدة الخامسة في ترتيب دخولها بيت
النبوة:

السيدة زينب بنت خزيمة بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف الهلالية وأمها
السيدة هند بنت عوف بن الحارث (قولوا رضي الله عنها).

هذه السيدة الجليلة ولدت قبل البعثة في مكة، وعندما بلغت سن الزواج تزوجت
الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ثم طلقها، فتزوجها بعده أخوه
البطل المقدام، شهيد الإسلام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه
وأرضاه.

عبيدة هذا كان من المسلمين الأوائل قبل دخول رسول الله دار الأرقم بن أبي
الأرقم، أسلم هو وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن الأرقم المخزومي وعثمان
بن مظعون في وقت واحد.

وهاجر عبيدة إلى المدينة مع أخويه طفيل والحصين ابني الحارث، ونزلوا على عبد
الله بن سلمة العجلاني، وكان لعبيدة قدر ومنزلة كبيرة عند رسول الله ﷺ، فقد
ذكر صاحب السيرة ابن اسحق فقال:

«أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد عودته من غزوة وُدَّان بقية صفر وصدرًا من
ربيع الأول من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد. فكان أول لواء عقده رسول
الله ﷺ لعبيدة، فالتقى عبيدة والمشركون بثنية المرة، وكان على المشركين أبو سفيان

بن حرب، وكان هذا أول قتال في الإسلام(١). فنال هذا الصحابي الشرف العظيم بأنه كان صاحب أول لواءٍ عقد في قتال كفار مكة، ثم شهد عبدة بدرًا » .

واسمحو لي **معشر السادة الكرام** أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى مكان بين المدينة المنورة ومكة حيث وقعت معركة بدر، فهاهو الجيشان قد التقيا وجهاً لوجه، ولكن جرت العادة أن تبدأ المعارك بالمبارزة بين أبطال الطرفين ليهيج الناس بعضهم بعضاً على القتال، وعندما اصطفَّ القوم للقتال خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة فدعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة، فقالوا: ممن أنتم. قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا إليكم حاجة، ثم نادى مناديهم:

- يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا.

وهنا أصدر القائد الأعلى للأمة أوامره فقال: قم يا حمزة. قم يا علي، قم يا عبدة. وراح الثلاثة من أهل الإيمان واليقين يبارزون ثلاثة من صناديد الكفر والشرك. فبارز عبدة عتبة فاختلفا ضربتين أثخن كل منهما صاحبه وأثبتته، وبارز حمزة شيبة فقتله مكانه، وبارز جدي علي الوليد فقتله مكانه، ثم كرا على عتبة الذي كان يقاتل عبدة ابن الحارث الجريح فدفعوا عليه واحتملا عبدة فحازوه إلى الرحل وراء الجيش المسلم.

قيل: إن عبدة كان أسنَّ المسلمين يوم بدر فقطعت رجله، فوضع رسول الله ﷺ رأسه على ركبته فقال: يا رسول الله! لو رأي أبو طالب لعلم أي أحق بقوله منه حيث يقول:

وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرِّعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلُ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ

ثم ارتفعت روح عبدة إلى الرفيق الأعلى على إثر جراحه (د: ٤ / ٤٩ - ابن حجر في الفتح ٧ / ٢٩٨).

كل هذا - أيها الإخوة - وزوجته زينب بنت خزيمة تقوم بواجبها في إسعاف المرضى والجرحى وتضميد جراحهم، ولم يشغلها استشهاد زوجها عند عودته مع

رسول الله ﷺ من بدر، لم يشغلها عن القيام بواجبها حتى كتب الله النصر للمؤمنين في معركة خاضوها ضد الشرك والمشركين سطرها لهم التاريخ إذ غلبت القلة المؤمنة العزلاء الكثرة الكافرة رغم العدد والعدة.

أيها الإخوة:

ودفن سيدنا عبيدة بن الحارث وبقيت هذه البقعة يُشَمُّ منها ريح المسك، وتمضي الأيام حتى إننا نرى سيدنا رسول الله ﷺ ينزل مرة مع أصحابه عند قبره، فقال الصحب الكرام: إنا نجد ريح مسك. فقال ﷺ: وما يمنعكم وههنا قبر أبي معاوية عبيدة بن الحارث، كان قتل وعمره ثلاث وستون سنة فقولوا رضي الله عنه.

وصبرت السيدة زينب بنت خزيمة على استشهاد زوجها، فلما علم رسول الله ﷺ بصبرها وثباتها وجهادها وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها لنفسه وكانت قد بلغت الثلاثين من عمرها، ومنهم من قال: إنها كانت في الستين، تزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث للهجرة وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمئة درهم.

وهكذا ترون - أيها السادة - أنه لم يمض وقت طويل على مجيء السيدة حفصة إلى بيت النبوة حتى وفدت زوجة خامسة كانت هي الأخرى أرملة شهيد عزيز من شهداء بدر.

أيها السادة:

ومهما اختلف في سن أم المؤمنين الخامسة السيدة زينب بنت خزيمة فإن الذي يهمننا السبب الذي من أجله تزوجها رسول الله ﷺ، فقد كان لزوجها السابق مكانة عند الله ﷻ وعند رسوله أما عند الله ﷻ فقد مات الصحابي الجليل عبيدة شهيداً في سبيل الله ﷻ مدافعاً عن دينه ويكفيه هذا فخراً، وليس بعد مرتبة الشهيد إلا الصديق والنبي، فأراد رسول الله ﷺ أن يكرم عبيدة أولاً، ويكرم زوجته التي استسلمت لقضاء الله ﷻ وجاهدت بعد زوجها وسلمت أمرها للنبي يفعل ما يشاء، وقد انقطع الناصر والمعين في الدنيا، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن جبر خاطرها وهي الأم الكريمة

التي طبعت على حب الخير وإطعام المساكين، كانت تعمل بيدها فتيبعه وتطعم بثمانه الفقراء، فإذا اختلف المؤرخون وكتاب السيرة في أمر السيدة زينب وعمرها فقد اتفقوا جميعاً على شيء واحد لم يختلف فيه اثنان، ذلك هو وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء، ولا يكاد يعرض اسمها في أي كتاب إلا مقروناً بلقبها العظيم: أمّ المساكين.

لذلك كانت المكافأة عظيمة على قدر عملها الصالح وهي أن تكون أمّاً للمؤمنين وزوجاً لخاتم الأنبياء والمرسلين.

أيها السادة:

لم تعمّر السيدة زينب عند نبينا ﷺ كثيراً سوى أشهر قليلة منهم من أتمها إلى الستين، ثم توافها ﷻ تعالى في ربيع الآخر سنة أربع هجرية على الراجح انتقلت إلى جوار مولانا راضية مرضية، فكانت هي ثاني زوجة توفيت في حياة رسول ﷺ، حيث صلى عليها ودفنها في البقيع. فما رأي الخراصين بهذا الزواج الشريف وغايته النبيلة؟

هل يجدون فيه شيئاً مما يافك الأفكون؟، أيجدون فيه أثراً للهوى والشهوة؟ أم هو النبل والعفاف والرحمة والفضل والإحسان من رسول الانسانية الأكبر يأسعد من صلى عليه.

فليتق ﷻ المستشرقون المغرضون وليؤدوا أمانة العلم ولا يخونوها في سبيل غايات خبيثة درسوا لأجلها الإسلام للفس والكيد والنيل من سيد الإنسانية سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

فمن هي أم المؤمنين السادسة في ترتيب دخول بيت النبوة، ما هو سبب زواج رسول ﷻ منها، هل هو إنساني بحت أم اجتماعي أم اقتصادي؟

أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.

تذكر عزيزي الموحّد:

أن زوجات نبينا ﷺ إحدى عشر زوجة من الحرائر، وأربع جوارٍ:

- ١- السيدة خديجة رضي الله عنها .
- ٢- السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها .
- ٣- السيدة عائشة بنت سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .
- ٤- السيدة حفصة بنت سيدنا عمر رضي الله عنهما .
- ٥- السيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها .
- ٦- السيدة أم سلمة هند بنت حذيفة رضي الله عنها .
- ٧- السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها .
- ٨- السيدة حورية بنت الحارث رضي الله عنها .
- ٩- السيدة صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها .
- ١٠- السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما .
- ١١- ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها .

(٩٠)

السيدة أم سلمة بنت حذيفة

الحمد لله الذي بيّن أحكام الملة السنية، وزيّن أعلام الجلّة السنية، وبصّرهم بما آتاهم من الآثار النبوية، ونصرهم على ماناوأهم من الأشرار الخشوية. أشكره على أيادي جارية وحفية، واستغفره لمساوي بادية وخفية.
وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، المتوحد بالبقاء في الأزلية، المنفرد بالكبرياء والجبرية.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي دعانا إلى الملة الزهراء الحنيفية، وتركنا على محجة بيضاء نقية.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمداً وعلى آله وأصحابه ذوي المقادر العلية، والمآثر الجليلة، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يامليكننا المقتدر وعجل في فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: ما زلت معكم ننزل زائرين على أمهات المؤمنين نتعرف على أخبارهن وعن سبب تزوج نبينا بهن فقد تحدثنا حتى اليوم عن أم المؤمنين الأولى السيدة خديجة ثم عن السيدة سودة بنت زمعة ثم عن السيدة عائشة ثم عن السيدة حفصة ثم عن السيدة زينب بنت خزيمة، ونحن اليوم بعونه تعالى ننزل على السيدة السادسة في ترتيب دخولها بيت النبوة أعني بها:

السيدة أم سلمة هند بنت حذيفة أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم هذه السيدة القرشية التي رُبيت ونشأت في كنف أبيها أحد الأجواد من العرب الذي لقب بمزاد الركب لجوده وكرمه كان إذا سافر وبرفقته أحد يأمره ألا يأخذ معه زاداً لأنه سيكفيه مؤنة سفره طوال الرحلة.

وأما عاتكة بنت عامر بن ربيعة الكنانية.

وأبو سلمة هو الزوج الأول في حياة أم سلمة واسمه عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه رسول الله وأخوه من الرضاعة، وكان هو وزوجته من أوائل من استجاب لدعوة الإسلام، فأصابهما من البلاء والعنت ما أصاب المسلمين الأولين، ورأى رسول الله ما فيه أصحابه فقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فخرج المسلمون مخافة الفتنة وفراراً بدين الله، فكان أبو سلمة وزوجه من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، وبقي أبو سلمة وزوجه المؤمنان في الحبشة حتى نمت إليهما الأخبار بقوة الإسلام وخاصة بعد إسلام سيدنا حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب بل بلغهم أن أهل مكة قد أسلموا جميعاً، فعادا إلى مكة ليجدا أن عذاب قريش قد اشتد على رسول الله وصحابته، وأن ما بلغهم عن إسلام أهل مكة لم يكن صحيحاً، فالتمسوا جوار خاله أبي طالب بن عبد المطلب، لكن أبا طالب ما لبث أن توفي فعادت قريش لاضطهادها للمسلمين، فأمر رسول الله أصحابه بالهجرة إلى يثرب وكان أول مهاجر إليها أبو سلمة مع زوجته ومعهما رضيعهما هاجروا قبل بيعة العقبة بسنة وكانت ملحمة:

أيها السادة: اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك لأنقل لكم بثاً إيمانياً حياً ومثالاً لما لاقى المسلمون في سبيل الهجرة إلى الله تعالى، فإني أرى بعين الإيمان واليقين الصحابي أبا سلمة مزماً الخروج إلى المدينة، حتى إذ ارحل بعيره وحمل عليه زوجته وابنه سلمة يقودهم إذ ببني المغيرة يرونه فقاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد. فانتزعوا منه أم سلمة وابنها، فغضب رهط أبي سلمة فقالوا: لا والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا ابنها سلمة بينهم فصار كل طرف يشده حتى خلعوا يده، وفر أبو سلمة بدينه إلى المدينة، واحتجزا أم سلمة بعيدة عن وليدها فكانت تخرج إلى الأبطح كل صباح فما تزال تبكي حتى تمسي.

وبقيت على حالها تلك سنة أو قريباً منها، حتى مر بها رجل من بني المغيرة

فرأى ما بها فقال: ألا تُخْرِجُون من هذه المسكينة فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها، فقالوا لها: الحقى بزواجك. وردوا لها ابنها فكان أول ظعينة دخلت إلى المدينة مهاجرة، واسمعوا إلى قصة هجرة هذه السيدة الجلييلة على لسانها تقول: فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله، فقلتُ أتبلِّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة من بني عبد الدار فقال: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت فقلت: أريد زوجي بالمدينة قال: أو ما معك أحد. فقلت: لا والله إلا الله وبُني هذا. فقال: والله ما لك من مترك. فأخذ خطام البعير فانطلق يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية، فدخلتها على بركة الله تعالى، وانصرف عثمان بن طلحة إلى مكة راجعاً، واجتمع الشمل عندئذ، شمل زوجين وثق الحب بين قلوبهما، ووحد الإسلام كياهما، وما كانت الهجرتان إلا بوتقة صهرت هذا الكيان.

أيها الإخوة: وتمر الأيام ويصبح للمسلمين دولة في المدينة، ويشهد أبو سلمة بدرًا الكبرى، ثم يشهد أحداً، وفي أحد رماه أحد المشركين بسهم فمكث شهراً يداوى من جرحه ثم برأ بإذن الله تعالى، فبعثه رسول الله على رأس سرية فنراه يغيب تسعاً وعشرين ليلة ليرجع بعدها وجرحه منتقض، ويمرض أبو سلمة في بيته ويذكر لنا ابن سعد في طبقاته حواراً بين أبي سلمة وأم سلمة أثناء مرضه، قالت أم سلمة لزوجها: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة ثم لم تزوج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها فتعال أعاهدك على ألا تزوج بعدي ولا أتزوج بعدك. وسكت أبو سلمة وهو على فراش الموت ثم قال: أطيعيني. فقالت: ما استأمرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك. قال: فإن مت فتزوجي بعدي. ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها.

هل رأيتم - أيها الاخوة - رجلاً بهذا القدر من سماحة النفس، لاشك أنه محب عظيم لقد رفض ما عرضته زوجته الحبيبة عليه لأنه رأى أن أولاده بحاجة إلى الرعاية، ويرى زوجته بعده أحوج إلى من يكنفها ويرعاها، فضرب بذلك أبو سلمة المثل الأعلى لكل المحبين في زمانه وفيما بعد زمانه فقولوا رضي الله عنه.

ثم أعطاهما الدرس الأخير قبل استشهاده، قال لها: سمعت رسول الله يقول: إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسب مصيبي فأجربي فيها وأبدلي ما هو خير منها.

تقول أم سلمة: لما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفني في أهلي بخير، فلما قبض (سنة أربع هـ) قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم عندك احتسب مصيبي، وأرادت أن تقول: وأبدلي بها خيراً منها، فقالت: ومن خير من أبي سلمة.

أيها السادة: وترملت أم سلمة ولها من أبي سلمة أربعة أولاد، وحين انقضت عدتها تقدم لها الصديق خاطباً فرفضته ثم خطبها عمر فردته، وهي في كل ذلك حزينة متأثرة على فراق زوجها، وهي تردد اللهم أجربي في مصيبي وعوضني خيراً منها، ثم أرسل لها سيدنا محمد ﷺ من يخطبها لنفسه وهو حاطب بن أبي بلتعة فقالت: أخبر رسول الله أنني في خلال وهي: أني امرأة مُصِيبَةٍ (ذات صبيان)، وأنني غيري، وأنه ليس أحد من أوليائي شاهداً. فبعث إليها رسول الله أما قولك: إني مصيبة فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك: إني غيري فسأدعوا الله أن يذهب عنك غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاني (صلوا عليه).

أيها السادة: فتزوجها رسول الله سنة أربع، وكانت في الثلاثين من عمرها وزوجه إياها سيدنا عمر بن الخطاب لأنها تشاركه بالنسب، وورد أن الذي زوجها ابنها عمر وهو يومئذ غلام صغير. ومهما يكن من أمر فقد دخلت أم سلمة بيت النبوة فنزلت في بيت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، دخلت هذا البيت الذي أناره الله بسيدنا محمد ﷺ فراحت تتفحص حجرتها لتعرف ما بها فإذا جرة فاطلت فيها

فإذا فيها شيء من شعير، وإذا برحى وبُرمة وقَدَر فنظرت فإذا بها كعب من سمن أو دهن، فأخذت ذلك الشعير وطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت السمن فخلطته بالشعير وطبخته فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه.

وعاشت أم سلمة في بيت رسول الله ﷺ أما للمؤمنين تتعلم وتنهل من معين النبوة، وكانت تروي أحاديثه وأخباره حتى روت ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً، وكانت ممن تقرأ ولا تكتب. وذات شخصية متميزة ورأي صائب جريء ودور قيادي وسط أمهات المؤمنين، نرى ذلك حين رَدَّت على عمر فيما عرف بالمراجعة فبعد أن دخل عمر على ابنته وعَنَّفها ولامها لمراجعتها رسول الله ﷺ نراه يدخل على بقية أمهات المؤمنين حتى دخل على أم سلمة وقال: يَا أم سلمة تكلمن رسول الله ﷺ وتراجعنه في شيء، فقالت أي والله إنا نكلمه، فإن حمل ذلك كان أولى به، وإن نهانا كان أطوع عندنا منك وفي رواية قالت: عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين الرسول وأزواجه، يقول عمر: فأخذتني والله أخذاً وكسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها.

وكانت نساء النبي يتحاكمن إليها لعلمهن ببراءتها من الغيرة.

وكان ﷺ يراعي أولادها وخاصة صغيرتها زينب، فكان إذا دخل بيته ينادي: أين زنا، « ورأى مرة ربيبه سلمة ويده تطيش في وعاء الطعام فعلمه ﷺ آداب الطعام فقال: يا بني سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك » (ق).

أيها السادة: وإليكم هذا الحدث الهام الذي جرى يوم الحديبية والذي يدل على رجاحة عقلها وصواب رأيها وإنقاذها المسلمين من شر مستطير كاد المسلمون أن يقعوا فيه. فبعد أن توجه رسول الله ﷺ إلى مكة معتمراً وبشَّر أصحابه بأن الله ﷻ سيفتح عليهم مكة، وعقد مع قريش صلح الحديبية على أن يرجعوا عامهم إلى المدينة، عندها دهش الصحابة كيف سيرجعون دون الفتح، ودخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا، فأمرهم النبي أن ينحروا ويحلقوا رؤوسهم. قال فما قام أحد، فأمرهم ثلاثاً فما قام أحد. فدخل على أم المؤمنين أم سلمة فقال: ما أم

سلمة ما شأن الناس؟! قالت يارسول الله قد دخلهم ما رأيت فلا تكلمن إنساناً منهم واعمد إلى هديك حيث كان فانخره واحلق فلو قد فعلت ذلك. فخرج رسول الله حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. وهكذا - أيها السادة - ترون كيف أنقذت أم سلمة المسلمين من شر مستطير كاد المسلمون أن يقعوا فيه بمخالفتهم لأمر النبي ﷺ.

وحجت مع رسول الله حجة الوداع، ولكنها شككت مرضاً موجعاً فلم تستطع الطواف وسألت رسول الله، فأذن لها بالطواف على بغيرها من وراء الناس فكان ذلك باباً من التوسعة رخص به رسول الله ببركة أم سلمة.

أيها السادة عُمِّرَتْ أم سلمت حتى بلغت الرابعة والثمانين، وعاشت الأحداث السياسية وكانت بمنأى عن خلافاتها، وقدمت ولدها عمر لعلي بن أبي طالب فكان معه في جيشه وتحت أمرته، وبقيت في بيتها تروي أحاديث رسول الله، ويروى عنها كبار الصحابة والتابعين حتى لحقت برها عز وجل فصلى عليها أبو هريرة ودفنت في البقيع مع بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنها.

فمن هي أم المؤمنين السابعة؟ أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى. وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدرك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.

(٩١)

السيدة زينب بنت جحش

الحمد لله الذي شرح صدور أحبابه بنور اليقين، وأذاقهم لذة قربهِ وأنسه فشغلهم عن الخلق أجمعين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب السموات والأرضين.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين المبلغ كل ما أمر بتبليغه من رب العالمين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، صلاة وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم الدين، وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا مليكنا المقتدر وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فقضيتنا الإيمانية اليوم لها نور خاص وتوجه معين وأحكام تشريعية سارت على هديها الأمة الإسلامية، هذه القضية تبناها ودافع عنها رب العزة والجلال، فهي ليست مسائل شخصية بحتة خاصة بسيدنا رسول الله، بل هو زواج جعله مولانا تنظيماً للجماعة الإسلامية على أساس إسلامي رباني، واستبدل بأوضاع جاهلية رديئة أوضاعاً أخرى إسلامية مطهّرة.

إننا مع الحلقة الواحدة والتسعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

تعرفون - معشر السادة - أن الطبقة التي كانت في العصر الجاهلي تقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات:

الأولى: طبقة الأشراف والسادة.

الثانية: طبقة العبيد والإماء.

وطبقة ثالثة بينهما: وأهلها هم الموالي: أي: الرقيق المحرر أو العتقاء.

ومن هذه الطبقة الثالثة كان سيدنا زيد بن حارثة، الذي كان من قبل رقيقاً للسيدة خديجة رضي الله عنهما فوهبته لسيدنا رسول الله ﷺ عند زواجها منه، فأعتقه وتبناه، وأقام عنده مدة حتى عرف أبوه مكانه فجاء راغباً في فداءه، فقال له رسول الله ﷺ - قبل البعثة - : خيره. فإن اختاركم فهو لكم، فاختار سيدنا زيد البقاء مع سيدنا محمد ﷺ عندئذ قام سيدنا محمد ﷺ إلى دار الندوة وأشهد قريشاً فقال أن زيدا ابني أرثه ويرثني، فرضي أبوه بذلك وانصرف (خ ٤٧٨٢ - الفتح في فضائل الصحابة).

ومن تلك اللحظة أصبح يطلق عليه زيد بن محمد، ومضى على ذلك قريباً من ثلاثين سنة لا يعرفه الناس إلا بهذا الانتماء، وكان سيدنا زيد ثالث من أسلم ودعي بحب رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ في شدائده وحلّه وترحاله، وحين جرت عملية التأخي بين الصحابة كان سيدنا حمزة ابن عبد المطلب أسد الله وعم رسول الله ﷺ وزيد بن محمد أخوين.

ولشدة حب رسول الله ﷺ له زوجته من حاضنته أم أيمن، وقد قال في شأنها ﷺ: «من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن» (ابن سعد في الطبقات - كنز العمال مرسل ٣٤٤١٦)، وأنجبت له أسامة فكان بمثابة حفيد لرسول الله ﷺ حتى نزل القرار الإلهي الخالد، اسمعوه على موجات سورة الأحزاب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وما جعل أدياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ /الأحزاب: ٤ - ٥.

وبموجب هذا القرار الذي يقرر إلغاء التبني بلفظه ومعناه عاد زيد ليدعى ابن حارثة وليس ابن سيدنا محمد ﷺ.

لكن قراراً آخر كان بانتظار المنافقين الذين قابلوا القرار الإلهي بكثير من عدم الرضا، قرار آخر كان بانتظارهم، نرى هذا حينما أراد رسول الله ﷺ أن يسقط الفوارق الطبقيّة بنفسه وفي أسرته لأن جذور هذه الفوارق كانت ضاربة في أعماق المجتمع يستحيل اقتلاعها إلا بفعل حاسم من رسول الله ﷺ تتخذ منه البشرية الأسوة وتسير على هده، ألا وهو تزوج زينب ابنة عمته أميمة ابنة الحسب والنسب والشرف من زيد بن حارثة مولاه.

أيها السادة:

اسمحو لي أن انتقل بكم إلى هناك إلى مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فهاهو يدخل على السيدة زينب بنت جحش الأسدية القرشية ذات الجمال والمال والشرف وكانت قديمة الإسلام ومن المهاجرات، دخل عليها فخطبها لزيد (طب صحيح- ابن جرير)، فقالت: لست بناكحته. فقال سيدنا رسول الله ﷺ: بل فانكحيه. قالت: يارسول الله ﷺ أوامر في نفسي. وراحت تحادثه وتحاوره فمن الذي حسم المناقشة إن الذي حسم الموقف وقطع الجدل: الله ﷻ رب العالمين، إذا بالأوامر تصدر إلى سفير الأنبياء وأمين وحي السماء أن ينزل على الحبيب سيدنا محمد بآية قرآنية:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ / الأحزاب: ٣٦.

وهنا قالت السيدة زينب:

قد رضيته لي يارسول الله ﷺ منكحاً؟ قال: نعم. قالت: «إذن لا أعصي رسول الله ﷻ وقد أنكحته نفسي».

أيها السادة: بهذه الخطوة التشريعية نسف رسول الله ﷺ كل الموارث الطبقية والأعراف الجاهلية ، و استوى السادة والموالي في ميزان المجتمع الجديد : ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ /الحجرات: ١٣/.

فما الذي حدث!؟

ودخل زيد على السيدة زينب، فوجدها امرأةً مصروفة الفؤاد عنه، تحرمه العطف والتقدير فثارت رجولته، وراح يشكو غلظة قولها وعصيان أمره وأذى لسانها وتعظمها عليه ونفرتة هو منها، وتدخل النبي لإصلاح الخلاف مرة بعد مرة، ولكن دون جدوى.

وأوحى الله ﷻ لنبينا أن زيدا سيطلق زوجته زينب وأنه سيتزوجها هو بعد انتهائها منه، ويأتي زيد ثانية ورابعة يشكو زوجه ويخبر رسول الله ﷺ أنه يرغب في طلاقها، فيرد عليه رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

ولعل رسول الله ﷺ قد استشعر نوعاً من الحرج في هذا الموقف الجديد فترث في إمضائه وأسرته في نفسه حتى نزل عتاب مولانا عز وجل له: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ /الأحزاب: ٣٧/.

أي أخبرتك أن زيدا سيطلقها وأنت ستزوجها وتخفي هذا في نفسك والله مبديه ومظهره للناس.

تقول السيدة عائشة تعليقاً على هذا الموقف (خ- م- ت): «لو كان النبي كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية»، لكن رسول الله ﷺ بلغها كما نزلت لأن الواجب في حق الأنبياء تبليغ كل ماأمروا تبليغه، ويستحيل عليهم كتمان ذلك عليهم الصلاة والسلام.

أيها السادة:

استمر الشقاق بين الزوجين قريباً من السنة حتى طلق زيد زوجته، واسمعوا النتيجة الإيمانية إن مولانا يقول:

﴿ فلما قضى زيدا منها وطراً زوجناها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾ / الأحزاب: ٣٧.

هذه هي الحكمة التي قصد إليها المشرع من هذا الزواج، وتزوج النبي من السيدة زينب وقطع السنة المنافقين، فجاء رسول الله ودخل عليها بغير إذن باعتبارها زوجاً له بأمر الله دون إجراء عقد أو تقرير صداق وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد.

تقول السيدة زينب: لما انقضت عدتي من زيد لم أعلم إلا ورسول الله قد دخل بيتي وأنا مكشوفة الشعر، فعلمت أنه أمر من السماء، فقلت: يا رسول الله بلا خطبة ولا إشهاد. فقال ﷺ: الله زوج جبريل شاهد. (حلية الأولياء).

أيها السادة:

وأثار هذا الموقف الجديد دويماً هائلاً لدى بعض المنافقين، كما قوبل النهي عن التني من قبل وإن كانت المفاجأة هنا أشد حتى قالوا: تزوج حليلة ابنه، ولكن الله قطع ألسنتهم فأنزل على نبيه الكريم: ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ / الأحزاب: ٤٠.

وبذلك وضع الوحي حداً لتقولات المبطلين والأعيب المتصيدين.

أيها السادة:

هذه الزيجة كثر فيها لغط أعداء الإسلام من المستشرقين والمغرضين، ومع أن القرآن الكريم سجل هذه الحادثة وسجل هذا الزواج فلا يزال أعداء الإسلام يكذبون القرآن ووقائعها ويتهمون رسول الله بأنه رأى زينب بعد غياب زوجها فشغف بها حباً وأعجبه منظرها فهام بها.

ومن الغريب والعجيب أن بعض المفسرين قد وقع بهذا الخطأ الفاحش الذي ينافي عصمة النبي ﷺ هذه العصمة التي تعني أن النبي لا يمكن أن يجري على خاطره لحظة أي معصية أو أي خلاف الأولى.

كثير كثير أن يقال: إن رجلاً رأى زوجة ابنه فسأل لعبه لها ناسياً أنها حليته ولده، وغافلاً عما يقوم بينه وبينها من أستار وأسوار تقتل في نفسه وتذيب كل شهوة. فكيف ونحن أمام شخصية سيدنا محمد، وهو رسول الله، وهو أداة المشرع الأعظم وحامل وحيه إلى العباد وهو في نفس الوقت يعيش في حياته الشخصية مع كوكبة من الزوجات لا يبقين له رغبة دون تلبية، إن الذي تكلم بهذا الكلام تكلم في مقام يتصل بالنبوة، بالرسالة.

ويكفي لهدم هذه القصة من أساسها أن تعلم أن زينب هذه هي ابنة عمه رسول الله أميمة بنت عبد المطلب، وأنه كان يعرفها، ويعرف أهلي ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيداً، وأنه شهدا في غوها تحبو من الطفولة إلى الصبا والشباب، وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه، وأنه كان قد بلغ من العمر ٥٨/ سنة، وأن زوجاته الخمس أمامه، إذا عرفت - يا أخي - ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات من أنه مر بيت زيد فرأى زينب فبهره حسنهما، وقال سبحان مقلب القلوب. وكأنه أحد المستشرقين يرى أمامه مدام بريجيب باردو فانقلب قلبه فجأة ونسي جميع زوجاته؟.

ما هذا الهراء، ولكني أعرف أنها شهوة البشر المكشوف، إنها الخصومة القديمة للإسلام تأصلت منذ الحروب الصليبية.

علينا أن نعلم - أيها السادة - في ختام هذه القضية الإيمانية أن القضية لا علاقة لها ببشرية رسول الله، وأن الذي تولاهما رب العزة في عليائه وأنزل بها شرعه القويم ليقم بها عوج الجاهلية الأولى، وما كان رسول الله إلا مبلغاً لأمر ربه جل جلاله.

أيها السادة:

تزوج رسول الله ﷺ من السيدة زينب في السنة الخامسة للهجرة وكان عمرها خمساً وثلاثين سنة وبركتها نزلت آية الحجاب على أمهات المؤمنين، فقد أوم رسول الله ﷺ لصحابته فلما انتهوا بقي بعض منهم جالساً فصار رسول الله ﷺ يقوم ويخرج لعلهم يخرجون وهو لا يريد أمرهم بالخروج لشدة حيائه حتى فطن القوم وخرجوا وأنزل مولانا عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ / الأحزاب:

٥٣/ وكانت تفخر على نساء النبي بأنها بنت عمته، وبأن الله ﷻ زوجها له وهن زوجهن أولياؤه. وكانت رضي الله عنها صوامة قوامة تعمل بيدها وتتصدق بذلك كله على المساكين، ولما حجت مع النبي ﷺ قال لمن: «هذه الحجة ثم تلزمن ظهور الحصر» أي لا تخرجن فكن يحججن إلا سودة وزينب بنت جحش فإنه لما كانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد إذ سمعنا من رسول الله ﷻ (أي أن يلزمن دورهن).

وفي مجتمع ضم السيد الأعظم وزوجاته رضي الله عنهن قال رسول الله ﷺ لمن (ق): أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً، قال فكن يتناولن أيتهن أطول يداً، تقول السيدة عائشة: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق.

تقول عنها السيدة عائشة: «ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم أمانة وصدقة...» .

وقد روت عن النبي ﷺ أحد عشر حديثاً حتى لحقت برها عز وجل سنة عشرين للهجرة عن عمر خمسين سنة، فكانت أول نساء النبي ﷺ لحوقاً به فبعث إليها عمر بخمسة أثواب بخرها ثوباً ثوباً فكفنت فيها، وحين سمعت عائشة بوفاتها قالت: ذهب حمة فقيدة مفرع اليتامى والأرامل.

أيها السادة:

توفيت السيدة زينب في يوم شديد الحرارة، فضرب عمر رضي الله عنه فسطاطاً (خيمة) على قبرها، وجعلت أسماء بنت عميس لها نعشاً ضرب على سريرها (١) ، وصلى عليها أمير المؤمنين سيدنا عمر، وسار في جنازتها صحابة نبينا والتابعين في المدينة حتى وسدت في قبرها بجوار السيدة زينب بنت خزيمة في البقيع. فرضي الله عنها وأرضاها.

فمن هي أم المؤمنين الثامنة؟.

أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى وأعود بكم من هناك إلى هنا وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.

السيدة جويرية بنت الحارث

الحمد لله الذي خلق الخليقة وأعمالها، وردّها بنور الهداية عن الغواية وأمالها، وأمدّها بالعناية الربانية فقصر آمالها. أحمدّه حمد من احتسى من النعم زلالها واكتسى سربالها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تثبت الأقدام ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها ﴾.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسله والجاهلية تشرع ضلالها، فلم يزل عليه الصلاة والسلام يكثر جدالها، ويضيق مجالها، ويعرف خيلها ورجالها حتى عرفت مرامها وعافت الدنيا إذ عرفت زوالها، اللهم فصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ما خالفت الجنوب في الهبوب شمالها، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا مليكنا المقتدر وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.

لعلنا بعد أن وصلنا إلى الحديث عن أم المؤمنين الثامنة بعد دخولها بيت النبوة، سنطرح سؤالاً نراه يطرح نفسه على هذا العدد من النسوة اللواتي دخلن بيت النبوة، كيف كان رسول الله ﷺ يسوس هذا العدد من أمهات المؤمنين ويدبر أمرهن ويقوم على حقوقهن مع كثرة أعبائه من تبليغ للرسالة وإدارة للدولة الفتية وجهاد للمشركين، وتعليم للمسلمين. هذا السؤال الذي طرحه بعض الإخوة على بساط البحث، لكنهم نسوا شيئاً هاماً، نسوا أن هذا الشخص الذي جمع هؤلاء النسوة هو سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

إنها النبوة في جلالها، والرسالة في شموها، وشخصية رسول الله ﷺ التي تمثلت كل جوانب الحياة.

نعم أيها السادة:

إن نبينا كما بحق أباً، وكان زوجاً، وكان رئيساً لدولة ناشئة، وقائداً لجيش هذه الدولة ومخططاً لغزواته، ومحارباً فذاً وسط الميدان، ومعلماً لأصحابه في شؤون الدين والدنيا، وقاضياً بين المتخاصمين، وإماماً للمسلمين أجمعين.

إننا نتحدث عن القدوة في كل شيء، ولكل مؤمن، القدوة العليا الكاملة المنزهة عن كل نقص، والمعصومة من كل خطأ أو عيب، وهذه آية الله في رسوله الكريم الذي جعله رحمة للعالمين.

فقولوا جميعاً: الصلاة والسلام عليك يا سيدنا يا رسول الله يا ذا الجاه العظيم. إننا نرفع رأسنا عالياً بسيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى للكمال، لقد بنى صرح الدعوة الإسلامية وأبلغنا رسالة السماء، ولم تشغله هموم نساءه عن أداء الرسالة، بل كن عوناً له على تبليغ الشرائع والأحكام.

إن حياته باختصار وبشريته المثالية وأبوته الرحيمة وزوجيته الودودة مرآة لنا نسير على هداها إذا رغبت في بيوت مستقرة، وحياة سعيدة في الدنيا والآخرة. وقد وجدنا من خلال حلقات سابقة أن لكل زوج من أمهات المؤمنين هدفاً، ولكل منهن دور قامت به في حياة رسول الله ﷺ، فما هو الدور الذي قامت به أم المؤمنين الثامنة؟.

أيها الإخوة:

أجيب عن هذا السؤال مع الحلقة الثانية والتسعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، وفي بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لرفع شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها الإخوة:

زيارتنا اليوم لأُم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن خزاعة وأبوها الحارث كان زعيماً لبني المصطلق.

وأما زوجها فهو من قومها واسمه مسافع بن صفوان.

واسمحو لي - **معشر السادة** - أن أنتقل بكم عبر القرون إلى السنة السادسة للهجرة إلى المدينة المنورة، وأرى فيها الصحب الكرام يستعدون للغزو والجهاد في سبيل الله فقد بلغ النبي أن بني المصطلق بزعامة شيخهم الحارث قد تجمعوا مع بعض العرب لمحاربة سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك إثر غزوة الخندق وغزوة بني قريظة. هاهو سيدنا رسول الله ﷺ يخرج إليهم في أول شعبان سنة ست للهجرة حتى لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع)، وكان معه في هذه الغزوة من أمهات المؤمنين السيدة عائشة والسيدة أم سلمة.

وتزاحف فريق الإيمان ضدَّ فريق الكفر واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل المسلمون منهم عشرة وأسروا سائر الرجال، وسبوا الذرية والنساء وجمعوا الشاء والنعم حتى كان عدد السبي - كما ذكره ابن سعد - مئتي أهل بيت من بني المصطلق، وأمر رسول الله ﷺ فأحصيت الغنائم وقسمت وفرقت وصارت في أيدي الرجال. وكانت برّه بنت الحارث من بين الفياء الذين أفاء الله على المسلمين نراها مستسلمة لما حلَّ بها وبقومها، لأنها رأت قبل المعركة بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجرها، فلما سبيت رجّت أن يكون هذا القمر، قمر يثرب العظيم سيدنا محمداً ﷺ. وقد قتل زوجها في المعركة ثم وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عمل له، فكاتبها على تسع أواق من الذهب.

أيها السادة:

تعلمون أن مثل هذه السيدة العربية لا تصلح أمةً تعامل معاملة الرقيق والإماء، ففكرت أن تذهب إلى سيد القوم الذين انتصروا عليهم وتستعين به في كتابتها،

فأتت إلى قمر يثرب سيدنا محمد ﷺ:

بَلَعَ الْعُلَى بِكَمَالِهِ كَشَفَ الدُّجَى بِجَمَالِهِ
عَظُمَتْ جَمِيعُ خِصَالِهِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَآلِهِ

أيها السادة:

ما زلنا هناك، وأرى الحبيب الأعظم مع زوجته أم المؤمنين السيدة عائشة والسيدة أم سلمة، وكان أول شخص شاهدها على باب النبي سيدتنا عائشة رضي الله عنها التي تقول: فوالله ما رأيتهما على باب حجرتي إلا كرهتهما وعرفت أن أمراً ما سيجري معها. ودخلت السيدة برة بنت الحارث على القائد الأعلى للأمة، وطرحت عليه قضيتها اسمعوها وهي تقول: يا رسول الله! أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومهم وقد أصابني من البلاء ما تعلم، فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبتة على نفسي فجئت أستعينك على أمري (د ٢ / ٣٤٧ - ابن هشام ٢ / ٢٩٤ - ٦٤٥).

فالسيدة برة جاءت تلوذ برسول الله، المرسل رحمة للعالمين، تستعين به ليقلل عثرتها وهو الذي أذل أهلها، مع أنهم هم البادئون بالغزو، ورسول الله هم تفتح القلوب لدعوته وليس هم الغنم والسي، رأى امرأة عربية كريمة تلوى في الذل والمهانة، سيدة حرة تلوذ به لتنجو من مهانة الرق وعاره، ونظر القائد الأعلى للأمة وتأمل أكثر من ذلك، لقد أمل بأكثر من ذلك، وهو الذي رق قلبه وهي ببابه قلقة، ولا من ينقذها سواه، انتبهوا إلى عين النبوة كيف ترى البعيد قريباً، قال لها:

- فهل لك خير من ذلك؟. فسألتها متعجبة: وما هو يا رسول الله؟ فأجابها بترفق: - أفضي عنك كتابتك وأتزوجك. وشعشع الفرح في عيني الفتاة وقالت في فرح غامر: - نعم يا رسول الله. فقال السيد الأعظم: قد فعلت.

كل هذه المحاورة و السيدة عائشة تسمع وتنظر إليها، وإليك التصريح الهام

الذي صرحته السيدة عائشة قالت: كانت برة امرأة حلوة ملاحه، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه.

أيها السادة:

إن سيدنا رسول الله ﷺ لم يرفع عن السيدة برة ذل الرق فقط، بل رد إليها عزها وغسل العار والثأر عن المهزومين، إن نبينا حول بهذا الزواج الهزيمة والعداء إلى ألفه وولاء، وإليكم الدليل الناصع:

فقد وصل خبر زواج برة من سيدنا محمد ﷺ وكان الصحابة من أشد الناس تعظيماً لسيدنا محمد ﷺ فقال: أصهار رسول الله ﷺ وقوم زوجته أسرى عندنا؟!، فإذا بهم يعتقدونهم جميعاً أحراراً لوجه الله تعالى.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: فلقد أعتق بها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها.

ووصل المسلمون إلى المدينة، وتزوج رسول الله ﷺ من برة بعد أن أصدقها أعظم صداق، وضرب عليها الحجاب وغير اسمها من برة إلى جويرية، وصارت أمّاً للمؤمنين وهي في العشرين من عمرها، وكانت أول سيرة لرسول الله ﷺ أعتقها وأسلمت ثم تزوجها.

أيها السادة:

لم تكتف عيّن النبوة بالنظر إلى عتق قوم جويرية، ولكن نظراً أبعد نظر إليه المرسل رحمةً للعالمين، انظروا إلى الهدف الأسمى من هذا الزواج المبارك:

فقد جاء والدها إلى المدينة مع وفد قومه ليقدم فداءً لابنته، فقال له رسول الله ﷺ: رأيته أن أخيرها، أليس قد أحسنت. قال: فخيرها والدها فقالت: اخترت الله ﷻ ورسوله وأخبرت والدها عن الإسلام وسماحة المسلمين وكرم رسول الله ﷻ فإذا بالدها يصرخ عالياً:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ

هذه الشهادة التي نطق بها من قلبه سيد بني المصطلق، جعلت جميع قومه يدخلون في الإسلام عن بكرة أبيهم فنادوا جميعاً:
ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
أيها السادة:

كانت السيدة جويرية نقية السريرة، شفاقة الروح، مقبلة على العبادة والتقرب، منذ دخلت في الإسلام، وعاشت في بيت النبوة تصوم النهار وتقوم الليل وتسبح الله كل وقتها، وتجتهد فيما تأتي من صنوف العبادة دخل عليها رسول الله ﷺ يوم جمعة فرآها صائمة فسألها: أصمت أمس، قالت: لا، قال: أتتوين الصيام غداً؟ قالت: لا، قال: فأفطري إذن (خ).

وعند الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ مرَّ عليها وهي في مسجدها (مصلاها)، ثم مرَّ عليها قريباً من نصف النهار. فقال: ما زلت على حالك التي فارقتك عليها (يعني وأنت تسبحين) قالت: نعم. قال: ألا أعلمك كلمات تقولينها. وفي رواية: لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهنَّ.
اسمعوا الكلمات وتمسكوا بها:

سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته (ثلاثاً)
(صحيح).

أيها السادة:

بقيت السيدة جويرية تروي أحاديث النبي ﷺ ويروي عنها ابن عباس وجابر وابن عمر وغيرهم. وكانت وفاتها في المدينة المنورة سنة ٥٠/هـ وقيل سنة ٥٦/هـ وكان عمرها خمساً وستين سنة. ودفنت في البقيع بجوار أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.
أيها الإخوة: لقد فعل هذا الزواج ما لم يفعله السيف في سلسلة المعارك الجهادية، وقد كان باستطاعة رسول الله ﷺ أن يجعلها ملك يمينه بشرائها، ولكنه كان

يهتم بانتشار الإسلام بالألفة والمحبة، فدعاه نظره البعيد إلى أن يعتقها ويتزوجها مسلمة حرة لتكون هذه النتيجة الإيمانية التي عشناها معاً طوال هذه القضية الإيمانية. فمن هي أم المؤمنين التاسعة. هل هي عربية، ما هي الحكمة من زواج النبي بها، أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الجمعة القادمة بإذن الله، وأعود بكم من هناك، إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله.



(٩٣)

السيدة طفيفة أم المؤمنين

الحمد لله الذي غرس في قلوب الصالحين معرفة، وأقام على الفطرة السليمة دينه وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ربى صحابته على البطولة والفداء والرجولة فهم كما وصف الحق ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ / الأحزاب : ٢٣ .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه التابعين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا مليكنا المقتدر وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

نحن اليوم على موعد مع سيدة ذات الحظ السعيد التي بلغت من النبالة والأرستقراطية مبلغاً عظيماً، سيدة كان أبوها حُيي بن أخطب ملك، وعمها أبو ياسر قائداً من قواد قومها، وزوجها كنانة بن الربيع أحد ملوك خيبر، وجدُّها الأعلى سيدنا هارون أخي نبي الله موسى، ثم تربعت على قمة المجد فكانت زوجة لسيدنا محمد رسول الله وأماً للمؤمنين.

فأي سيدة في التاريخ كان أهل بيتها مثل هؤلاء؟.

نحن أمام أم المؤمنين التاسعة في ترتيب دخول بيت النبوة، وهي السيدة صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير فقولوا رضي الله عنها.

أيها السادة:

إننا مع الحلقة الثالثة والتسعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها الإخوة:

ولدت هذه السيدة بعد البعثة بثلاث سنوات، ونشأت وتربت في مرابع اليهود من بني النضير، فهي بنت زعيم القوم ورئيسهم، وعندما هاجر رسول الله إلى المدينة ونزل بقباء، وتسامع اليهود بنزوله إلى جوارهم تسابقوا لمعرفة حقيقته وصفته ليتأكدوا من شخصيته ويقارنوا بينه وبين ما سجلته كتبهم عن النبي الموعود في ذلك الزمان. فاسمحوا لي - معشر السادة - أن أنتقل بكم إلى هناك لأنقل لكم هذا المشهد الذي التقى فيه حبي بن أخطب مع أخيه أبي ياسر، وهما يأتیان تعبان كسلانين ساقطين يمشيان الهوبنا يقول أحدهما للآخر: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال أعرفته وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه. قال حبي: - عداوته والله ما بقيت. وبدأت عداوة حبي هذا وأخوه أشد ما يكون حسداً للعرب على أن خرج منهم النبي الأمي.

فحاولوا الغدر برسول الله ومحاولة قتله، فأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم فحاصروهم ستّ ليال وأمر بقطع النخيل وحرقتها، وقذف الله في قلوب اليهود الرعب، وسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم فأمرهم بالخروج ومعهم متاعهم وأموالهم إلا السلاح فمنعوا منه. وتفرق اليهود من بني النضير فمنهم من سار إلى الشام، ومنهم من مضى إلى خيبر، وكان ممن سار إلى خيبر زعيم بني النضير حبي بن أخطب وكنانة بن الربيع.

لكن حياً بن أخطب ومن معه من بني النضير في خير راحوا يكيّدون للإسلام ويحاولون الإيقاع بالمسلمين والانقضاض على الإسلام، فحرّبوا الأحزاب في الخندق، بنو النضير - قريش - بنو غطفان - بنو قريظة، أتوا جميعاً ومعهم المنافقون فحاصروا المسلمين في الخندق قرابة الشهر في السنة الخامسة حتى جاءت الرياح وجنود الله من الملائكة، وإليكم هذا الوصف الدقيق الذي وصفه مولانا للمؤمنين على موجات سورة الأحزاب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صباحاً إلى المدينة، فجاءه جبريل ظهراً يأمره بالمسير إلى بني قريظة للقضاء عليهم لأنهم غدروا بالنبي والصحابة فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب والفرع فأرسلوا للنبي وأخبروه بنزولهم على حكمه وشاور رسول الله أصحابه ثم حَكَمَ فيهم سعداً بن معاذ فحكم: بأن تقتل الرجال وتسبي الذراري والنساء (ق).

وُنُقِدَ الحكم العادل فيهم وقتل حوالي سبعمئة رجل حتى جاء دور عدو الله حيي بن أخطب المحرك الأساسي لهذا الغدر، فضربت عنقه.

وكانت ابنته صفية في حصون يهود خيبر عندما قتل أبوها حيي، ولما بلغت سن الزواج زفت إلى سلام بن مشكم القرظي إلا أنه فارقها فتزوجها زعيم من قومها هو كنانة بن الربيع.

وذات ليلة رأت في المنام أن الشمس أو القمر قد أقبل من يثرب ثم وقع في حجرها، وفي الصباح حدثت زوجها بما رأت بكل براءة فإذا به يضربها على وجهها ضربة تركت أثراً بجانب عينها وقال: تحبين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من يثرب؟ وقد كان، وتحقق الحلم، فكيف ذلك؟.

أيها السادة:

تحقق هذا الحلم في السنة السابعة من الهجرة حين خرج رسول الله ﷺ بجيشه نحو خيبر للقضاء على اليهود نهائياً، والتخلص من أقوى أعداء المدينة في المنطقة الشمالية، فوصلت قوات المسلمين خيبر ليلاً، وفي الصباح بدأ القتال واشتد الهجوم واحمرت حديق الحرب وبدأت الحصون تتساقط حصناً حصناً، حتى استسلم اليهود وغنم المسلمون منه خيراً كثيراً، وكان لرسول الله ﷺ نصيب منه السيدة صفية بنت سيد قومها والتي قتل زوجها كنانة بن الربيع ضمن قتلى الحصن.

أيها السادة:

إننا هناك بجوار المدينة المنورة وأمام الحبيب الأعظم (صلوا عليه)، إليكم هذا العرض الذي عرضه على السيدة صفية قال لها: اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهود فعسى أن اعتقك فتلحقني بأهلك. فقالت: يارسول الله ﷺ، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، ومالي في اليهودية أرب، ومالي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام فإلهي ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي.

وهنا أعتقها رسول الله ﷺ وأسلمت وانتهت عدتها من زوجها، وتزوجها رسول الله ﷺ، وبذلك أزال كفرها وحقدتها وألمها بسبب أبيها وزوجها وأخيها الذين سقطوا في الميدان، وهي التي كانت السيدة الأولى في تلك الدولة المنهارة، فجبر رسول الله ﷺ خاطرها الكسير، وربط النبي بهذا الزواج بين الديانتين بين اليهودية والإسلام وأظهر

أنه لا يريد إراقة الدماء، بل يريد هداية البشرية وجمعها على المحبة والأخوة، فما الأديان والأنبياء إلا إخوان عَالَات، أي أولاد الرجل من نسوة شتى، دينهم واحد وشرائعهم مختلفة.

أيها السادة:

وهكذا انضمت سيدة جديدة إلى البيت النبوي على مضض من أمهات المؤمنين وعدم رضا منهن، فما أن دخلت حتى أتت السيدة عائشة منتقبة متخفية لتراها، فعرفها رسول الله ﷺ، فأدركها وأخذ بثوبها وقال: كيف رأيت ياشقيراء. قالت: رأيتُ يهوديةً. قال: لا تقولي هذا يا عائشة فإنها أسلمت وحسُنَ إسلامها، لكن الغيرة بقيت تشتد في قلب السيدة عائشة حتى حدثتنا عن ضررها صفية فقالت:

ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وهي في بيتي، فارتعدتُ من شدة الغيرة فكسرت الإناء، ثم ندمت. فقلت يارسول الله ﷺ ما كفارة ما صنعت؟ قال: إناء مثل الإناء وطعام مثل الطعام.

أسمعتم إلى هذه اللفتة الطيبة من رسول الله ﷺ والتوجيه السديد من الزوج العظيم إنه يذيب صخور الغيرة النسوية.

ومرة أخرى اجتمع بعض زوجات النبي عائشة وحفصة وأخذتا تفاخران صفية وتدلان عليها بأنهما من أزواجه وبنات عمومته، ويعيرانها بغربتها فبكت وشكت أمرها لطبيب القلوب ﷺ فطِيب خاطرهما وقال لها: ألا قلت لهن: كيف تكن خيراً مني وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد ﷺ (ت: ض) (١).

عندئذ قرت عين صفية وأحست بحماية رسول الله ﷺ لها.. حتى مرض رسول الله ﷺ المرض الأخير، حيث اجتمعت عنده نساءه في بيت عائشة فقالت صفية: أما والله ﷻ يانبي الله ﷻ لوددت أن الذي بك بي، فغمزت أزواج النبي ببصرهن،

وأبصرهن رسول الله فقال: مضمضن فقلن: من أي شيء يارسول الله؟ قال: من تغامزكن بصاحبكن، والله إنها لصادقة.

هذه هي شهادة سيدنا رسول الله في هذه السيدة الكريمة التي ودعت حبیبها رسول الله الوداع الأخير، وبقيت تروي أحاديث النبي الكريم وتتعبد في محرابها حتى وصل الخبر إلى أمير المؤمنين عمر عن طريق جارية لها أن صفة تحب السبت وتصل اليهود. فبعث إليها عمر يسألها، فقالت:

أما السبت فأني لا أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها، ثم سألت جاريتهما: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان. قالت: اذهبي فأنت حرة.

ثم نراها في فتنة الشهيد عثمان تنقل له الزاد والماء له ولأهله المحصورين حتى نفذ قضاء الله فيه.

أيها السادة:

عاشت السيدة صفية حتى جاوزت الستين عاماً بعامين، وعندما أحست بدنو أجلها تصدقت بدار كانت لها، وأوصت لابن أختها على اليهودية بثلاث ما تملك، يقول أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف:

فأبوا أن يعطوه حتكلمت عائشة، فأرسلت إليهم وقالت: اتقوا الله وأعطوه وصيته فأخذ ثلثها وهو ثلاثة وثلاثون ألف درهم ونيف، وهكذا نرى السيدة صفية تنقذ ولآخر لحظة الآية الكريمة: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ /المتحنة: ٨/.

فلا حرج عليها في أن تَبَرَّ ابن أختها إعمالاً للنص الكريم، وقد أخذت صورة
البر شكل الوصية لأنه لا يستطيع أن يرثها من حيث كان اختلاف الدين من موانع
الإرث.

أيها السادة:

توفيت السيدة صفية سنة ٥٢هـ ودفنت بالبقيع.
وهكذا ترون - أيها السادة - كيف قرَّب رسول الله ﷺ كثيراً من اليهود إلى
الإسلام، فدخلوا في دين الله مختارين، فرضي الله عنها وعن أمهات المؤمنين. فمن
هي أم المؤمنين العاشرة؟
أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى وأعود بكم من
هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد
الله تعالى.

(٩٤)

السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، بيده مقاليد الأرض والسموات ومصائر جميع المخلوقات، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله اتقى الله فوقاه، وتوكل عليه فكفاه واعتمد عليه فأيده بنصره وآواه.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يامليكننا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فياحماتة الإسلام وحراس العقيدة:

حديثنا اليوم يمس أوتار العقيدة في القلوب المؤمنة، فنحن اليوم أمام شخصية فريدة، مع ابنة زعيم من زعماء العرب وعظيمة من عظيمات الأمة التي اشتهرت في سماء الإسلام بتمسكهن بدينهن رغم مغريات الحياة.

درسنا اليوم حول عظمة الصحابة الذين درسوا في مدرسة سيدنا محمد ﷺ وأثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أن رابطة العقيدة أقوى من رابطة النسب قولاً وفعلاً، وخاصة بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ /المجادلة: ٢٢/.

فالأمة الإسلامية ترفع رأسها عالياً بتربية سيدنا محمد ﷺ، لقد أحسن رسول الله ﷺ تربية أصحابه، حوّل حياتهم من عباد للأصنام إلى عبادة الواحد الديان، من

أكلي الربا والحرام والخمر إلى أمة لا تبتغي عن الحلال بديلاً، حوّل حياتهم من اعتزازهم بالعصية القبلية إلى اعتزازهم بالله تعالى ودينه.

نعم - أيها السادة- إن وقفنا اليوم مع أم المؤمنين العاشرة، إلا أن لزواج النبي منها سر عظيم ونباً جليل وصفه مؤرخو السيرة بأنه زواج سياسي كان من نتيجته دخول أبيها زعيم مكة وقومها في الإسلام في فتح مكة المكرمة.

إننا مع الحلقة الرابعة والتسعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها السادة: أنزل معكم اليوم ضيوفاً على سيدة عربية قرشية من بني أمية هي: السيدة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموية.

وأما صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس عمة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأخوها ملك الإسلام سيدنا معاوية بن أبي سفيان من جهة أبيها.

ولدت هذه السيدة قبل البعثة النبوية بسبعة عشر عاماً، ولما بلغت سن الزواج تزوجت حليف بني أمية عبيد الله بن جحش بن رئاب من بني أسد، وهو أخ شقيق لعبد الله بن جحش (شهيد أحد).

وحينما دعاها رسول الله إلى الإسلام أعلننا إسلامهما وتحملا من العذاب معاً ما تحمله المسلمون في أول الدعوة حتى فرّت بدينها مع زوجها إلى الحبشة مع من هاجر وهي حبلى متوجعة، وما أن عاشا في كنف النجاشي فترة من الزمن حتى أنجبا ابنتهما حبيبة التي اكنّت أمها بها حتى نسي اسمها الأصلي وعرفها المسلمون بعد ذلك بأم حبيبة فقولوا رضي الله عنهما .

أيها الإخوة: وفي الحبشة تسامع المهاجرون إسلام أسد الله حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب عملاق الإسلام فظنوا أن مكة كلها أسلمت، فرجع أكثرهم إلى بلدهم الحبيب، ولكن أم حبيبة وزوجها وابنتهما بقوا مع من بقي هناك.

فقد كانت أم حبيبة تعلم أن أبها أبا سفيان مازال على الشرك، فأثرت أن تبقى في دار الهجرة بعيداً حتى يأذن الله تعالى.

وفي السنة السادسة للهجرة - كما يروي ابن سعد بسنده عن أم حبيبة - أنها رأت رؤيا أفرعتها، رأت أن زوجها عبيد الله في المنام بأشوه صورته وأسوأ حال وأبشع منظر، فقامت من نومها فرعة تستعيز بالله من الشيطان ومن شر ما رأت، لكنها تبينت حقيقة تأويل رؤياها الصادقة حين ابتدرها زوجها صباحاً قائلاً: - يا أم حبيبة إني نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية، وكنت قد دُنتُ بها (آمنت بالنصرانية) ثم دخلت في دين محمد ثم رجعت اليوم إلى النصرانية (أي ارتد عن الإسلام) (ابن اسحق كتاب السير ٢٥٩ - طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٨).

فقالت له: والله ما خير لك، إني رأيت في منامي كذا وكذا، فحذرتُه ووعظتُه، لكنه لم يحفل بها ولا برؤياها، وأكب على الخمر حتى مات. لكن السيدة أم حبيبة بقت على دينها متمسكة بشريعة ربها، ترفع رأسها عالياً بها، فإذا بها ترى في منامها منادياً يناديها قائلاً: يا أم المؤمنين.

أيها الإخوة الكرام:

وتناقل خبر ردة عبيد الله بن جحش جميع من في المدينة، وعلم رسول الله بهذا الخبر، وأن السيدة أم حبيبة مازال على دينها لا تحيد عنه قيد شعرة، ولا تبغي عنه بديلاً، فأراد أن يكافئها أعظم مكافأة ويجازيها أعظم جزاء على ثباتها وصبرها. وكانت الإرادة الإلهية أن تكون السيدة أم حبيبة زوجاً لسيد الكائنات وبطل الأنبياء، فنالت الوسام الأعظم الذي تتمناه كل امرأة، “وسام أم المؤمنين” فكيف تم ذلك؟

معشر السادة:

اسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى أرض الحبشة لأشهد معكم هذا الزواج المبارك العظيم الذي عقده ملك الحبشة (النجاشي)، فقد أرسل إليه سيدنا رسول الله ﷺ بعد أن انقضت عدتها ليخطب له أم حبيبة التقية النقية. تقول السيدة أم حبيبة رضي الله عنها:

«لما انقضت عدتي استأذن علي بابي جارية للنجاشي، فدخلت علي فقالت:
- إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه فقلت: بشرك الله بالخير (ثم ألفت إليها سوارين من فضة مكافأة لبشارتها).
ثم قالت الجارية: يقول لك الملك وكلي من يزوجه.
فأرسلت السيدة أم حبيبة إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا فقام سيدنا النجاشي خطيباً فقال:

الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار.
وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنه بَشَّرَ به عيسى ابن مريم» .

أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقته أربعمئة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم، فقولوا رضي الله عنه.

ثم قام وليها سيدنا خالد بن سعيد فقال:

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستنصره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد: فقد أجبته إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسول الله.

ثم دفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أراد القوم أن يقوموا فقال:

- اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

وهكذا -معشر السادة- تم الزواج بكل أركانه وشروطه وسننه: إيجاب وقبول، ومهر وشهود، وولي ووليمة، ولم يبق إلا رحيل العروس إلى الزوج العظيم يا سعد من صلى عليه.

أيها الإخوة:

وانتشر الخبر بين العرب، وانقلبت السخرية على أبي سفيان لأنه كان يومها زعيم معسكر الشرك، سبحان مقلب القلوب: كان نوح نبياً رسولاً وكان ابنه كافراً، وكان إبراهيم نبياً رسولاً وكان أبوه كافراً، وكان خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل صحابيين جليلين وكان أبواهما من ألد أعداء سيدنا محمد ﷺ، وكان الحبيب الأعظم إذا رأى خالداً وعكرمة قال: سبحان الله يخرج الحي من الميت.

لكن أبا سفيان قطع السنة الساخرين، وأعلن أنه يرفع رأسه عالياً بهذا الزواج، وأطلق كلمته المشهورة: «هو الفحل لا يقدرع أنفه» -صلوا على النبي- هو الكف الكريم الذي لا يرد.

أيها السادة:

وما أن أتت السنة السابعة للهجرة حتى تهيأ رسول الله ﷺ لتأديب اليهود بعد أن ازداد خطرهم فتوجه لقتالهم في خيبر، بعد أن أرسل إلى النجاشي رسولاً يعلمه أن يرسل المسلمين المتبقين في الحبشة فقد ثبتت أركان الإسلام وقامت الدولة الجديدة، ولم يبق إلا عودة الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً، فإذا بهم يعودون والنبي في

خير، فشدوا الرحال إلى خير ليلقوا رسول الله هناك وقد فتح الله عليه ونصره والتأم الشمل، فقد كانت أم المؤمنين السيدة أم حبيبة مع القادمين بعد حوالي خمسة عشر عاماً قضتها مهاجرة في سبيل الله، عادت ومعها ابنتها حبيبة محملة بالهدايا والعطور من سيدنا النجاشي (واسمه أصحمة)، وكان على رأس الوفد الإسلامي القادم من الحبشة سيدنا جعفر بن أبي طالب ابن عم سيدنا النبي، وما أن رآه رسول الله حتى قال:

- ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خير أم بقدوم جعفر (فتح ٦٢٦٢).

أيها السادة:

تكاد الروايات تجمع على أن سن السيدة أم حبيبة كانت في الثلاثين عند قدومها المدينة، فأقامت في حجرة من حجرات النبي مع أمهات المؤمنين تتعلم وتعلم وتحفظ الحديث والقرآن، ولها في كتب الحديث خمسة وستون حديثاً روتها عن زوجها حبيب الله تعلمتها في خلال ثلاث سنوات من مكوثها عنده قبل وفاته .

في السنة الثامنة من الهجرة وبعد نقض معاهدة الحديبية وفي رمضان، هذا الشهر المبارك الذي لم يكن عند الصحابة شهر ترفيه بل كان شهر توجيه، ولم يكن شهر تسلية بل كان شهر توعية، وجهز رسول الله جيشه لفتح مكة، وعلم (زعيم المشركين) أبو سفيان بذلك فأسرع من مكة إلى المدينة ليمدد فترة الصلح ويرمم ما انتقض من صلح الحديبية، فكان أن توجه إلى أم حبيبة رضي الله عنها، ففوجئت رملة به في بيتها ولم تكن قد رآته منذ هاجرت إلى الحبشة.

أيها الإخوة: إننا في بيت رسول الله تعالى لتلتقط العدسة الإيمانية هذا المشهد، وأبو سفيان واقف على الباب، الرجل الذي حارب معسكر التوحيد إحدى وعشرين عاماً ، قرابة ربع قرن من الزمان كان ألد أعداء المصطفى ، قالت له مباشرة:

- ماذا تريد يا أبا سفيان؟

لم تقل له يا أبت لأن الإسلام رفع الأبوة بينها وبينه، هو مشرك.
دخل أبو سفيان وتوجه إلى الفراش الوحيد في الغرفة فوثبت أم حبيبة فاخبطت
الفراش وطوته. فقال أبو سفيان:

- أرغبة بي عن الفراش طويته، أم رغبة بالفراش عني؟
أي أن هذا الفراش لا يليق بي وبمقامي ومكاني، أم أنني لست أهلاً كي أجلس
عليه؟.

فقالت أم حبيبة الطاهرة الصادقة، التي قارب الإيمان بينها وبين رسول الله
والمسلمين، وباعد الشرك بينها وبين أبيها قالت بثقة وجرأة:

- والله لا يجلس عدو الله على فراش حبيب الله.
يا أبا سفيان هذا فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه،
إنها العقيدة، العقيدة إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكناً،
العقيدة إذا مزجت بماء البحر الأجاج تجعله فزاً عذباً سلسبيلًا.
قم عن هذا الفراش فهذا فراش حبيب الله أطهر خلق الله وأنت مشرك نجس،
وهل هناك أطهر من سيدنا محمد في هذا الوجود؟.

فقام أبو سفيان وبه رعدة، وانتفض كمن صب عليه سطل ماء في ليلة شاتية، ثم
قال لها وهو يخرج: يا بنية لقد أصابك بعدي شر. فقالت له وهي تلحقه إلى باب
الحجرة:

لا يا أبا سفيان، بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا
يصر، واعجباً منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها.

أيها السادة: زلزلت هذه الكلمات موقف الشرك في أعماق أبي سفيان ومهدت
الطريق بعد ذلك لإيمانه بعد أيام قليلة من هذا الموقف.

فمساكين أولئك الذين تفوتهم روعة عمل نبينا الكريم فينسبونهم إلى تلبث
الشهوة، لأن هذا الزواج - أيها الإخوة - زواج سياسي من الدرجة الأولى، فلم

تمض أيام على وجود أم المؤمنين في بيت النبوة حتى دخل أبو سفيان في الإسلام قبل دخول جيوش القيادة العامة للجيش المسلم مكة المكرمة، وكان سبباً لتأليف قلوب قومه وعشيرته فدخلوا جميعاً في الإسلام، كما أنه إعلان من القائد الأعلى للأمة أنه اختارها لنفسه تكريماً لها على إيمانها لأنها خرجت من ديارها فارةً بدينها، وبقيت عليه رغم ردة زوجها فكانت المكافأة على قدر التضحية.

أيها السادة:

حجت السيدة أم حبيبة مع رسول الله في حجة الوداع وأذن لها رسول الله أن تنفر قبل الفجر من مزدلفة إلى منى قبل نزول الحجيج، ثم عاشت حتى استقر الأمر لأخيها معاوية، وحين أحست بدنو أجلها في عام ٤٤ هـ راحت تتحلل من ضرائرها وتستغفر لهن وتطلب منهن التجاوز عما كان بين الضرائر، وودّعت الأمة أم حبيبة إلى مرقدها الأخير في البقيع فقولوا رضي الله عنها.

فمن هي أم المؤمنين الحادية عشرة، أعلق هذا السؤال لأجيب عنه بإذن الله تعالى في الجمعة القادمة وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.

الله

(٩٥)

السيدة مارية وريحانة

الحمد لله منزل الكتاب، ومفصل الخطاب، وفتاح أبواب الصواب، ومناج
أسباب الثواب.

أحمده سبحانه وتعالى وهباته ونعمه تنزل بغير حساب، وأعبده فإليه المرجع
والمآب، وأرجوه وأخافه فييده الثواب والعقاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً مقدماتٌ دلالتها مبيّنة
الأسباب، ونتيجةً اعتقادها جنةً مفتحة الأبواب.

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً
عبده ورسوله أرسله وقد طال زمن الفترة وتُسيّت الآداب، وبعد عهد النبوة فزال
الحق وانجاب فمنازل الهدى خراب، ومعاهده لا تُعتاد ولا تُنتاب، وللناس بالشهوات
والشبهات إعجاب، حتى افرد النظر بالدنيا وادّعي تعدد الأرباب. فاختار الله
سيدنا محمداً من أشرف الأنساب وخيرة الأحساب.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى
أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك
يامليكننا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته
رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فياحمّة الإسلام وحراس العقيدة

كنت أريد أن أختتم معكم اليوم ملف أمهات المؤمنين بالحديث عن أم المؤمنين
الأخيرة في دخولها بيت النبوة لكنني نظرت فوجدت أن امرأة أخرى كانت قد
سبقتها في دخول بيت النبوة، نعم هذه المرأة ليست من أمهات المؤمنين لأنها (أمة)
أو بتعبير أدق سريّة، فنحن أمام ألفاظ ثلاثة أرى أنه من الواجب علينا أن نفهمها

لنقف على حقيقة الأمر في هذه السيدة الجديدة، ذلك أن علماء السير والمؤرخين يدققون في الألقاب لتكون مطابقة للحال.

فلقب أم المؤمنين يعني أو المقصود منه: نساء النبي الحرائر، أي اللواتي قَسَمَ لكل منهن رسول الله ﷺ ليلة يبيت عندها وأسكنها بيتاً أو حجرة من حجراته حول المسجد النبوي.

واللقب الثاني: هو لقب الأمة أو الجارية التي تكون عند السيد تخدمه دون أن يبي بها أو يطأها وله الحق في بيعها وهبتها وغير ذلك.

واللقب الثالث: هو لقب السرية: والمقصود منه الأمة التي تكون عند سيدها فيتسرى بها أي يبي بها ويطأها بملك يمينه ولا يحل له أن يجمع بينها وبين أختها في الوطاء، فإن ولدت له ولداً سميت أم ولده فيَحْرَمُ عليه بيعها أو هبتها أو التصرف فيها، وتكون حرة بعد موته، أي أن ولدها أعتقها من الرق.

وهذا ما سيكون الحديث عنه اليوم، فنحن أمام سريتان لسيدنا رسول الله ﷺ فمن هما؟ وما هي أخبارهما؟ من هو الابن الأخير لسيدنا رسول الله ﷺ؟

أجيب عن هذه الأسئلة بإذن الله تعالى مع الحلقة الخامسة والتسعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة نرفع عالياً شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها السادة الكرام:

كان عند جدي سيدنا رسول الله ﷺ سريتان:

الأولى: السيدة ربحانة بنت زيد من بني النضير، سبيت مع غنائم بني قريظة بعد أن قتل زوجها الحكم، وكانت بعد تقسيم الغنائم من نصيب سيدنا رسول الله ﷺ، فأرسلها إلى أم المنذر بنت قيس من بني النجار لتبقى عندها حتى تعتد بحیضة واحدة، وعندما طهرت في المحرم سنة ٦ هـ عرض عليها رسول الله ﷺ أن تسلم فيعتقها

ويتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك فتركها. لكنه لم يقرها لأنها تعصبت لليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه لذلك من أمرها.

وبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: إن هذا لثعلبة ابن سعيد (وهو أحد من أسلم من يهود بني قريظة) يبشرني بإسلام ربحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله أسلمت ربحانة.

فسرّه ذلك منها، وقام إليها ووطأها بملك اليمين، ولذا لم يقسم لها ولم يسكنها في بيوت أمهات المؤمنين، إنما بقيت عند أم المنذر في بني النجار حتى توفيت في السنة العاشرة للهجرة عند عودته ﷺ من حجة الوداع، فدفنها في البقيع بجوار السيدة زينب بنت خزيمة فقولوا رضي الله عنهما.

لكن ابن سعد في الطبقات (١٣٠/٨) يذكر أنها أسلمت يوم غنمها رسول الله ﷺ فأعتقها وتزوجها وأصدقها وأعرس في بيت أم المنذر، وأنه كان يقسم لها كما كان يقسم لنسائه وأنه ضرب عليها الحجاب، والله أعلم بذلك.

أيها الأخوة:

نحن اليوم ننزل ضيوفاً على السيرة الثانية ألا وهي أم سيدنا إبراهيم السيدة مارية بنت شمعون القبطية التي دخلت فجأة بيت النبوة، فقد فوجئ بها رسول الله ﷺ بعد عودته من صلح الحديبية.

فكلنا يعلم أنه راسل الملوك والرؤساء والأمراء من النصارى والمجوس برسائل وصل عددها إلى عشر رسائل، بل ذكر صاحب الطبقات أربعين رسالة له ﷺ لجميع ملوك الأرض (٢٦٤/١)، أرسلها مع أصحابه الذين بعثهم في أنحاء الجزيرة العربية وخارجها، فكان نصيب حاطب بن أبي بلتعة الذي كان يعرف اللغة المصرية القديمة أن يرسل إلى المقوقس جريج بن مينا عظيم القبط في مصر.

ولما نظر المقوقس في الرسالة قرأ فيها:

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد:

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط.

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط...

قرأ المقوقس الكتاب بإمعان وتأمل في مضمونه، ولعله أدرك أن سيدنا محمداً هو النبي الذي بشر به السيد المسيح في الإنجيل، فمال إلى الإسلام، لكنه خشي من قومه وخاف من الروم على ملكه أن يسلب منه عندما يسلم، ولذا كان رده على رسول الله سياسياً حذراً، ليس فيه قبول أو رفض، إنما ظاهرة سياسة ومداهنة وتلطف، قال لحاطب بن أبي بلتعة:

- لقد أمرت لك بمئة دينار وخمسة أثواب، فارحل عني ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً.

ثم سلم له رسالة إلى رسول الله وبعث معه جاريتين وعبدًا وبطيبي وثياب ومطية وبعض خيرات مصر كالعسل.

أيها السادة:

وجد رسول الله ﷺ كل ذلك أمامه عند عودته من صلح الحديبية فاخذ الرسالة وأمر بقراءتها بين يديه، فإذا فيها:

من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله

سلام عليك

أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وثياب، وأهديت لك بغلة لتركبها، والسلام عليك.

بهذه الرسالة ظهرت حكمة المقوقس وسياسته المحنكة، حين أرسل الهدايا، فبدأ في نظر النبي غير معارض لدعوته، أو رافض لرسالته، وزاد من جمال الموقف أن الجاريتين دخلتا في الإسلام، وهما السيدة مارية القبطية وأختها سيرين، فاتخذ رسول الله ﷺ لنفسه السيدة مارية ووهب شاعره حسان بن ثابت أختها سيرين، وأنزلها في بيت من بيوت حارثة بن النعمان بجوار بيوت أزواجه.

واشتعلت نار الغيرة في قلوب أمهات المؤمنين لما وجدن أن سيدنا النبي يكثر من زيارة السيدة مارية، وإليك هذا التصريح الهام الذي صرحته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها التي قالت:

- ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنه كانت جميلة جعدة، فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أزل ما قدم بها في بيت الحارث بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة ليله أو نهاره عندها حتى فرغنا لها فجزعت فحولها إلى العالية (على بعد ٥ كم من المدينة) فكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد علينا.

وقد ذكر المؤرخون وكتب السيرة أن السبب في نقلها إلى خارج المدينة همسة مريبة تتهم السيدة مارية بمثل ما اتهمت به قبلها أم المؤمنين السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها.

أيها الإخوة: اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى جوار المسجد النبوي الشريف لنشهد هذه المحنة التي وقعت فيها السيدة مارية كما ذكرها صاحب الاستيعاب عن محمد بن عبد الله الأزهري عن أنس بن مالك قال:

((كانت أم إبراهيم سرية النبي ﷺ في مشربتها وكان قبطي (الذي أهده المقوقس له) (١) وكان هذا القبطي يأوي إليها ويأتيها بالماء والخطب، فقال الناس في ذلك (علج يدخل على علجة) (٢) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجد القبطي على نخلة هناك، فلما أخذ سيدنا علي سيفه

وقع في نفس القبطي ما يريد وألقى الرداء الذي كان يستره فتعري فإذا هو محبوب، أي لا يستطيع الاقتراب من النساء، فعاد سيدنا علي للنبي وأخبره. فخاف عليها فنقلها إلى العالية بضواحي المدينة توفيراً لراحتها وسلامتها وعناية بصحتها.

إلا أن حدثاً سعيداً وأملاً بارقاً وفرحة غامرة ملأت هذا البيت الجديد، إذ أن السيدة مارية أعلنت أنها حامل، فقد أحست ببوادر الحمل حين دخلت عامها الثاني مع سيدنا رسول الله الذي كان قد شارف على الستين وما أن دخلت السنة الثامنة للهجرة في شهر ذي الحجة حتى دخلت أم رافع القابلة لتبشر سيدنا محمداً بمولد ولده فأكرمها ثم أسرع إلى بيت جاريته فرحاً مسروراً حامداً شاكراً ليحمل الغلام بين يديه ويسميه إبراهيم مما زاد في غيرة أمهات المؤمنين وخاصة السيدة عائشة رضي الله عنها.

وحلق رسول الله شعر سيدنا إبراهيم في اليوم السابع وتصدق بوزن شعره فضة على مساكين المدينة، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه، فاختار رسول الله مرضع ولده، وجعل في حيازتها سبعاً من الماعز كي ترضعه بلبنها إذا شح ثديها.

وكان الوحي إذا نزل عليه يؤنسه ويسلم عليه قائلاً: السلام عليك يا أبا إبراهيم. وبدأ الطفل الحبيب يحبو على يديه ورجليه على الأرض، وتزداد سعادة والديه به حتى قارب على العامين، لكنه فجأة مرض فبدأ القلق يتسرب إلى أهل البيت، وأما سيدنا رسول الله فضرب المثل الأعلى في الثبات أمام المصائب، وفي الصبر عند الملمات، يقول سيدنا جابر يصف الحزن الذي اعتري سيدنا رسول الله وهو يأخذ ولده من حجر أمه، وهو يجود بنفسه، فوضعه في حجره وتتحدر دموع النبوة على خديه كحبات اللؤلؤ ثم قال: ((يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك حزناً هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، وتبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب)).

ثم نظر إلى أمه السيدة مارية التي اعتراها ما يعتري الأمهات عند فقد أولادهن وقال مواسياً لها: ((إن له لمرضعاً في الجنة)). وأقبل الفضل بن عباس فغسل الصغير وأبوه رسول الله ﷺ جالس يرنو إليه في حزن بالغ وقطرات النبوة تفيض من عينيه. وحمل جثمان الطفل إبراهيم من منزل أمه المفجوعة، وسار وراءه سيد الأمة وعظيمها وخلفه الصحابة الأجلاء بصمت رهيب إلى البقيع، وصلى عليه القائد الأعلى للأمة، وأضجعه بيده في قبره، دفنه إلى جوار عثمان بن مظعون وقال له: «الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون»، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء. وما هي إلا لحظات إذا بالشمس تنكسف ويذهب ضوءها، فنظر الناس بعضهم إلى بعض وصاروا يقولون: إنها انكسفت لموت إبراهيم. وبلغت الكلمة مسمع نبينا (صلوا عليه) فالتفت إلى أصحابه وقال لهم: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ﷻ لا تحسفان لموت أحد ولا لحياته».

أيها السادة:

لم تطل حياة السيدة مارية كثيراً، فبعد وفاة نبينا بخمس سنوات أعني سنة ست عشرة من الهجرة، وفي زمن سيدنا عمر بن الخطاب توفيت السيدة مارية، وراح عمر يجمع الناس بنفسه لشهود جنازتها، وصلى عليها ودفنت بالبقيع. فمن هي أم المؤمنين الأخيرة، ما سبب زواجها من سيدنا رسول الله ﷺ؟ أترك هذا السؤال - أيها السادة - لأجيب عنه في الخطبة القادمة باذن الله تعالى. وانتقل بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.



(٩٦)

السيدة ميمونة بنت الحارث

الحمد لله العلية ذاته، المجيدة صفاته، القديمة أسماؤه وآياته، الظاهرة أفعاله، الباهرة أنواره، المتصرفة أقداره، فسبحان من لا أرض تحوطه ولا سماء تكتنفه وتحويه. أحمده حمداً منه بدأ، وإلى صفة الشكر يعود، وأثني عليه ثناء لا يحصى متعلقاً بصفة الشكر غير محدود.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ما لها حدود، متعلقة بذاته العلية مشتملة على ذرات الوجود.

وأشهد أن سيدنا وحيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من في الوجود.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا ملكنا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين، وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين، وسلم تسليماً صلاة وسلاماً ما لهما حدود.

أما بعد: فيا حماة الإسلام وحراس العقيدة

قبل أن أنتقل بكم إلى زيارة أم المؤمنين الأخيرة أرى لزماً علي أن أذكر أن بعض علماء السيرة ذكروا بعض الزوجات اللواتي لم يدخل بهن رسول الله ﷺ وطلقهن، أو اللواتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فقبلهن ثم ردَّهن، لنكون بذلك قد أتينا على جميع حياة نبينا الشخصية.

فمنهن: السيدة فاطمة بنت الضحاك التي تزوجها رسول الله ﷺ فلما دنا منها قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها: لقد عدت بعظيم، الحقى بأهلك. أي طلقها وعادت إلى أهلها، وكانت تقول بعد ذلك: أنا الشقية. ماتت سنة ستين للهجرة. ومنهن: أسماء بنت النعمان الكندية.

التي كاد بها السيدتان عائشة وحفصة قالتا وهما يمشطانها ويخضبانهما: إذا دخل عليك رسول الله ﷺ فاستعيزي بالله منه فإنك تحظين عنده ويرغب فيك (خ: فتح الباري ٩ / ٣٥٦).

يقول ابن سعد: وإنما خدعاها لما رآها من جمالها وهيئتها، وحين طلقها رسول الله ﷺ (بعد أن قالت له ذلك) ذكر له أن السبب في ذلك عائشة وحفصة فقال رسول الله ﷺ: إنهن صواحب يوسف وكيدهن عظيم.

ومنهن: ليلى بنت الخطيم: وهبت نفسها للنبي وكانت غيرة متسلطة على أزواجها السابقين فاستقالت فأقالها وردها.

ومنهن: أم هانئ فاختة بنت أبي طالب ابنة عمه ﷺ خطبها في الجاهلية قبل زواجه بخديجة فتزوجت غيره، فلما أسلمت فرّق الإسلام بينها وبين زوجها، فخطبها رسول الله ﷺ فقالت: والله إني كنت أحبك في الجاهلية فكيف في الإسلام، ولكني امرأة مصيبة وأكره أن يؤذوك. فقال رسول الله ﷺ:

«خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده» (خ: ٥٠٨٢ - م: ٢٥٢٧).

ومنهن: السيدة أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب: عرضت عليه ليتزوجها فقال: «إنها ابنة أخي حمزة من الرضاعة وإنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» (خ: ٤٢٥١).

وهناك نساء أخريات ذكرت الأخبار أنهن قد تزوجهن رسول الله ﷺ ولم يدخل بهن، أو خطبهن ولم يتم نكاحه معهن، والأخبار بشأنهن قليلة.

أيها السادة الكرام:

اسمحوا لي أن أزور معكم اليوم السيدة الأخيرة ذات الحظ السعيد التي دخلت بيت النبوة في الحلقة السادسة والتسعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترفعوا شعار التوحيد:

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

أيها الإخوة:

أم المؤمنين الأخيرة هي السيدة ميمونة بنت الحارث بن حزن من بني هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية.

وأما هند بنت عوف التي ذكر أنها أكرم عجوز في الأرض أصهاراً. فقد زفت ابنتها السيدة زينب بنت خزيمة إلى رسول الله ﷺ وماتت في حياته. ثم زفت ابنتها الثانية: أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث إلى العباس بن عبد المطلب.

ثم زفت ابنتها لبابة الصغرى إلى الوليد بن المغيرة. ثم زفت ابنتها أسماء بنت عميس إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب فلما مات عنها زفت إلى سيدنا أبي بكر الصديق، فلما مات عنها تزوجها علي بن أبي طالب. ثم زفت ابنتها سلمى بنت عميس إلى سيدنا حمزة بن عبد المطلب. وها هي اليوم تزف ابنتها الأخيرة ميمونة بنت الحارث إلى سيدنا رسول الله ﷺ. فمن هو أكرم من هذه العجوز؟ قولوا رضي الله عنها.

أيها السادة: كانت السيدة ميمونة متزوجة في الجاهلية من مسعود بن عمرو الثقفي ثم فارقها، فتزوجت أبا رهم بن عبد العزى من بني عامر بن لؤي فتوفي عنها. وكانت رضي الله عنها قد أسلمت وبايعت سيدنا رسول الله ﷺ قبل هجرته، إلا أنها لم تهجر، وظلت في مكة حتى كان عام القصاص أو عمرة القضاء بعد عام الحديبية.

وها هو سيدنا رسول الله ﷺ يدخل مكة المكرمة في السنة السابعة من الهجرة لأداء العمرة مع ألفين ممن شهد الصلح العام السابق ومن انضم إليهم، ها هم يدخلون مكة محرمين بالعمرة ترتفع أصواتهم ملبين:

لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك.

فتجاوبت أرجاء مكة بالهتاف المؤمن، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام، وتسامعت قريش هذا النداء الخالد حين بلغ الصحابة الحرم المكي، فخرجوا من الحرم وصعدوا إلى التلال ورؤوس الجبال المجاورة للحرم، وراحوا ينظرون بأم أعينهم إلى المؤمنين الصادقين وهم يسيرون خلف سيد المرسلين يحيط به كبار الصحابة الكرام، يتجهون نحو الكعبة لا يصدهم أحد عنها، وهم ينشدون نشيد التلبية:

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

وانظروا - معشر السادة - إلى هذا الطرب الذي أصاب صحابة النبي ﷺ، وهم يسيرون فرحين آمنين ينفذون مشيئة مولانا عز وجل:

﴿لقد صدق الله ﷻ رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾.

إنك - يا أخي المسلم - لتقدر هذا المشهد العظيم حين تسمع وأرجاء الحرم المكي المباركة تهتز بهذا النداء، وارفح رأسك عالياً لترى على التلال أشد الكافرين صلابة وعناداً وعبدية الأصنام، انظروا إليهم -أيها الإخوة- كيف انجذبوا إلى الإسلام وسكتوا وخشعوا وخشعت قلوبهم إلى الإسلام إلى نداء التوحيد وهو يدوي ينبعث من القلوب المؤمنة:

ليبك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك .

كان هذا النداء يخترق الآذان ويصل إلى شغاف قلوبهم فيهبها هزاً، وأمام هذا المنظر الأخاذ ارتعش قلب سيدة من أكرم سيدات مكة، وهي برة بنت الحارث، وكانت أرملة فتقدمت برة إلى أختها أم الفضل لبابة الكبرى زوج جدي العباس رضي الله عنهما، وحدثتها بما يهفو إليه قلبها، قالت لأختها: هل تحبّين زوجك العباس ليحدّث رسول الله أنني أرغب بالزواج به، وأنني وكلت العباس لعقد العقد. وحدّث العباس سيد الكائنات عن رغبة السيدة برة بزواجها منه، فقبل رسول الله ﷺ، وعقد عليها وغير اسمها إلى ميمونة، لكن المهلة التي أعطتها قريش للعمرة كانت ثلاثة أيام، فأرسلت قريش من قال للنبي ﷺ إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. فقال ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه. فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا.

أيها الإخوة:

وخرج رسول الله ﷺ، ووكل أبا رافع مولاه لإحضار السيدة ميمونة إلى منطقة سرف خارج مكة، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك، وفي ذلك يروي الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال». أي بعد تحلله من العمرة، وكان عمرها ستاً وعشرين سنة، وأصدقها أربعمئة درهم.

وهكذا -معشر السادة- تخلف أختها السيدة زينب بنت خزيمة، وكانت من السيدات المتعبدات الزاهدات، شهد لها رسول الله ﷺ بالإيمان فقال: «الأخوات مؤمنات: ميمونة وأم الفضل وأسماء». أي بنت عميس.

أيها الإخوة:

وتروي لنا كتب السيرة الصفات التي تميزت بها شخصية هذه السيدة عن أمهات المؤمنين، وأهم هذه الصفات القرار الذي اتخذته في نفسها بأن:

١ - تتزوج سيدنا رسول الله ﷺ أو تهب نفسها له حتى إذا انتقل إلى الرفيق الأعلى اتخذت قراراً آخر.

٢ - ألا تتمتع بلحظة من لحظات الرضا بجمالها، فقد لجأت إلى أن تخلق رأسها في مسلك فريد لم يُعرف إلا عن قلائل من كريمات العرب، وكأنها فرّضت على نفسها الحداد على رسول الله ﷺ مدى حياتها، وهو لا شك قرار قاس. يقول ابن أختها يزيد بن الأصم:

(رأيت أم المؤمنين ميمونة تخلق رأسها بعد رسول الله ﷺ وظلت كذلك حتى ماتت وهي مخلوقة الرأس).

٣ - ولو أننا تتبعنا سمات هذه السيدة الكريمة لأعجبنا فعلها حينما أبصرت حبة رمان على الأرض فأخذتها وقالت: إن الله لا يحب الفساد.

٤ - بل نراها شديدة التمسك بسنة رسول الله ﷺ في استعمال السواك وجعله منقوعاً في الماء إن شغلها عمل أو صلاة، وإلا أخذته واستاكت به.

٥ - ومما يدلنا على شخصيتها الصارمة القويمة وحزم رأيها السديد ما روي أن: أحد أقربائها دخل عليها فوجدت منه ريح شراب، فقالت: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك، أو قالت: يطهروك - لا تدخل عليّ بيتي أبداً).

أيها الإخوة الكرام: عاشت هذه السيدة الكريمة حتى بلغت الثمانين من عمرها تروي أحاديث زوجها سيدنا محمد رسول الله ﷺ وقد ذكر لها ستاً وسبعين حديثاً رواها عنها ابن أختها جدي عبد الله بن العباس، وابن أختها يزيد بن الأصم وجماعة التابعين.

وفي سنة غادرت أم المؤمنين ميمونة المدينة لحج بيت الله الحرام رغم سنّها الكبير، وهناك في مكة أحسّت بدنو أجلها، فأوصت ابن أختها عبد الله بن العباس أن يدفنها في أعز مكان عندها، في المكان الذي شهد لقاءها برسول الله في سرف (ابن سعد - ابن حجر في الفتح: كتاب النكاح).

وكانت فراستها صادقة إذ توفيت، فشيعها المسلمون إلى حيث أوصت، وحين بلغ نبأ وفاتها السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: أما إنها كانت - والله - من أتقانا لله وأوصلنا للرحم.

أيها الإخوة الكرام:

هذه هي آخر الأنباء عن أمهات المؤمنين، فلم يتزوج رسول الله ﷺ بعدهن أحد، لأن مولانا عز وجل أنزل عليه قوله:

﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾. ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك، ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج لأن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: (أحمد - ن) (ما مات رسول الله حتى أحل الله له النساء).

ولكن لم يقع منه بعد ذلك أن تزوج لتكون المنّة لسيدنا رسول الله ﷺ عليهن وخاصة أن الله أنزل في أواخر السنة الثامنة تحديد عدد الزوجات بأربع للمسلمين فربما ترك رسول الله ﷺ التزوج جبراً لخاطر المسلمين، (ت - ن - أحمد - ابن حجر في التفسير ٤٧٨٩).

وبعد أيها الإخوة:

هذه لمحات عن أمهات المؤمنين زوجات سيدنا رسول الله ﷺ الطاهرات اللواتي أكرمهن الله بصحبة رسوله في الدنيا والآخرة، وظهر لنا في تزوجه عليه الصلاة والسلام بكل واحدة منهن الدليل الساطع على نبيل رسول الله ﷺ وشهامته وسمو غرضه وجميل إحسانه، خلافاً لما يقول الأفاكون الدساسون، فلو كان للهوى سلطان

على قلب النبي لتزوج في حال الشباب ولتزوج بالأبكار، ولكنه الحق الأوسد الذي
ملاً قلوب أولئك المستشرقين الغربيين فأعماها عن رؤية ضياء الحق الساطع، وصدق
الله العظيم:

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما
تصفون ﴾.

فكيف كانت أخلاقه ﷺ مع صحابته ومع أهله، وعشيرته، ومع جيرانه، أدعوكم
لنشهد معاً الإنسان الكامل ونتعرف على صفاته على هذا المنبر الشريف في الجمعة
القادمة بإذن الله تعالى. وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا
مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله تعالى.



سادات الأمة

(٩٧)

الطّديق رضي الله عنه خليفة سيدنا رسول الله ﷺ

الحمد لله الذي فضل نبينا على جميع الخلق أجمعين، وفضل أمته على جميع الأم
السابقين واللاحقين، واصطفى من هذه الأمة أناساً هم أصحاب سيد الأنبياء
 والمرسلين، واصطفى من هؤلاء الأصحاب واحداً هو سيدنا أبو بكر الصديق سيد
الأخيار والصالحين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن
الناس أنبياء ، ومن عامة الناس أولياء بررة متقين.

وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً
عبده ورسوله القائل: "يكون بعدي اثنا عشر خليفة أبو بكر الصديق لا يلبث إلا
قليلاً".

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، وسلم
تسليماً.

أما بعد: "فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تتنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا
الرجبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، إنّ الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

اعلموا عباد الله، أن الله قد ارتحن بحقه أنفسكم وأخذ على ذلك موثيقكم،
واشتري منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه
ولا يطفأ نوره، فصّدّقوا قوله، وانتصحو كتابه، واستضيئوا منه ليوم القيامة، وإمّا
خلقكم لعبادته، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون".

أيها الإخوة : هذه الكلمات النورانية هي خطبة من خطب صديق هذه الأمة رضي الله عنه، وقبل أن أدخل في الحديث عن هذا الصحابي الجليل سيد الصحابة، اسمحو لي أن ألتقط لكم هذا المشهد الفريد من أمام باب حجرة المصطفى ﷺ :

أرى سيدنا الصديق وحيدر (سيدنا علي) قد ذهبنا إلى زيارة سيدنا النبي ﷺ والتقىا على باب الحجرة ، قال سيدنا أبو بكر: تقدم يا علي .

قال سيدنا علي: وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد قال فيك سيدنا رسول الله ﷺ "ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين أفضل من أبي بكر".

قال سيدنا أبو بكر: "كيف أتقدم عليك يا علي وقد قال فيك رسول الله ﷺ: زوجت خير النساء لخير الرجال، زوجت فاطمة لعلي ."

فقال سيدنا علي: وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد قال فيك رسول الله ﷺ :
"لو وزن إيمان الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر".

قال سيدنا أبو بكر: وكيف أتقدم عليك يا علي وقد قال فيك النبي: يحشر علي بن أبي طالب مع فاطمة والحسن والحسين راكبين يوم القيامة، فيشير الناس إلى علي في الموقف فيقولون: من هذا النبي؟ فيقال : ما هو بنبي وإنما هو علي بن أبي طالب.
قال سيدنا علي: وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد قال فيك رسول الله ﷺ :
"لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً " .

قال سيدنا أبو بكر: وكيف أتقدم عليك يا علي وقد قال فيك رسول الله ﷺ .
(آتي مع علي يوم القيامة فيقول الله لي : يا حبيبي لقد اخترت لك إبراهيم خير والد واخترت لك علياً خير أخ وصديق) .

فقال سيدنا علي: وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد قال فيك مولانا:
﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾.

فقال سيدنا أبو بكر: وكيف أتقدم عليك يا علي وقد قال فيك **اللَّهُ تعالى**:
﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة **اللَّهِ واللَّهُ** رؤوف بالعباد﴾ .
وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث إذ بالأمين جبريل يهبط على الأمين سيدنا
محمد ﷺ ويقول: - يا رسول **اللَّهِ** إن أبا بكر وعلياً واقفان ببابك فقم إليهما.
فقام رسول **اللَّهِ** إليهما أبو بكر عن يمينه وعلي عن يمينه من الجهة الأخرى،
ودخل بهما النبي بيته وقال لهما (صلوا عليه): **هكذا نحشر يوم القيامة**.

معشر السادة الكرام :

سيدنا الصديق أبو بكر واسمه عبدُ **اللَّهِ** بن عثمان من بنى تيم بن مرة بن كعب
بن لؤي ابن غالب بن فهر، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن تيم بن
مرة.

ولد بعد سنتين من عام الفيل، وشب على الأخلاق الفاضلة، يحمل الكل،
ويكسب المعدوم ، محبباً إلى قريش ، يعرف من أنسابهم رضي **اللَّهُ** عنه مالا يعرفه
غيره، وكان ينزه نفسه عن شرب المسكرات وأفعال الجاهلية الجاهلاء.
وكان صديقاً للحبيب الأعظم ﷺ ، فلما شرف **اللَّهُ** سيدنا محمداً برسالته كان
سيدنا أبو بكر أول رجل أجابه ، وفي ذلك يقول سيدنا رسول **اللَّهِ** ﷺ :
"ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر" (ترضوا عنه).

وحين اشتد أذى المشركين على المسلمين أراد سيدنا أبو بكر أن يهاجر إلى
الحبشة، فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة ، وأجاره على قريش على شرط ألا
يستعلن بصلاته، لكن الصديق - بعد ذلك - ردّ جوار ابن الدغنة وأقام راضياً بما
يصيبه مع إخوانه المسلمين.

إخوتي في الله :

كان للصدّيق خصائص لم يختص بها أحد غيره من الصحابة:

أولاهها: أنه أفضل الصحابة بعد أولاد سيدنا رسول الله ﷺ

ثانيتهما: أنه كان له شرف الصحبة في الهجرة إلى مدينة سيدنا رسول الله ﷺ .

كان ثاني اثنين إذ هما في الغار. (صلوا على الهادي الأعظم).

ثالثتها: أنه صدّيق هذه الأمة، والصدّيقية مرتبة بعد الرسالة والنبوة، فعندما رجع

رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وكان بذي طوى، قال: يا جبريل إن قومي لا يصدقونني.

قال: يصدقك أبو بكر، وهو الصدّيق.

رابعتهما: أنه سمّاه سيدنا رسول الله ﷺ عتيقاً: لأن الله ﷻ أعتقه من النار.

خامستها: أنه أنفق ماله كله على سيدنا النبي ﷺ وعلى إعتاق العبيد أمثال

سيدنا بلال، وعلى دعم الإسلام وتقوية المسلمين. فعن ابن عمر رضي الله عنه

قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر الصدّيق وعليه عباءة قد خلّها في صدره

بخلال (جمع بين طرفيها وشكّها بالخشب). فنزل عليه جبريل فقال:

- يا محمد مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها بخلال في صدره؟ فقال: يا

جبريل أنفق ماله عليّ قبل الفتح. قال: فإن الله ﷻ عز وجل يقرأ عليك السلام.

(صلوا عليه) ويقول لك:

- قل له أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط

فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا بكر إن الله ﷻ عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول

لك أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط؟".

فقال أبو بكر رضي الله عنه: اسخط على ربي؟ أنا عن ربي راض، أنا عن ربي

راض، أنا عن ربي راض.

وأُنزل رب العزة على نبيه الكريم قرآنًا يتلى إلى يوم الدين:
﴿وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى،
إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى﴾ (ترضوا عنه).

الخصوصية السادسة: أنه شهد بعد الهجرة جميع الغزوات لم يتخلف عن واحدة منها، وكان صاحب الراية في غزوة تبوك.

الخصوصية السابعة: أنه كان أمير الحج في السنة التاسعة من الهجرة والنبي ﷺ على قيد الحياة: (صلوا عليه).

الخصوصية الثامنة: أنه كان يفتي الصحابة أثناء حياة النبي وبحضرتة ﷺ .

الخصوصية التاسعة: أنه كان يصلي هو إماماً في أثناء غياب سيدنا النبي عن المدينة ومرة غاب عليه الصلاة والسلام، وحضرت الصلاة ، فقدم بلال سيدنا الصديق فلما دخل في الصلاة حضر رسول الله ﷺ ورآه الصحابة فراحوا يصفقون والناس يشقون الطريق لرسول الله ﷺ إلى المحراب، فرآه الصديق فتراجع إلى الخلف، فأومأ إليه سيدنا النبي بيده أن يعود ليصلي بالناس، فأبى الصديق، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فلما انتهى قال للصديق: يا أبا بكر ما منعك إذ أومأت إليك أن لا تكون مضيت.

فقال سيدنا أبو بكر: لم يكن لابن أبي قحافة (وهو لقب أبيه) أن يؤم رسول الله ﷺ (ق).

الخصوصية العاشرة: أنه كان يصلي بالناس زمن مرض الوفاة الذي ألمَّ بسيدنا رسول الله ﷺ ، بل إنه صلى إماماً بسيدنا رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ إلى جنبه قاعداً يصلي بصلاة أبي بكر (ترضوا عنه).

وهذه الخصوصية بالذات كانت من أهم الأمور التي رجحت ميزان الصديق لتولي الخلافة بعد سيدنا رسول الله ﷺ .

أيها المؤمنون : ولأنّ الأمر من الأهمية بمكان اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى جوار المسجد النبوي إلى سقيفة بني ساعدة.

فقد اجتمع الصحابة من المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة وراحوا يتجاذبون أطراف الشورى بينهم فيمن يكون خليفة للمسلمين، فقام خطيب الأنصار فقال:

أما بعد : " فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دقت دافّة من قومكم، وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر".

ثم قام سيدنا أبو بكر الصديق وقال للأنصار:

"أيها الناس نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة من العرب، وأمسّهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم. فقال تبارك وتعالى:

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان﴾.

فنحن المهاجرين وأنتم الأنصار إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو، وأما ما ذكرتم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. " الأئمة من قريش " هكذا قال ﷺ. فمننا الأمراء ومنكم الوزراء.

فقام أحد الأنصار فقال: منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فقال سيدنا أبو بكر: بل منا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بينهما. فقالا معاً: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصلاة

أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك، أبسط يدك يا أبا بكر ، فبايعه الفاروق وابن الجراح أمين هذه الأمة.

أيها السادة:

مست هذه الكلمات قلوب الحاضرين ، وقضت على ما بينهم من الخلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار. فلما كان الغد جلس الصديق على المنبر، ودعا الفاروق لمبايعته الناس، فبايعوه فكانت هذه البيعة تسمى البيعة العامة.

ثم قام الصديق فخطب في الناس خطبة الخلافة، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد: « أيها الناس : إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله تعالى.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »

إخوة الإيمان :

ما إن ذاع نبأ وفاة سيدنا النبي ﷺ حتى اشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق، فارتدت بعض القبائل عن الإسلام، وامتنع بعضها عن دفع الزكاة، وهم أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، وخافهم والي مكة عتّاب بن أسيد فتواري عنهم، وقام سهيل بن عمرو في الناس خطيباً فقال:

" إن وفاة رسول الله لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه. ثم قال:

يا أهل مكة كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتدّ، والله ليؤمّن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ " .

فتراجع الناس عن ترك الإسلام.

وأنفذ الصديق بعث أسامة بن زيد الذي جهزه رسول الله ﷺ ، وسار يودع الجيش حتى ظاهر المدينة المنورة، واستبقى عنده الفاروق ليستعين برأيه على أمور المسلمين. وجهّز الجيوش لقتال أهل الردة بعد عودة الجيش ظافراً منصوراً، وخاصة لقتال الذين ادعوا النبوة أمثال مسيلمة الكذاب ، وأرسل معهم كتاباً نشره : دعا فيه الناس إلى الإسلام وعدم الاغترار بشياطين الإنس والجان.

ووجه سيدنا خالد لقتال أهل اليمامة وللقضاء على مسيلمة الكذاب وأتباعه الذين بلغوا أربعين ألفاً، وكان في جيش خالد سيدنا وحشي بن حرب الذي ساهم بقتل مسيلمة مع رجل من الأنصار فقال وحشي:

- قتلت خير الناس في الجاهلية، وشرّ الناس في الإسلام.

وعمل الصديق في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال. وقال قولته المشهورة: "والله لو منعوني عناقاً (ابن الشاة) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ" لقاتلتهم عليه، فانطفأت نار الردة التي اشتعلت في الجزيرة قبل أن ينقضي عام واحد على وفاته ﷺ.

وفي عهده فتح الله العراق حتى الحيرة، بقيادة سيدنا خالد بن الوليد وجنده ، وأرسل إنذاراً لهرمز القائد الفارسي قائلاً: أسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وإقراراً بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما أنكم تحبون الحياة (ترضوا عنهم) فخارت عزيمة كسرى ، وأرسل إلى ملك الصين يطلب منه مدداً وقوة ، فأرسل إليه ملك الصين كتاباً قال فيه : «يا كسرى لا قبّل لي بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها» .

وما أن حاز النصر من عند الله عز وجل حتى وجهه الصديق لمساعدة سيدنا أبي عبيدة بن الجراح في الشام وفي اليرموك، وقد بلغ عدد الروم ٢٤٥ ألفاً، وراح المسلمون يتوجهون إلى الله بالدعاء، وقال رجل لسيدنا خالد: ما أكثر الروم وما أقل المسلمين. فقال سيدنا خالد:

- بل قل ما أقل الروم وما أكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال.

وبهذا الإيمان العظيم الذي ملأ قلوب الصحابة الأبرار نصرهم مولانا عز وجل في اليرموك، وانهمزم الروم شر هزيمة، واستشهد من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وودع هرقل بلاد الشام وهو يوجه الحرب من حمص قائلاً: سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده.

أيها الأحبة :

كانت حكومة سيدنا الصديق مؤلفة من أربعة من الصحابة برئاسته، لم يكن له وزير ، وإنما كان سيدنا عمر يلي القضاء، وسيدنا أبو عبيدة أمينا لبیت المال قبل أن يسيره إلى الشام، وكان يكتب له سيدنا زيد بن ثابت، ويكتب له الأخبار سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فيا أحباب رسول الله :

الفتح المبين الذي تم في عهد الصديق رضي الله عنه هو كتابة القرآن الكريم لأول مرة في التاريخ، كتبه وجمعه في مصحف واحد بعد أن كان محفوظاً في صدور الصحابة رضي الله عنهم، فقد قتل كثير من الحفاظ في حروب الردة. فخيف على ضياع القرآن فكتبه له سيدنا زيد بن ثابت وبعض الصحابة من المهاجرين ، وسمي هذا المصحف بمصحف أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

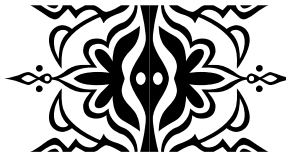
لكن الصديق كان ينحل جسمه يوماً بعد يوم ، وكل ذلك حزناً على فراق سيدنا محمد ﷺ، حتى بلغت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، ومرض مرضاً

شديداً. وزاره الناس وقالوا له: ألا ندعو لك الطبيب. فقال الصديق: قد رأي. قالوا: فأبي شيء قال لك؟. فقال: قال لي: (إني فعال لما أريد). (وحدوا الله).

فلما ثقل في مرضه شاور الصحابة فيمن يخلفه من بعده، فأشاروا عليه أن يكون سيدنا عمر بن الخطاب، فطلع على الناس وأخبرهم بأنه لم يأل جهداً في اختيار من هو أصلح لهم من بعده، وأنه قد استخلف عليهم عمر فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. وكتب الصديق بذلك عهداً للفاروق وختمه.

فلما كان يوم الاثنين تمى سيدنا الصديق أن يقبض قبل الفجر تأسيا بوقت وفاة سيدنا رسول الله ﷺ ، فتوفي رضي الله عنه بين المغرب والعشاء في جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ عن عمر ٦٣ سنة وهي السن التي توفي عنها سيدنا النبي، وأوصى أن تغسله السيدة أسماء بنت عميس زوجته، وصلى عليه سيدنا عمر بن الخطاب ودفن في الحجرة النبوية بجوار سيدنا رسول الله ﷺ ، فكان سيدنا الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وأصبح الآن ثاني اثنين في الحجرة النبوية الشريفة رضي الله عنه وأرضاه .

وهكذا تكون الصحبة الصادقة والمحبة الصادقة في الدنيا والآخرة ، هنا وهناك ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ يقول فيها الحبيب الأعظم : أبو بكر كالغيث أينما نزل نفع. ويقول فيها ﷺ : " البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان " (١) .



(١) روى سيدنا أبو بكر الصديق /١٣٢/ حديثاً عن رسول الله ﷺ

(٩٨)

ال خليفة الثاني - إسلام الفاروق

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين نزلاً، ويسّرهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها فلم يتخذوا سواها شُغْلاً، خلقها لهم قبل أن يخلقهم، وأسكنهم إياها قبل أن يوجدهم، وحقّها بالمكاره، وأخرجهم إلى دار الامتحان ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته ومن لاغنى به طرفة عين عن فضله ورحمته، ولا مطمع له في الفوز بالجنة والنجاة من النار إلا بعفوه ومغفرته.

وأشهد أن سيدنا وحيبينا وعظيمنا وأميرنا و قائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، القائل: (أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر من الرأس). وقال: (ما قدّمت أبا بكر وعمر ولكنّ الله قدّمهما).

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد صلاة لا تنتهي لها كما صليت عليه في الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه الذين اتبعوا سبيله، وعبدوا ربه، نجّاهم من النار وأجارهم إلى الجنة، وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا أيها الإخوة:

نحن اليوم نسجل تاريخ عظام الرجال، الذين دوّخوا الممالك، حديثنا اليوم عن رجل ولد قبل حرب الفجار بأربع سنوات، أي بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، عن رجل من بني عدي بن كعب، يكنى بأبي حفص أي بالأسد كناه به رسول الله ﷺ، ترى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق، جهوري الصوت، نبراته قوية،

قد زانه الوقار وعلاه، لم يكن غنياً، بل كان يتاجر بماله القليل أحياناً إلى البلاد الشامية.

وحين مضى على دعوة سيدنا النبي ﷺ إلى الإسلام تسع سنين، وبلغ عدد الصحابة تسعة وثلاثين، اتجه هذا الرجل إلى دار على الصفا، في السنة السادسة للبعثة النبوية، وهو ابن ست وعشرين سنة، اتجه إلى دار الأرقم ابن أبي الأرقم التي كان يجتمع بها صحابة رسول الله ﷺ وراح يطرق الباب، ونظر صاحب الدار من الباب، ونادى: إنه عمر.

وأوجسوا منه خيفة فقال النبي الكريم: دعوه لي، وذهب رسول الله ﷺ وهو يدعو بصوت عال: اللَّهُمَّ أعز الإسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، وفتح الباب وما إن وقعت عينا الفتى على سيدنا رسول الله ﷺ حتى أمسك به النبي الكريم وهزه وهو يقول: أما آن لك أن تسلم، فإذا بسيدنا عمر بن الخطاب يقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ويدخل سيدنا عمر إلى بيت ابن أبي الأرقم ليصبح عدد المسلمين أربعين صحابياً، وهنا يقول لسيدنا النبي الكريم :

- يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا. قال: بلى. قال: ففيم الاختفاء ، والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان، وأظهر دين الله، والله لا يعبد الله بعد اليوم سراً، والذي بعثك بالحق لنخرجن (أي إلى الكعبة).

فخرجوا في صفين في أحدهما عمر، وفي الثاني حمزة عم سيدنا النبي، وسار النبي في الوسط بين الصفين، خرجوا وعمر شاهر سيفه ينادي: لا إله إلا الله محمد رسول الله. حتى دخلوا المسجد، فصاح سيدنا عمر مسمعاً لقريش قائلاً:

- كل من تحرك منكم لأمكنن سيفي من عنقه.

فنظرت قريش إليه وإلى سيدنا حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فطاف سيدنا رسول الله ﷺ بالصحابة حول الكعبة وصلى ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم فسماه رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل. وكناه بأبي حفص، وهو لغة: الأسد. سماه ذلك لشدته وقوته وشجاعته، ولقب سيدنا حمزة بأسد الله ﷺ لإقدامه وجراته في الحق.

أيها الإخوة:

وحين بدأت الهجرة إلى المدينة المنورة لاشتداد أذى الكفار على المؤمنين، كان المهاجرون يخرجون في جنح الليل أو متخفين في الهجرة خوفاً من منع قريش لهم، إلا واحداً هو سيدنا عمر بن الخطاب فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر حربته - أي علقها على خاصرته - ومضى قبل الكعبة المشرفة وقريش بفنائها فطاف سبعاً بالبيت وأتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على تجمعات قريش واحدة واحدة وهو يقول:

شاهت الوجوه، لا يرغم الله ﷻ إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي.

فلم يتبعه أحد، وهاجر إلى المدينة المنورة في حراسة الله ﷻ تعالى. فكان رضي الله عنه قوة الإسلام، وكان يدافع عنه ويلاحظ أعداءه من المنافقين واليهود، وشهد جميع الغزوات مع سيدنا رسول الله ﷺ.

وقد وهبه الله تعالى عقلاً نيراً وحكمة باهرة، وفكراً ذكياً. وقد ذكر سيدنا رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في فضل سيدنا عمر رضي الله عنه منها قوله ﷺ:

"لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدّثون (أو قال ملهمون) فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر" (أحمد - خ - ت - ن).

وخاطب سيدنا النبي سيدنا عمر فقال له: "يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك" (ق). وقال: "إني لأنظر شياطين الجن والإنس فترّوا من عمر" (ت).

وقال ﷺ: "إن لكل نبي خاصة من أصحابه وإنّ خاصتي من أصحابي أبو بكر وعمر (طب) وأنّ "سيدي كهول أهل الجنة خير أمتي بعد أبو بكر وعمر" و"أربعة لا يجتمع جبههم في قلب منافق، ولا يجبههم إلا مؤمن أبو بكر وعمر وعثمان وعلي".

فحب سيدنا أبي بكر وعمر وعثمان عنوان صحيفة المؤمن، ولهذا من لا يحبّ الصديق والفاروق: فإن الصلاة خلفه مكروهة ، وسابّ الشيخين أبي بكر وعمر كافر عند المالكية والحنابلة، لمكانتهما من سيدنا النبي ﷺ.

أيها الإخوة:

اسمعوا إلى هذه الأوسمة التي قلدها رسول الله ﷺ لأصحابه الأبرار، اسمعوا إلى المكافآت التي يقدّمها رسول الله ﷺ لأصحابه وهم يستحقونها. (صلوا على النبي) اسمعوا:

يقول ﷺ: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،

وأشدّهم في دين الله عمر،

وأصدقهم حياءً عثمان،

وأقضاهم علي،

وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب،

وأفرضهم زيد بن ثابت،

وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل،

ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح). (قولوا رضي الله

عنهم).

هذه الأوسمة أعظم من شهادة الدكتوراه في عصرنا ، هذا ، لأن الذي قلدها هو سيدنا محمد ﷺ. وأعظم وسام أخذه سيدنا عمر رضي الله عنه من سيدنا النبي ﷺ هو قوله: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه " (أحمد- أبو يعلى - طب). انظروا هذا الحديث بمفرده خطبه، أريدكم اليوم أن ترجعوا إلى بيوتكم وقلوبكم مملأى بحب سيدنا عمر رضي الله عنه، لأن سيدنا عمر نزل القرآن الكريم مؤيداً لرأيه وعقله الفذ في عشرين مسألة، أبدى فيها رأيه لسيدنا النبي ﷺ فنزلت الآيات من رب العزة على ما رآه سيدنا. عمر رضي الله عنه.

أيها الإخوة

كلنا يعرف مقام سيدنا إبراهيم أنه يستحب أن يصلي خلفه ركعتين بعد كل طواف، السبب فيهما هو سيدنا عمر رضي الله عنه، فقد أخرج الإمام البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: وافقت ربي في ثلاث قلت :

١ . " يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ .

٢ . وقلت: يارسول الله! إن نساءك يدخل عليهم البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجن، فنزلت آية الحجاب. وأخرج البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا برزن إلى المصانع (قضاء الحاجة) وكان سيدنا عمر يقول للنبي احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت السيدة سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة فناداها عمر: قد عرفناك يا سودة (حرصاً على أن ينزل الحجاب) فأنزل الله تعالى الحجاب : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾

٣ . واجتمع على سيدنا رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقال لهن: "عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن". فأنزل الله تعالى قوله: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات﴾ .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: "استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال سيدنا عمر: "يا رسول الله ﷺ إن الله أمكنك منهم أرى أن تضرب أعناقهم". فأعرض عنه الهادي ﷺ فقام أبو بكر فقال: أرى أن تغفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء. فأنزل الله تعالى تأييداً لرأي سيدنا عمر رضى الله عنه فقال: ﴿ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الحياة الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ (الأنفال ٦٧ - ٦٨) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي يعلى أن يهودياً لقي سيدنا عمر رضى الله عنه فقال اليهودي: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال سيدنا عمر: "من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين". فأنزل رب العزة جلّ وعلا في سورة البقرة: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ .

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب أنه لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس..﴾ .

فدعاه فقرئت عليه فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً". فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ . ودعي سيدنا عمر فقرأت عليه فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً". فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ .

فلما بلغت عمر سرّاً عظماً رضي الله عنه، وراح الناس يقولون : انتهينا يارب. ووقف رسول الله ﷺ يريد أن يصلي على حقير المنافقين عبد الله بن أبي فقام سيدنا عمر فقال للنبي الكريم:

- يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين، فقال: إنما خيرني الله فقال :

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا هدي القوم الفاسقين﴾ ثم قال رسول الله: وسأزيد على السبعين.

فقال:

- إنه منافق؟! (بمعنى فلا تصل عليه).

فأنزل ربّ العزة قوله: ﴿ولا تصل على أحد مات منهم أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾. (ق)

وحين تحدّث الناس حديث الإفك واستلبث الوحي عنه ﷺ ولم ينزل استشار سيدنا رسول الله بعض أصحابه ، فقال له سيدنا عمر رضي الله عنه (ق):

- يا رسول الله من زوّجها لك؟.

فقال: الله تعالى.

قال: أفتظن أن الله دلّس عليك فيها، سبحانك هذا بهتان عظيم. فأنزل ربّ العزة: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم﴾. وهكذا- أيها الاخوة الكرام- نرى أنّ ربّ العزة جلّ وعلا قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، بل كان سيدنا عمر ينفذ هذه الحدود الشرعية بنفسه في حياة سيدنا رسول الله ﷺ، فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال:

اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب ، فأتيا إليه فقال الرجل: قضى رسول الله ﷺ لي على هذا ، فقال : ردنا إلى عمر: فقال سيدنا عمر: أكذاك؟. قال: نعم. فقال عمر مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما ، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال ردنا إلى عمر، لأنه لم يقبل بحكم رسول الله ﷺ". فأنزل رب العزة على نبيه الكريم:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾
إخوتي في الله :

فما هي الأعمال العظيمة التي قام بها سيدنا عمر بعد توليه الخلافة، أعلق هذا السؤال إلى الجمعة القادمة إن شاء الله تعالى وأعود بكم من هناك إلى هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ يقول فيها الحبيب الأعظم: "ما طلعت الشمس على خير من عمر" (ت - ح). ويقول فيها: "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

أستغفر الله العظيم

(٩٩)

أمير المؤمنين

سيدنا عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه (٢)

الحمد لله الذي أحصى كل شيء عدداً، ورفع بعض خلقه على بعض فكانوا طرائق قددا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك ولا يكون أبداً.

وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله أكرم به عبداً سيداً، وأعظم به حبيباً مؤيداً، فما أركاه أصلاً ومحتداً، وأطهره مضجعاً ومولداً، وأكرمته أصحاباً كانوا نجوم الاهتداء ، وأئمة الاقتدا.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة خالدة وسلاماً مؤيداً، وسلم تسليمًا.

أما بعد :

« فالحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، فهدانا به من الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألف بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومكّن لنا في البلاد، وجعلنا إخوة متحابين، فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها، فإنّ الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم، وإياكم والعمل بالمعاصي وكفر النعمة، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزّهم، وسلّط عليهم عدوهم.

أيها الناس : إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة ، وجمع كلمتها ، وأظهر فوزها

ونصرها وشرفها، فاحمدوه - عباد الله - على نعمه، واشكروه على آلائه، جعلنا الله
وإياكم من الشاكرين »

معشر الإخوة الكرام :

هذه الكلمات النورانية الإيمانية نطق بها من أربعة عشر قرناً من الزمان أول من
لقب بأمير المؤمنين إنه سيدنا عمر بن الخطاب، البطل الذي أتعب من جاء بعده
من أبطال الإسلام وقادة الفكر، ولم يبلغوا عشر مقداره ، وبقيت حياته كالشمس
يقع الناس تحت أشعتها ولا ينالون موضعها.

أيها السادة : راية الإسلام التي رفعها سيدنا رسول الله ﷺ سيد القادة وقائد
السادة سيدنا محمداً ﷺ وتسلمها سيدنا الصديق لتبقى مرفوعة عالية، هذه الراية
التي تنتقل من جيل إلى جيل لن تقع على الأرض لأن أبطال الإسلام يتسلمونها
جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة، هذه الراية المحمدية قد وصلت الآن إلى سيدنا عمر
بن الخطاب رضي الله عنه.

إخوة الإيمان : توفي سيدنا الصديق مساء الاثنين لثمان بقين من جمادى الآخرة
من سنة ثلاث عشرة، فاستقبل سيدنا عمر بخلافته يوم الثلاثاء صبيحة موت أبي
بكر سنة ٦٣٤ م ، فكان أول كلام تكلم به حين صعد المنبر أن قال:
"اللهم إني شديد فليّني، وإني ضعيف فقوي، وإني بخيل فسحّني".

وكان أول عمل قام به عزله لابن خالته سيدنا خالد بن الوليد عن إمارة الجيش
وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه، وكتب إلى البلاد والولايات يقول لهم:
« إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانة ولكن عزلته شفقة على النفوس
وسرعة هجماته وشدة صدماته » .

وقال له حين اجتمع به: والله يا خالد إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب.
وحين أخبر بمرضه وكان على مسافة ثلاثة أيام من المكان الذي فيه سيدنا خالد،
طوى هذه المسافة في ليلة واحدة، فأدركه وقد قضى نحبه في حمص، فراح يسترجع

ورق عليه، وجلس عند باب داره حتى تم تجهيزه. وراحت البواكي تبكي سيدنا خالدًا. فقيل لسيدنا عمر: ألا تسمع؟ ألا تنهالن؟! فقال:

- وما على نساء قريش أن ييكنن أبا سليمان ما لم يكن نَفْعٌ ولا لقلقة لسان.

وخرج بجنائزته فرأى امرأة تبكيه فقال: من هذه. فقيل له: أمه. فقال:

أُمُّه واهأاً له، ثلاثاً، ثم قال: وهل قامت النساء عن مثل خالد بن الوليد.

إخوتي في الله :

إنَّ من أَجَلٍ ما قام به الفاروق توسعة رقعة الفتوحات الإسلامية إلى أقصى بلاد
الفرس والشام والمغرب، وبناء المدن، وتدوين الدواوين، ووضع التاريخ الهجري
للإسلام، وتوطيد دعائم الدولة الإسلامية كأقوى دولة حضارية فوق الأرض.

وقد جمع الصحابة يستشيرهم في الخروج بنفسه إلى قتال الروم والفرس فأشار عليه
سيدنا علي ونصحه بأن لا يفعل، وأن يدير معارك قواد المسلمين ويبقى هو في
المدينة، وحذّره بأنه إن ذهب فلسوف تنشأ من غيابه أمور هي أعظم وأخطر من
العدو الذي سيواجهه.

هذه هي نصيحة سيدنا علي رضي الله عنه، ترى لو أن سيدنا عمر استلب
حق سيدنا علي في الخلافة كما يدّعي بعضهم، أفكان سيدنا علي ينصحه ويعاونه
هذا التعاون المخلص، بل أفكان سيدنا عمر يشاوره في أمور الدولة الإسلامية،
وكان دائماً يأخذ برأيه ونصحه.

أيها الأحبة :

كان سيدنا عمر شديد التواضع عظيم التقشف في حياته، يخدم شعبه، ويرى أنه
عبد لرعيته يحوطها ويرعاها رعاية العبد لسيدته، وهو الذي قال:

"إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليهم مثل ما يجب على
العبد لسيدته من النصيحة وأداء الأمانة".

لذلك كان سيدنا عمر لا ينام في الليل ولا في النهار، بل كان يغفو إغفاءات أثناء الليل والنهار، وكان يقوم في الليل بالتفتيش ، وهو أول من وضع نظام الحراسة في الليل (العسس). وكان يقال له: - يا أمير المؤمنين لم لا تنام ؟ فكان يجيبهم: - "متى أنام؟! إن نمت بالليل ضيعت حظي من الله تعالى، وإن نمت في النهار ضيعت أمور المسلمين ". وكان يقول: "والله لو عثرت دابة على شط الفرات لحشيت أن يسأل عنها عمر) . رضي الله تعالى عنه.

يا أحابيب رسول الله :

اسمحو لي لأؤكد لكم هذا المعنى أن أنتقل بكم إلى هناك ، إلى مقر خلافة الفاروق إلى مدينة الحبيب الأعظم (صلوا عليه). وقد خرج مع خادمه زيد بن أسلم إلى جبل في المدينة وقد رأى نارا، حتى إذا دنيا من النار سمع أصوات أولاد يكون، ورأيا قدراً على النار. فسلم الفاروق واستأذن بالاقتراب، فرأى امرأة وسأها عن حالها ولماذا يبكي الأولاد؟ فقالت له: الجوع الجوع، فقال: أي شيء في هذا القدر، قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا- ثم قالت: والله بيننا وبين عمر يوم القيامة. فقال: أي رُحمك ، وما يدري عمر بكم؟ . فقالت: يتولى أمورنا ويغفل عنا؟! . فبكى سيدنا عمر خشية من الله ، ثم أقبل على خادمه وقال: انطلق بنا. يقول زيد: فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج حملاً من الدقيق وكُبة من شحم فقال: احمله عليّ . فقال زيد: أنا أحمله عنك. فقال: أنت تحمل أوزاري يوم القيامة. فانطلق بالحمل وهو يتعثر به أحياناً حتى أتى المرأة وجعل يقول لها: ذري علي الدقيق وأنا أحرك. وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتسرب من لحيته حتى دمعت عيناه. فلم يزل حتى شبعا ولاعبهم حتى ضحكوا. فكانت المرأة تقول له: جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.

هكذا كان سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه يتعاهد الناس والشكالي ، بل فرض لكل صبي يولد في الإسلام مالاً لأهله لأنه سمع مرة بكاء صبي، فتوجه نحو أمه

فقال لها: أحسنني إلى صبيك واتقي الله تعالى، ثم سمع بكاءه في آخر الليل فجاءها فقال لها: ويحك إني لأراك امرأة سوء، مالي أرى ابنك لا يقرّ منذ العشية. قالت: إني أُرِيعُهُ على الفطام، فقال: ولمِ يا أمة الله؟ قالت: لأن عمر لا يفرض للرضيع وإنما يفرض للفتيم. قال سيدنا عمر: لا تعجله ، وذهب فصلى الفجر بالناس وهو يبكي ، فلما سلم قال: يا بؤساً لعمر كم قتل من الأولاد ، وأمر منادياً أن ينادى أن عمر قد فرض للأولاد منذ ولادتهم.

وأما سيدنا طلحة فقد شاهد سيدنا عمر خارجاً في سواد الليل، فتبعه مستخفياً، فدخل سيدنا عمر بيتاً نائياً، ثم رجع. فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت و إذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها:

- ما بال هذا الرجل يأتيك في كلّ عشية. قالت: إنه يتعاهدني منذ مدة طويلة، ويأتيني بما يصلحني ويقيني وينظف بيتي ويخرج عني الأذى. فقال طلحة: ثكلتك أمك ياطلحة أعثراتِ عمر تتبع.

ويوم انتهت زوجته الحلوى، زوجته السيدة أم كلثوم بنت سيدنا علي قالت له يوماً: يا أمير المؤمنين نفسي تشتهي الحلوى، فقال لها: من أين لي ثمن الحلوى فأشربها. فقالت له: هذا هو ثمنها وفرته من مصروفي اليومي. فقال لها سيدنا عمر: ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى فقومي لبيت المال رديها.

اسمعوا أمجادكم، اسمعوا عظام الرجال، إنه سيدنا عمر، مرّ مرة على طريق وقد لبس ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذبح لسيدنا العباس فرخان، وكان له ميزاب على طريق سيدنا عمر، فلما وصل إلى (الميزاب) نزل منه ماء بدم الفرخين فأصاب سيدنا عمر، فأمر سيدنا عمر بقلعه، ثم رجع فغير ثيابه فصلّى بالناس، فجاء سيدنا العباس، فقال:

- والله إن الذي وضعه رسول الله ﷺ .

فقال سيدنا عمر للعباس: وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في
الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ. ففعل العباس ذلك.
هذه هي أخلاق الفاروق، فكيف كانت عدالة سيدنا عمر؟ وكيف كان
حكمه؟

أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة إن شاء الله تعالى.
وأعود بكم من هناك إلى هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه
أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم، وتحيتنا إليك يا رسول الله:
الصلاة والسلام عليك



(١٠٠)

الخليفة الثاني

عدل الفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه (٣)

الحمد لله الذي نستفتح بحمده الكلام. والحمد لله الذي حمّده أفضل ما جرت به الأقلام، ونطقت به الألسن بالكلام. فسبحانه لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه وهو ولي كلّ انعام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تأخذ بيد قائلها إلى دار الإسلام.

وأشهد أنّ سيدنا وحبیبنا وعظیمنا أميرنا وقائدنا وقرة أعیننا سيدنا محمداً عبده ورسوله ومصطفاه من الأنام، أول الأنبياء وواسطه عقدهم على أنه آخرهم ومسك الختام.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام ، الذين رفع الله بهم منار الإسلام. وسلم تسليماً.

أما بعد: فبها أيها الإخوة

أشرقت شمس الإسلام على الأمة العربية، وهي لا تكاد تسمى أمة إلا على تساهل في التعبير، قبائل متنافرة، تعيش في جاهلية جهلاء، يُغيّر بعضهم على بعض، ولا يرون العزة إلا في الظلم والعدوان وسفك الدماء.

فلما جاء الإسلام ودخل الناس فيه أفواجاً، حوّل الأمة العربية إلى أمة تقدر الحق والعدل، وتجاهد في سبيله، فملكّت الدنيا في أقل زمن، وكان أحبّ شيء إلى زعماء الإسلام وقادتهم إنما هو العدل، لذلك كان شعار خليفتهم:

"إذا عدلت فأيدوني، وإذا اعوججت فقوموني، أطيعوني في ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

ولا يزال عدل سيدنا عمر بن الخطاب مضرب الأمثال في سموه وعظمته، فقد أسس دولته على العدل وكان يقول:

"واللّٰهُ لقد لان قلبي حتى هو ألين من الرُّبْد، ولقد اشتدّ قلبي حتى هو أشدّ من الحجر".

وقد ضم تحت جناحيه أكبر إمبراطوريتين في عهده، أمريكا وروسيا، أمريكا هي الروم، وروسيا هي الفرس، وهابته الملوك والأمراء لعدله.

إخوة الإيمان : هذه هي الحلقة الثالثة من تاريخ أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ، وقد وقفت معكم اليوم لأجيب عن سؤال كنت علقتة معكم :

وهو كيف كانت دولة عمر ؟ وكيف كانت عدالته؟.

أما الدولة فقد بلغت في عهده سبع عشرة جمهورية في عهدنا من بلاد فارس شرقاً حتى نهر السند ونهر جيحون، وفتح من بلاد الروم جزءاً عظيماً هو بلاد الشام، وكانت هذه الدولة الممتدة تتألف من ولايات أو إمارات ، ويسمى أميرها بالعامل ، أي أن لقب رئيس الجمهورية يسمى وقتها العامل، أي عامل أمير المؤمنين على هذه البلدة. وكان سيدنا الفاروق يختار ولايته من أتقى الناس وأبرّهم بهم، وكان هو يختارهم ، أي بدون أن يرشحوا أنفسهم، وبذلك كان ينفذ أمر الرسول الأعظم حين قال: "إنا لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه"، وكان إذا وجههم إلى ولايتهم يكتب كتاباً ويرسله إلى الولاية قائلاً لهم:

"ألا إني - واللّٰهُ - ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أجسامكم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفسي بيده لأقصنّه لأجزيّن الوالي بمثل عمله)".

ثم يقول لولاته وعماله:

"ألا لا تضربوا المسلمين فتدلوهم! ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم".

هكذا كان أمير المؤمنين يوجه ولاته للاعتناء بالرعية، وكان يقدم مصلحة الرعية على مصلحة الولاة، وكان لا يبقى الولاة كثيراً في ولايتهم إلا ما ندر، ويأمرهم ألا يتجروا بأي تجارة ، فإذا جاؤوا بمال كثير وكثرت ثروتهم وادعوا أنها من التجارة أمر بمصادرة نصفها لبيت مال المسلمين، حتى لا يستغلوا مناصبهم في جمع الثروات والتجارات.

كما أنه كان إذا استعمل عاملاً كتب له واشترط عليه أن لا يركب برزونا (دابة مطهّمة) (سيارة آخر موديل) ، ولا يأكل نقياً (دقيق خالص) ولا يلبس رقيقاً (ملابس مرفهة) ، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل فقد حلّت عليه العقوبة.

هكذا كان سيدنا عمر يعدد النواهي للوالي الذي يعينه، وفعله هذا إنما هو ليعيش في مستوى الشعب الفقير ، وليبقى الوالي خادماً للناس، لا سيداً لهم.

أيها السادة : إن سيدنا عمر: لا يريد لولاته أن يُفْتَنُوا أو يُتَرَفُوا أو ينالوا باسم الحكم أي امتياز على أفراد الشعب.

هذه عظمة عمر، هذه عبقرية عمر ، التي قال عنها الحبيب الأعظم :

"لم أر عبقرياً يفري فريته ."

سأل مرة وفداً من حمص عن واليهم عبد الله بن قرط فقالوا: خير أمير لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة.

فقال عمر في نفسه: داراً فارهة، يتشامخ بها على الناس، بخ بخ لابن قرط.

ثم أوفد إليه رسوله وقال له: ابدأ بالدار فأحرق بابها.. ثم ائت به إلي .

ونفذ الرسول ما أمر سيدنا عمر، وعاد بواليتها ، فامتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع اختار للقائه "الحرّة" حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها.

اسمعوا موقف عمر من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير لولا أنه ميز نفسه بدار واسعة، اسمعوا الأسطورة وليست بأسطورة!!.

ما أقبل الرجل حتى أمر سيدنا عمر بخلع حُلَّته، وأمر أن يلبس لباس الرعاة، وقال له:

هذا خير مما كان يلبس أبوك.

ثم ناوله عصا وقال له: "وهذه خير من العصا التي كان أبوك يهش بها على غنمه.

ثم أشار إلى الابل وقال له: اتبعها يا عبد الله". وبعد حين استدعاه وقال له: هل أرسلتك لتشيد وتبني.. ارجع إلى عملك ، ولا تعد لما فعلت أبداً.
أيها الأحبة :

لئن كانت هذه القصة يصعب تصديقها وكأنها أسطورة، فإن سيدنا عمر بـحمد الله لم يكن أسطورة، بل كان حقيقة واقعة ملأت الزمان والمكان. (ترضوا عنه).

وكان رضي الله عنه إذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه، ويقول: "لا خير في أمر أبرم من غير شورى" فيستثيرون أولاً العامة، ثم يجمع مشيخة قريش من الصحابة فما استقر رأيهم عليه فعله.

وكان مجلس حكمه خاصة من كبار أولي الرأي منهم العباس وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه في سفر ولا حضر، وكذلك عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

ولكن هذا المجلس كان للشورى، أما الأمور التنفيذية للدولة فكان سيدنا عمر يشرف عليها بنفسه، ويأمر عماله أن يوافوه كل عام في موسم الحج، ومن كانت له شكوى أو مظلمة على أي وإل رفعها أمامه في مجلس الحج، فيكون سيدنا عمر قد جمع بين الشاكي والمتهم.

وكان العمال والولاة يخافون أن يفتضحوا على رؤوس الأشهاد في موسم الحج، فكانوا يتعدون عن الظلم لأي إنسان ، ولأجل هذا أديرت البلاد بمقتضى العدل

الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين، لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابة.

وكان من شدة اهتمامه بالرعية يقول: "إن عشت لأسير في البلاد حولاً فأقيم في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة واليمن وغيرها من الأقطار والبلاد القصية، فإني لأعلم أن للناس حوائج تقطع عني، أما هم فلا يصلون إلي، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي".

إخوتي في الله :

كان إذا انتهى التحقيق في أمور الدولة مع الولاة (في موسم الحج) ، يقوم سيدنا عمر بطرح قضايا المجتمع العامة، ولشد ما أذهلني موقف سيدنا عمر الذي يغلب أكبر أستاذ في علم النفس الاجتماعي. فاسمحو لي . أيها الاخوة . أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى مكة المكرمة والناس في موسم الحج، وقد جمع سيدنا عمر ولاته، ووجه سؤالاً إلى أحدهم وهو المغيرة بن شعبة، سأله سيدنا عمر قائلاً:

- يا مغيرة ما أنت فاعل إن أُتيت بسارق؟! .

فَكَرَّ المغيرة ملياً- وكان أحد دهاة العرب الأربعة- ثم أجاب:

- أقطع يده يا أمير المؤمنين؟.

فأطرق سيدنا عمر ملياً ثم قال:

- نعم (تهديد)، والله إن جاءني من الرعية جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر

يدك.

(لأن سبب السرقة الجوع أو العطالة).

ثم قال: يا هذا إن الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ونستر عورتهم (نستر عورتهم لا نسمع لأي بنت أو امرأة أن تخرج سافرة إلى السينمات أو توزع صورها في المجلات)،. اسمعوا الدرر والحكم:

إِنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَخْلَفَنَا عَلَى عِبَادِهِ لِنَسَدَ جُوعَتِهِمْ، وَنُسْتَرِ عَوْرَتَهُمْ، وَنُوَفِّرَ لَهُمْ حُرْفَتَهُمْ، فَإِنْ أَقْنَا لَهُمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ تَقَاضِيْنَا شُكْرَهَا.

يَا هَذَا إِنْ اللَّهَ خَلَقَ الْأَيْدِي لِتَعْمَلَ (هَذِهِ الطَّاقَةُ وَالْقُوَّةُ تَسْتُخْدَمُ إِمَّا لِلْخَيْرِ أَوْ لِلشَّرِّ وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتُخْدَمُ هَذِهِ الطَّاقَةُ)، لِذَلِكَ اسْمَعُوا مَاذَا يَقُولُ سَيِّدُنَا عَمْرُ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي الطَّاعَةِ عَمَلًا تَتَمَسَّكُ فِيهِ بِالمَعْصِيَةِ أَعْمَالًا» .

(عُلَمَاءُ التَّربِيَةِ يَقُولُونَ: بَيْنَ سِنِّ ١٥ - ٢٥ يَكْبُرُ الْوَلَدُ عَشْرَ سِنَوَاتٍ لَكِنْ أَبَاهُ يَكْبُرُ عَشْرِينَ سَنَةً أَوْ ثَلَاثِينَ لِأَنَّهُ يَعَانِي مِنْ سِنِّ الْمَرَاهِقَةِ أَوْ الْقَلْقِ، وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي نَبِهَ عَلَيْهَا عَمْرُ: إِنْ لَمْ تَشْغَلْهُ شُغْلُكَ) .

فِي أَهْلِ الرَّأْيِ : كَانَ سَيِّدُنَا عَمْرُ يَقِفُ مِنْ وَلاَتِهِ مَوْقِفًا صَارِمًا حَازِمًا، كَيْ لَا يَسِيئُوا اسْتِخْدَامَ السُّلْطَةِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَذُوبُ حَنَانًا وَعُطْفًا حِينَ يَحْقُقُ مَعَ وَالِيٍّ فِيْجِدُهُ بَرِيئًا.

فَعِنْدَ زِيَارَةِ الْفَارُوقِ لِحِمَصٍ مَرَّةً سَأَلَ أَهْلَ حِمَصٍ عَنْ وَالِيهِمْ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ، فَأَثْنُوا عَلَيْهِ خَيْرًا، إِلَّا ثَلَاثَةً مَأْخُذٍ، مَا هِيَ؟ فَقَالُوا:

١ - إِنَّهُ لَا يَخْرِجُ إِلَى النَّاسِ حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ.

٢ - لَا يَجِيبُ أَحَدًا بَلِيلًا.

٣ - يَغِيبُ عَنَّا كُلَّ شَهْرٍ يَوْمًا.

وَاسْتَدْعَى الْوَالِيَّ وَنَظَرَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَأَلَ أَهْلَ حِمَصٍ مَا الْأَوَّلَى ؟

قَالُوا : لَا يَخْرِجُ حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ.

فَقَالَ سَعِيدُ: إِنْ كُنْتُ لِأَكْرَهُ ذِكْرَ السَّبَبِ؟ لَيْسَ لِأَهْلِي خَادِمٌ فَأَنَا أَعْجَنُ مَعَهُمْ عَجِينِي ، ثُمَّ أَجْلِسُ حَتَّى يَخْتَمِرَ ، ثُمَّ أَخْبِزُهُ ، ثُمَّ أَتَوَضَّأُ وَأَخْرِجُ إِلَيْهِمْ.

وَهُنَا أَشْرَقَتْ أَسَارِيرُ سَيِّدُنَا عَمْرُ.

وَالثَّانِيَةُ؟: لَا يَجِيبُ أَحَدًا بَلِيلًا.

قَالَ سَعِيدُ: إِنِّي جَعَلْتُ النَّهَارَ لَهُمْ وَجَعَلْتُ اللَّيْلَ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ.

قال عمر : والثالثة؟: إن له يوماً في الشهر لا نراه فيه.

قال سعيد: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ففي هذا اليوم أغسلها وأنتظرها حتى تجف ثم أخرج إليهم آخر النهار.
فقال سيدنا عمر وقد غمره الفرح والسرور: الحمد لله الذي لم يخيب فراستي فيك (براءة من التهم كاملة).

إخوة الإيمان : كان سيدنا عمر يعيش المساواة بين الأمير والمأمور، بين الحاكم والرعية، وكان يستعمل في تأديب الناس دُرّته، وهي عصي صغيرة كانت دائماً في يده أنى سار صنعها من نعل رسول الله ﷺ ، وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة.

وهو أول خليفة عين القضاة لفصل بين الخصومات بين الناس، وهو منصب جعله مستقلاً عن منصب الوالي، وكان رضي الله عنه يتحاشى أن ينتفع أحد من آل بيته بشيء وليس له فيه حق، وإذا أصدر أمراً أو نهى عن أمر يجمع أهل بيته ويقول لهم:

"إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفتُ له العقوبة".

لذلك توقف القضاء في عهد عمر إلا ما ندر، لأنّ الناس راحوا يتصافون الحقوق فيما بينهم، وانتفى الظلم بين الناس، وإليكم هذه الحادثة التي جرت مع سيدنا عمر نفسه لتستدلوا على مبلغ إقامة الحق وتحقيق العدالة:

ولي سيدنا زيد بن ثابت القضاء في عهد عمر، وعُرضت عليه قضية بين عمر وأبي ابن كعب، وأقبلا إلى زيد بن ثابت ليحكم بينهما. ولما رأى زيد أمير المؤمنين قام بن مجلسه وتخلّى له عن أحسن مكان في حجرة القضاء، فغضب سيدنا عمر وقال:

هذا أول الجور في حكمك، الواجب أن أجلس بجانب خصمي ولا أتميز عليه بشيء.

فأجلسه زيد بجوار أبي ونظر في قضيتهما، ولما انتهى زيد من الحكم. قال له سيدنا عمر:

- يا زيد لا يكون القاضي عادلاً إلا إذا تساوى عنده الرئيس والمرؤوس.
لله درك يا عمر، لله ما أعظم الإسلام في قلبك يا فاروق رضي الله عنك وأرضاك.

يروى لنا التاريخ أن جبلة بن الأيهم الغساني أحد الملوك الذين أسلموا، كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له عمر، وخرج إلى لقائه وأحسن استقباله وأدنى مجلسه.

ثم خرج عمر إلى الحج فخرج جبلة معه، وبينما كان جبلة يطوف بالبيت الحرام، إذ وطىء إزاره رجل أعرابي من بني فزارة، فامتلاً قلب جبلة غيظاً، ثم رفع يده ولطم الأعرابي على وجهه فهشم أنفه، فاستعدى عليه سيدنا عمر بن الخطاب (شكاه إليه) فبعث سيدنا عمر إليه، فلما جاء أسمعته الشكوى، فقال: إنه تعمد وطء ردائي، ولولا

حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف، فقال سيدنا عمر:
- قد أقررت. وحكم عليه بأن يقتص الأعرابي منه ويضربه كما ضربه.
فعظم الأمر على جبلة، وقال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنا ملك وهو سُوقة.
فقال سيدنا عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما.

فلما رأى جبلة إصرار سيدنا عمر على القصاص، استمهله إلى الغد، ثم فرّ ليلاً من وجه العدالة، وارتدّ عن الإسلام ومات نصرانياً.

هكذا كان الفاروق لا يحابي أحداً في الحق لا ملكاً ولا حاكماً ولا أميراً.
وقد جاءه رجل من مصر يشكو سيدنا عمرو بن العاص بأنه قال له: يا منافق.

فقال الرجل: لا والله ما نافقت منذ أسلمت لرب البرية.
فكتب عمر إليه- وكان إذا غضب عليه يكتب- إلى العاصي بن العاصي، أما
بعد:

فإن فلاناً ذكر أنك نفقت، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين أن يضربك أربعين
حداً لما ادّعاه.

فذهب الرجل إلى مصر، وأقام الشهود على ذلك في المسجد. فقبل له: أتريد أن
تضرب الأمير.

وعرضوا عليه التعويض. فقال لو ملأتم لي هذا المسجد لما قبلت. فقال له
أحدهم: أتريد أن تضربه؟! فقال: ما أرى لعمر هنا طاعة. وذهب.

فقال عمرو: ردوه وخلوا بيني وبينه.

فجاء الرجل وأخذ السوط وجلس عمرو بين يديه. فقال الرجل: أتقدر أن تمتنع
عني بسلطانك وأنا فرد من الرعية. فقال عمرو: لا، فنفذ الشرع وامض لما تريد.

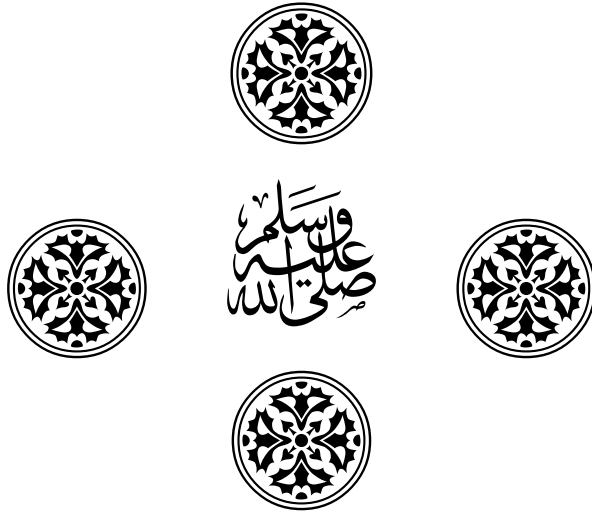
فقال الرجل: فإني عفوت عنك، بعد أن تحققت بأننا متساويان في شرع الله
تعالى.

الله أكبر : هذه هي عدالة الإسلام، نفذها سيدنا عمر وعمره والأعرابي
بجذافيرها.

لقد كان عمر أمة وحده، هكذا كانت طريقته في الحكم وتحمل مسؤولياته، هذا
هو الرجل الذي كانت جيوشه تدك معاقل الروم والفرس دكاً، لا يرضى بثوبه المرقع
تاج كسرى وملابس قيصر، يبطئ عن المسلمين يوماً في صلاة الجمعة، فيأتي فيعتذر
حين يصعد المنبر ويقول: والذي بعث عمر بالحق ليس لي إلا قميص واحد غسلته
وانتظرت حتى يجفّ وألبسه.

فهل هناك حاكم مثل هذا ؟ الذي احتذى النبوة قدوة، وأتعب كل حكام التاريخ، إنه لم يكن ألهاً ولا ملكاً ولا رسولاً يوحى إليه، إنما كان فرداً من الناس، بلغ الذروة في العدالة والرحمة والعظمة.

إن عمر الحاكم حجة الله على كل حاكم، إذا قال حاكم ما ساعة حسابه يوم القيامة: يارب عَجَزْتَ. فإن رب العزة سيقول له: لكنَّ عمر لم يعجز لا هنا ولا هناك وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم، وتحيتنا إليك يا رسول الله :



(١٠١)

الخليفة الثاني

دولة الفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه (٤)

الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين المبين، وأكرمنا بالنبي الصادق الأمين، وبخلافة راشدة بررة متقين، فكانوا لنا ولجميع المسلمين هداة وقدوة صالحة للمؤمنين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين. وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا أميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله الهادي إلى صراطه المستقيم. اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله أصحابه والخلفاء الراشدين ، وسلم تسليماً.

أما بعد :

فقد وقف أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب حين عهد إليه بالخلافة وبعد وفاة سيدنا الصديق رضي الله عنه، يخطب في الناس قائلاً: « أيها الناس لن يغير الذي وُلّيت من خلافتكم شيئاً من خلقي، إنّما العظمة لله وحده، وليس للعباد منها شيء.

بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي وقالوا: قد كان عمر يشتدّ ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتدّ علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت إليه الأمور.

ألا من قال هذا فقد صدق، فإني كنت مع رسول الله عونه وخادمه، وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يدعني

أمضي.. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض،
والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم إني قد وليت أموراً أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها
إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم
من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً، أو يعتدي عليه حتى أضع خده
على الأرض حتى يُذعن للحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض
لأهل العفاف وأهل الكفاف.

ولكم عليّ - أيها الناس - خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ ألا أجتبي
شيئاً من خراجكم ومما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، و لكم عليّ إذا وقع في يدي
ألا يخرج مني إلا في حقّه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله
تعالى، وأسد ثغوركم، ولكم عليّ ألا ألقىكم في المهالك، وإذا غبتم في البعث فأنا
أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفّها عني،
وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما
ولّاني الله من أمركم.

معشر الاخوة الكرام :

هذا هو بيان الخلافة الراشدة، أو الخطاب الذي أخذ به نفسه سيدنا عمر بن
الخطاب في خلال خلافته حرفياً، وهو كما قال: "كان سيف الله المسلول في يد
سيدنا رسول الله ﷺ ثم في يد خليفته الصديق، وهو اليوم أصبح السيف والضارب في
سبيل الله عز وجل".

وأنا اليوم - بإذن مولانا عز وجل - أقف في الحلقة الرابعة مع سيدنا عمر رضي
الله عنه الذي بهرنا جلال المسؤولية عنده، وبهرنا تقديسه للشورى، وبهرنا انحناء
رأسه العالي في خشوع لكلّ معارضة شجاعة صادقة، ولكلّ نصح مصيب من كلّ
طبقات الشعب: اجتاز الطريق يوماً مع رجل فنادته امرأته: رويدك يا عمر حتى

أكلمك كلمات، ويقف رئيس الدولة الإسلامية وخليفة خليفة رسول الله بتواضع وهو مصغ كل الإصغاء لهذه المرأة يبتسم لها وهو يسمعها تقول له:

- يا عمر عهدي بك وأنت تسمى عميراً تصارع الفتیان في سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم لم تذهب الأيام حتى سميت (أمير المؤمنين)،: فائق الله في الرعية، واعلم أن من خاف الموت خشي الفوت. فقال لها صاحبه: اجترأت على أمير المؤمنين.

فجذبه عمر من يده وقال له.

- دعها فإنك لا تعرفها، هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من عليائه وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله.. فعمر - والله - أخرى أن يسمع كلامها..

كانت هذه المواقف وأمثالها هي التي ألهمت الناس الشجاعة في إبداء الرأي وعدم الخوف من تبعه النصيحة، وقد وقف سيدنا عمر يوماً وقد رأى مهور النساء تتزايد فوقف يريد تحديد المهور، وهدد أن ما زاد على أربعين أوقية ألقاها في بيت المال . فنهضت سيدة مسلمة تقول له : ماذا قلت ؟ ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأْتِيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾. فابتسم عمر ويرجع عن قراره ويقول عبارته المشهورة: "أصابت امرأة وأخطأ عمر".

إنه سيد الرأي الحر، أراد أن يصنع من الأمة الإسلامية شعباً حراً، وشعباً سيداً، وأن يشعروا بالأمن كل الأمن، أن يصنع مصيره وما هو قادم عليه، إن سيدنا عمر أعطى المعارضة كل توقير واحترام، لقد احترم سيدنا عمر كلمة الشعب ، وجعلها حقاً للأمة كلها، ولأجل هذا قيل عن سيدنا عمر: إن عمر كان أمة وحده، وكان رجل التاريخ.

لقد أراد سيدنا عمر أن يكون الشعب حراً يتكلم بما يريد ويفعل ما يريد طالما هو ضمن الشرع الإسلامي، وطالما كان فعله لوجه الله، وكان يعاقب ولاته على استعباد الشعوب، وكلنا يعرف قصة عمرو بن العاص مع القبطي المصري الذي قدم من مصر إلى أمير المؤمنين، وهو يقول:

- يا أمير المؤمنين أجزني أبارك الله.

ويسأل عمر عن القصة فإذا بمحمد بن عمرو بن العاص قد أوجعه ضرباً لأنه سابقه فسبقه فعلاه بالسوط وقال له: أتسبقني و أنا ابن الأكرمين ؟!

وأرسل سيدنا عمر إلى عمرو بن العاص: إلى العاصي ابن العاصي احضر أنت وولدك محمد.

وجيء بوالي مصر، وجعل سيدنا عمر يتلقت باحثاً عن ولده محمد فإذا هو خلف أبيه.

ونادى أين المصري؟. فجاء. فقال له: خذ الدرّة واضرب بها ابن الأكرمين. فضربه المصري حتى أثخنه، وسيدنا عمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال: اضرب صلعة عمرو فوالله ما ضربك ولده إلا بفضل سلطانه. قال الرجل: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت وضربت من ضربني. وهنا التفت سيدنا عمر وقال: "يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

سيدنا عمر يريد من الناس أن يكونوا عبيداً لله، لا عبيداً للعبيد، ويريد من الإنسان أن يعرف أنه عبد لله وأن يخدم بعضهم بعضاً، اسمعوا ماذا فعل مع الأحنف بن قيس القائد الإسلامي، اسمعوا وأنتم تصلون على النبي الأعظم ﷺ

قدم عليه الأحنف في وفد من العراق فصادفه في يوم شديد الحر، وهو محتجز بعباءة يداوي إبل الصدقة فقال سيدنا عمر عندما رآه: يا أحنف ضع ثيابك، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق لليتيم

والأرملة والمسكين، فقال رجل من القوم:

- يغفر الله لك يا أمير المؤمنين! فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا؟!

اسمعوا جواب سيدنا عمر وأنتم تترضون عنه، قال سيدنا عمر:

- وأي عبد أعبد مني ومن الأحنف، إنه من ولي أمراً من أمور المسلمين فهو عبد للمسلمين.

إخوة الإيمان : إن قوة سيدنا عمر وجراته استمدّها من الله تعالى الذي قال :
﴿لِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾.

فكل شخص ينصر دين الإسلام في بيته ، وفي محله ، وبين أهله يرفعه الله ويؤيده وينصره، وسيدنا عمر كان من هؤلاء، عمر كان حاكماً لا يقبل الهدية من أي صنف كان، لأن الهدية إلى الحاكم رشوة، عمر كان لا يحني رأسه إلا لله.

وترى هل أحد من الرعية يتجرأ أن يهدي لأمر المؤمنين؟ الويل لمن فعل هذا! وقد حاول مرة صحابي طيب صالح أن يفعلها وهو سيدنا أبو موسى الأشعري، وإليكم الحدث كاملاً:

قدم الفاروق إلى داره فوجد رقعة من سجاد لا تزيد على متر أو أكثر، فسأل زوجته عاتكة:

- أنى لك هذه؟! قالت: أهداها إلينا أبو موسى الأشعري.

- فقال: أبو موسى الأشعري!! نادوا عليه.

ويأتي الرجل الصالح ولا يكاد يقترب من سيدنا عمر ويلمح السجادة في يده، ويرى وجهه العابس المقطب حتى يبادر أمير المؤمنين فيقول: لا تعجل علي يا أمير المؤمنين. ولكن سيدنا عمر يعاجله ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له:

- ما حملك على أن تهدي إلينا؟ خذ ما أهديت ولا تعد إليها ثانية .

وأرسل إليه عامله على أذريجان هدية من الحلوى ، فيسأل الرسول الذي جاء بها:

- أوكّل الناس هناك يأكلون هذا؟ فأجابه الرجل:

- لا يا أمير المؤمنين إنها طعام الصفوة.

وهنا تصيب سيدنا عمر الرعشة ويقول للرجل: أين بعيرك.. احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له: (عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين).

الله أكبر، هل رأيتم مثل هذا الحاكم العادل، هل رأيتم تلميذ رسول الله ﷺ الذي فتح الله على يديه نصف العالم ، وهو مع ذلك لا يرى العزة إلا باتباع سيدنا رسول الله ﷺ ، ولا يرى العزة إلا بالإسلام.

إنّ التاريخ يسجل للفاروق أن جيوشه حين فتحت بيت المقدس - القدس - ورفض النصارى أن يسلموا مفاتيح القدس إلا لأمر المؤمنين، أرسل أبو عبيدة قائد الجند إلى أمير المؤمنين يخبره بذلك.

أيها الاخوة: أرى لزماً عليّ أن أنتقل بكم إلى هناك إلى الصحراء المترامية من المدينة المنورة وحتى القدس لأشهد معكم مشهداً لم تر الإنسانية مثيلاً له مشهداً بطله سيدنا عمر وخادمه ، فإن سيدنا عمر كان يتناوب ركوب ناقته مع خادمه، مرة يركب هذا ومرة يركب سيدنا عمر، ومرة ثالثة يريحان الدابة فلا يركبها ، وحين وصل إلى جوار سور بيت المقدس كان دور الخادم على الراحلة، واستقبله سيدنا أبو عبيدة، واعترضتهما مخاضة، ساقية وراح سيدنا عمر يرفع ثوبه عن الماء، والخادم بجواره راكب على الجمل، والنصارى ينظرون من على السور إلى ملك المسلمين - أيهما هو الذي على الجمل؟! أم أين هو؟.

وهنا انتبه سيدنا أبو عبيدة إلى ذلك، فقال:

- يا أمير المؤمنين لو صعدت على الجمل لكان أهيب لك وأعزّ !!.

وهنا ثار أمير المؤمنين وانتفخت أوداجه وقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! لو غيرك قالها. نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

هذا الرجل، هذا الشامخ العارم الذي يتفجر قوة وجراً وبأساً، ما قيمة الإنسان من غير الإسلام، ماذا يساوي عند الله بدون تاج ونور الإسلام، فالعزة بالإسلام والمجد بالإسلام و الرفعة بالإسلام، ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ .

اسمعوا بقية الحدث:

إن النصارى فتحو أبواب القدس لسيدنا عمر وسلموه المفاتيح وقالوا له: إننا نجد في كتبنا أن الذي يفتح بيت المقدس رجل في ثوبه سبع عشرة رقعة ويدخل بيت المقدس ماشياً وعلامة على دابته.

سيدنا عمر الذي لم تكن الدنيا تساوي عنده جناح بعوضة، اسمعوا وقد جيء بجواهر كسرى وقصر كأمثال الجبال ووضعت أمامه وقيل له :
. يا أمير المؤمنين! خذ ما تشاء.

ونظر سيدنا عمر وقال: يا دنيا غري غيري ، خذوها لبيت مال المسلمين. وراح يقول: إن أناساً أدوا هذا لأمناء.

نعم- أيها الأحبة- لقد جيء بالجواهر والدنانير الذهبية بكاملها لم يُنتَقَص منها شيء، لم يؤخذ منها دينار واحد، لم يوضع منها في أي بنك في أوروبا أو روسيا أو أمريكا شيء ، سيق بها من فارس وبلاد الشام حتى وصلت إلى مدينة سيدنا رسول الله ﷺ. اسمعوا ماذا قال الفاروق: وقد نظر إليها وقد جمع بعضها إلى بعض حتى أصبحت تلة صغيرة ، - قال:

. إن أناساً أدوا هذا لأمناء.

فأجابه المغيرة بن شعبه. (اسمعوا جواب المغيرة) قال له:

- يا أمير المؤمنين عفت عففت فعفت الرعية، ولو خنت لخانت الرعية.

الله أكبر: "عففت فعفوا، ولو خنت لخانوا). هذه خلاصة الكلام ، من أراد أن ينظر إلى القوي الأمين فلينظر إلى سيدنا عمر رضي الله عنه.

إخوتي في الله

كان سيدنا عمر أعظم إنسان على وجه البسيطة في زمنه، كان ولي الأولياء، وصالح الأتقياء، وله من الكرامات مالا يحصى، فقد سخر الله تعالى له الريح والماء والنار والتراب، سخر له العناصر الأربعة تجري بأمره حين شاء ، هذا هو الموجز وإليكم الأنباء بالتفصيل - وأنتم تترضون عنه:-

إن سيدنا عمر بن الخطاب بعث جيشاً إلى أطراف الدولة الإسلامية ووصل الجيش إلى منطقة النهاوند التي تبعد عن المدينة أكثر من مسيرة شهرين، وأمر على هذا الجيش رجلاً يدعى سارية بن الحصين، فبينما سيدنا عمر يوم الجمعة يخطب على المنبر، جعل يصيح في أثناء خطبته:

- يا سارية الجبل الجبل، يا سارية الجبل الجبل.

فتعجب الناس، وكتب سيدنا علي بن أبي طالب تاريخ هذه الكلمة ، وهو يقول بيننا وبين سارية شهوراً ، وتمضي الأيام حتى يصل رسول الجيش يبشر أمير المؤمنين بالنصر في النهاوند، ثم يقول: - يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا، فإذا بنا نسمع صوتك ولانرى شخصك:

- يا سارية الجبل الجبل.

فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزم الله الكفار، وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة هذا الصوت .

هذا بالنسبة للريح، وأما بالنسبة للتراب :

فيروي ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتت زلزلة عظيمة في زمن عمر حتى كادت الجبال أن تقع من على وجه الأرض، فضرب عمر الأرض بدرته (بسوطه) وكان هذا السوط من نعل المصطفى ﷺ وقال لها : اسكني إن لم أكن أنا عدلاً

فويل لعمر. فسكنت الزلزلة ولم يأت بعدها مثلها.
ويروى أن سيدنا عمرو بن العاص كتب لسيدنا عمر أن النيل في مصر لا تزيد زيادته المعتادة حتى تلقى فيه امرأة بكر، وأنه يطلب رأيه في ذلك.
فكتب سيدنا عمر بن الخطاب كتاباً إلى النيل، قال فيه:
"إنك إن كنت تطلع من عند نفسك فلا حاجة لنا بك". وألقي هذا الكتاب في النيل.

فإذا النهر يزداد بإذن الله تعالى ولم يلق فيه بعد ذلك امرأة.
وكانت نار تأتي في كل عام إلى المدينة المشرفة وتحرق البيوت والزروع، يقول ابن عباس: فشكا المسلمون ذلك لعمر. فقال لغلامه:
خذ هذا الرداء، فإذا جاءت النار فافرده في وجهها وقل: يا نار هذا رداء عمر بن الخطاب، فهي ترجع لوقتها.

ففعل الغلام ذلك فرجعت النار في الحال ولم تعد (فقولوا رضي الله عنه) .
يا أحباب المصطفى ﷺ :

إن أعظم كرامة لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ساس الشرق والغرب، وقلب الممالك والدول، لو نظرنا في كتب التاريخ علمنا أنه لم يتفق لأحد من عهد سيدنا آدم إلى الآن ما تيسر له، فإنه مع غاية بعد، عن زينة الدنيا قدر على تلك السياسات، ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات.
أرسل قيصر الروم رسولاً إلى سيدنا عمر، فلما دخل المدينة سأل أهلها:
. أين ملككم؟.

قالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير، قد خرج إلى ظاهر المدينة.
فخرج رسول قيصر في طلبه، وراح يسأل عنه حتى قيل له:
- ها هو إنه نائم في الشمس على الأرض قد وضع نعله تحت رأسه.

فنظر إليه فرأى أمير الدنيا بدون حراسة، بثوب مرقع، يفترش الأرض ويلتحف السماء، ورأى نور الإيمان يتلألأ من وجهه، فوق الخشوع في قلبه، وراح يقول:
- رجل ملوك الأرض لا يقر لهم قرار من هيئته الجلالية وتكون هذه حاله، ولكن يا عمر ! عدلت فأمنت فنمت ، وأما ملكنا فيجور ويظلم، فلا جرم أنه لا يزال خائفاً مما جنته يداه .

أيها الإخوة: هذه الحادثة دعت الشاعر حافظ إبراهيم أن يتمثل هذه الحادثة في شعره فقال:

وراع صاحبُ كسرى أن رأى عمرًا بين الرعية غُطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها سوراً من الجند والأحراس تحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى فيه الجلالة في أسمى معانيها
فهان في عينه من كان يكبره من الأكاسر والدنيا بأيديها
فقال قولة حق أصبحت مثلاً وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قريير العين هانيها

هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يؤدّي التحية إلى الحبيب الأعظم، وتحيتنا إليك يا رسول الله : الصلاة والسلام عليك.

رضي عنه

(١٠٢)

الخلافة الثاني

استشهاد الإمام سيدنا عمر رضي الله عنه (٥)

الحمد لله الذي يجتبي من يشاء من عباده، ويصطفى من خلقه من شاء من أهل وداده، رفعهم فوق الناس درجات وجعلهم من أكرم أهل بلاده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجعلنا من خير أحبائه.

وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله يقول: بينما أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به فيه لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. فقال أصحاب سيدنا النبي: "بم أولته يا رسول الله". قال: العلم).

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً.

أما بعد :

فهذه الحلقة الخامسة من سيرة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي شدّه الله تعالى إليه وربط قلبه على الحق والعدل، وجعله سلطاناً على المسلمين، لم يؤثر عنده هذا الملك والسلطة شيئاً، ساس الأمة الإسلامية بالعلم والإسلام، وكان إذا وقف بين يدي ربه عز وجل يفرق ويخشى يوماً تشيب له الولدان، قرأ مرة سورة الطور فلما بلغ قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَا لَمْ يَدْفَعْ﴾ بكى واشتدّ بكاءه حتى مرض وعادوه. وكان يبكي بكاءً شديداً حتى كان في وجهه خطان أسودان من شدة البكاء من خشية الله تعالى.

قال يوماً لسيدنا أبي موسى الأشعري:

"يا أبا موسى هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله ﷺ وهجرتنا معه وشهادتنا وعملنا كله يُرَدُّ علينا لقاء أن ننجو كفافاً، لا لنا ولا علينا".
فيحييه سيدنا أبو موسى: لا والله يا عمر، فلقد جاهدنا وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا خلق كثير وإننا لنرجو ثواب ذلك.
فيكي سيدنا عمر وتحدّر الدموع على وجنتيه كحبات اللؤلؤ ويقول:
"أما أنا فالذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك يُرَدَّ علي، ثم أنجو كفافاً رأساً برأس".

هكذا كان سيدنا عمر بينه وبين الله تعالى، وكان رضي الله عنه يعدّ من كبار فقهاء الصحابة رضي الله عنهم، وشديد التمسك بالسنة النبوية الشريفة يقول عنه سيدنا ابن مسعود "كان عمر أعلمنا بكتاب الله وأفقها في دين الله تعالى".
وقف مرة يقبل الحجر الأسود ثم قال مخاطباً الحجر:
"إنك حجر لا تضر ولا تنفع، والله لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك".

وهول حول الكعبة وهو يقول:
"فيم هذا الرّمْلان (الهولة) والكشف عن المناكب، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟". ومع هذا لا ندع شيئاً كنا نفعله في عهد رسول الله ﷺ.
وها هو يسأل عن تفسير آية: ﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتُ وُقُرَاءً﴾، فيقول:
﴿الذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا﴾، هي الريح، لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته.
﴿والْحَامِلَاتُ وُقُرَاءً﴾، هي السحب، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته.

هكذا كان رضي الله عنه وقافاً عند النصوص والتعاليم، ملتزماً بالتأسي بالقدوة العظمى سيدنا محمد ﷺ. ونحن نجد سيدنا عمر فقيهاً عظيماً حين عالج قضية المؤلفه قلوبهم، ظهر فيها سيدنا عمر فقيهاً عبقرياً حين ناقشها وأحضر الأدلة عليها.

هو أولاً التزم النص الشرعي وتابع عليه سيدنا رسول الله ﷺ، ثم جاء عهد سيدنا أبي بكر وسهم المؤلفه قلوبهم قائم نافذ، ولا تزال هذه الآية يعمل بها، وإليكم عرض هذه المسألة لأهميتها.

إخوة الإيمان :

المؤلفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف أو بغير اقتناع، أو هم جماعة يرجى إسلامهم إذا أعطوا من الغنائم، ففرض لهم القرآن في بيت المال خطأ يأخذونه من الزكاة تألفاً لهم حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان، فكان أحدهم عندما يعطه رسول الله ﷺ يقول: "إنّ محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر". وحينما نصر الله نبيه الكريم وثبتت دعائم الدولة في عهد سيدنا عمر، قلب وجوه الرأي في المؤلفة قلوبهم ثم قال:

« لقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف.. أما اليوم فقد أعزّ الله دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً».

وأمر بإيقاف هذا المال الذي يدفع وإعطائه للمسلمين من الأصناف الباقية. أي إنه لم يعطل الآية بل أوقف تنفيذها لعدم وجود سببها وهو ضعف الدولة الإسلامية ، أو عدم الحاجة إلى من يرجى إسلامهم لتقوى الدولة لأن الحكم الفقهي يدور مع العلة ، فإذا انتفت العلة انتفى الحكم الفقهي .

وهذه معالجة فقهية واجتهادية منه رضي الله عنهم والصحابه كلهم مجتهدون عدول فكيف بمن مدحه رسول الله ﷺ بأن الله جعل الحق على لسانه وقلبه. (ترضوا عنه).

وكان رضي الله عنه يحب أن يدرأ الحدود بالشبهات كما تعلمه من سيدنا رسول الله ﷺ ، ولا يحب أن يفضح الله به واحداً من المسلمين، يأتيه رجل يوماً يستفتيه قائلاً:

إن ابنتي كانت قد أصابت حداً من حدود الله وأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد قطعت بعض شرايينها فداويناها حتى برئت، ثم تابت - والحمد لله - توبة نصوحا، وهي اليوم يخطبها الرجال فأخبرهم بالذي كان، فيجيبه عمر بلسان الفقيه العالم المستنبط قائلاً:

- أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ، والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، اذهب وانكحها نكاح العفيفة المسلمة.
هكذا كان سيدنا عمر يعرف طبائع الناس ويعطى أحكامه بناءً على كل عصر وكل حالة، وربما مرة يقضي في مسألة، فإذا عرضت عليه مسألة مثلها قضى فيها بغير ما قضى في الأولى، فإذا قيل له كيف هذا؟ قال:
"ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي".

وهذا هو عمل المفتي، فالفقه شيء، والفتوى شيء، لذلك ليس كل عالم بالفقه يكون مفتياً، اسمعوا إلى الفهم السديد الذي آتاه الله سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد سأل رجل:

- أيهما أذكى وأفضل، رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهي الإثم، أم رجل تشتهي نفسه الإثم ولا يأثم. سؤال وجيه، واسمعوا الجواب الأوجه من سيدنا عمر، قال: (إن الذين يشتهون المعصية ويعملون بها ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾).

كتب مرة لسيدنا سعد بن أبي وقاص أحد القادة المسلمين:
"بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، إياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بوادٍ خصيب فلم يكن لها همٌ إلا السمن وإنما حتفها في السمن.. واعلم أن للعامل مرداً إلى الله فإذا زاغ زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته".

هذا معنى قولهم: "إن سيدنا عمر فقهاً عظيماً بطباع الناس"، فقد كانت المظاهر لا تساوي عنده شيئاً ما لم تكن لها حقائق في قلوب الناس، قال يوماً لأحد الشهود: اثني بمن يزيك.

فجاءه برجل: وراح يشهد: إنه رجل صدق.
فسأله، سيدنا عمر: هل سافرت معه يوماً؟
فقال الرجل: لا. قال: هل كانت بينكما خصومة يوماً. فقال: لا.
قال: هل ائتمنته يوماً على شيء. فقال: لا.
قال: لعلك رأيته يركع ويسجد في المسجد ويهتفهم بالقرآن؟! اذهب فلست تعرفه».

وكان يوصي الناس فيقول: "إذا رأيتم أخاً لكم زلّ فسددوه ووقفوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان".
ونصح مرة والدأ وقد جاء يشكو ولده فقال له:
"لا تكرهوا أولادكم على أخلاقكم فقد خُلّفوا لزمان غير زمانكم".
إخوتي في الله:

وفي زمن سيدنا عمر زاد في المسجد النبوي الشريف، فقد لقي سيدنا العباس يوماً فقال له: - لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد في المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه، وأقطع لك أوسع منها.
قال العباس: لا أفعل.

قال سيدنا عمر: إذن أغلبك عليها.
فأجابه العباس: ليس ذلك لك فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحق.
قال أمير المؤمنين: من تختار؟

قال العباس: حذيفة بن اليمان. (وكان هذا الصحابي أمين سر سيدنا رسول الله). وانتقل إليه عم سيدنا النبي وأمير المؤمنين، وقصا عليه الخلاف.

فقال سيدنا حذيفة: سمعت أن نبي الله داود عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس فوجد بيتاً قريباً من المسجد، وكان هذا البيت ليتيم، فطلبه منه فأبى. فأراد سيدنا داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يأخذه قهراً، فأوحى الله إليه : «إِنَّ أَنْزَهَ الْبُيُوتِ عَنِ الظُّلْمِ هُوَ بَيْتِي» فعدل داود وتركه لصاحبه. فنظر سيدنا العباس إلى سيدنا عمر وقال: ألا تزال تريد أن تغلبني على داري؟. قال عمر: لا.

فقال العباس : ومع هذا ، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله ﷺ

ولهذا كان سيدنا عمر يقول: (رحم الله امرئاً أهدى إلي عيوي) . وكان يحاسب نفسه حساباً شديداً، ويتذكر الآخرة في كل لحظة من حياته، لذلك كان يربأ بنفسه عن المعصية أن يقع فيها، وهو منذ أن سمع لأول مرة رسول الله ﷺ يتلو آية الرجعة من كتاب الله تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴾ .

فهو منذ أن سمع هذه الآية عاش قلقاً مؤرقاً، وكان إذا غشيته سحابة من الخوف صاح من قلبه:

"ليت أم عمر لم تلد عمر"، وكان يقول: "ماذا ستقول لربك غداً يا عمر". هذه الكلمة بالذات جعلت عمر يحرم على نفسه الطيبات المشروعة تحريم منع لالتحريم شرع. حتى تأكل منها رعيته كلها، ويلتزم أكل الزيت، ولو شاء أن يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعاً، زاره مرة حفص بن أبي العاص، وكان عمر يجلس إلى طعامه، فدعا حفصاً ليأكل معه القريد اليابس، فاعتذر شاكراً، وأدرك سيدنا عمر سبب تركه الطعام معه فقال: ما يمنعك عن طعامنا. فقال حفص بصراحة: إنه طعام جشب غليظ وإني راجع إلى بيتي فأصيب طعاماً لذيذاً قد صنع لي..

فقال سيدنا عمر: أتراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى، فيلقى عنها شعرها، وأمر برقاق البر فيخبز خبزاً رقاقاً، وأمر بصاع من زبيب فيلقى في سمن، حتى إذا صار مثل عين الحجل صُب عليه الماء فينضج وكأنه دم غزال فاكل هذا وأشرب هذا..

فقال حفص وهو يضحك: إنك بطيب الطعام لخبير.

فتابع سيدنا عمر كلامه وقال:

والذي نفسي بيده، لولا أن تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عشيكم- ولو شئتُ لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من أكله، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وإني لأستبقى طيباتي ، لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام : ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ (قولوا: رضي الله عنه).

أيها الأحبة :

وكان الفاروق رضي الله عنه يحج كل عام، وفي آخر سنة له حج بأزواج سيدنا النبي ﷺ كلهن، ونظر إلى نفسه فرأى أنه سيد الدنيا، ونظر إلى نفسه فرأى رسول الله ﷺ قد قلده بأوسمة الاستحقاق الإسلامي:

١ . فنعته بالفاروق بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل.

٢ . ويرى نفسه اقترح على سيدنا النبي بعض آرائه فلا يوافق رسول الله ﷺ فحسب بل ينتزل به الوحي ويصير قرآناً يتلى.

٣ . ثم أصبح بعد ذلك خليفة رسول الله ﷺ بعد أبي بكر، وأميراً للمؤمنين.

٤ . وانفتحت في أيامه بوابات العالم لدين الله ﷺ، وزحمت راياته جو السماء في كل أفق.

٥ . وشهد عدله كل قاصٍ ودان .

فإذا به يدعو الناس: الصلاة جامعة. ويجتمع الناس فيصعد المنبر ثم يقول:

أيها الناس :

"لقد رأيته وأنا أرى غنم خالات لي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب".

ثم ينزل من على المنبر.

ويتسائل الناس، ماذا أراد عمر بهذا، ويدركه سيدنا عبد الرحمن ويقول له:

- ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟.

فيحييه سيدنا عمر: ويحك يا ابن عوف خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك، فأردت أن أعرفها قدرها. هذا ما يسمى في عصرنا بالتصوف، لأن الصوفيين يحبون أن يهذبوا نفوسهم الأمانة بالسوء، عندما يرون أنهم أفضل من الناس فيفعلون أموراً قد لا يستطيع أكثر الناس تفسيرها كما فعل سيدنا عمر تماماً.

جلس يوماً مع صحابته فقال لهم: أيكم سمع رسول الله يذكر الفتن. فقال حذيفة: أنا، سمعت رسول الله يقول: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأني قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوثر منكوساً لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» .

قال حذيفة: وبينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر. قال عمر: أكسراً لا أبالك.

قال نعم، وذلك الباب رجل يقتل أو يموت. (ق).

إخوتي في الله :

عرف سيدنا عمر أنه المقصود بهذا القول وأنه سوف يقتل، وخاصة أن رسول الله ﷺ بشره بالشهادة " أثبت أحد فإنما فوقك نبي وصديق وشهيدان " .

يقول ﷺ : دخلت الجنة فرأيت فيها قصرًا منيفًا، فسألت لمن هذا القصر. فقالوا لفتى من قريش. فسألت: ومن هو. فقالوا: لعمر بن الخطاب.

وكان رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة يمر بين الصفوف ويقول: استتوا. فإذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، فلما كانت صلاة الفجر كبر فإذا برجل يطعنه بسكين ذات طرفين مسمومين، ويحاول الهروب فنادى سيدنا عمر: قتلني الكلب. وراح لا يمر بأحد وهو هارب إلا وطعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه ثوباً حتى لا يرى طريقه وأمسكوا به فإذا به ينحر نفسه بالسكين التي في يده.

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف فقدمه للصلاة، فصلّى بالناس صلاة خفيفة قرأ فيهما بأقصر سورتين في القرآن: ﴿ والعصر... وإنا أعطيناك الكوثر ﴾ وأغمي على سيدنا عمر ﷺ .

وحمل إلى بيته، فلما استيقظ سأل سؤالاً : من قتلني؟! قالوا: غلام المغيرة عبد مجوسي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام.

أيها الأحبة :

بقي سيدنا عمر خمسة أيام والدماء تنزف من جرحه، والناس يعودونه، فكان إذا أكل أو شرب خرج من جرحه، فعرفوا أنه ميت رضي الله عنه، وجاءه رجل شاب يعودوه فقال له:

. أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ وقديم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. فقال سيدنا عمر: وددت أن ذلك كان كفافاً لا لي ولا علي.

ويأتيه ابن عوف فيقول له سيدنا عمر:

"يا عبد الرحمن لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين، ثم اشتدت حتى خشيت الله في الشدة، وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً وخوفاً فأين المخرج وأين المفر". ويكي سيدنا عمر فينظر إليه عبد الرحمن بن عوف وهو يتأمل هذا الرجل فيقول: مَنْ لهم مِنْ بعدك يا عمر .. ؟

وراح يستشير الصحابة فيمن يلي الخلافة بعده، في اختيار الرجل الذي يسلمه الأمانة وزمام الحكم، فيقترب منه المغيرة بن شعبة قائلاً: أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين، إنه ابنك عبد الله بن عمر.

هناك انتفض عمر وهو على فراش الموت وقال: لا حاجة لنا في أموركم، إني ما حمدتها - الخلافة - فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كانت خيراً فقد أصبنا منه، وإن كانت شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد هو عمر.

فيقول قائل: لكن يا أمير المؤمنين إن ولدك عبد الله هو التقي العادل، فهل ذنبه وذنب الناس الذي ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين.

عبد الله هو أكبر أولاد سيدنا عمر الذي بلغ عددهم ثلاثة عشر ولداً منهم تسعة ذكور، وهؤلاء كلهم أعقبهم من تسع نسوة رضي الله عنه. ومن أولاده عبيد الله مدفون في حمص في جامع سيدنا خالد بن الوليد، والله أعلم.

لكن سيدنا عمر يقرر أن عبد الله ليس هو التقي العادل وحده، ولكن له نظراء في العدل والتقوى فإذا استعمل أحد أهله فسوف يأتي بعده من الحكام من يسرفون في تولية أهليهم وسوف تكون خلافة موروثه ويقولون: لقد فعل هذا عمر.

من أجل ذلك اسمعوا ماذا كان جواب سيدنا عمر رضي الله عنه. قال:

"من استعمل رجلاً لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك، فقد خان الله ورسوله"

وهنا قرر سيدنا عمر قراراً ، أتعرفون ما هو ؟

ترك الخلافة بعده شورى بين ستة مات عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، أولهم: سيدنا عثمان بن عفان، وسيدنا علي بن أبي طالب، وسيدنا أبو عبيدة بن الجراح، وسيدنا سعد بن أبي وقاص، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدنا سعيد بن زيد. وأوصاهم جميعاً ألا يفضلوا أقاربهم على الناس.

معشر السادة الكرام :

بقي سيدنا عمر خليفة عشر سنوات ونصف وأربعة أيام، وحين شعر بدنو أجله قال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإنني لست اليوم للمؤمنين أميراً، قل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فمضى وسلم فاستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السلام ويقول لك: يستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت: كنت أريده لنفسى ولأثرته اليوم على نفسي. فأقبل عبد الله ﷺ يبشر سيدنا عمر بالقبول، فقال سيدنا عمر: إذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

يقول سيدنا سعد بن أبي وقاص: طعن عمر يوم الأربعاء سنة ثلاث وعشرين في ذي الحجة. فلما كان يوم الأحد هلال المحرم سنة ٢٤ هـ وبلغ عُمرُ سيدنا عمر ثلاثاً وستين، راح سيدنا عمر الفاروق يستقبل الموت، وساعة كان يستقبله قال لابنه عبد الله: يا عبد الله خذ رأسي عن الوسادة وضعه فوق التراب لعل الله ينظر إلي

فيرحمي.

يقول سيدنا عثمان وسمعته يقول حين انتقل إلى جوار ربه :
"ويلي وويل أُمي إن لم تغفر لي يا رب ."

يا أمة الحبيب الأعظم :

لو تعرفون كم ترك الفاروق من أموال وضياع وعقارات وأرصدة في بنوك العالم لتعجبتم أشدَّ العجب، سيدنا عمر الذي ضم بذراعيه وتحت لواء الإسلام أكبر دول العالم وجاءته الدنيا صاغرة بين يديه، ترك ديوناً عليه حسبت فوجدت ستة وثمانين ألفاً أو نحوها . وقَّاه قومه وعشيرته رضي الله عنهم أجمعين .

أيها الإخوة:

وكما أننا نشاق لسيدنا عمر في عصرنا هذا كثيراً، اشتاق إليه سيدنا العباس رضي الله عنه، فقد كان صديقه الحميم، فجعل سيدنا العباس يدعو الله تعالى أن يريه سيدنا عمر في المنام قال الراوي: فرآه بعد سنة كاملة، وهو يمسح العرق عن وجهه. فقال له: ما فعلت يا عمر ؟ .

فقال: كم لي وأنا ميت. قال العباس: سنة كاملة، فقال سيدنا عمر:
- الآن حتى فرغت من الحساب وإن كاد عرشي ليهده لولا أني لقيت الله رؤوفاً رحيماً.

هذا هو أمير المؤمنين وخليفة رسول الله ﷺ وأحد وزيريهِ، من سبَّه أو سبَّ أبا بكر فالعنوه لأن سيدنا أنساً بن مالك يقول: "قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: إنا نُسب. فقال رسول الله ﷺ: « من سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وفي رواية الترمذي:

"الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه ."

وكل من سبَّ الشيخين الصديق والفاروق رضي الله عنهما تكرر الصلاة خلفه عند الحنفية والشافعية، ولا تصح عند السادة المالكية والحنابلة، أي يجب عليه أن يعيد الصلاة ثانية.

معشر الإخوة :

وهكذا يُسَدَّل الستار على سيرة الخليفة الراشدي سيدنا عمر بن الخطاب، لكن حياته ما تزال حية بينما نفتدي بها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ورحم الله ابن مسعود رضي الله عنه حينما قال وكان محققاً فيما قال: "ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر".

كان إسلام سيدنا عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة.
أيها السادة :

أعود بكم من هناك إلى هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم ، وتحيتنا إليك يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك



(١٠٣)

ال خليفة الثالث ذو النورين

سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه

الحمد لله الذي جعل النظر في أخبار من غبر من أعظم العبر، حمداً يوافي نعمه، ويدفع نقمه، ويكافئ مزيده من شكر.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي من نار جهنم قائلها من أهل البدو والحضر.

وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله صفوة الصفوة من البشر.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله قرناء القرآن كما صح بذلك الخبر، وعلى أصحابه الذين أرغم الله بفضائلهم وخلفائهم أنف من جحد وكفر، وسلم تسليماً.

أما بعد:

فحدثنا اليوم عن رجل آخر من أصحاب سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله، رجل حمل المسؤولية في عزم مجيد ومدد رشيد، وحين لم يجد ما يحمي به مسؤولياته سوى حياته جاد بها في سماح منقطع النظير.

كان هذا الموجز وإليكم الأنباء بالتفصيل .

إننا اليوم في صدد الحديث عن رجل من الرعيّل الأول، رجل أذن الله تعالى أن يكون من أشرف الأمة وسادتها، رجل اختاره الله واصطفاه من بين سادات الصحابة ليكون خليفة سيد الخلق وحيب الحق سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله .

اختاره مولانا رحمته ليؤكد للأمة أن البقاء في هذا الوجود للحق والخير والفضيلة.

إنه سيدنا عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه من بني عبد شمس أيضاً ، كانت ممن أسلم والحمد لله تعالى، وكنيته أبو عبد الله، ولد بعد عام الفيل بست سنين على الصحيح، ونما وشب ونشأ في ظل الحرم المكي.

وكان حسن الوجه بهي الطلعة يقول سيدنا الحسن: نظرت إلى عثمان فإذا به رجل حسن الوجه ، وإذا بوجنته نكاثُ الجدرى، وإذا شعره قد كسا ذراعه. وعمل سيدنا عثمان في التجارة، وكان من زعماء قريش ورجالاتها، طاهر القلب نقي السريرة، وكان دائم التحدث بنعمة الله تعالى عليه، يقول: "ما زينت ولا سرت في جاهلية ولا في إسلام". وكانت طهارته الظاهرة والباطنة هذه هي التي أهلتها ليكون له شرف دخول الإسلام وهداية الله تعالى له.

جاء إليه الصديق يوماً ينبئه نبأ الدعوة الجديدة التي يبلغها سيدنا محمد بن عبد الله، وما أن انتهى الصديق من كلامه حتى رجع سيدنا عثمان إلى وراء في ذاكرته إلى مكان نام فيه أثناء تجارته وقدمه من الشام، حين جلس يقيل في مكان ظليل، وغلبه النوم هو ورفاقه فإذا به يسمع في حلمه منادياً ينادي النائمون أن: "هبوا إيقاظاً فإن أحمد قد خرج بمكة".

هنا جاء الصديق يوقظ ذكرى لذيدة عند عثمان، لذلك ما إن دعاه الصديق إلى حتى أعلن إسلامه، وكان أحد الخمسة أو السبعة الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام، ودخل ميدان الدعوة إلى الله تعالى مباشرة بعد أن أعلن إسلامه ثانية أمام الحبيب الأعظم ﷺ .

إخوة الإيمان :

ما أن بلغ قريش نبأ إسلام سيدنا عثمان حتى بدأت المخاطر تجتاح حياته كما حدث لغيره من الصحابة، وكانت أول المخاطر التي نالها تعذيب الحكم بن أبي العاص له وهو عمه، فقد كان يوثقه بالحبال والسلاسل ويصرخ في وجهه: أترغب

عن ملة آبائك إلى دين مُحدث ، والله لا أحلّ وثاقلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين.

ويحييه سيدنا عثمان الذي ثبتّ الله إيمانه وربط على قلبه الطاهر قائلاً :
- والله لا أدع دين الله أبداً ولا أفارقه.

لكن عمّه الحكم يوالي تعذيب سيدنا عثمان، فأمره سيدنا النبي بالهجرة مع زوجته رقية إلى الحبشة.

وكان أول وسام علّقه رسول الله على صدر سيدنا عثمان أن زوجه ابنته السيدة رقية بنت سيدنا محمد ﷺ ، وكان الوسام الثاني وسام الهجرة، أنقذه به من الاضطهاد وألوان العذاب الذي صبّه قريش على الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم، وقد كُتِبَ على هذا الوسام كلمات قالهن سيد الأنبياء والمرسلين فقد قال عن سيدنا عثمان:

- إنه أول المهاجرين إلى الله بعد نبي الله لوط عليه السلام.

وفي الحبشة شعر سيدنا عثمان مع الصحابة بالأمان في ظل ملك الحبشة الذي دخل في الإسلام هو الآخر.

فتناهى إلى سمع الصحابة في الحبشة أن الله أعز دينه، فترك بعضهم الحبشة ومنهم عثمان وعادوا إلى مكة، لكنهم هاجروا ثانية إلى الحبشة من جديد حتى يجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً.

وكان الفرج الذي هيّأه الله للمهاجرين الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر الصحابة رضي الله عنهم زرافاتٍ ووحدانا، وهاجر سيدنا عثمان إلى المدينة المنورة، فنال الوسام الثالث، وسام الهجرتين وهو وسام الاستحقاق الإسلامي الثالث الذي ناله هذا الصحابي الجليل.

وما أن هاجر إلى المدينة المنورة حتى وجد أن بعض المهاجرين يعانون من مشكلة قلة الماء، بل إن يهودياً كان عنده عين ماء عذبة طيبة المذاق تدعى

"بئر رومه" فكان اليهودي يبيع الماء بيعاً إلى الناس.

وفي مجلس ضم خيرة الصحابة مع سيدنا رسول الله ﷺ سمع سيدنا عثمان أن النبي يتمنى أن تكون هذه البئر للمسلمين عامة، وتمنى أن لو يجد بين الصحابة من يشتريها.

فسارع سيدنا عثمان إلى هذا اليهودي فعرض عليه أن يشتري بئره، فأبى اليهودي بيعها، فساومه على نصفها، فاشتراه منه باثني عشر ألف درهم، على أن تكون لعثمان يوماً ولليهودي يوماً.

فصار المسلمون يستقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين. فإذا باليهودي اللعين يأتي إليه ويبيعه النصف الثاني لما وجد أنه قد خسر سوقه الرائجة.

وما أن فرض الجهاد في سبيل الله تعالى حتى سارع سيدنا عثمان للمشاركة في جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا غزوة بدر فقد أمره رسول الله ﷺ أن يبقى مع زوجته السيدة رقية التي مرضت مرضاً شديداً وتوفيت أثناء غزوة بدر، ودفنها سيدنا عثمان في البقيع.

وقدم سيدنا رسول الله ﷺ من بدر، وعلم بوفاة ابنته الحبيبة فطيب خاطر سيدنا عثمان وزوجه ابنته الثانية أم كلثوم، فلقب بذي النورين، فكان هذا هو وسام الاستحقاق الإسلامي الرابع الذي طوّقه به سيدنا رسول الله ﷺ .

إخوتي في الله :

كانت أول غزوة شارك فيها هي غزوة أحد، قاتل فيها قتال الأبطال ضد جيش الشرك والكفر، لكنه ما إن دارت الدائرة وتبعثرت صفوف المسلمين ونودي في الجيش أن محمداً قد قتل، حتى أصابت الصحابة غاشية من الذهول والفجيعة، فإذا بهم يسرعون نحو الجبل تاركين أرض المعركة، وكان من هؤلاء سيدنا عثمان، وهؤلاء الصحابة علم الله عزهم وقبل اعتذارهم ونزل القرآن بشأنهم قائلاً: ولقد عفا الله عنهم.

فكان سيدنا عثمان بعد ذلك لا يترك عملاً يرضي الله ورسوله إلا قام به،
شكراً لله تعالى أن غفر له وعفا عنه لتركه أرض المعركة يوم أحد، وكان لا يدع رغبة
من رغبات الحبيب الأعظم إلا ويسارع في تنفيذها رجاء مرضاة الله ورسوله الكريم.
وكان ينفذ هذه الرغبات في حبور وغبطة ورضا، فمرة تمتنى سيدنا النبي أن يجد
من بين أصحابه من يشتري الأرض المجاورة للمسجد كي يضمها إلى المسجد ويزداد
رحابة واتساعاً، فإذا به يسرع ويشتري الأرض من أصحابها بخمسة وعشرين ألفاً.
وبعد عام فتح مكة، رأى السيد الأعظم أن يوسع المسجد الحرام، فقال ﷺ :
(من يوسع لنا هذا البيت في المسجد بيت له في الجنة) ، فعرض سيدنا عثمان
على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا لغرض توسعته فاعتذروا بأنهم لا
يملكون غيره، وليس لهم مال يشترون به غيره، فإذا بسيدنا عثمان يسارع إلى دار
عريضة فيشتريها ويعطيها لهم مقايضة بدارهم الأولى فيوسع بها المسجد الحرام.
كانت هذه الإنفاقات العظيمة تؤهله لنيل وسام الاستحقاق الخامس وهو وسام
الكريم.

وفي عام الحديبية عام الصلح مع قريش لدخول مكة المكرمة، منعت قريش النبي
أن يدخل مكة المكرمة لأداء العمرة، فأرسل النبي الكريم سيدنا عثمان رسولاً عنه
لشرح سبب مجيئه إلى مكة، لكن قريشاً بقيت على عنادها ورفضها أن يدخل
رسول الله عليهم مكة هذا العام.

ثم تقدّم أحد كبارات قريش وقال لعثمان: أما أنت يا عثمان فإن شئت أن
تطوف بالبيت فلا نمنعك منه.

فقال سيدنا عثمان: ما كنت لأطوف بالبيت قبل رسول الله ﷺ.

وتأخر سيدنا عثمان في العودة إلى النبي الكريم في الحديبية، فتناهى إلى سمعه أن
قريشاً قتلت عثمان، فإذا به يدعو الناس إلى بيعه الرضوان ليباعوا على الموت أخذاً
بثأر سيدنا عثمان.

وبايع الصحابة على الموت في سبيل الله جميعاً ثم ضرب رسول الله كفه اليمنى باليسرى وقال وهذه بيعة عن يد عثمان، فنال عثمان وسام الاستحقاق الإسلامي السادس وهو "وسام البيعة".

وبارك مولانا عز وجل هذه البيعة وأنزل في كتابه:

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾.

ولكن ما إن انتهت البيعة حتى رأى الصحابة سيدنا عثمان قادماً سالماً معافى.

معشر الإخوة الكرام

اسمحو لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى المدينة المنورة، إلى صاحب الجبين الأزهر والروض الأنور، إلى صاحب الطلعة البهية والروضة الندية ، إلى سيدي وجدي رسول الله ﷺ.

الزمان هو العام التاسع من الهجرة، والمكان هو مجلس ضم كبارات الصحابة، وأما الحدث فهو قلق هرقل عظيم الروم على بلاده خوفاً من هذا الدين الجديد، وقراره أن يغزو هذه الأمة في بلادها وديارها.

ووصلت أنباء الزحف المرتقب إلى القائد الأعلى للقوات الإسلامية سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وكان الصيف حاراً يصهر الجبال، والبلاد تعاني من جدد وعسرة، ويحتاج الجيش الإسلامي لعبور الصحراء إلى نفقة باهظة، لبعد المسافة حتى تبوك على حدود الأردن.

وراح السيد الأعظم يحض أصحابه على التبرع لتجهيز الجيش الإسلامي، والذي أطلق عليه جيش العسرة. وأسرع أهل اليسار والغنى والمقتدرون يحدوهم الإيمان ليقدموا للمسلمين الفقراء الذين قدموا للجهاد في سبيل الله، وبلغ الجيش المسلم ثلاثين ألفاً أو يزيد، ولكن ليس معهم أسلحة وعتاد، تكفي لقتال العدو.

فنظر الحبيب الأعظم إليهم ونادى في الناس : " من يجهز هؤلاء ويغفر الله تعالى له؟!".

سرت هذه الكلمات بين الصحابة فنفذت إلى قلوبهم وراحت تضرب على أوتار الإيمان العظيم الذي كانوا يحملونه بين جوارحهم، فسارعوا رضي الله عنهم كل ينفق حسب سعته، وقدمت النساء حليها لله ورسوله وابتغاء مغفرة الله ورضوانه. أما سيدنا عثمان فإليك هذا الوصف الذي وصفه به الصحابة كل حسب ما رأى:

يقول سيدنا حذيفة رضي الله عنه: جاء عثمان إلى رسول الله في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبها بين يديه.

ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: شهدت رسول الله وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العسرة بسبعمئة أوقية من الذهب (ت) .

ويقول ابن شهاب الزهري أحد أتباع التابعين: قدم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمئة وأربعين بعيراً وستين فرساً أتم بها الألف.

فجعل سيدنا رسول الله وهو يرى ما فعل سيدنا عثمان يقول: "غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة". وجعل يقول:

ما ضرب عثمان ما فعل بعد اليوم، اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض. كان هذا هو - أيها الإخوة - وسام الاستحقاق الإسلامي السابع الذي ناله سيدنا عثمان وهو "وسام الرضا من الله ورسوله" وهو أعظم وسام ناله عثمان في حياته.

وفي العام التاسع من الهجرة توفيت الزوجة الثانية لسيدنا عثمان وهي السيدة أم كلثوم بنت سيدنا رسول الله ﷺ ولم تنجب له أولاداً، وطيب رسول الله خاطر عثمان فقال له:

- لو كان عندي عشر بنات لزوجتهن لك يا عثمان (واحدة بعد واحدة).

وهذا هو وسام محبة رسول الله ﷺ لسيدنا عثمان رضي الله عنه.

إخوتي في الله:

كان في سيدنا عثمان صفة غلبت عليه في أكثر حياته التي عاشها منذ الولادة وحتى الشهادة. ألا وهي صفة الحياء ، فقد كان شديد الحياء من الله تعالى حتى وهو خالي لا أحد معه من الخلق، يقول سيدنا الحسن:

- إن عثمان ليكون في البيت والباب عليه مغلق فما يضع الثوب عنه وهو يغتسل يمنعه من ذلك الحياء من الله تعالى.

ولأجل هذا زكاه رسول الله ﷺ وأعطاه وسام الحياء الإسلامي، فقال:
"أصدق أمتي حياء عثمان".

معشر السادة:

ما زلنا هناك حيث الحبيب الأعظم في المدينة المنورة- صلوا عليه- وأرى الحبيب الأعظم في حجرته الشريفة متكئاً وقد كشف عن بعض ساقيه فيستأذن عليه الصديق فيأذن له، ويستأذن عليه عمر فيأذن له، ثم يستأذن عليه سيدنا عثمان فإذا بالحبيب الأعظم يجلس وكان متكئاً ويرخي عليه ثيابه ثم يأذن لسيدنا عثمان بالدخول. ولما غادر الصحابة الثلاثة حجرة الحبيب الأعظم، رأينا السيدة عائشة رضي الله عنها تقول له:

- يا رسول الله استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك، فلما استأذن عليك عثمان أرخيت عليك ثيابك؟!.

فقال سيدنا رسول الله: "يا عائشة ألا أستحيي من رجل والله إن الملائكة تستحيي منه"(م).

ولهذا كان سيدنا النبي كلما جاءت مناسبة يذكر حياء سيدنا عثمان فقد قال مرة: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأشدّهم حياء عثمان .."

سيدنا عثمان الصَّوَّام القوام العابد التقي نقل عنه الصحابة رضي الله عنهم أنه كان يصوم الدهر ويقوم الليل ويقرأ القرآن كله في ركعة واحدة يحيي بها الليل كله، يقول عنه ابن عمر: رضي الله عنهم:

- إن قوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ قال: هو عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكان أحد الحفظة لكتاب الله تعالى لا يتركه أبداً، ويكثر من تكراره كل ليلة، كان القرآن الكريم قبلته وقودته، ولطالما هزّت هذه الآية نفسه وهو يتلوها: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾.

هذه الآية الكريمة كانت عنده تفضح زيف الدنيا وتكشفها للمفتونين بها، وهم يتلون كلام الله وهو يقول: "فأصبح هشيماً تذروه الرياح".

فإذا بسيدنا عثمان يجود بماله هذا المال الذي إن لم ينفقه في سبيل الله سيتحول إلى هشيم تذروه الرياح، وأما إن أنفقه فسيتحول هذا المال إلى ثواب خالد إلى يوم القيامة. فألى على نفسه كل جمعة أن يعتق عبداً لوجه الله تعالى، يشتريه من سيده ويعتقه لوجه الله تعالى.

أيها الأحبة:

ما زلنا هناك، حيث الحبيب الأعظم ﷺ جالس في بستان من بساتين المدينة المنورة، فإذا برجل يطرق الباب فيقول سيدنا النبي لأبي موسى الأشعري: افتح له الباب وبشره بالجنة، فإذا به سيدنا أبو بكر الصديق، فاستقبله وأدخله وبشره بالجنة. ثم طرّق الباب ثانية فقال سيدنا النبي ﷺ افتح له الباب ، وبشره بالجنة ، فإذا هو سيدنا عمر فاستقبله وأدخله وبشره بالجنة.

ثم طُرق الباب فقال سيدنا النبي وكان متكئاً فجلس وقال: افتح له الباب وبشره بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون له. فإذا هو سيدنا عثمان فبشره بالجنة وأخبره الخبر فقال سيدنا عثمان : - اللَّهُ المستعان (خ).

وفي إحدى المرات أرسل سيدنا النبي الكريم إلى سيدنا عثمان فناجاه سيدنا النبي طويلاً ثم قال: "يا عثمان إنّ اللَّه عز وجل مَقْمَصُك قَمِيصاً (مستخلفك خلافة) فإذا أَرَادَكَ المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة، فلا تخلعه لهم ولا كرامة". (أحمد - حسن).

معشر المسلمين:

فهل تغيرت أخلاق سيدنا عثمان عندما انتقل السيد الأعظم إلى جوار ربه؟! أبدأ إن سيدنا عثمان بقي على أخلاقه العالية وقد سطر له التاريخ حدثاً هاماً يوم أن قُلْتُ الأرزاق زمن الصديق، وراح التجار يبيعون الأطعمة بثمن باهظ، فإذا بسيدنا عثمان تأتيه قوافله ورواحله من اليمن والشام محملة بالخيرات، ويحوم حوله التجار يريدون شراءها فيدخل معهم في مساومات شيقة رواها لنا التاريخ. يقول سيدنا ابن عباس رضي اللَّه عنه: قحط الناس في زمان أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء اللَّه لا تمشون غداً حتى يأتيكم فرج اللَّه، فلما كان صباح الغد قدمت قافلة لعثمان فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته، فسألهم:

. كم تربحوني؟. قالوا: العشرة اثني عشر. قال: قد زادني.. قالوا: فالعشرة خمسة

عشر. قال: قد زادني.. قالوا: من ذا الذي زادك ونحن تجار المدينة؟.

قال: اللَّه تعالى زادني بكل درهم عشراً.. اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن

ولا حساب.

وهكذا يا أهل الإيمان . نرى أن سيدنا عثمان قد امتلأ بالأوسمة الإسلامية،
ووالله وسام واحد من هذه الأوسمة ليعدل عند الله تعالى جميع الأوسمة الزائفة في
الدنيا التي نعيشها، لأمر واحد فقط هو أن الذي علقها على صدر سيدنا عثمان
كان : سيدنا محمد ﷺ.

فمن عند الحبيب هناك أعود بكم إلى هنا، وما أدراكم ما هنا ، هنا مدرسة
سيدنا محمد ﷺ. يقول فيها الحبيب الأعظم :

"لكل نبي في الجنة رفيق ورفيقي في الجنة عثمان".

الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول الله
هي الصلاة والسلام عليك.

رضي عنه

(١٠٤)

ال خليفة الثالث أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان

الحمد لله المنفرد في كبرائه وتعاليه، المستحق للتمجيد والتقدیس والتسبيح والتتزيه، الذي قطع بالموت عذر المعتذرين، وقمع به كبر المتكبرين، وحسم به أطماع الطامعين، وحكم به على الخلق أجمعين.

أحمده حمداً يكون لجلاله تمجيداً، ولنواله معيداً وعن نكاله محيداً .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من لا يتخذ من دونه معبوداً.

وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بشيراً ونذيراً وشهيداً.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة توجب لهم من فوائده مزيداً، وتقلدهم فرائد مننه تقليداً، وسلم تسليماً.

أما بعد: فقد وقف الحبيب الأعظم قبل وفاته بأيام ينادي الناس قائلاً:
أيها الناس: إن أبا بكر لم يسؤني قط، فاعرفوا ذلك.

أيها الناس: إني راض عن عمر وعلي وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن وقاص.

معشر الإخوة الكرام:

هذه الوصية بالذات تذكرها سيدنا عمر وهو على فراش الشهادة، ولأجلها ترك الخلافة بين هؤلاء الستة، فجمعهم حوله وقال لهم قبل أن يستشهد:

إني نظرت فوجدتكم القادة، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد توفي رسول الله وهو عنكم راض، وإني لا أخاف الناس عليكم ما استقمتم، فإذا أنا مت فتشاوروا

ثلاثة أيام، ولايات اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً ولا يكون له من الأمر شيء.

إخوة الإيمان:

وقضى الفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه، وكان طلحة غائباً، وبادر ابن عوف فخلع نفسه ثم تنازل الزبير عن حقه لعلي وتنازل سعد بن أبي وقاص لعثمان، وانحصر الاختيار بين سيدنا عثمان وسيدنا علي، وفوض سيدنا عبد الرحمن بن عوف في اختيار أحدهما، وخلال هذه المهلة القصيرة - الثلاثة أيام - نهض ابن عوف يستشير الناس سراً وجهراً، وحتى سأل الركبان الوافدين على المدينة المنورة.

ثم أرسل سيدنا ابن عوف في طلب المرشحين، فقدموا عليه، فأخذ منهما موثقاً وعهداً لئن ولي واحداً منهما ليعدن، ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن.

وخرج بهما إلى المسجد وقد لبس سيدنا ابن عوف العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ، وبعث إلى وجوه الناس فقدموا، فضاق بهم المسجد، فوقف فيهم خطيباً وقال: - أيها الناس إني سألتكم سراً وجهراً فلم أجدكم تعدلون بعلي وعثمان أحداً.

ثم التفت لسيدنا علي وقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله ﷺ وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال سيدنا علي: على كتاب الله ﷺ وسنة رسوله واجتهاد رأيي.

ثم قال لعثمان: قم إلي يا عثمان. فقام إليه فأخذه بيده وقال له:

- هل أنت مبايعي على كتاب الله ﷺ وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال عثمان: اللهم نعم.

فرفع سيدنا عبد الرحمن بن عوف رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال:

- اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقة عثمان. وازدحم الناس يبايعون سيدنا عثمان رضي الله عنه، وكان من أوائل الأيدي التي بايعت سيدنا عثمان يد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إخوتي في الله: تلقى سيدنا عثمان البيعة وهو يرتحف، لأن الخلافة مسؤولية سوف يحاسب عليها أشدّ الحساب يوم القيامة.

لكنه رضي الله عنه حمل المسؤولية وحافظ على الدولة والأمة، ووضع نصب عينيه الشريعة التي سار عليها رسول الله وصحابه.

وكان أول عمل قام به سيدنا عثمان محاسبة سيدنا عبيد الله بن سيدنا عمر الذي بعد أن قُتل أبوه سارع فقتل قاتليه الآخرين اللذين تأمرا مع العبد المجوسي في قتله، فإذا بسيدنا عثمان يدفع دية القتلين وكان أحدهما نصراني والآخر مجوسي.

ثم كتب إلى الأقاليم وولاتهم وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات والأمناء على بيوت المال يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله ويحضهم على إتباع السنة.

ونظر سيدنا عثمان إلى بيت المال فوجده ممتلئاً فزاد في عطاء الناس - معاشاتهم - واتخذ في المسجد سماًطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وأبناء السبيل.

ولكنه ما إن وصل الخبر إلى الأقطار المجاورة للدولة الإسلامية الكبرى حتى فوجئت بالانتفاضات المسلحة تنقض على الدولة من كل جهة:

فقد نقضت دولة الروم عهودها، وكذلك نقضت بعض مقاطعات الفرس. ولكأنما كان مقتل سيدنا عمر إشارة البدء بين قوى التمرد فقامت قومة واحدة، وأغار الروم بأسطولهم على الإسكندرية وفلسطين وسرت النار وطوقت الدولة الإسلامية الممتدة.

أيها الأحبة:

صحيح أن الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان لم تكن له بطولات مسموعة مثل سيدنا خالد بن الوليد وسيدنا سعد بن أبي وقاص وسيدنا علي بن أبي طالب، وصحيح أنه قد بلغ السبعين ولكنه مع ذلك كله لم يفقد ذرة واحدة من إيمانه

بِاللَّهِ ورسوله وهنا تكمن قوة المؤمن، إن القوة لا تقاس باقتدار الناس وبضخامة أجسامهم

بل بما وقر في قلوبهم من الإيمان العظيم.

وأمام هذه الانتفاضة لم يتردد الخليفة الثالث لحظة واحدة، لم يسأل ماذا يصنع، لأن الذي رباه وعلمه هو سيدنا محمد ﷺ، لقد أصدر على الفور قراره الأول بإطفاء النار وقهر المعتدين.

واختار بنفسه قواد الجيوش بحنكة عظيمة حتى إنه لم يخسر معركة قط إلا واحدة حتى أرضخ جميع الذين ارتدوا على أعقابهم واسترد هيبة الدولة الإسلامية من جديد. بل إنه أمر بمد الفتوحات الإسلامية إلى أبعد نقطة ممكنة لتمكين حدود الدولة الإسلامية.

وحين سمع سيدنا عثمان أن الروم تتحرش بالحدود الشامية بعث مجموعة من الجيش قوامها عشرة آلاف لتأديب الروم في تلك المنطقة، وأنا اليوم أوردت هذه القصة لأريكم الشباب الذين فتحوا الدنيا بالإيمان، لقد جعل سيدنا عثمان قائداً على الجيش رجلاً هو سيدنا حبيب بن مسلمة الفهري، لكن الروم والترك أقبلوا في جيش قوامه ثمانون ألفاً.

وهنا أقبلت زوجة القائد حبيب تسأل زوجها وكانت قد خرجت معه ورأت أعداد الروم الكثيرة فقالت لزوجها:

- أين ألقاك إذا حمي الوطيس وماجت الصفوف. فأجابها الزوج القائد:

- تجديني في خيمة قائد الروم، أو في الجنة.

بهذا الإيمان العظيم التقى الجيشان ودارت الدائرة على جيش الروم وتغلب الإيمان على الكفر، وسار ماتبقى من الجيش يفتح حصون الروم ويفرض هيبة الدولة الإسلامية في الشمال.

وفي عهد سيدنا عثمان ركب الصحابة البحر لأول مرة للقضاء على المركز البحري للروم (قبرص) وركبت مع هذا الجيش أم حرام مع زوجها عبادة بن الصامت، وفي هذا الجيش تحققت معجزة لسيدنا النبي ﷺ.

حينما نام ذات ليلة في الظهيرة عند سيدنا عبادة فنهض وهو يضحك فسأله أم حرام زوجها عم يضحك؟ فقال: ناس من أمي عُرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة. فقالت : يا رسول الله ادع الله لي أن يجعلني منهم. فقال لها: أنتِ منهم.

ثم نام ثانية ثم استيقظ وهو يضحك ويقول:

ناس آخرون من أمي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة، فقالت أم حرام. يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فأجابها: أنت من الأولين. وها هي الرؤيا تتحقق وها هي في هذه الغزوة مع زوجها في انتصارهم الأول في البحر، لكن السيدة أم حرام تموت بعد انتصار المسلمين وتدفن هناك ويعرف قبرها الطاهر باسم قبر المرأة الصالحة.

وكان نصر المسلمين الساحق في البحر حينما تحركت جيوش الروم للرد على جيش المسلمين فخرج امبراطور الروم قسطنطين بجيشه الجرار على ظهور خمسمئة سفينة زاحفاً نحو بلاد المغرب ليلاقي بها القائد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان التحدي الأعظم، والتقى الجمعان في معركة قلّ نظيرها.

فقد أبى الروم الخروج إلى اليابسة من سفنهم، فإذا بالجيش المسلم يحدوه الإيمان بـالله يربط سفنه بسفن الروم، وراحوا يجتلدون بالسيوف والخنجر، وامتألت أرض المعركة بالقتلى من الجهتين ولكن النصر والغلبة دائماً للإيمان الصادق وقد كتب مولانا عز وجل ﴿لَا غَلْبَ لَنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾.

وهرب امبراطور الروم هو وبقية جنوده وهو يعاهد ربه ألا يحارب المسلمين أبداً.

معشر المؤمنين:

لم تهدأ عملية الفتح الإسلامي طوال خلافة سيدنا عثمان أو أغلبها، فسيدنا معاوية يوغل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب القسطنطينية، وفي بلاد ماوراء فارس يزحف ابن عامر، وامتدت الفتوحات إلى السودان والحبيشة والهند والصين، وال خليفة الكهل الذي بلغ السابعة والسبعين رابض في المدينة يوجه الجيوش وينعم مع المسلمين بالفتح المبين ، والغنائم تتدفق على العاصمة وكأن أبواب السماء فتحت بماء منهمر.

ولأول مرة منذ وفاة سيدنا رسول الله ﷺ يسمح الخليفة الراشدي للصحابة أن يغادروا المدينة المنورة بعد أن منعهم الفاروق من مغادرتها، فساح الصحابة في البلدان والتف حولهم التابعين يأخذون عنهم الدين والعلم.

وراح سيدنا عثمان يعتني في عاصمة الخلافة ويزيد في بنائها مبتدئاً بمسجد سيدنا رسول الله ﷺ فوسع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة، واتخذ عمده من الحجارة المرصعة، لكن إنجازاً أعظم كان ينتظر سيدنا عثمان يسجله له التاريخ، إنه جمع القرآن على مصحف واحد حفظ فيه القرآن الكريم إلى يوم الدين.

أيها السادة: ان الجمع الأول للمصحف زمن سيدنا الصديق ﷺ، جمعه الصحابي الجليل سيدنا زيد بن ثابت بأمانة ودقة، رتبته على السور والآيات وجمعه ضمن المصحف وحفظ عند أبي بكر، ثم انتقل بعده إلى عمر فحفصة ابنته، فلما جاء عهد عثمان وكثر الشهداء الحفظة من الصحابة، وصار الناس يقرأ كل واحد منهم بقراءة الصحابي الذي نزل بين ظهرائهم، فقرأ أهل الشام على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء، وقرأ أهل العراق على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري. وتعصب كل من الطائفتين لقراءتهم، وكاد يقع الاختلاف بسببه. فأسرَّ حذيفة بن اليمان إلى الخليفة عثمان يقول له: « يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف الذين من قبلهم في كتبهم » .

وأُسرع سيدنا عثمان من فوره فأحضر المصحف من عند السيدة حفصة أم المؤمنين وكتب أو نسخ هذا المصحف بلسان قريش مع مراعاة القراءات السبعة المتواترة، فنسخ المصحف عدة نسخ وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحفاً، وأمر بكل صحيفة تخالف ذلك المصحف أن تحرق.

معشر المسلمين :

كلّ هذه الأمور العظيمة التي قام بها سيدنا عثمان، جعلت القوى المعادية تتحرك للقضاء على الدولة الإسلامية وابتدأ هذا أولاً بمقتل الفاروق عمر، وهي الرصاصة الأولى التي أطلقتها قوى الشر المتحالفة ضد الإسلام فلا يمكن أن نقول: إن جريمة اغتيال الخليفة عمر، كان جريمة فردية مهما تساهلنا في التعبير.

فاليهود طردوا من الجزيرة والإمبراطورية الرومانية فرط الإسلام قوتها وهيبته، وفارس خسرت كل شيء حتى قادتها العسكريين، كلّ هؤلاء قتلوا الفاروق عمر، لكنهم قتلوه من خارج البلاد. أما زمن سيدنا عثمان فقد كان تحرك اليهود من الداخل.

فقد قدم من اليمن رجل يهودي لعب دوراً خطيراً في تمزيق وحدة المسلمين تحت قناع الإسلام، لعب أخطر دور في بدء الفتنة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة الشهيد.

هذا الرجل هو عبد الله بن سبأ الذي نسج خيوط مؤامراته ضد الإسلام وبدأت السنوات الرهيبة. لكنني أجد من اللازم أن أذكر الأسباب التي أخذت على الخليفة الراشدي الثالث والتي سببت بدء الفتنة، وهي أربعة أمور:

أولاً : الولاة: فقد أخذ على سيدنا عثمان أنه عزل نفراً من الصحابة ووضع مكانهم نفراً من أقربائه.

ثانياً: الأموال العامة: فقد قيل إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرباتهم فاستحوذوا على ما ليس لهم بحق.

ثالثاً: موقف سيدنا عثمان من بعض فضلاء الصحابة واتخاذ بعض الإجراءات العنيفة معهم.

رابعاً: موقفه من بعض المسائل الدينية إذ كان له فيها اجتهاد خاص. ومهما كان من أخذ وردّ في هذه الأمور الأربعة والتي كلها افتراءات على هذا الخليفة العظيم فإن المؤامرة قد حيكت أطرافها وتحولت إلى مخطط لتخريب الدولة. لكن سيدنا عثمان بادر بإجراء سديد، فلقد اختار نفرّاً من الصحابة الذين لا يختلف في نزاهتهم ولا يختلف في أمانتهم وورعهم اثنان. اختار سيدنا محمد بن مسلمة الذي كان أمير المؤمنين عمر يأتمنه على محاسبة ولايته والتفتيش على الأقاليم، واختار سيدنا عبد الله ابن عمر البقية الصالحة من آل الخطاب الإمام الفقيه الورع، والذي عرضت الإمارة نفسها عليه أكثر من مرة فرفضها، واختار عمار بن ياسر المجاهد العظيم بطل الأيام العصيبة في فجر الإسلام، واختار أسامة بن زيد الحبّ ابن الحبّ.

اختار هؤلاء على رأس جماعة من الصحابة والتابعين وعهد إليهم السفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل وال وأمير. فماذا كان الجواب؟!، وكيف كان الولاة والأمراء؟ لقد عادت اللجنة المشكلة إلى المدينة إلا عماراً بقي في مصر عادوا جميعاً ليقدموا تقريرهم إلى الخليفة فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أي والٍ أو أمير.

بل إن عثمان حيث تناهى إلى سمعه أن أمير الكوفة يشرب الخمر لم يمهله يوماً، بل استدعاه إلى المدينة وعزله وأقام الحد عليه علناً، وكتب إلى الأقليم: (بلغني أن أقواماً منكم يُشْتَمُونَ وآخرين يُضربون فمن كانت له مظلمة فليأتنا في الموسم وليأخذ بحقه مني أو من عمالي عليكم) ووقف على المنبر يوم الجمعة يعترف بالأخطاء التي وقعت ويرفع ضراسته إلى الله مستغفراً وتائباً باكياً ومبكياً جميع الذين كانوا هناك يسمعون خطبته.

وتتوقف الهجمة الأولى التي حاولها ابن سبأ لعنه الله تعالى، وهذأت الأمور في المدينة، لكن الهجوم تحول من الإشاعات المغرضة إلى هجوم مسلح على عاصمة الخلافة، كان زحفاً رهيباً وزئيراً عالياً نذيراً لأعاصير زاحفة، وإليكم المأساة:

جعل ابن سبأ أعوانه يصدّقون خرافته فكان كما قيل عن فرعون (استخف قومه فأطاعوه) فقال لهم: إنه كان لله ألف نبي ووصي، وكان علي وصي محمد. ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك: ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصيه وتناول أمر الأمة؟!.

ثم قال بعد ذلك:

إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ فاتخذوا في هذا الأمر فحركوه، وابدؤوا بالطعن على أميركم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر.

هذه الفتن والوشايات نبه عليها سيدنا رسول الله ﷺ كثيراً في أحاديثه وجعل صاحبها من أهل النار اسمع إلى حبيبك النبي وأنت تصلي عليه:

- من أشاد على مسلم عورة يشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة.

- من شهد شهادة يُستباح بها مال امرئ مسلم أو يسفك بها دمًا فقد أوجب النار.

- من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار.

- من رَوَّع مؤمناً لم يؤمن الله روعته يوم القيامة، ومن سعى بمؤمن أقامه الله مقام ذل وخزي يوم القيامة.

وأما الذي يسد عورة أخيه المسلم فيقول عنها رسول الله ﷺ: (من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا مؤودة من قبرها).

لكن أهل الشر والفساد لا يهتمهم ذلك لأن الله طبعهم على الشر وجعلهم من أهل النار، لذلك رأينا أقواماً من أعوان ابن السوداء توجهوا من البصرة والكوفة ومصر في وقت واحد نحو المدينة المنورة عاصمة الخلافة، وادعوا أنهم ذاهبون إلى الحج. وفي هذا الوقت كان سيدنا عثمان قد استدعى أمراء الأمصار فوجههم ووعظهم، فلما أرادوا العودة إلى بلادهم طلب منه سيدنا معاوية أن يصحبه معه إلى الشام فرفض الخليفة قائلاً: لا أختار على جوار رسول الله جواراً سواه. فعرض عليه سيدنا معاوية جيشاً يحميه من الأنصار والمهاجرين فرفض سيدنا عثمان ذلك.

وفي يوم استيقظت المدينة على منظر رهيب من آلاف الثوار المسلحين احتشدوا على مشارف المدينة وأرسلوا لسيدنا علي ليولوه الخلافة فصاح فيهم بطل السلام: ارجعوا إلى بلادكم لاصبحكم الله.

كان سيدنا علي يفاوض الثوار بأمر الخليفة الراشدي وليحيى هيبة الدولة وكرامتها بدون إراقة قطرة دم. واستطاع سيدنا علي في الجولة الأولى للسلام أن يقنع الثائرين بالرحيل بوعده صادق لعزل الولاة الذين تلاحقهم شكوى الثائرين.

وما إن مضت أيام قليلة حتى روعت المدينة ذات صباح بعودة الثائرين وخرج إليهم رسول السلام سيدنا علي فنشروا أمامهم كتاباً وقالوا: اعتقلنا في الطريق رجلاً أرسله مروان بن الحكم بهذا الكتاب الذي عليه خاتم الخليفة وفيه أمر والي مصر بقتلنا وصلبنا. ولم يعرف الفاعل إلا بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة الشهيد رضي الله عنه.

لقد كان ابن سبأ اليهودي هو الذي دبر أيضاً كتباً زورها على لسان أم المؤمنين السيدة عائشة وعلى لسان طلحة والزبير يدعون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة لقتال عثمان رضي الله عنه:

وطلب الثوار مروان بن الحكم، لكن الخليفة الرحيم لم يفعل لأنه عرف إن أسلمه إليهم قتلوه.

وأخرج الثوار المتآمرون على الدولة ورقتهم الأخيرة من جعبتهم فقالوا: اعزل نفسك إذاً.

وفي ثبات وشتم رفض سيدنا عثمان أن يخلع نفسه ويخلع قميص الخلافة الذي أمره رسول الله ﷺ أن لا يخلعه إذا أراد المنافقون منه أن يخلعه.

وأرسل إلى عبد الله بن عمر يسأله فأثابه. فقال: إن هؤلاء يريدون خلعي، فإن أجبتهم تركوني، وإن أبيت قتلوني - فماذا ترى؟!

فقال ابن عمر: أرايت إن خلعت نفسك تبقى في الدنيا مخلداً؟ قال الخليفة: لا. فقال: أرايت إن لم تخلع نفسك هل يزيدون على قتلك شيئاً، هل يملكون الجنة والنار. فقال الخليفة: لا.

فقال ابن عمر: إذن فلا تنس هذه السنة في الإسلام ولا تخلع قميصاً ألبسكه الله تعالى.

وهنا اشتد أوار الفتنة، فحاصر المتمردون دار الخليفة ومنعوا عنه الماء، وراحوا يتواقحون عليه بشتائم بذينة على ملأ من الناس، وغرهم حلمه وأغرهم مصابرتهم، فإذا بأحدهم يتهجم عليه وهو فوق منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة.

ونسي المتمردون الأوسمة التي وضعها رسول الله ﷺ على صدر عثمان ورأوا فيه شيخاً جاوز الثمانين، نسوا أنه من المؤمنين الأوائل المبكرين، وأنه صهر رسول الله ﷺ، وخليفته المبشر بالجنة، ومجهز جيش العسرة، وباذل ماله في سبيل الله تعالى.

وقام حراس الإسلام على باب الخليفة يحرسونه، يحرسون سلطان الله ﷺ في أرضه، منهم الحسن والحسين وابن الزبير وابن عمر، ورجاهم الخليفة ألا تراق قطرة دم من أجل الدفاع عنه. وراح الخليفة من سطح داره يعظ المهاجمين ويذكرهم أيامه الماضية مع رسول الله ﷺ ويقول:

أيها الناس لاتقتلوني فو الله لن قتلتموني لا تتحابون بعدي أبداً، ولا تصلون جميعاً بعدي أبداً. وراح ينبه الحراس ألا يريقوا قطرة دم واحدة من أجله.

ودخل عثمان بيته ينتظر غروب الشمس ليفطر على كسرة خبز لأن الناس منعوا عنه الماء، وراح يقرأ القرآن فأخذته غفوة رأى فيها الحبيب الأعظم فقال له:

- يا عثمان إن شئت دافعنا عنك بإذن الله، وإن شئت تفطر عندنا الليلة.

فقال سيدنا عثمان :

- بل أفطر الليلة عندكم يا رسول الله .

عثمان:

- بل أفطر الليلة عندكم يا رسول الله.

واستيقظ عثمان من غفوته تلك ليجد أن المتأمرين قد تسوروا عليه داره وهجموا عليه يريدون الفتك به، فتقدمت زوجته نائلة بنت الفرافصة فتلقت ضربة سيف على رأسها ويدها عن زوجها عثمان.

وتقدم أحد المتأمرين وهو محمد بن أبي بكر ليمسك لحية الخليفة بيده ويهزها متوعداً، وفي هدوء الصديقين يقول له الخليفة: يا ابن أخي دع لحيتي فو الله لقد كان أبوك يكرمها، ولو رآك في مكانك هذا لاستحيا مما تصنع.

ودارت الأرض بمحمد بن أبي بكر، وارتدت يده في خضوع وندم، وخرج من الدار مسرعاً لكن سيفاً غادراً من يد غادرة امتدت لتضرب الخليفة الراشدي على يده ورأسه، فتتفجر الدماء الطاهرة على كتاب الله وأفطر سيدنا عثمان على مائدة في الجنة في مقعد صدق عن مليكٍ مقتدر.

أيها السادة: كانت سنة ٣٥ هـ قد أطلت برأسها على الدولة الشاخنة وبدأت قطرات الدماء تسيل على جدران بيت الخلافة منذ مقتل الفاروق عمر.

علينا أن نعي الدرس الأخير: إن سيدنا عثمان رضى الله عنه ضحى بحياته لأجل ألا تراق قطرة دم واحدة على أرض المدينة) فهنيئاً لسيدنا عثمان هناك في

أعلى عليين، وترضوا عنه أنتم هنا نجتمع به هناك ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة
سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم ، وتحيتنا إليك يا
سيدي يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك

(١٠٥)

ال خليفة الرابع فتى قرشر

سردنا على بن أبى طالب رضى الله عنه

الحمد لله الذى يجب أن تشكر نعمته، ويتعين أن تحذر نعمته، ويتحتم أن يخاف عذابه وسطوته، من قابل إحسانه بالإساءة نادت عليه شقوته.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكيف يشاركه شىء وكل الأشياء خليفته.

وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى ختم النبوة والرسالة بنبوته ورسالته . بشر بطاعته المتقين ، وأنذر بمعصيته المجرمين حتى قامت على الخلائق حجته، فلم يزل ﷺ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحرض على ذلك لتمثل أمته.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه بدور الدجى وأدم ذلك بمدد لا تنقضي مدته. وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فحديثنا اليوم عن العظمة والمجد، عن حياة رجل التقى فيها النصر والهزيمة، والبأساء والضراء، عن رجل تتفجر حياته عظمة وجلالا وإعجازا، ولكنها أيضا تموج بالأسى والهول موجاً، إننا فى رحاب الخليفة الراشدي الرابع سيدي وجدي: أبو الحسن علي بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب (شعبة الحمد) بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي رضي الله عنه.

وأمه السيدة فاطمة بنت أسد المرأة الصالحة التى ربت فى حجرها سيدنا محمداً ﷺ، والتي كان يقول عنها الحبيب الأعظم: أمي بعد أمي، وقد أسلمت رضي الله

عنها وحسن إسلامها، ولما ماتت نزل الحبيب الأعظم في قبرها وقال: إن الله تعالى وقاها فتنة القبر وعذابه .

وأما سيدنا علي فهو فتى بني هاشم وبطلها المقدام، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح، وربى في حجر سيدنا رسول الله ﷺ لأن أبا طالب كان فقيراً فضمه ﷺ إلى بيته، وحين بعث سيدنا رسول الله ﷺ دخل عليه فرآه هو والسيدة خديجة وزيد بن حارثة يصلون، فلما انتهوا قال سيدنا علي: لمن تسجدان؟ فقال ﷺ: لله الذي بعثني رسولاً، وأمرني أن أدعو الناس إلى الإسلام، وأنا أدعوك يا علي. فلبث علي ملياً وقال: هذا أمر لم أعهده أبداً، فدعني لأستشير أبا طالب.

فلما كان الغد دخل سيدنا علي وأعلن إسلامه أمام سيدنا رسول الله ﷺ . فسأله سيدنا النبي: هل استشرت أبا طالب؟ فقال سيدنا علي: لا. فقال سيدنا النبي: ولم. فقال: لأن الله عندما خلقني لم يستشر أبا طالب.

وكان أبو طالب سيد قريش، وصاحب الحل والعقد فيها، وقد استخدم هذه الزعامة في نصرته نبينا ﷺ وحمايته من ضلالات قريش، وقد ربي الحبيب الأعظم وتولى رعايته بعد جدي عبد المطلب.

إخوة الإيمان:

في الأيام الأولى لإسلام جدي علي رضي الله عنه رآه أبو طالب يصلي خفية وراء سيدنا رسول الله ﷺ وكانت هذه المرة الأولى التي يراه فيها أنه اتبع سيدنا محمداً، فلما أتم صلاته قال لأبيه:

يأبت قد آمنت بآل الله ورسوله وصدقت ما جاء به محمد واتبعته.

فأجابه عبد مناف: أما أنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه.

إن عبد مناف كان مقتنعاً تماماً أن ابن أخيه علي حق، ولأجل ذلك عندما جاءته قريش ليمنع ابن أخيه من الدعوة إلى الله ﷻ وعرضوا عليه الدنيا والجاه والرئاسة والمملك ليترك ذلك قال له سيدنا محمد ﷺ: والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني

والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه، (صلوا عليه).
هنا اسمعوا ماذا كان جواب عبد مناف لابن أخيه قال له:

يا بن أخي امض لما أمرت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً مادمت حياً ثم قال:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وكان أبو طالب يدعو بني هاشم للدخول في الإسلام، فقد رأى ولده علياً يصلي إلى يمين سيدنا النبي، فاقترب من ولده سيدنا جعفر وقال: صل جناح ابن عمك محمد وصل عن يساره.

إن أبا طالب كان نادرة زمانه في الدفاع عن ابن أخيه، رغم أنه بقي على كفره، وقاوم قريشاً حتى حبسته وبني هاشم في شعبه وأرضه وامتدت المقاطعة ثلاث سنوات، ولم يتوانوا جميعهم في مساعدة سيدنا رسول الله ﷺ حتى انقضت المقاطعة حين أكلت الأرضة ورقة المقاطعة التي كانت معلقة على جدار الكعبة.

وكان عبد مناف ينافح ويدافع عن سيدنا رسول الله ﷺ بشعره ونثره ومما قاله:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعني بقول الأباطل

حليم رشيد عادل غير خائن يوالي إلهاً ليس عنه بغافل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

"صلوا عليه"

معشر الإخوة الكرام :

اسمحو لي أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى مكة المكرمة:

الزمان: بعد بعثة سيد الأنس والملك والجان، سيدنا رسول الله ﷺ والليل

حالك داسر .

والمكان: عند الكعبة المشرفة، وأرى الحبيب الأعظم مع سيدنا علي، وليس

معهما من الخلق أحد، وعلى ظهر الكعبة صنم لقريش، فقال الحبيب الأعظم

لسيدنا علي: اجلس حتى أضعده على منكبك. فجلس سيدنا علي وصعد سيدنا رسول الله ﷺ على منكبه، فذهب لينهض فرأى فيه ضعفاً، فنزل وقال سيدنا النبي لعلي: - اصعد على منكبي.

يقول جدي سيدنا علي فصعدت على منكبي رسول الله ﷺ فنهض بي، وإنه ليخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال أصفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله ومن بين يديه وخلفه حتى استمكننت منه. فقال سيدنا النبي: اقذف به. فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس (أحمد صحيح- ه).

وجاءت عبد مناف سكرة الموت بالحق، ودنت ساعة وفاته، وجاءته رجالات قريش تودعه، وحضر سيدنا النبي ﷺ وسيدنا علي رضي الله عنه، وراح ﷺ يطلب منه أن يدخل في الإسلام وكفار قريش يمنعون، فقال سيدنا النبي ﷺ: قلها بأذني أذاع عنك بها عند الله تعالى يوم القيامة. ولكن أبا طالب لم يسلم، فتركه رسول الله ﷺ وخرج وبقي سيدنا علي وبنو هاشم ورجالات قريش، فالتفت أبو طالب إليهم (اسمعوا: أبا طالب يتكلم) قال:

يامعشر قريش:

أوصيكم بتعظيم هذا البيت (الكعبة)، فإن فيه مرضاة الرب وقوام العيش، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة في الأجل، اتركوا البغي فقد أهلك القرون من قبلكم.

يامعشر قريش:

أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات. وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة.

ألا وإني أوصيكم بمحمد خيراً. فإنه الأمين في قريش، والصادق في العرب، وهو الجامع لما أوصيكم به، ولقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وإيم الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت. لكأني به وقد محضته العرب ودادها وأعطته قيادها.. والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ولا يهتدي بهديه إلا سعد، ولو كان في العمر بقية لكففت عن الهزاهز ولدفعت عن الدواهي.

ثم التفت إلى أهله من بني هاشم فقال:
"وأنتم يا بني هاشم أجيبوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا".
أيها الأحبة:

قضى أبو طالب، وشيعت قريش جنازة سيدها إلى مثواه الأخير في مقبرة مكة المكرمة، وفي الطريق إلى المقبرة سأل الصحابة سيدنا النبي عن أبي طالب :
يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك.
قال: نعم، هو في ضحضاح من نار (نار تصل إلى كعبيه) ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.
إخوتي في الله :

كان جدي سيدنا علي يحمل سجايا ومكارم أبي طالب وجدي عبد المطلب، كان خلاصة بني هاشم السادة والقادة الأشراف، فإذا أضفنا إلى سجايه ما تمتع به بنو هاشم من أنهم أجود الناس كفاً وأحفظهم للجوار وحماة الحرم المكي، فقد جمع المكرمات كلها وأضيفوا إليها قوة الإيمان بالله تعالى والاعتماد عليه.
أي أننا اليوم مع فتى محظوظ بدأ حياته تحت أنظار سيدنا رسول الله ﷺ ولم يسجد لصنم قط، ولهذا يقال عنه علي "كرم الله وجهه". كما أنه أول المؤمنين

من الفتیان، كما أن سيدنا أبا بكر أول المؤمنين من الرجال، وأن السيدة خديجة أول المؤمنات من النساء، وأن زيد بن حارثة أول المؤمنين من العبيد.

وعند الهجرة يظهر جدي سيدنا علي رضي الله عنه بطلاً أعظم من أبطال الدنيا الذين يضحون بحياتهم، فقد كانت الخطة أن يخلف سيدنا علي في فراش سيدنا رسول الله ليخدع أنظار مشركي مكة، وفوارس قريش وراء الباب شاهرين سيوفهم ينتظرون خروجه عند الفجر .

قال سيدنا النبي ﷺ وهو يودعه: غط نفسك بالبرد الأخضر، ولن يخلص إليك شيء تكرهه منهم إن شاء الله.

ثم أمره أن يقوم برد الأمانات التي كانت عند سيدنا النبي لقريش. وخرج الحبيب الأعظم مع الصديق مهاجراً، وأوحى الله تعالى إلى سيدنا جبريل وميكائيل عليهما السلام:

أني آخيت بينكما وجعلت عُمرَ أحدكما أطول من عُمرِ الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه في الحياة، فاختار كليهما الحياة، فأوحى الله عز وجل إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين نبيي محمد، فبات في فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه.

فتزلا فكان جبريل عند رأس علي وميكائيل عند رجله، وجبريل ينادي: بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله عز وجل به الملائكة، فأنزل الله عز وجل على رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي:

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد﴾ .

ومكث جدي الفدائي في فراش سيد الخلق وحبيب الحق، وتغطى ببرده الأخضر الحضرمي، ونفسه تقول: الآن سيدخل الفوارس وينقضون بضربة واحدة هي أشد من القتل. وفي إيمان مطلق، ورباطة جأش جلّت عن النطير ربض الفارس الهاشمي،

ودخلت الفوارس عند الفجر ورفعت البرد الأخضر لتجد علياً يتسم في وجوه
مشركي قريش ابتسامة المنتصر، ويسرع في اليوم نفسه يردّ الأمانات إلى أهلها.
وما أن هاجر إلى المدينة المنورة حتى كافأه سيدنا النبي مكافأتين عظيمتين:
الأولى : حين آخى سيدنا رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فإنه رفع يد
سيدنا علي قائلاً: وهذا أخي في الله،

والمكافأة الثانية : هي تزويجه من أحبّ بناته إليه السيدة فاطمة بنت سيدنا
ومولانا محمد ﷺ، فقد خطبها سيدنا علي رضي الله عنه بعد مقدم رسول الله ﷺ
المدينة بخمسة أشهر وكان عمرها ثمانية عشر عاماً، ثم زفّ إليها بعد رجوع المسلمين
من بدر.

وكان سيدنا علي ليس له مال موروث أو مكتسب، ولم يعمل برعي أو تجارة،
وإنما كان عمله الجهاد في سبيل الله تعالى، فكانت حياته مع السيدة فاطمة سيدة
نساء العالمين حياة شظف وقلة ذات يد، وربما كانا يذهبان إلى سيدنا رسول الله ﷺ
فيطلبان منه مما أفاء الله تعالى عليه من السبي والغنائم، فكان عليه الصلاة
والسلام يجيبهما:

. لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة.

وصبرت جدتي السيدة فاطمة رضي الله عنها على المعيشة التي قدرها الله تعالى
لها.

وقد جهد سيدنا علي في البحث عن عمل ما استطاع حتى وجد امرأة تحتاج ماءً
فشارطها على كل دلوٍ من ماء يحضره لها تمرة، فجاء لها بستة عشر دلواً حتى مجلت
يده (أصببت) فقدمت له المرأة ست عشرة تمرة، فأتى بها سيدنا النبي ﷺ فأخبره
فأكل معه.

معشر المؤمنين : كان ثمة هذا الزواج أولاداً ملؤوا الأرض علماً ومجداً وفخراً، إنهم كانوا ثلاثة ذكور وبناتان: السيدة زينب التي توفيت صغيرة، والسيدة أم كلثوم كوكب الإسلام التي تزوجها سيدنا عمر بن الخطاب. والثالث والرابع جدي سيدنا الحسن، وجدي من جهة جدي سيدنا الحسين، والخامس سيدنا محسن الذي توفي صغيراً.

أيها السادة الكرام :

شهد سيدنا علي الغزوات والمشاهد مع سيدنا رسول الله ﷺ ، وكانت له بطولة بهرت الألباب فشهد بدماء مع عمه سيدنا حمزة بسيفه البتار ذي الفقار. وفي أحد كادت الهزيمة أن تحل بالمسلمين ويسقط اللواء من يد سيدنا مصعب بن عمير ، ويستشهد بعد أن أبدى بطولة خارقة قطعت فيها يداه، بعدها ناول رسول الله ﷺ اللواء لسيدنا علي فحمل الراية بيد والسيف بيد يدافع به عن الإسلام، وتسقط القتلى على الأرض تحت سيفه البتار، حتى قال سيدنا النبي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

ويزار في أرض المعركة: هل من مبارز، وتتكرر السيوف على السيوف، ويضرب واحداً بالسيف ثم يرفع سيفه ليجهز عليه فتتكشف عورة الكافر فيغض سيدنا علي بصره ويتركه، فيسأله المسلمون:

لماذا لم تجهز عليه؟. فيجيبهم: لقد استقبلني بعورته فعطفني عليه الرحم والقربة. يقول ابن المسيب: لقد أصابت علياً يوم أحد ست عشرة ضربة، كل ضربة تلزمه الأرض، فما كان يرفعه إلا سيدنا جبريل عليه السلام.

ويقول جدي سيدنا علي رضي الله عنه: لما تخلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد، نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فقلت: والله ما كان ليقر، وما أراه في القتلى، ولكن الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه، فما في خير إن لم أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم حتى رأيت رسول الله ﷺ .

وفي الخندق كان ميعاده مع نصر آخر، فقريش واليهود قد بلغوا أربعة وعشرين ألف مقاتل، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، وحاول نفر من صناديد قريش أن يجتازوا الخندق وعلى رأسهم عمرو بن ود، وراح ينادي: هل من مبارز. وفي لمح البصر نزل سيف الله ذو الفقار وانطلق فكان أمام خصمه وعدوه. فقال: يا عمرو بن ود إنك كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه. قال: أجل. قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسول الله وإلى الإسلام. قال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك. قال سيدنا علي: إذن إني أدعوك إلى النزال. فقال عمرو: لم يا بن أخي، فواللات ما أحب أن أقتلك. قال جدي علي: ولكني والله أحب أن أقتلك.

والتقى سيف علي ذو الفقار مع سيف عمرو فجندله صريعاً على الأرض وصاح المسلمون بالتكبير.

وتتابعت الغزوات مع سيدنا رسول الله ﷺ حتى خبير في السنة السابعة للهجرة وكان عُمر سيدنا علي ثلاثون سنة، وأعجزت خبير القادة: الصديق والفاروق، وكانت الكتابب ترتد واحدة بعد واحدة عن حصن خبير، حتى قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح الله على يديه.

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: ماتمت الإمارة قط إلا ذلك اليوم رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله. وفي الصباح ووسط فرسان الصحابة ينادي رسول الله ﷺ: أين علي؟. ويعطه الراية، ويقول سيدنا علي: أشكو رمداً في عيني يارسول الله. فإذا بالحبيب المصطفى يبلى أنامله بريقه الطهور ويمسح بها عيني البطل، ويهز الراية في يده ويقول له: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك.

معشر المسلمين:

إننا هناك في أعظم موقعة للمسلمين مع اليهود، هاهو البطل المقدام يصل مع سرية المقاتلين أمام باب الحصن ونادى: أنا علي بن أبي طالب. وأثار بهذا الاسم قلوب أعدائه، ورأى نفسه أمام كتيبة مسلحة وأمام حرس الحصن، فقال: والذي نفسي بيده لأذوقن ماذا عمي حمزة في أحد أو ليفتحن الله لي.

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: لقد هممت أنا وسبعة معي أن نحرك باب الحصن من مكانه على الأرض فما استطعنا. فما الذي حدث؟

لا يدري الناس ماذا حدث، كل ما كان يذكره الصحابة أن علياً صاح: الله أكبر، وأمسك باب الحصن ورفع بين يديه وكأنه يحمل ترساً خفيفاً، وبكلمة الله أكبر سقط الحصن بكل ما فيه وفتح الله عليه وصدق الله العظيم: "ولذكر الله أكبر".

يا أحباب المصطفى:

بهذه البطولة الفذة كانت حياة سيدنا علي رضي الله عنه. ونراه حين يتركه رسول الله ﷺ في تبوك يسرع إليه قائلاً:

– أتتركني على النساء والصبيان؟!

فيعلق عليه رسول الله ﷺ وسام الاستحقاق الإسلامي من الدرجة الممتازة ويقول:

– أما يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لاني بعدي.

فشبهه رسول الله ﷺ بسيدنا هارون لما تركه سيدنا موسى على أهله وعشيرته حين ذهب إلى طور سيناء وكلمه ربه.

وحين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً قبيل حجة الوداع، قال لسيدنا رسول الله ﷺ:

– يا رسول الله تبعثني إلى اليمن ويسألوني عن القضاء ولا علم لي به!!؟

قال عليه الصلاة والسلام: أُذِنَ. فدنا سيدنا علي فضرب رسول الله ﷺ بيده على صدره وقال:

- اللهم ثبت لسانه واهد قلبه.

يقول سيدنا علي: فلا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ماشكت في قضاء بين اثنين بعد.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب" (حا ووافقه)

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب. وقال سيدنا سعيد بن المسيب: ما كان أحد من الناس يقول: سلوني. غير علي بن أبي طالب.

ويقول عمار بن ياسر: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: (اسمعوا الدرر من سيدنا النبي صلوا عليه).

- يا علي إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها الزهد في الدنيا، فجعلك لاتنال من الدنيا شيئاً ولا تنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً، ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبك وصدقوا فيك فجيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة".

اللهم اشهد بأننا نحب سيدنا علياً رضي الله عنه.

تقول السيدة أم سلمة: إن رسول الله ﷺ جلت عليه فاطمة والحسن والحسين كساءً ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وأنزل مولانا عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

أيها الإخوة:

كانت آخر الكلمات التي نبه فيها سيدنا رسول الله ﷺ على فضل جدي سيدنا علي رضي الله عنه في غدير خم حين عودته من حجة الوداع إلى المدينة المنورة فيما يرويه الإمام النسائي رحمه الله تعالى:

يقول ﷺ: " إني تركت فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " ثم قال:

الله مولاي، وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد سيدنا علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ". وفي رواية الإمام أحمد بسند صحيح: "من كنت مولاه فعلي مولاه " .

أيها السادة :

ما إن انتقل السيد الأعظم إلى جوار ربه، واستلم سيدنا الصديق سدة الخلافة الراشدة، وقبل أن يبايع سيدنا علي رضي الله عنه سيدنا الصديق، جاءت إليه السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها تطلب إرثها من سيدنا رسول الله ﷺ، فقال لها سيدنا الصديق: إن سيدنا رسول الله يقول: إنا معشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة. ورده سيدنا الصديق إلى بيت المال.

وهنا رأينا جدتي السيدة فاطمة رضوا الله عنها تجتهد بعكس ما رآه الصديق فتمتنع عن بيعته، ويمتنع سيدنا علي عن البيعة إكراماً لزوجته بنت رسول الله ﷺ لكن السيدة فاطمة الزهراء ما تلبث بعد ستة أشهر أن تنتقل إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فيبادر سيدنا علي رضي الله عنه إلى بيعه سيدنا الصديق على الخلافة. وكان يقول لمحبيه: (من فضلي على أبي بكر وعمر جلده حدة المفترى).

وكان الصديق يسأله القتيا في مسائل تعرض له، وحينما توفي سيدنا الصديق رضي الله عنه وقف جدي سيدنا علي رضي الله عنه، على قبره يرثيه بمرثية عظيمة تدل على حبه الشديد لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

يا أحباب رسول الله: اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى حجرة السيد المصطفى وروضته الشريفة النبوية وقد سجي الصديق في قبره بجوار جدي سيدنا رسول الله (صلوا عليه) وأرى جدي سيدنا علي يخاطبه فيقول:

رحمك الله يا أبا بكر	كنت والله أول القوم إسلاما
وأفضلهم إيمانا	وأشدهم يقينا
صدقت رسول الله	حين كذبه الناس
وواسيته حين بخلوا	وقمت معه حين ما قعدوا
كنت والله للإسلام حصنا	وللكافرين ناكبا
لم تهن حجتك	ولم تضعف بصيرتك
ولم تجبن نفسك	كنت والله كما قال الرسول فيك
ضعيفا في بلدك	قويا في دينك
متواضعا في نفسك، فلا حرمننا	الله أجرك ولا أضلنا بعدك

سادتي الكرام:

وفي عهد سيدنا عمر كان سيدنا علي ساعده الأيمن ، حتى قال سيدنا عمر : (لولا علي لهلك عمر).

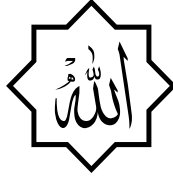
وليس ببعيد عنا ما فعل سيدنا علي في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنهما وكيف دافع عنه وحماه زمن الفتنة وعندما أحكم المتمردون الحصار حول دار سيدنا عثمان ومنعوا عنه الماء، ذهب سيدنا علي بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً: والله إن الكفار من فارس والروم لا يفعلون فعلكم،

إنهم ليأسرون أعداءهم فيطعمونهم ويسقونهم، ودخل بيت عثمان عنوة، حتى إن عمامته سقطت على الأرض وهو لا يبالي بها حتى أوصل الماء إلى أمير المؤمنين الخليفة الشهيد، وأمر ابنه الحسن والحسين بالوقوف على بابه للحراسة، وحين أخبر بمقتل الخليفة عَنف ولديه تعنيفاً شديداً وعجب لهما كيف قتل عثمان وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما وقال لهما:

- إن لم تستطيعا أن تمنعا عنه فكان عليكما أن تموتا دونه.

ولكن قضاء الله نافذ في خلقه، فلما استشهد سيدنا عثمان دعي جدي سيدنا علي إلى الخلافة، فكيف جاءته الخلافة؟ هل جاءته نصراً مؤزراً واستقراراً للدولة، أم أنها جاءته مثخنةً بالجراح؟ مثقلة بالمتاعب؟ معبأة بالعواصف؟ هذا ما سنلتقي به مع جدي إن شاء الله تعالى.

هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي إلى الحبيب الأعظم وتحتنا إليك يا رسول الله : الصلاة والسلام عليك.



روى سيدنا علي بن أبي طالب/ ٥٨٦ / حديثاً عن سيدنا رسول الله

(١٠٦)

الخليفة الرابع أمير المؤمنين

سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الحمد لله الذي يتحير العقل عن أوصافه ويقف، ولا يجوز تشبيهه فمن شبهه هلك، ومن عطله تلف، أحمده سبحانه وتعالى على جزيل نعمه التي منها نغترف. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد، إله أقسم بالسماوات الحبك إنكم لفي قول مختلف. وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله القائل: اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا ، قالوا: وفي نجدنا؟ فقال في الثالثة: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان (خ- ت). وخرج رسول الله من بيت السيدة عائشة فقال: رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان يعني المشرق (م).

اللهم صلّ وسلم وبارك عن هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد الذي من بحر فيض الكريم يغترف ، وعلى آله وأصحابه وخلفائه الذين كل منهم بالكمال متّصف . وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فقد قدم نفرٌ من الصحابة رضي الله عنهم إلى سيدنا علي يطلبون منه أن يكون عليهم خليفة، لكنه رفضها، فإذا بالمتمردين يأتون إليه يطلبون منه ذلك أيضاً وجمعاً لكلمة المسلمين رضي سيدنا علي وبويع بالخلافة سنة ٣٥ هـ، وتحلف عن مبايعته جمع من الصحابة حتى يؤخذ الثأر لمقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه.

أيها الإخوة: أول عمل قام به سيدنا علي أن عزل الولاة الذين كانوا زمن سيدنا عثمان رضي الله عنه. وقد حدّره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة وابن عباس رضي

اللَّهُ عنهم فأبى ذلك وقال: إن الخليفة حر في اختيار عماله وولاته. وامثل جميع الولاة لأمره إلا سيدنا معاوية الذي أصرّ قبل البيعة أن يأخذ بثأر ابن عمه سيدنا عثمان رضي الله عنه من البغاة الذين قتلوه.

ورغم أن سيدنا علياً كان يكره أولئك البغاة الذين قتلوا سيدنا عثمان، فإنه استمهل المستعجلين ريثما تهدأ الأمور في المدينة وتحمد الفتنة.

وأصرّ بعض الصحابة اجتهداً منهم على أنهم لا يبايعون علياً حتى يقتل البغاة، بل إن هؤلاء الصحابة وفيهم السيدة عائشة وطلحة والزبير وجمع كبير من الصحابة اجتمعوا حول أم المؤمنين التي ركبت هودجها على الجمل وساروا جميعاً إلى البصرة ليدكروا الناس بضرورة التعاون للأخذ بثأر أمير المؤمنين الشهيد عثمان رضي الله عنه.

إخوة الإيمان:

كان سيدنا طلحة والزبير من المبشرين بالجنة. وأما طلحة بن عبيد الله فقد وقى بيده سيدنا النبي في أحدٍ بعد أن أراد أحد المشركين ضربه بالسيف فتلقاه طلحة بيده فشلت وصارت مفخرة عظيمة له رضي الله عنه بشّره رسول الله بالشهادة وقال عنه: (من سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله).

وأما الزبير فهو بطل الإسلام قال عنه الحبيب الأعظم: لكل نبي حوارٍ وحواريّ الزبير"، ومرة قال له رسول الله ﷺ: (فداك أبي وأمي) . وقال عنهما رسول الله ﷺ: "طلحة والزبير جاري في الجنة"، هذان هما قائدا جيش البصرة.

وما أن علم سيدنا علي بهذا الجيش الذي سار من مكة إلى البصرة حتى أرسل جيشاً على رأسه القعقاع بن عمرو وجهه نحو البصرة لإصلاح الأمر وجمع الكلمة، حيث التقى بجيش طلحة والزبير وتمت مناقشة الأمر واقتنع الأطراف جميعاً برأي

سيدنا علي وأنه ينتظر هدوء العاصفة ليعجل بحساب الثائرين، وأنه من الواجب الآن حفظ دماء المسلمين، وبات الجميع ليلتهم بأحسن حال.

ولكن هذا الاتفاق لم يعجب ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودي ولا أصحابه الذين لم يكن فيهم أحد من صحابة رسول الله - والحمد لله - واقترح بعضهم أن يقتل علياً ليلحق بعثمان. وفي نهاية الأمر اتفقت كلمة عملاء الفتنة على أن ينشبوا حرباً بين الناس وفتنة عمياء قبيل الفجر.

وهبَّ الناس من رقادهم على صوت السيوف وهي تغمد في رقاب الناس من كلا الطرفين، فظن كل جيش أن الجيش الآخر قد غدر به دون أن يعلموا بواقع الخديعة، وثار الناس، فاجتمع مع سيدنا علي عشرون ألفاً، والتفت حول السيدة عائشة وطلحة والزبير ثلاثون ألفاً، وراح ابن السوداء ابن سبأ وأصحابه الألف مقاتل لا يكفون عن قتل كل من الطرفين.

وكان الذي حسم الموقف سيدنا علي رضي الله عنه، فنادى في الناس: إلي يازبير إلي ياطلحة.

فقال لطلحة: أتركت زوجك في البيت وجئت بزوجة رسول الله تقاتل بها.

والتفت إلى الزبير بن العوام وقال له:

- يازبير نشدتك الله أنذكر يوم مرَّ بك رسول الله ونحن في مكان كذا، فقال لك: (يازبير أتحب علياً. فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلى ديني؟ فقال: يازبير أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم.

وهنا استيقظت ذاكرة الزبير وقال: بلى والله، والله لا أقاتلك أبداً. ورجع على دابته تاركاً أرض الفتنة العمياء. ونظر طلحة بن عبيد الله فرأى عمار بن ياسر يقاتل مع سيدنا علي فتذكر ما كان رسول الله قاله لعمار:

(تقتلك الفئة الباغية، فترك الجيش أيضاً وسار بفرسه، فلحقه رجل من الذين كتب الله عليهم الشقاء إلى يوم القيامة فقتله بسهم أودى بحياته وهو تارك لأرض الفتنة). وأصبح جيش البصرة لا قائد له.

وأمر سيدنا علي أن ينزل هودج السيدة عائشة إلى داخل البصرة ليطمئن على حالها، وهدأت الفتنة من جديد، وقدم الناس يسلمون على أم المؤمنين، وجعلها سيدنا علي وأرسل معها محمد بن أبي بكر ليرافقها إلى المدينة. ونادى سيدنا علي في الناس: لا تجهزوا على الجرحى، ولا تنتهبوا ماله، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابَه فهو آمن، فإنه ليس على الموحدين المؤمنين سبي، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا عليه.

إخوتي في الله:

وانتهت الجولة الأولى بانتصار سيدنا علي في موقعة الجمل هذه، وسميت موقعة الجمل لأن أم المؤمنين أدارت المعركة وهي في هودجها على الجمل. ودخل رجل على أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وهو يحمل سيف الزبير يتباهى بأنه قتل هذا الصحابي الجليل وهو نائم تحت شجرة. فقال له سيدنا علي: (بشروا قاتل ابن صفية بالنار) ثم راح يشم السيف ويقول لطالما فرّج صاحب هذا السيف بسيفه الكرب عن رسول الله ﷺ .

أيها الأحبة :

ووقف سيدنا علي في العراق يخطب الناس ويلخص لهم الموقف في كلمات بمنتهى الصدق والوفاء فقال:

أما بعد:

فإن الله بعث نبيه ﷺ فأنقذ به من الضلالة، وحفظ به من الهلكة، وجمع به بعد الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه.

ثم استخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، ولقد أحسنا السيرة وعدلاً في الأمة، ثم ولي أمر الناس عثمان، فعمل بأشياء علَّها الناس عليه، فسار إليه ناس فقتلوه، ثم جاء إليّ الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لي : بايع ، فأبيت عليهم. ثم عادوا فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وأنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتهم. فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني - يقصد طلحة والزبير - وخلاف معاوية إياي.. هذا الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام.. إني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيكم ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

وكان ينادي في الناس: "اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، اللهم إني لم أقتل ولم أمالي ، اللهم إعن قتلة عثمان".

أيها السادة :

وعاد سيدنا علي إلى مقرّ خلافته في الكوفة، وأرسل إلى سيدنا معاوية بالشام رسالة مع جرير بن عبد الله يدعو فيها إلى البيعة، لكن سيدنا معاوية كان يرى أن بيعة علي لم تنعقد لافتراق أهل الحلّ والعقد من الصحابة في الآفاق، ولا تتم البيعة إلا بهم جميعاً، فامتنع عن البيعة حتى يقتل قتلة عثمان.

وهنا جاء رسل السلام يطلبون من سيدنا علي تسليم قتلة عثمان لتنتهي هذه الفتنة إلى الأبد، لكن عشرة آلاف مقاتل كانوا حول المكان الذي تجري فيه المفاوضات صاحوا صيحة واحدة: كلُّنا قتلة عثمان.

ووقع سيدنا علي بإحراج شديد، وامتنع بعض أجلاء الصحابة عن التدخل بين أطراف الفتنة ومكثوا في بيوتهم ، منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد، وقال سيدنا سعد لسيدنا علي رضي الله عنهما:

- أعطني سيفاً إن ضربت به المشرك قطع، وإن ضربت به المسلم رجعت، وأنا أقاتل معك.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: (إني عاهدت ربي عز وجل ألا أقاتل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

وقال أسامة بن زيد: "والله يا أمير المؤمنين لو كنت في شدة الأسد لأحببت أن أكون معك فيه، ولكني لا أحب أن ألقى بسيفي مسلماً أبداً".

فرأى - بعد ذلك - سيدنا علي أن يزحف بجيشه إلى الشام، وكذلك غادر سيدنا معاوية بجيشه إلى شرقي الفرات في مكان يدعى صفين، والتقى الجيشان هناك، وراحت رسل السلام شهوراً بين الإمامين الصحابييين المجتهدين لتقارب بين وجهات النظر، لعل الله يصلح الأمر ، وفي النهاية قال سيدنا معاوية لرسول السلام الأربعة: إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ونحن لا نرد ذلك عليه، فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

وعاد الوفد الرباعي إلى أمير المؤمنين الخليفة الراشدي الرابع وتلقى كلمات سيدنا معاوية بأسى وحرقة. وانتظر حتى حلول شهر صفر حيث نادى المنادي في جيش معاوية: بأن القتال غداً ، ووجه سيدنا علي التعليمات إلى جيشه قائلاً لهم:

" لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فإنكم بمحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتموهم فهزمتوهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة، ولا تملأوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحالهم فلا تهمتكو سترأ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تقربوا النساء بأذى ، و إن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ لعلكم تفلحون".

كانت هذه الأوامر التي صدرت من القائد الأعلى للقوات الإسلامية للخلافة الراشدة صارمة جداً، لأنه ولأول مرة في التاريخ بعد موقعة الجمل تلتقي فئتان مسلمتان بسيوفها.

معشر الإخوة الكرام :

وهذا ما يسمى بالفقه الإسلامي بقتال البغاة إذا كان لهم أمير مطاع وكانوا في منعة وقد نُقِّد سيدنا علي هذه الأحكام الفقهية بدقة متناهية من خلال هذه الأوامر الصارمة، فهوا قتال ضرورة لإحقاق الحق .

واقْتَتَلَ الناس مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، واستمر القتال سبعة أيام، وكان الصحابي إذا التقى بالصحابي يرفع السيف عنه ويتركه ، لعلم كل منهما أنَّه على حق، وأوشك جيش سيدنا علي على النصر، فاستشار سيدنا معاوية سيدنا عمرو بن العاص فأشار عليه أن يدعو أهل العراق إلى تحكيم كتاب اللَّهِ، فأمر معاوية برفع المصاحف على الرماح وأن ينادي منادٍ باسمه:

- هذا كتاب اللَّهِ عزَّ وجل بيننا وبينكم ، لا حكم إلا لله.

فلما رأى أصحاب سيدنا علي ذلك انقسموا إلى فريقين: فريق يطلب إيقاف القتال لتحكيم كتاب اللَّهِ، وفريق يأبى إلا القتال لعلمهم بأنَّ الأمر خدعة، وهم يرددون قول

أمير المؤمنين سيدنا علي رضي اللَّهِ عنه:

- إن الذي فعله سيدنا معاوية وجيشه إنما هو كلمة حق أُريد بها باطل.

وأخيراً رضخ سيدنا علي للتحكيم لأنَّ طائفة من جيشه انقلبت عليه وكادت أن تحاربه إن لم يرض، واتفق الفريقان على أن يُحْكَمَ كلٌّ منهما رجلاً يرتضيه، فاختار أهل الشام سيدنا عمرو بن العاص، واختار أهل العراق سيدنا أبا موسى الأشعري، وامتدت الهدنة بينهما شهراً بكامله.

ورجع سيدنا علي إلى الكوفة، واختلف صحابته ، فاعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضللاً، واجتمعوا في حروراء، وكانوا قريباً من اثني عشر ألفاً، لكن سيدنا علياً بحكمته وصدقه أرجعهم إلى الكوفة منضمين تحت لوائه ﷺ .

ولما انقضى الأجل المضروب أرسل كل من سيدنا علي ومعاوية وفداً يمثل كلا منهما، واجتمع الفريقان في دومة الجندل، واتفق المحكمان على أن يخلعا علياً ومعاوية، ويتركا الأمر شورى بين المسلمين ليضعوا من يختارونه لأنفسهم، فقدم سيدنا عمرو بن العاص سيدنا أبا موسى الأشعري ليعلن على الناس ما اتفقا عليه، فقام سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: وكان طيب القلب صافي الإيمان:

(فحمد الله وصلى على سيدنا رسول الله ﷺ ثم قال :

أيها الناس! إنا نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ أمراً أصلح لها، ولا ألمً لشعتها من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وقد خلعت صاحبي علياً).

ثم تقدم عمرو رضي الله عنه وكان أحد دهاة العرب الأربعة :

(فحمد الله وصلى على سيدنا رسول الله ﷺ ثم قال:

إن هذا قد قال ماسمعتم وإنه قد خلع صاحبه وإني قد خلعت كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان والمطالب بدمه، وهو أحق الناس بمقامه). وتفرق الناس كل إلى بلده، وأما عمرو وأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بالخلافة، وأما أبو موسى الأشعري فاستحيا من سيدنا علي فذهب إلى مكة.

وأما الذين أجبروا سيدنا علياً على قبول التحكيم فإنهم انقلبوا ضده وعادوا فسكنوا حروراء ولقبوا بالخوارج الحروريين، وراحوا يشتدون على الناس، بل صرحوا بكفر سيدنا علي لقبوله التحكيم، مع أنهم كانوا من أحرص الناس عليه، وعاثوا في الأرض فساداً، وجعلوا يقتلون كل من خالفهم بالرأي، فكانوا يمسكون بالواحد ويقولون له:

- ألم يكن قبول التحكيم كفراً، ألم يآثم علي بقبول التحكيم، فإذا أجاب: بنعم، تركوه، وإذا أجاب بلا، سفكوا دمه.

وكان ممن أنكر عليهم فعلهم هذا ابن صحابي جليل هو سيدنا عبد الله بن خباب بن الارت، فلقبه الخوارج هو وزوجته الحامل في طريق سفرهما فاعتقلوهما،

وسألوه أن يحدثهم بأحاديث عن رسول الله ﷺ سمعها من أبيه، فقال لهم: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي).

وحينما سألوه عن سيدنا علي أثنى عليه خيراً، فاقْتادوه هو وزوجته فذبحوهما، وبقروا بطن زوجته.

ولما سمع سيدنا علي بما فعلوا، لوى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان، حيث لقي الخوارج في هذه المعركة وطوّح فيها برؤوس قادتهم وزعمائهم، إذ أرسل إليهم قائلاً:

"ادفعوا إلينا بقتلة المسلمين حتى نقتلهم ثم إنا تاركوكم"

فبعثوا إلى سيدنا علي يقولون:

كلنا قتلة إخوانكم، وإنا مستحلّون دماءهم ودماءكم.

ولما تهيأ أمير المؤمنين لقتالهم أمر سيدنا أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية وينادي بالناس: أن من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، فانصرف كثيرون منهم، ولم يبق منهم إلا ألف قُتِلوا عن آخرهم في معركة النهروان، ولم يقتل من أصحاب سيدنا علي إلا سبعة رضي الله عنهم.

وعاد سيدنا علي إلى الكوفة فصلى الجمعة ثم نادى منادٍ على الناس يتلو عليهم كتاب أمير المؤمنين سيدنا علي قائلاً:

(أما والله لوددت أن الله أخرجني من بين أظهركم وقبضني إلى رحمته من بينكم، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدري غيظاً، وجرّعتُموني الأمرين أنفاساً، وأفسدتُم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم، هل كان فيهم رجل أشد لها مراساً وأطول مقاساة مني).

نعم معشر المؤمنين:

إن سيدنا علياً ملّ حياته هذه التي قضاها في الخلافة وقد بلغت خمس سنوات إلا ثلاثة أشهر ، منذ قُتِلَ الشهيد عثمان إلى موقعة الجمل إلى صفين إلى النهروان، سنوات خمس قضاها في الجهاد والدفاع عن الإسلام والدعوة إلى وحدة المسلمين، وها هو قد بلغ ثلاثاً وستين سنة وآن له أن يرتاح من هذا الفساد والظنك، ولكن رجلاً من رؤوس الخوارج يدعى عبد الرحمن بن ملجم قد خطب امرأة يقال لها قظام كانت فائقة الجمال، وكان قد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان، فاشتربت عليه إن تزوجته أن يقتل سيدنا علياً فقال لها: و الله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي.

فتزوجها ودخل بها، وأخذت تحرضه على قتل سيدنا علي رضي الله عنه . فاتفق مع اثنين من الأشقياء عام / ٤٠ / هـ أن يقتلوا سيدنا علياً بالعراق وسيدنا معاوية بالشام وسيدنا عمرو بن العاص في مصر.

وفي ليلة الجمعة من شهر رمضان المبارك عام / ٤٠ / للهجرة خرج سيدنا علي ليوقظ الناس لصلاة الفجر ففاجأه ابن ملجم بضربة سيف مسموم على أم رأسه فسال دمه على لحيته. وحمل أمير المؤمنين إلى داره، وقد أغمي عليه، وحين استيقظ أمرهم أن يتركوه ويذهبوا ليصلوا صلاة الفجر، لأنه لا خير في عبد لا يصلي.

وبعد الصلاة حضر الناس وقد أمسكوا بآب من ملجم فنظر إليه أمير المؤمنين فعرفه وقال له:

- أهو أنت .. لطالما أحسنت إليك . ثم التفت إلى من حوله فقال:
أحسنوا نزله وأكرموا مثواه، فإن أعش فأنا أولى بدمه قصاصاً أو عفواً، وإن أمت فألحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين، ولاتقتلوا بي سواه، إن الله لا يحب المعتدين.
وجاءت سكرة الموت بالحق، والخليفة الراشدي الرابع يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقول ويردد: لا إله إلا الله.

وسار أهل الكوفة بجنائزته ، ودفن في مقبرة الكوفة دار إمارته.
وجيء بعبد الرحمن بن ملجم فتولى سيدنا الحسن قتله قصاصاً ثم أحرقت جثته
بالنار.

أيها المسلمون :

لم يكن سيدنا علي إلهاً، ولا رسولاً، ولا نبياً، ولا معصوماً، إنه بشر كجميع
البشر، مات وارتقت روحه لتلتقي مع أرواح الصالحين في جنة الخلد. هناك بعد كان
معنا في الدنيا هنا ، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ ، الجالس فيها
عليه أن يؤدّي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول الله :
الصلاة والسلام عليك.

رضي عنه

(١٠٧)

ال خليفة الخامس أمير المؤمنين جدي سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه

الحمد لله موفق من توكل عليه، القيوم الذي ملكوت كل شيء بيديه، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنعوت بصفات الكمال والتنزيه.
وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأمرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله رحمة للعالمين وخاتماً للنبيين وإماماً للمتقين بأوضح دليل ، وأفصح تنزيل وأنفس تبيان ، وأبدع برهان.

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبين وصحابته المجاهدين الذين وحدوا الأمة وجمعوا الكلمة وأناروا السبيل ، وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد: " فإن الحلم زينة، والوقار مروءة، والعجلة سفة، والسفة ضعف، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة الفساق ريبة "

معشر الإخوة الكرام: بهذه الكلمات النورانية الحكيمة من كلمات الصحابي الجليل جدي سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، السيد الإمام ربحانة سيدنا رسول الله ﷺ ، وسبطه وسيد شباب أهل الجنة، أبدأ معكم حياة هذا الخليفة الراشدي. الإمام أبو محمد القرشي الهاشمي المدني الشهيد رضي الله عنه.

ولد في شعبان سنة ثلاث من الهجرة.

وعق عنه جده سيدنا محمد ﷺ بكبش حين ولدته أمه السيدة فاطمة بضعة سيدنا رسول الله ﷺ ، وحين ولد دخل عليها فقال: أروني ابني، ماسمتموه؟ قالوا:

حرباً. قال: بل هو حسن ، وأدناه منه سيدنا رسول الله ﷺ وأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى فكان أول شيء سمعه سيدنا الحسن من كلمات صوت سيدنا رسول الله ﷺ وهو يؤذن بكلمات التوحيد الله أكبر، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح. الله أكبر لا إله إلا الله كلمات متضمنة لكبرياء الرب وعظمته ، فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكانت هذه الكلمات أول شيء تنسمه سيدنا الحسن حين شم رائحة الدنيا، وقال للسيدة فاطمة رضي الله عنها: "احلقي رأسه وتصدقي بوزن شعره فضة على المساكين"، ففعلت ذلك رضي الله عنها ، لأن في إزالة شعر المولود تقوية له وفتحاً لمسام الرأس وتقوية لحواس الشم والبصر والسمع، وهذا الكلام يعلمه طبيب القلوب والأرواح والأبدان (صلوا عليه).

أما أن يخلق بعض الرأس ويترك بعضه فهو منهى عنه ففي الصحيحين نهى رسول الله ﷺ عن القَزَع، لأن فيه ظلماً للرأس حيث ترك بعضه كاسياً وبعضه عارياً، وسيدنا النبي يحب العدل، ويجب في المسلم أن يكون بمظهر لائق وجميل وحلق بعض الرأس وترك بعضه لا يليق بالشخصية الإسلامية التي يتميز بها المسلم عن بقية الملل وسائر أهل الفسوق والميوعة والانحلال^(١).

إخوة الإيمان :

وشبَّ جدي سيدنا الحسن رضي الله عنه، فكان كلما شبَّ يزداد شبهه بجدي سيدنا رسول الله ﷺ ، وقد رآه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يلعب مع الغلمان، فأخذه فحمله على عنقه وقال:

بأي شبيهه بالنبي ليس شبيهاً بعلي

ولهذا نجد الحبيب الأعظم ﷺ كان يقول: " حسن مني والحسين من علي "

(١) انظر كتابنا القضايا التربوية في أحكام المولود .

وكان عليه الصلاة والسلام يحبه كثيراً ويد الله حتى إنّ سيدنا معاوية رضي الله عنه يقول: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسان الحسن أو شفته، وإنه لن يعدّب لسان أو شفتان مصهما رسول الله ﷺ .

أيها الإخوة: هذه الأحاديث وأمثالها تدل بوضوح على عناية سيدنا النبي ﷺ بالأطفال الناشئين والاهتمام بتربيتهم وتهذيبهم.

ولقد لبث رسل الإصلاح وعلماء التربية وفلاسفة الأخلاق نحواً من ثلاثين قرناً ينفقون جهدهم ليرسموا خطة ناجعة ناجحة في تربية النشء، ليكونوا صالحين للمستقبل الذي ينتظرهم، وأنا أقول لهؤلاء العلماء وأمثالهم ممن يريدون البحث في علم التربية أقول لهم: ارجعوا إلى تعاليم الإسلام، ارجعوا إلى تربية سيدنا محمد ﷺ لأولاده وأحفاده وصحابته، لأن سيدنا محمد ﷺ ربى جيلين: من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الشيخوخة.

فها هو الحبيب الأعظم يعلمنا أن الأطفال في بدء ترعرعهم يميلون إلى الله ﷻ ويرتاحون لنوع من اللعب فلم يكبت رغبتهم ولم يمنعهم مما يحبون، بل إن المربي الأعظم (صلوا عليه) كان يشجعهم عليه، اسمعوا وأنتم تصلون عليه، وليسمع المربون كيف ربى رسول الله ﷺ جيل الإسلام:

فعن سيدنا علي أن النبي ﷺ كان قاعداً في موضع فطلع الحسن والحسين فاعتزكا، فقال رسول الله ﷺ - وعلي جالس - ويهاً حسين خذ حسناً، فقلت: تؤلب علي حسن وهو أكبرهما يا رسول الله؟ فقال ﷺ: هذا جبريل قائم وهو يقول: ويهاً حسن خذ حسيناً.

هل رأيتم أعظم وألطف من هذا النبي المصطفى ﷺ .

وروى أبو هريرة عن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربع وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول: نعم الجمل جملكما، ونعم العِذْلان أنتما.

وفي إحدى المرات كان الحبيب الأعظم يصلي إماماً بالصحابة رضي الله عنهم فأطال السجود في إحدى الركعات، فلما انتهى سأله الصحابة عن تطويل سجود إحدى الركعات فقال: إن ابني هذا ارتحلني (ركب ظهري) فأطلت السجود (حتى نزل).

وما كان عطفه هذا مقصوداً على أبنائه وأحفاده وأقربائه، بل كان يشمل برعايته وعنايته البعيد كالقريب، ولا فرق عنده بين أبناء القرشيين الهاشميين كسيدنا الحسن، والموالي المملوكين كسيدنا أسامة، كلهم عنده سواء بالعطف وحسن السيرة (يا سعد من صلى عليه).

يقول سيدنا أسامة بن زيد: كان رسول الله يأخذني فيقعدي على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الأخرى ثم يضمنا ثم يقول: اللهم إني أرحمهما فارحمهما. وكان عليه الصلاة والسلام يصنع هذا مع الناشئين ويدعو الناس لأن يسلكوا في تربيتهم هذا المسلك، بل ربما أمر به وحذر من الصدوف عنه، ففي البخاري عن سيدنا أبي هريرة قال:

قَبَّلَ رسول الله الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم، فنظر إليه رسول الله ثم قال: من لا يرحم لا يرحم.

أيها السادة : أعظم وسام علّقه رسول الله ﷺ على صدر جدي سيدنا الحسن كان عندما كان يخطب على المنبر وسيدنا الحسن إلى جنبه حيث أشار إليه فقال: إن ابني هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. وجاء إليه مرة جدي سيدنا الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال: " هذان ابناي من أحبهما فقد أحبني".

ونظر إليهما وإلى جدي سيدنا علي وسيدتنا فاطمة رضي الله عنهما فقال:
"أنا حرب لمن حاربكم وسلّم لمن سالمكم"، ثم قال: "من أحب الحسن
والحسين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة."
اللهم اشهد بأننا نحبهم جميعاً.

وعن سيدنا حذيفة قال: قال سيدنا النبي كلف ﷺ : يا حذيفة جاءني جبريل
فبشّرني أن الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة.
أيها الأُحبة : شب جدّي سيدنا الحسن رضي الله عنه وامتألاً رجولة وشهامة،
فكان كما قال عن سيد الكائنات، سيّداً جميلاً عاقلاً رزيناً جواداً ممدحاً خيراً ديناً
ورعاً محتشماً، كبير الشأن، وكان يحب التزوج، تزوج نحواً من سبعين امرأة، وقلما
كان يفارقه أربع ضرائر، وأعقب من الذكور اثنا عشر ذكراً.
وكان جدي سيدنا علي يقف على منبر في الكوفة فيقول: لا تزوجوا الحسن فإنه
مطلاق، فقال رجل:

- والله لنزوجه فما رضي أمسك وماكره طلق.
وتزوج مرة امرأة فأرسل إليها بمئة جارية مع كل جارية ألف درهم.
وهذا ما اشتهر عنه هذا الصحابي الجليل، الكرم والسخاء، لا يطلق امرأة حتى
يمتعها، أي يرسل لها متعة وعطية وهبة.

ومن ضمن النساء اللواتي تزوجهن جدي سيدنا الحسن رضي الله عنه امرأة
ختعمية، فلما استشهد سيدنا علي وبويع سيدنا الحسن دخل عليها، فقالت:
لتهنك الخلافة، فقال لها: أظهرت الشماتة بقتل علي؟ أنت طالق ثلاثاً. فقالت:
والله ما أردت هذا.

ثم بعث إليها بعشرين ألفاً. فقالت وقد دمعت عيناها: متاع قليل من حبيب
مفارق.

هذا الأعطيات الكثيرة التي كان جدي سيدنا الحسن يدفعها كلما سنحت له الفرصة، لتدل دلالة واضحة على مدى شبهه الشديد بجده سيدنا رسول الله ﷺ فقد كان ﷺ كريماً سخياً كالريح المرسلة (ياسعد من صلى عليه).

سمع جدي الحسن مرة رجلاً إلى جنبه يسأل الله تعالى أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف فبعث بها إليه، هكذا بدون أن يعرفه أو تكون لديه صلة. وخطب سيدنا علي رضي الله عنه الناس فقال : إن الحسن قد جمع مالا، وهو يريد أن يقسمه بينكم، فحضر الناس، فقام جدي سيدنا الحسن فقال: إنما جمعته للفقراء، فقام نصف الناس.

ودخل جماعة من الحجاج عليه في المدينة فحدثوه بمسيرهم إلى الحج، فلما خرجوا بعث إلى كل منهم بأربعمئة، فرجعوا وقالوا له: إننا أغنياء؟ فقال: لاتردوا علي معروفي، فلو كنت على غير هذه الحال كان هذا لكم يسيرا، أما إني مزودكم (يعني بنصيحة): إن الله يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة.

قال المدائني: أحسن الحسن تسعين امرأة، أي زوجهن من نفقته الخاصة لأنهن فقيرات. وعن علي بن جدعان قال: حج الحسن بن علي خمس عشرة حجة ماشياً، وإن النجائب لتقاد معه، وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرات. وبلغ من كرمه أنه رضي الله عنه كان يعطي الرجل الواحد مئة ألف.

إخوتي في الله : وفي عهد سيدنا عمر لما دّون الديوان ليعطي الناس من بيت المال ألحق الحسن والحسين بفريضة أبيهما في العطاء، لقربتهما من رسول الله ﷺ وفرض لكل منهما خمسة آلاف درهم.

وفي عهد سيدنا عثمان كان لسيدنا الحسن مع أخيه سيدنا الحسين الموقف الصارم في الدفاع عن الخليفة عثمان رضي الله عنهم حيث وقفا على الباب يحرسانه من أذى المتمردين.

وحين أصبح سيدنا علي أميراً للمؤمنين كان سيدنا الحسن رضي الله عنه الساعد الأيمن لوالده، حتى غدر عبد الرحمن بن ملجم الخارجي بسيدنا علي سنة ٤٠ هـ، فجاء أهل العراق فبايعوا سيدنا الحسن على الخلافة، فقال لهم: - والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم.

قالوا: ما هو؟

قال: تسلمون من سالم، وتحاربون من حاربت.

فوافقوا جميعاً وبايعوه.

أيها المسلمون :

نظر سيدنا الحسن نظرة صائبة، فوجد جنداً (من أهل العراق) لا يركن إليه (يحبون الفتن)، وخصماً (سيدنا معاوية) قوي الشكيمة، وفوق ذلك كله كان يكره الفتن، ويجب للمسلمين الألفة ووحدة الصف، فلم ير خيراً لنفسه ولالأمت من أن يتنازل لسيدنا معاوية رضي الله عنه، عن الخلافة.

أيها المؤمنون :

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى مهد الفتن في العراق، إلى هذا الحدث الهام الذي جمع الله به شمل الأمة بعد التفرق والشتات، لتتحقق معجزة سيدنا محمد ﷺ حين قال: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين.

الزمان سنة ٤١ هـ ، المكان الكوفة وشخصيات هذا الحدث : جدِّي سيدنا الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر الطيار، وسمعوا هذه المحاورة التي تدل على مدى ما أوتي سيدنا الحسن من ذكاء وحنكة وحكمة وعقل واسع، وسع جميع أحداث عصر هذا الخليفة الراشدي، اسمع وأنت تصلي على الحبيب الأعظم ﷺ .

قال سيدنا الحسن لابن عمه عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما:

- إني قد رأيت رأياً، وإني أحب أن تتابعني عليه؟! قال: وما هو؟

قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزله، (أسكنها) وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث (الخليفة)، فقد طالت الفتنة وسفكت الدماء، وقطعت الأرحام والسبل وعطلت الفروج.

قال ابن جعفر: جزاك الله خيراً عن أمة محمد ﷺ ، فأنا معك. فقال: ادع لي الحسين. فأتاه سيدنا الحسين فقال له: أي أخي قد رأيت كيت وكيت. فقال سيدنا الحسين: أعيدك بالله أن تكذب علياً وتصدق معاوية. فقال سيدنا الحسن: والله ما أردت أمراً قط إلا خالفتني، والله لقد هممت أن أقذفك في بيت فأطينه عليك حتى أقضي أمرك!! فلما رأى الحسين غضبه قال: أنت أكبر ولد علي، وأنت خليفته وأمرنا لأمرك تبع.

معشر السادة : وهكذا زرعت نواة الصلح عند أمير المؤمنين سيدنا الحسن وأهل البيت المحمدي حفظاً لدماء المسلمين ، فتواعد مع سيدنا معاوية في مكان بين الشام والعراق، وقال له: إن الأمر يصير إليك بشرطين: الأول: أن لا تطلب أحداً بشيء كان في أيام أبي. الثاني: أن يؤول الأمر بعدك إلي. وكاد سيدنا معاوية يطير فرحاً بهذا الكلام وأجاب جدي الحسن إلى طلبه ، وانعقد الصلح ولم يبق إلا إعلانه.

وعاد سيدنا الحسن إلى الكوفة وقام في أصحابه خطيباً فقال: والله ما ثانا عن أهل الشام شك ولاندم، وإنما كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيتت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في منتدبكم إلى صفين دينكم أمام دنياكم، فأصبحتم ودنياكم أمام دينكم، ألا وإنا لكم كما كنا، ولستم لنا كما كنتم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون

بنأره، فأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عزّ ولا نصفه فإن أردتم الموت رددناه عليه، وإن أردتم الحياة قبلناه.

فناداه القوم من كل جانب : التقية التقية.

وقال قوم لسيدنا الحسن : إن أصحاب علي يزعمون أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة، فقال : - كذبوا والله، ماهؤلاء بأصحاب علي، لو علمنا أنه مبعوث مازوجنا نساءه ولا اقتسمنا ماله.

وبينما كان جدي الحسن رضي الله عنه يصلي وثب عليه رجل فطعنه بخنجر في وركه، فمرض منها شهراً ، ثم قام يخطب في الناس ويقول: "يا أهل الكوفة اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وإنا أضيافكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فراح الناس يبكون بكاءً شديداً.

وقدم جدي الحسن إلى دمشق مقر ولاية سيدنا معاوية لبياعه، وقام خطيباً في الناس فقال:

- إن أكيس الكيس الحمق، وإن أحمق الحمق الفجور، ألا وإن هذه الأمور التي اختلفت فيها أنا ومعاوية تركت لمعاوية إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم. أيها الناس: إني كنت أكره الناس لأول هذا الأمر، وأنا أصلحت آخره. ثم قال: إن الله قد ولاك يا معاوية هذا الحديث لخير يعلمه فيك أو لشر يعلمه فيك، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين.

يا أحباب المصطفى ﷺ :

كانت خلافة جدي سيدنا الحسن ستة أشهر، وكان هذا العام عام ٤١ هـ عام الجماعة وسمي بعام الجماعة لاجتماع أمر المسلمين جميعاً على خليفة واحد . وعاش سيدنا الحسن بعد هذه البيعة ست سنوات، وكان أثناءها يزور الشام وسيدنا معاوية، وحين زاره مرة قال له (سيدنا معاوية):

- لأجيزنك جائزة لم أجز بها أحداً، فأجازه بأربعمئة ألف، فقبلها سيدنا الحسن رضي الله عنه (عرفتم من أين له هذا المال الذي كان به كريماً سخياً والذي كان يعطيه عطاء من لا يخشى الفقر كجده سيدنا رسول الله ﷺ).

وخلال هذه الأعوام الست بعد عام الجماعة سُقي سيدنا الحسن مراراً السم، ولكنه كان بحول الله وقوته لا يؤثر فيه، حتى سقته زوجته بنت أحد زعماء الخوارج سقته سماً زعافاً فاشتكى أربعين يوماً، فلما حضرت سيدنا الحسن الوفاة قال لأخيه الحسين: اتق الله ولا تثر فتنة ولا تسفك الدماء، ادفن أخاك إلى جنب أمه، فإنه قد عهد بذلك إليك. ولما احتضر قال لمن حوله: أخرجوا فراشي إلى الصحن فأخرجوه، فقال:

- اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعزّ الأنفس عليّ.

وصعدت روح جدي سيدنا الحسن إلى بارئها، وارتجت المدينة صباحاً فالتقى إلا باكباً، ووقف أبو هريرة قائماً على مسجدة رسول الله ﷺ وينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا . وشيعت جنازة سيدنا الحسن إلى البقيع ليدفن بجوار والدته السيدة فاطمة رضي الله عنها .

أيها الإخوة: وهكذا ترون أن الله تعالى حقق قول نبينا الأعظم بجدي الحسن وجمع الله عز وجل به شمل الأمة وأعز الله به الإسلام ونجحت تربية جده سيدنا رسول الله ﷺ. هناك كما نستنتج هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يارسول الله : الصلاة والسلام عليك



(١٠٨)

سيدنا طلحة بن عبيد الله

الحمد لله الذي يخص من يشاء برحمته، ويلبس من سبقت له منه الحسنَى أثواب عنايته، ويفضل بعض الخلق بما منحهم به من طرائف نعمته ولطائف منته. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مصرف الأحكام في العبيد فمن شقي وسعيد ومقرب وطريد لا يسأل عما يفعل ولا رادّ لمقتضى إرادته، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنتخل من خلاصة المجد الأثيل، ونبيُّه المنتخب من أعلى سنام الفخر الأصيل وذروته، مَنْ حبه في ضميري وضمير أمته:

في ضميري دائماً صوت النبي آمراً: جاهد وكابد واتعب
صائحاً: غالب وطالب وادأب صارخاً: كن أبداً حراً أي

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
تذكرون (أيها الإخوة) أننا وقفنا عند سلسلة الأفضلية بين الصحب الأكرمين،
ووصلنا إلى قول صاحب منظومة العقيدة:

وصحبه خير القرون فاستمع فتابعي فتابع لمن تبع
وخيرهم من ولي الخلافة وأمرهم في الفضل كالخلافة
يليهم قوم كرام برره عدتهم ست تمام العشرة

فهؤلاء الستة يلون الخلفاء الراشدين الأربعة في الأفضلية من غير تفاضل بينهم فكلهم في مرتبة واحدة، وهم: سيدنا طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن مالك المشهور بسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبي عبيدة بن الجراح.

أولئك أصحاب النبي وجنّده كرام المساعي سادة في المحافل
أياديهم البيضاء في السلم سمحة وفي لجج الهيجا مدى للمقاتل

ومن اكتشف ما حوى التاريخ لهؤلاء الصفوة من أصحاب رسول خير أمة أخرجت للناس يشهد باستحقاقهم لهذه الشهادة الفخمة، فما كان تبشير رسول الله ﷺ لهم بالجنة إلا بصلاحتهم لها وأهليتهم لرحمة الله التي يتغمدهم بها فيدخلهم دار كرامته مجازاة لهم على ما كان منهم من صالحات وصدق في مصاحبته ﷺ وجهاد في سبيل الله والقرآن والإسلام بأنفسهم وأموالهم، ولقد عرفهم الليل رهباناً لله قانتين كما عرفهم النهار فرساناً لنصرة الحق مخلصين.

ونحن اليوم مع رجل من هؤلاء مع سيد كريم نال أجر بدر وشهد أحداً والحديبية والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، هو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة الذين جعل سيدنا عمر فيهم الشورى لاختيار الخليفة بعده، وهو أحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، وهو أحد الذين مات عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

إننا مع رجل من أشراف الأمة سماه رسول الله ﷺ بالناصر لدين الله ﷺ، فقد نظر إليه مع الزبير يوماً وقال: «أنتما حوارياي كحواريي عيسى بن مريم» /النبوي في معجم/. وفي مرة نظر إليه وقال له: «أبشر أبا محمد إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وأثبت اسمك في ديوان المقربين /ف/ أنت في حفظ الله ونظره إلى أن تلحق به».

إننا باختصار مع سيدنا طلحة بن عبيد الله ﷺ من بني تيم بن مرة، ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ

إخوة الإيمان:

قبل أن أستعرض لحضراتكم الصفحات المشرقة لهذا الصحابي الجليل. اسمحوا لي أن أنقل لكم أولى الومضات الإيمانية التي نالها هذا الصحابي الذي حدثنا عن نفسه فقال: حضرت بسوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم:

أفيهم أحد من الحرم. قال طلحة: نعم أنا، فقل الراهب هل ظهر أحمد بعد. قال: ومن أحمد. قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل (يثرب) وحرة وسباخ، فإياك أن تسبق إليه، قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت: اتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق، وأخبره طلحة بما قال الراهب فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك، فلما أسلم سيدنا أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد، وشدهما في جبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم، فلذلك سمي الصديق وطلحة القرينين (الفضائي - وصاحب فضائل أبي بكر).

وتتالت الأحداث في حياة هذا الصحابي، فنراه في المدينة يغيب عن غزوة بدر في مهمة جهادية، فيعطيه رسول الله ﷺ سهماً من الغنائم وأجر من غزاها. وأما في غزوة أحد فكان هذا اليوم يوم طلحة، فاسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى أطراف المدينة المنورة إلى جوار جبل أحد، وتذكروا أن عدد المسلمين بلغ ٧٠٠ صحابي فقط ضد ٣٠٠٠ مقاتل قرشي، ورغم أن الجولة الأولى كان النصر فيها لراية الإسلام إلا أن ابن الوليد حوّل هزيمة قريش إلى نصر ساحق حين دار حول جبل الرماة وجمع فلول القرشيين الفارين من أرض المعركة، ثم أعمل السيف في ظهور المسلمين فتشت الصف المسلم وبدأت الضربات تنهال من كل جانب حتى وصلت السهام والضربات إلى رسول الله ﷺ، لكن سيدنا طلحة كان كالترس لسيدنا رسول الله ﷺ، كان يتلقى ضربات السيوف عن رسول الله ﷺ وأعطى ظهره لطعنات الرماح ورميات السهام حرصاً على الخير للأمة بحياة رسول الله ﷺ وسلامته حتى إن يد طلحة شلت حين دفع سهماً عن سيدنا محمد ﷺ وحين كسرت رابية النبي وشج وجهه جعل طلحة يحمله ويرجع القهقري، وكلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه حتى وصل إلى صخرة. أراد رسول الله ﷺ أن يصعد عليها فانحنى طلحة فصعد رسول الله ﷺ على ظهره ليحتمي بالصخرة، عندها رسول الله ﷺ قال: «أوجب طلحة»

أحمد-ت/. ثُمَّ التفت إلى طلحة وقال: «هذا جبريل يا طلحة يخبرني أنه لا يراك يوم القيامة من هول إلا أنقذك منه» /الفضائي/. ونزف طلحة من دمه فأتى وأبو عبيدة إلى النبي فقال: «عليكما به». فأتيا إلى طلحة فإذا به بضع وسبعون بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قطعت أصبعه، فقدم رسول الله ﷺ فمسح بيده الشريفة الطاهرة الشافية على جسد سيدنا طلحة وراح يدعو: «اللهم اشفه وقوّه»، فإذا بطلحة يقوم صحيحاً كأنه لم يمس بسوء بإذن الله تعالى

وحين انتهت الغزوة ورأى رسول الله ﷺ ما حدث لصحابته وقد استشهد منهم سبعون حتى قال: «إن الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة» وتنزل الآيات الكريمات تؤيد كلام النبي ﷺ: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾

وما أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ قام إليه رجل فقال: من هؤلاء يا رسول الله؟ فإذا بطلحة مقبلاً وعليه ثوبان أخضران فقال: «أيها السائل هذا منهم». وقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى وجه طلحة بن عبيد الله ومن سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

أيها الإخوة الكرام:

نال هذا الصحابي أرفع الأوسمة بصحبته لرسول الله ﷺ، لكن أعظم ألقابه وأوسمته ثلاثة لقبه بها رسول الله ﷺ سماً: طلحة الخير، طلحة الفياض، طلحة الجود، وكل هذه الأوسمة تدل على أنها كانت لجوده وكرمه وسعة عطائه.

دخل مرة على امرأته سعدى بنت عوف مغموماً مكروباً. قالت له: ما شأنك. قال: المال الذي عندي قد كثر وأكرمني. فقالت له: وما عليك أقسمه، فقسمه على الفقراء حتى ما بقي منه درهم، وكان قد بلغ أربعمئة ألف. ومرة باع أرضاً له بسبعمئة ألف فرقه على الفقراء خلال يوم وليلة. بل إليكم هذا الخبر الذي نقله عنه الفضائي

فقال: كان طلحة يغل بالعراق ما بين أربعمئة ألف إلى خمسمئة ألف، ويغل بالشرارة عشرة آلاف دينار، وكان لا يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفي مؤنة عياله، ويزوج أيامهم ويخدم عائلهم ويقضي دين غارمهم، وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل سنة عشرة آلاف، ولقد قضى عن رجل ثلاثين ألف درهم.

فكيف تحققت نبوءة رسول الله ﷺ في شهادة سيدنا طلحة؟

إنَّ سيدنا طلحة اجتهد رآيه في يوم الجمل وقاتل إلى جوار أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، فما أن التقت الصفوف حتى كان أول قتيل، والمشهور أن مروان بن الحكم هو الذي قتله، رماه بسهم في فخذه، وحين ذكر لابن عباس هذا الصحابي وذكر معه سيدنا الزبير قال: رحمة الله عليهما، كان والله مسليمن مؤمنين بارين تقيين خيرين، فاضلين طاهرين زلاتين، والله غافر لهما للصحة القديمة والعشرة الكريمة والأفعال الجميلة فأعقب الله من يبغضهما بسوء الغفلة إلى يوم الحشر.

أيها السادة:

وقبل أن أسدل الستار على هذا الصحابي الجليل. أرى ابنته السيدة عائشة بنت طلحة تأتي زائرة لأبيها بعد أكثر من ثلاثين سنة على مقتله، إذ برجل يأتيها فيقول لها: أنت عائشة بنت طلحة؟ قالت نعم. قال: إني رأيت طلحة في المنام. فقال: قل لعائشة حتى تحولي من هذا المكان (الذي دفن فيه على الشط) فإن البرد قد آذاني. قال: فركبت في مواليها وحشمها، فلما شقوا قبره رأوه كما هو وكأنه دفن الآن لم يتغير إلا شعرات في أحد شقي لحيته، فحملوه ودفنوه في بيت داخل البلدة.

فعليك رضا الرحمن يا طلحة الندي ولا زلت بين الأكرمين إماماً

هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله. لا إله إلا الله

(١٠٩)

سيدنا الزبير بن العوام

الحمد لله الذي نشر للصحابة أعلاماً، وثبت لهم على الصراط المستقيم أقداماً، وجعل طبقة الصحابة أعلى مقام، وفضلهم بصحبة النبي الكريم ومعرفة الأحكام، واختار منهم صفوتهم فهم أهل المحاضرة والإلهام والإكرام، ووفقهم لخدمة الشريعة فهجروا لذيق المنام، وأذاق المحبين لذة قربهِ وأنسِه فشغلهم عن جميع الأنام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المليك العلام.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليفة إمام كل إمام.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنحن اليوم مع مَنْ؟ مع أي عظيم من عظماء الدنيا؟ مع أي شهيد من شهداء الأمة؟ مع أي ركن من أركان الإسلام؟

نحن اليوم مع سيد من سادات الرعييل الأول. هو رابع أو خامس من أسلم بعد الصديق أبي بكر. هاجر الهجرتين وشهد بدرًا والحديبية والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها. إنه أول رجل سلَّ سيفاً في سبيل الله تعالى، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الشورى الذين قال فيهم سيدنا عمر: (إن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض).

إننا مع التقي النقي السمع الكريم ابن عمه رسول الله ﷺ صفيّة بنت عبد المطلب، إننا مع سيدنا أبي عبد الله الزبير ابن العوام القرشي الأسدي رضي الله عنهم.

أقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه يوالي ولي الحق والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذي يصلو إذا ما كان يوم محجل
له من رسول الله قربي قريباً ومن نصرة الإسلام مجد مؤثـل
فكم كربة ذب الزبير سيفه عن المصطفى والله يعطي ويجزل
إذا كشفت عن ساقها الحرب هشها بأبيض سباق إلى الموت يرفل
فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس يكون الدهر ما دام يذبل
ثناؤك خير من فعال معاشر وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل

ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

إخوة الإيمان والدين:

ما أنه أعلن سيدنا الزبير بن العوام إسلامه وكان ابن اثنتي عشرة سنة حتى أخذه
عمه فعلقه في حصير وراح يدخن عليه في النار ويقول له: ارجع إلى الكفر، فكان
الفتى الزبير يقول: لا أكفر أبداً.

فلما شب عمل في التجارة وكان من التجار المحظوظين الموفقين، فتح الله عليه
ببركة الإسلام وحببه لنبينا عليه الصلاة والسلام، فكان من أغنياء الصحابة، نمت
ثروته وكثرت من المال الحلال، وهو حين جمعها لم يحبسها في خزائنه ولكنه كان
ينفقها في سبيل الله تعالى. سئل مرة: بم أدركت ما أدركت في التجارة؟ فقال
(اسمعوا قواعد التجارة الربحة): لأنني لم أشتري معيباً ولم أردّ ربحاً، والله يبارك لمن
يشاء. ولقد بارك الله تعالى له وعليه ببركة تصدقه وسماحته وكرمه وجوده، وصدق
الله العظيم: ﴿وما تنفقوا في شيء فهو يخلفه﴾، باع مرة داراً له بستمئة ألف،
فقيل له يا أبا عبد الله غُبت. قال: (كلا والله) لتعلمن أنني لم أغبن: هي في سبيل
الله تعالى /صفوة الصفوة/، وكان له ألف مملوك يجمعون أموال تجارتهم وخراجه، فما
كان يدخل بيته منها درهم واحد، كان يتصدق بذلك كله.

ورغم ملازمته لرسول الله ﷺ فكان شديد الورع يخاف إذا حدث عنه حديثاً أن يغير لفظةً منه، لهذا كان قليل الحديث، سأله ولده سيدنا عبد الله ما يمنعك أن تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث عنه أصحابه فقال: أما والله لم أفارقه منذ أسلمت، ولكني سمعته يقول: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» /خ/.

أيها الإخوة المؤمنون:

نحن اليوم مع رجل عظيم من رجالات سيدنا محمد ﷺ ، ولأعرض عليكم عظمة هذا الصحابي اسمحو لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى مكة المكرمة زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة وقد انتشر خبر مفاده أن رسول الله ﷺ أخذ وقتل، ووصل الخبر إلى سيدنا الزبير فخرج من بيته شبه عار وقد سل سيفه. خرج يشق الناس بسيفه، والنبي الكريم بأعلى مكة حتى رأى سيدنا محمداً ﷺ وقد تلقاه مستفسراً، فسأله الحبيب الأعظم: مالك يا زبير؟ فقال: أخبرت أنك أخذت. قال: فما كنت صانعاً؟ قال: أردت أن أستعرض أهل مكة وأجري دماءهم كالنهر، لا أترك أحداً إلا قتلت (ثاراً لك يا رسول الله)، وهنا ضحك الحبيب الأعظم وخلع رداءه وألبسه الزبير، وباركت السماء حركة الزبير القتالية، وبارك الله تعالى أول سيف سل في الإسلام: فنزل أمين وحي السماء على أمين أهل الأرض وقال: (يا رسول الله إن الله يُقرئك السلام ويقول لك أقرئني مني على الزبير السلام وبشره أن الله أعطاه ثواب كل من سل سيفاً في سبيل الله منذ بعثت إلى أن تقوم الساعة)، /الملا - صفوة الصفوة/.

هكذا كان الزبير شجاعاً صداعاً للحق فدائياً من الدرجة الأولى، ولتوضيح هذه القضية أدعوكم لحضور أول صلب حدث في تعذيب المسلمين من قبل المشركين، وهذه القضية انقلها لكم لتستدلوا على مدى ثبات الرعيل الأول على الإسلام، فقد

أخرج المشركون سيدنا خبيباً ليقتلوه فقال: دعوني حتى أصلي ركعتين، فتركوه فلما صلاهما، قال: لولا أن يقولوا جزع لزدت وأنشأ يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

فصلبوه حياً، فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس حوالي أحد يبلغ رسولك مقامي فأبلغه سلامي، ثم رموه بسهم وطعنوه برمح، فكان الذي بلغ سيدنا محمداً سيدنا جبريل فقال: «أيكم يحتمل خبيباً من خشبته وله الجنة؟» فقال الزبير: أنا وصاحبي المقداد، فخرجا يسيران الليل والنهار من المدينة حتى وافيا المكان، فإذا حول الخشبة أربعين رجلاً نياماً، وإذا هو رطب لم يتغير فيه شيء بعد أربعين يوماً فحملة الزبير على فرسه وسار، فلحقه سبعون منهم فوارس فقذف خبيباً فابتلعتة الأرض ولم ير له أثر، وهنا انعطف الزبير إليهم وقال: ما أجرأكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير ابن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود. أسدان رابضان إن شئتم ناضلتم وإن شئتم نازلتم وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا. فقدم الزبير مع صاحبه على رسول الله ﷺ وعنده سيدنا جبريل فقال: يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك، ونزل قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾.

وهكذا كان في الغزوات أسداً هصوراً وسيفاً بتاراً، وكان يتلقى الضربات بصبر جميل محتسباً لله تعالى ولقد ضرب يوم بدر على عاتقه ضربة أثرت في كتفيه وتلقى مثلها في يوم اليرموك، يقول ولده عروة: فكنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير،/خ/.

معشر السادة:

كانت آثار المعارك الجهادية بادية ظاهرة على جسده حتى إنه /ت-حسن/ ما من عضو فيه إلا وقد جرح مع رسول الله ﷺ بل كان في صدره أمثال العيون من الطعن والرمي /الصفوة-والفضائي/. وحين كان يوم الخندق ندب رسول الله ﷺ الناس

ليأتوا بخبر كفار مكة، فانتدب الزبير (أي قام لتنفيذ أمره) ثم ندبهم ثانية فانتدب الزبير، وهنا علق رسول الله ﷺ وسام الشجاعة والنصر على صدر الزبير أبد الدهر فقال: «لكل نبي حوارى (ناصر) وحوارى الزبير» /ق-ت/. وقام الزبير على فرسه وراح يأتي بالأخبار إلى النبي مرتين أو ثلاثة، وهنا قال له رسول الله ﷺ: «فداك أبي وأمي» /ت-حسن/.

فكان سيدنا عمر حين يذكر الزبير يقول: الزبير ركن من أركان الإسلام /ابن السري/.

وحق له أن يفتديه رسول الله ﷺ بأبيه وأمه، لأنه كان يخاف على النبي ويحرسه. جلس مرة بجواره فنام رسول الله ﷺ، نامت عينا النبوة وبقي سيدنا الزبير يذب عن وجه رسول الله ﷺ حتى استيقظ قال: «يا أبا عبد الله ﷺ لم تزل»، قال: لم أزل أنت بأبي وأمي. فقال «هذا جبريل يقرئك السلام ويقول لك أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك شر جهنم» /الحافظ الدمشقي في الأربعين/. وأعلن لمن حوله فقال: «طلحة والزبير جاراي في الجنة».

معشر السادة الكرام:

كان لسيدنا الزبير بن العوام مكانةً عليًا عند الله ﷻ ورسوله عرف هذا المهاجرون والأنصار.

هاهو رجل يخاصم الزبير في قضية سقي النخل فقد منع الأنصاري الماء أن تصل إلى أرض الزبير، فاحتكما لرسول الله ﷺ فقال النبي الكريم للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك»، فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله ﷺ أن كان ابن عمك؟! فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «يا زبير اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر». فقال الزبير: والله ﷻ إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك، ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

أيها الأحبة:

عاش هذا الصحابي سبعاً وستين سنة، فلما كانت سنة ست وثلاثين من الهجرة وقف إلى جوار السيدة عائشة في موقعة الجمل فقاتل فيها ساعة ثم ناداه سيدنا علي وانفرد به وذكره حديثاً جرى بينه وبين رسول الله حين وجدهما يتضاحكان فقال له: يا زبير أتحب علياً؟ قال الزبير: ألا أحب ابن خالي وعلى ديني فقال: يا زبير لتقاتلنه وأنت له ظالم.

وهنا تذكر الزبير ذلك بعد أن كان نسيه، فرجع عن أرض المعركة وقال لسيدنا علي: والله لا أقاتلك، ورجع منصرفاً إلى المدينة. لكن رجلاً فمن غضب الله عليه يدعى عمير بن جرموز لحق به فغافله فطعنه غيلة من الخلف، وجاء برأسه إلى سيدنا علي يستأذنه فلم يأذن له وقال للآذن: بشر قاتل ابن صفية بالنار.

أيها الأخوة:

رغم الثراء الكبير الذي أصاب سيدنا الزبير فقد توفي وعليه ديون كثيرة، ترك قطعة أو قطعتين من الأرض باعهما ولده عبد الله وفي بها دينه، (وللزبير عشرون ولداً) وكان عبد الله هذا أول مولود ولد في الإسلام، وكان يحيي الدهر ليلة قائماً حتى يصبح وليلة راکعاً وليلة ساجداً حتى يصبح، وهو الخليفة السادس في الإسلام. وهو الفارس المصلوب الذي صلبه الحجاج بعد أن هاجم مكة ورماها بالمنجنيق، فدافع عنها عبد الله بن الزبير حتى قتل شهيداً على ثراها وابنه عروة من أكابر فقهاء المدينة، علينا أن نفهم (يا إخواني) أن سيدنا الزبير بطل من أبطال الإسلام، ولقد عاش حميداً ومات شهيداً وبشره رسول الله بالجنة، فمن أن يكون معه هناك فليترض عنه هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

لا إله إلا الله

(١١٠)

سيدنا عبد الرحمن بن عوف

الحمد لله الذي أكرم أمة حبيبه المصطفى بجزيل النعم، وفضلهم وشرفهم باتباعهم لسيد العرب والعجم، تجلى على قلوب أحبابه بالأنس والرضوان، وأسبغ عليهم نعمه الوافرة بمحض الفضل والإحسان فسيحانه من إله متفضل محسن منان. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جلّ عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من بريته، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه أعرف الخلق بالله تعالى وأعلامهم عنده منزلة، وأوسعهم عنده شفاعاً، بعثه إلى الإيمان منادياً وإلى الجنة داعياً، وفي مرضاته ساعياً، فبلغ رسالة ربه وصدع بأمره، وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى بلغ رضاه، واختار له أمة مسلمة قانتة له، وصفهم مولانا عز وجل بقوله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وأنزلهم عندك في مقعد صدق يا مليكنا المقتدر، وفي رحمتك يا أرحم الراحمين، وعجل فرجنا بحقهم وحق من جعلته رحمة للعالمين ورحمة لنساء العالمين، وسلم تسليماً.

أما بعد:

نحن اليوم نشهد عظمة سيد الأنبياء، نشهد كيف خرّج هذا النبي تلامذته، فأولى بنا اليوم أن نقرأ التاريخ، أولى بالمسلمين اليوم أن يقرؤوا التاريخ، فقراءة التاريخ أستاذ، ومدرسة التاريخ أساتذتها سادة الأمة، علينا أن نصغي إلى التاريخ لنرى كيف

ساد الصحابة زمن التاريخ فأنشؤوا دولة إسلامية صارعت كل دول الدنيا وررفت عليها رايات التوحيد، ونكست رايات الكفر والإلحاد.

إننا من هذا المنطلق الراسخ نتناول حياة أعلى طبقة في التاريخ الإسلامي، وفي هذه الطبقة سادة وقادة وخلفاءهم خواص الصحب الكرام، ونحن اليوم ننزل ضيوفاً على سيد من ساداتنا، هاجر الهجرتين وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو ممن ثبت معه في أحد، وأحد الثمانية الذين سبقوا بالإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، وأحد المفتين الذين كانوا يفتون على عهد رسول الله ﷺ وبعثته رسول الله ﷺ إلى دومة الجندل وألبسه عمامة بيده وسدل عزبتها بين كتفيه وقال: سر باسم الله ﷻ، وبشره بالجنة، وكان من الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فقد وقف ﷺ عقب حجة الوداع وقبل وفاته بقليل بعدد مناقب صحابته فقال: «أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فاعرفوا له ذلك. أيها الناس إني راض عن عمر وعلي وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين فاعرفوا لهم ذلك».

إننا مع واحد من هؤلاء العشرة، واحد سمّاه نبينا بالصادق البار (قط) وصلى خلفه مقتدياً به في غزوة تبوك /صفوة/، وهو من أوائل الذين دخلوا في دين الإسلام قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وأمه الشفاء بنت عوف المرأة التي تلقت رسول الله ﷺ بين يديها يوم أن ولد ﷺ وقد أسلمت وهاجرت، وأسلم إخوته الثلاثة. نحن اليوم ننزل ضيوفاً على الغني الشاكر سيدنا عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري.

ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ

إخوة الإيمان:

إن سيدنا عبد الرحمن بن عوف أعطى من خلفه من المؤمنين درساً لا ينسى، لقد أعطانا درساً في الفداء والتضحية، درساً أنه لا قيمة للأموال ولا العقارات إذا كان الدين مهدداً ومحارباً. إن سيدنا عبد الرحمن ترك كل أمواله في مكة مهاجراً في سبيل الله، وما أن وطئت قدماه أرض المدينة حتى آخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع، فماذا قال سعد، وماذا أجاب سيدنا عبد الرحمن؟

إن التاريخ قد سجل للأنصار تطبيق الإخوة الإيمانية تطبيقاً عملياً فشاركوا المهاجرين في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأراضهم، فإن سيدنا سعداً وهو واحد منهم قال لسيدنا عبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت فأنزل لك عنها فإذا حلت تزوجها.

الله أكبر ما أعظم هذا الإيثار (قولوا رضي الله عنه) موقف عظيم، لكن موقف ابن عوف كان أعظم. إن سيدنا عبد الرحمن قال له: بارك الله لك في أهلك ومالك ودلني على السوق.

يقول الراوي يا سادة يا كرام:

ففدا ابن عوف فأتى بأقط وسمن إلى سوق بني قينقاع فباع واشترى ثم تابع الفدو فما لبث أن قدم على رسول الله فإذا عليه أثر صفرة. فقال له النبي الكريم: تزوجت يا عبد الرحمن؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: ومن؟ قال: امرأة من الأنصار. قال: فكم سقت؟ (المهر). فقال ابن عوف: زنة نواة من ذهب. فقال رسول الله: أولم ولو بشاة؟ (خ) ٢٠٤٨/.

نعم (أيها الأخوة):

بدأ ابن عوف من جديد، بدأ يعمل بأسباب التجارة وكان مع عمله هذا يشرف على بيت النبوة ويعتني بآل البيت، يقول سيدنا عمر: رأيت النبي في منزل فاطمة والحسن والحسين يبيكان جوعاً ويتضوران. فقال النبي: من يصلنا بشيء؟ فطلع

سيدنا عبد الرحمن بن عوف بصحفةٍ فيها حيس ورغيفان بينهما إهالة، فقال النبي ﷺ له: كفك الله أمر دنياك وأما آخرتك فأنا لها ضامن. / أبو القاسم في الأربعين/، ويتابع ابن عوف الإنفاق من ماله هنا وهناك، فكان رسول الله ﷺ كلما سمع عنه إنفاقاً دعا له، دعا له مرة فقال: بارك الله في مالك وخفف عليك حسابك يوم القيامة، /الملاء/

وهكذا معشر الإخوة بارك الله لابن عوف بركة عظيمة، فكان يعد من أثرياء الصحابة، ولكنه كان كلما نمت ثروته ازداد إنفاقاً في سبيل الله حتى قال الزهري: تصدق ابن عوف على عهد النبي ﷺ بأربعة آلاف ثم بأربعين ألف، ثم حمل على خمسمئة فرس ثم على خمسمئة راحلة، وأوصى لנסاء النبي ﷺ بحديقة قومت بأربعمئة ألف (ت-حسن).

بل إليكم هذا النبأ الذي نقله ابنه طلحة، فقد قدمت قافلة له من تجارة الشام فحملها إلى رسول الله ﷺ لننفقها في سبيل الله، فدعا له رسول الله ﷺ. يقول طلحة(ولده): كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف: ثلث يقرضهم ماله، وثلث يقضي دينهم بماله، وثلث يصلهم (فقولوا رضي الله عنه). كانت هذه العطايا من ابن عوف مدعاة لأن يدعو له رسول الله ﷺ قائلاً: «سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة (قط-أحمد ١٠٤\٦) ثم قال له: يا عبد الرحمن أنت وليي في الدنيا والآخرة. (أنت حبيبي)» (الملاء في سيرته). ونزل سيدنا جبريل ليبارك هذه الإنفاقات من سيدنا عبد الرحمن نزل بسلام وآية: أما السلام فقال سيدنا محمد «إن الله يقرئك السلام ويقول: أقرئ عبد الرحمن السلام وبشره بالجنة» وأما الآية فثناء على المنفقين: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ /البقرة ٢٦٢/.

فماذا فعل ابن عوف لقاء هذه الدعوات ولقاء هذه البشارة الإلهية والنبوية؟

إن ابن عوف أعتق ثلاثين ألف عبد جعلهم عتقاء لوجه الله تعالى فرحاً بما أنزل الله عز وجل.

معشر السادة الكرام:

واسمحوا لي أن أنقل لكم حدثاً هاماً في حياة هذا الصحابي الجليل لأستدل معكم على مدى العقل الوافر الذي أوتيته ومدى عزة النفس وعفتها عنده، أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى عصر صدر الإسلام إلى وقفة حرجة وقع فيها الصحب الكرام، فقد ترك سيدنا عمر الحكم بعده شورى بين الستة الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض ليختار المسلمون واحداً منهم وهم سيدنا عثمان بن عفان وجدي سيدنا علي وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وجعل سيدنا عبد الله بن عمر مرجحاً لكفة الاختلاف إن وجد.

فكيف بدت حكمة هذا الصحابي الجليل، إن سيدنا عبد الرحمن تنازل عن حقه في مجلس الشورى وقال للخمسة الباقين: هل لكم أن أختار لكم خليفة وأنفصل عنها. قال سيدنا علي: نعم أنا أول من رضي فأني سمعت رسول الله يقول: «إنك أمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض». وتنازل الزبير عن حقه لسيدنا علي، وتنازل سعد بن أبي وقاص لسيدنا عثمان وكان طلحة غائباً، وانحصر الاختيار بين صحابين جليلين وسيدين كريمين، وراح ابن عوف يسأل أهل الحل والعقد يستشيرهم سراً وجهراً حتى سأل الركبان الوافدين على المدينة المنورة.

أيها الإخوة:

إننا في خضم هذا الحدث الهام الذي سيقدر مصير الخلافة، فبعد ثلاثة أيام من البحث والسؤال دعا ابن عوف السيدين الجليلين سيدنا عثمان وسيدنا علي فقدموا عليه فأخذ منهما موثقاً وعهداً لئن ولي واحداً منهما ليعدلا ولن ولي عليه ليسمعن وليطيعن. وخرج بهما إلى المسجد وقد لبس سيدنا عبد الرحمن العمامة التي عممه بها رسول الله، وبعث إلى وجوه الناس فقدموا عليه فضاق بهم المسجد فوقف فيهم

خطيباً وقال: أيها الناس إني سألتكم سرّاً وجهراً فلم أجدكم تعدلون بعلي وعثمان أحداً. ثُمَّ التفت إلى سيدنا علي وقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر، قال سيدنا علي: على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي. ثُمَّ قال لسيدنا عثمان: قم إلي يا عثمان، فقام إليه فأخذه بيده وقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر فقال عثمان: اللهم نعم. فرفع سيدنا عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت في رقبتني من ذلك في رقبة عثمان.

وازدحم الناس يبايعون سيدنا عثمان وكانت من أوائل الأيدي التي بايعت يد سيدنا علي بن أبي طالب.

أيها الإخوة المؤمنون:

إن صفحة التاريخ في حياة هذا الصحابي صفحة خالدة جليلة. خمس وسبعون سنة قضاها هذا الصحابي لم ير وجهه بئس أو فقير إلا وأكرمه ونعمه وطيب خاطره حتى مرض هذا الصحابي سنة واحدة وثلاثين هجرية، مرض فأوصى بثلاث ماله فشفاه الله تعالى فتصدق بذلك بيد نفسه ثُمَّ قال: يا أصحاب رسول الله ﷺ كل من كان من أهل بدر له علي أربعمئة دينار (ليرة ذهبية) فتصدق عليهم في ذلك اليوم بمئة وخمسين ألف دينار.

ثُمَّ مرض واشتد عليه المرض حتى غشي عليه في وجعه حتى ظنوا أنه قد فاضت نفسه، فقاموا عنه وجللوه، فإذا به يفيق ويكبر ويكبر معه أهل البيت ثُمَّ قال لهم: غشي عليّ أنفأ؟ قالوا: نعم. قال: صدقتم انطلق بي في غشيتي رجلان أجد فيهما شدة وفضاظة فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي حتى لقيا رجلاً، قال: أين تذهبان بهذا؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال لهما: إرجعا فإنه منه الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم في بطون أمهاتهم، وإنه سيمتع به بنوه إلى ما شاء الله، قال: فعاش بعد ذلك شهراً. (صحيح ابن سعد ٩٥/١/٣).

معشر السادة:

انتقل هذا الصحابي الجليل إلى ربه عز وجل بعد أن ترك ثمانية وعشرين ذكراً وثمان بنات وكان فيما خلفه ذهب، وأي ذهب، وأي ذهب، قطع بالفؤوس حتى حجلت أيدي الرجال منه ببركة دعاء رسول الله ﷺ، وترك أربع نسوة فأصاحب كل امرأة ثمانون ألف (صفوة) وترك مالا كثيراً وخلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس ترعى بالبقيع.

فمن كان يريد أن يفعل الله به فعل ابن عوف فلينفق مما آتاه الله، ومن أراد أن يلحق به هناك في أعلى الجنان فليترضى عنه هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد.

لا إله إلا الله

(١١١)

سيدنا سعد بن مالك القرشي (بن أبي وقاص)

الحمد لله الذي قدّم من شاء بفضله وأخّر من شاء بعدله، لا يعترض عليه ذو عقل بعقله، ولا يسأله مخلوق عن فعله، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على حَزَن الأمر وسهله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي جعل العاقبة للمتقين بفضله.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله. أشرف من وطىء الحصا بنعله وخاتم أنبيائه وسيد رسله.

نقف اليوم بإجلال أمام شخصية عظيمة من شخصيات الإسلام، تلميذ طاهر من تلاميذ سيدنا رسول الله ﷺ، رجل من الرعيل الأول، من أولئك الذين دخلوا الدين الحنيف، سابع سبعة دخلوا فيه، هو أحد العشرة سادات الصحابة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين أخبر سيدنا عمر أن رسول الله مات وهو عنهم راض.

نحن اليوم أمام صحابي شهد بداراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأبلى يوم أحد بلاء عظيماً، هو أول من أراق دماً في سبيل الله وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وقف مع رسول الله ﷺ على جبل حراء فتحرّكت بهم الصخرة من تحتهم فقال ﷺ: «اثبت حراء فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد».

هو أحد الفرسان الشجعان أمراء رسول الله ﷺ قال عنه رسول الله ﷺ إنه يعد بألف فارس ولقبه بناصر الدين، وكان يحرس النبي الكريم في مغازيه، وكان في أيام الصديق معظماً جليل المقدار، وكذلك في أيام عمر وهو الذي كوّف الكوفة (أي بناها)

ونفى الأعاجم وتولى قتال فارس وفتح المدائن، وكان على يديه فتح القادسية وغيرها، فلما صارت فتنة استشهاد الخليفة عثمان لزم بيته وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام.

إننا باختصار مع خال سيدنا رسول الله ﷺ سيدنا سعد بن مالك القرشي الزهري. مع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

إخوة الإيمان:

يحدثنا سيدنا سعد عن إسلامه فيقول: (رأيت في المنام قبل أن أسلم بثلاث كأني في ظلمة لا أبصر شيئاً إذ أضاء لي قمر فاتبعته فكأني أنظر من سبقي إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة وإلى علي ابن أبي طالب وإلى أبي بكر وكأني أسألهم: متى انتهيتم إلى ههنا) وما أن استيقظ حتى ذهب إلى الصديق ليقوده إلى الحبيب الأعظم مستخفياً، يقول سعد: تلقيته في شعب أحياد وقد صلى العصر فقلت له: إلام تدعو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وكانت أول من تقف في طريق إسلامه أمه أم سعد. حلفت لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب، وقالت له: زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك وأنا أمرك بهذا، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فقال: لا تفعلي يا أم فإني لا أدع ديني. قال: فمكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عماره فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فقال لها: والله لو كانت لكن ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا شيء، فإذا بأمين وحي السماء يطوي السبع الطباق ويمتاز الآفاق وينزل على حبيب الله

بآية عظيمة :

﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾
أيها الأخوة:

كان عمر سيدنا سعد حين أسلم سبع عشرة سنة. أسلم قبل أن تفرض الصلاة، فلما فرضت كانوا يصلون مستخفين في الشعاب، فبينما سيدنا سعد في نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحّي جمل (رأس جمل) فشجه، فكان أول دم أهرق في سبيل الإسلام.

فلما هاجر إلى المدينة كان حريضاً على ملازمة رسول الله ﷺ، وحضور المغازي فشهد بدرًا وأحداً، وفي أحد جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لسيدنا سعد فقال: «ارم سعد فداك أبي وأمي، ارم أيها الغلام الحرور (الفتى)» فكان يرمي السهام حتى رمى يوم أحد ألف سهم. فكانت ابنته عائشة تفخر على بنات الحي وتقول: أنا بنت المهاجر الذي فداه رسول الله ﷺ بالأبوين.

قال لسيدنا رسول الله ﷺ يوماً: ادع الله أن يستجيب دعائي. قال: «يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يطيب طعمته». قال يا رسول الله ﷺ ادع الله أن يطيب طعمتي فإني لا أقوى إلا بدعائك. قال: «اللهم أطب طعمة سعد». يقول الراوي يا سادة يا كرام:

فكان سعد يرى السنبل من القمح في حشيش دوابه فيقول: ردوها من حيث حصدموها، وأصبح سيدنا سعد مستجاب الدعوة لا يدعو شيئاً إلا استجاب الله ﷻ له.

وكان رسول الله ﷺ يفخر به بين صحابته ويقول إذا أقبل سيدنا سعد: «هذا خالي فليرني امرؤ خاله» / ت/. ذلك لأن أم النبي من بني زهرة وكان سعد من بني زهرة. فهم أخواله.

فماذا حدث لسيدنا سعد في حجة الوداع بمكة؟

اسمحوا لي معشر السادة أن أنتقل بحضراتكم إلى البقعة الطاهرة إلى مكة المكرمة بيت الله، وبعد حجة الوداع مع سيدنا رسول الله. أرى سيدنا سعداً مريضاً فعاده رسول الله فقال سعد: يا رسول الله قد خفت أن أموت بالأرض التي هاجرت منها، وقد بلغ بي الوجع ما ترى ولا يرثني إلا ابنة أفأصدق بكل مالي؟ قال: لا. قلت بالشرط يا رسول الله قال: لا. قال: في الثلث. فقال رسول الله: «الثلث والثلث كثير. أنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس» /ق-وأحمد/، ثم وضع رسول الله ﷺ يده على جبهته فمسح بها وجهه وصدره وبطنه وقال: «اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته»، يقول سيدنا سعد: فما زلت يخيل إلي أنني أجد برد (دعاء رسول الله ﷺ ويده) على كبدي حتى الساعة.

معشر الأحبة والصحب:

ويعاني الله تعالى سيدنا سعداً ببركة دعاء رسول الله ﷺ ويخرج إلى الحبيب الأعظم وهو مع صحبه فيقول رسول الله ﷺ لمن حوله: «أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة»، فدخل سعد بن أبي وقاص /أحمد/.

وفي اليوم التالي يكرر رسول الله ﷺ مقالته فيقول: «يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة» فإذا سعد بن أبي وقاص قد طلع، حتى إذا كان الغد قال رسول الله ﷺ: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فاطلع سعد بن أبي وقاص.

وهنا قال سيدنا عبد الله بن عمرو لسيدنا سعد: إني غاضبت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليال، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تنحلّ يميني، فقلت. قال أنس: فزعم عبد الله بن عمرو أنه بات معه ليلة حتى إذا كان الفجر فلم يقم تلك الليلة شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبره حتى يقوم مع الفجر، فإذا صلى المكتوبة أسبع الوضوء وأتم ثم يصبح مفطراً. قال عبد الله بن عمرو: فرمقته ثلاث ليال وأيامهن لا يزيد على ذلك غير أنني لا أسمعه يقول إلا خيراً، فقلت: إنه

لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكني سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك ثلاث مرات في ثلاث مجالس: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة» فاطلعت أنت فأردت أن آوي إليك حتى أنظر ما عملك فأقتدي بك لأنال ما نلت فلم أرك تعمل كثير عمل، ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ، فقال: ما هو إلا الذي رأيت غير أني لا أجد في نفسي سوءاً لأحد من المسلمين ولا انوي له شراً ولا أفوله. قال قلت: هذه التي بلغت بك وهي التي لا أطيع.

أيها المؤمنون:

لم يزل سيدنا سعد ملازماً رسول الله ﷺ إلى أن توفي وهو عنه راض، فكان يستوصي بالأنصار خيراً لنصرتهم لرسول الله ﷺ، فسأله ولده: يا أبة إني أراك تصنع بهذا الحي من الأنصار شيئاً ما تصنعه بغيرهم فقال: أي بني هل تجد في نفسك من ذلك شيئاً؟ قال: لا، ولكن أعجب من صنيعك، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق».

وحين تولى الفاروق عمر ولاة العراق (الكوفة) فشكاه أهلها حتى قالوا فيه: إنه لا يحسن الصلاة. فقال سيدنا سعد: أما أنا فكنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ أركد في الأوليين وأخفف في الآخرتين، فقال عمر: ذلك الظن بك يا أبا اسحق. وأرسل سيدنا عمر رجالاً يسألون عنه في مساجد الكوفة فكان الناس يثنون عليه خيراً حتى قدموا على رجل قال فيه: إنه كان لا يسير بالسرية ولا يعدل في القضية ولا يقسم بالسوية. فقال سعد: أما والله ﷻ لأدعوه بثلاث: اللهم إن كان كاذباً فأطل عمره وأطل فقره وعرضه للفتن /خ/.

يقول جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن، ويقول إذا سئل: شيخ كبير مفتون أصابني دعوة سعد.

أيها الإخوة:

ورغم أن سيدنا عمر عزله لكونه جعله قبل وفاته من الستة أصحاب الشورى وأوصى الخليفة بعده أن يستعمله فولاه سيدنا عثمان الكوفة، فلما قتل سيدنا عثمان اعتزل الفتنة ولم يكن مع أحد من الطوائف المتحاربة بل لزم بيته، وجاءه ولده عمر وهو معتزل في إبله فقال (م) الناس يتنازعون الإمارة وأنت ههنا فقال: يا بني إني سمعت رسول الله يقول: «إن الله يحب العبد الغني الحفي النقي».

لكن سيدنا سعداً وقد بلغ أولاده أربعاً وثلاثين ولداً ق خشي عليهم أن يموت عنهم صغاراً فقال: يا رب إن لي بنين صغاراً فأخّر عني الموت حتى يبلغوا، فأخّر عنه مولانا الموت بعد هذه الدعوة عشرين سنة، فلما بلغ الثمانين سنة خمس وخمسين احتضر ورأسه في حجر ولده مصعب، فبكى ولده، فقال: ما يبكيك يا بني! والله إن الله لا يعذبني أبداً وإني من أهل الجنة.

وهكذا معشر الإخوة الكرام كنا مع رجل من أهل الجنة، توفي خارج المدينة بعشرة أميال، فحمله أصحابه وأهله وبنوه على الأعناق حتى دفن في المدينة بالبقيع، وأن بلغوا به المسجد حتى أوقفت أمهات المؤمنين النعش ليصلوا على صاحب رسول الله المجاهد الفارس، فصلوا عليه في مسجد رسول الله (م).

فمن أراد أن يكون معه هناك في أعلى الجنان، فليترض عنه هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد.

لا إله إلا الله

(١١٢)

سيدنا ابن زيد وابن الجراح

الحمد لله المنزه عن أن يكون له نظراء وأشباه، المقدس فلا تقرب الحوادث حماه،
الذي اختار الإسلام ديناً وارتضاه. أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على نعمه وكرمه
والجاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ شهادة توجب لنا رضاه. جعل له أصحاباً
فاختار كلاً منهم لصحبته واجتباؤه، وجعلهم كالنجوم بأيهم اقتدى الإنسان واهتدى
إلى الحق واقتفاه.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وعلى
أصحاب سيدنا محمد، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وسلّم تسليمًا.
أما بعد:

نحن اليوم في خاتمة الحديث عن العشرة المبشرين بالجنة، وكما سمعنا وعلمنا
فضائلهم ومكارمهم وحرصهم على السؤدد وذرائع الشرف ووسائل العمران وبناء
المجد والسعي بلا هودة أو تراخ إلى إقامة دعائم الإسلام وبناء الدولة الإسلامية.

أولئك أنصار الفضيلة والهدى أئمة دين الحق والخير والندى

بكل امرئ منهم علا دين أحمد وكل امرئ في المسلمين قد اقتدى

لقد كانوا رضي الله عنهم عناوين مجموعة من الفضائل والمكارم
وغوالي النعوت والصفات، وإن فعالهم وأخلاقهم وسجاياهم لتصل العبد بربه وتحسن
علاقته بسواه، وتجعله مذكوراً بالخير في القلوب وبالهبة والإجلال في التاريخ.

لقد ابتلاهم الله تعالى واختبرهم لحمل راية الإسلام والجهاد في سبيله، فقاموا بها
خير قيام كما ابتلى الله تعالى بها خليله سيدنا إبراهيم بكلمات فأتمهن.

نحن اليوم مع بقية العشرة أوائل الذين أسلموا ووقف إلى جوار النبي ﷺ في المشاهد كلها جنباً إلى جنب، ومات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فهم اتصفوا بالصفات نفسها لذلك نرى هذه الطبقة لا تفاضل بينهم فهم في مرتبة واحدة تلي مرتبة الخلفاء الأربعة.

إننا أمام رجلين مباركين بطلين قائدين أميرين زاهدين ورعني مهاجرين مجاهدين. هما سيدنا سعيد ابن زيد، وسيدنا عامر أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

إخوة الإيمان:

أما سيدنا سعيد بن زيد، فوالده سيدنا زيد بن عمرو بن نفيل قضى حياته يطلب الدين الصحيح مع ورقة بن نوفل، فأما ورقة فتنصر، وأما سيدنا زيد فأبى أن يدخل النصرانية وراح ينتظر خروج النبي الأمي الذي سيظهر في مكة المكرمة، فراح يعود إلى مكة أدراجه وهو يردد نشيداً إيمانياً. راح يقول: لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً.

كان طاهراً مطهراً على دين سيدنا إبراهيم الخليل. كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول /خ/: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموؤدة. يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها وأنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها (خ).

ولذلك كان أهل التفسير يقولون في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ كانوا يقولون: نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يوحدون الله تعالى زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر، وسلمان: أولئك الذين هداهم الله بغير كتاب ولا نبي.

فولده سعيد من الذين أسلموا قديماً هو وزوجته أم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت سيدنا عمر التي كانت السبب في إسلام عمر بعد ذلك.

معشر الإخوة الكرام:

قضى هذا الصحابي حياته في الجهاد في سبيل الله، وكان من ضمن الذين فتحوا بلاد الشام، ولم يذكره عمر في أهل الشورى لئلا يحابي بسبب قرابته من عمر فيولئى، فتركه لذلك.

لكن سيدنا أبا عبيدة قائد الجند في فتح الشام. ولأه دمشق أي جعله أميراً عليها، لكنه اعتذر إليه لم يرضَ الإمارة أتدرون لماذا؟ لأنه أحب أن يكون مجاهداً في سبيل الله تعالى. لكن شاءت القدرة الإلهية أن يموت بأرضه بالعقيق في المدينة المنورة بعد أن ترك واحداً وثلاثين ولداً، فحمل إلى المدينة سنة خمسين في أيام معاوية وهو ابن بضع وسبعين سنة قضاها مجاهداً في سبيل الله تعالى فقولوا عليه السلام.

أيها الإخوة المؤمنون:

وأما آخر العشرة فهو أمين هذه الأمة الأشرم لقب بالأشرم لأنه انتزع سهمين أو حلقتي الدرع من جبهة رسول الله يوم أحد، فسقطت ثنيته من أسنانه، وهو من حسنات الصديق أبي بكر فقد أسلم على يديه وهاجر الهجرتين.

إنه سيدنا أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الملقب بأمرير الأمراء بالشام، والذي قال فيه سيدنا محمد ﷺ: «لكل أمة أميناً وإن أميننا (أيتها الأمة) أبو عبيدة بن الجراح» (ق).

بعثه رسول الله إلى أهل نجران ليحكم بينهم بالحق، ويعلمهم السنة والإسلام قال لهم لما طلبوا معلماً: «لأبعثن معكم أميناً حق أمين» (ق)، هو رجل لا تأخذه في الله لومة لائم، كان سيفاً بتاراً على الكفر والكافرين أتدرون لماذا؟ لأنه لقي أباه يوم بدر كافراً فقتله، فأنزل الله تعالى مدحاً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ..﴾.

إنه أحد المؤهلين للخلافة وهو أحد المرشحين لها منذ وفاة سيدنا رسول الله ﷺ، حين اجتمع الصحب الكرام بسقيفة بني ساعدة، وقف الصديق ليختار خليفة لرسول الله ﷺ فتوجه بحديثه للمهاجرين والأنصار، فقال: وقد رضيت لكم أحد الرجلين عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح.

فلما تولى الصديق سدة الخلافة كانت أحياء العرب تأتيه من الآفاق إليه إمداداً للمسلمين فيستعمل عليهم الرجل منهم ويخبرهم أن يمضوا إلى أي أمرائه أحبوا، فإذا قالوا: اختر لنا يا خليفة رسول الله ﷺ أميراً نقاتل تحت رايته، فكان يقول لهم: عليكم بالهين اللين الذي إذا ظلم لم يظلم وإذا أسيء إليه غفر، وإذا قُطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين. عليكم بأبي عبيدة.

فكانوا إذا قدموا إليه رأوه يسير في العسكر ويقول لهم: ألا ربّ مبيضٍ لثيابه ومدنس لدينه، ألا ربّ مكرم لنفسه وهو مهين لها بادروا بالسيئات القديمات بالחסنات الحادثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثمّ عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرها.

أيها الأحبة والصحب: كلنا يعلم أن سيدنا خالداً بن الوليد كان أميراً على الأبحار الذين فتحوا بلاد الشام زمن الصديق رضي الله عنه، لكنه ما أن تولى سيدنا عمر حتى كتب إلى سيدنا أبي عبيدة أن يكون أمير الجند بالشام وعزل خالداً، عزله وولى أبا عبيدة ليجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد، فماذا فعل أمين الأمة حينما وصل قرار تعيينه أميراً لأمرأ الجند؟

أيها الإخوة: لقد سجل لنا التاريخ هذه المكرمة لسيدنا أبي عبيدة إذ كانت الحرب دائرة في الشام ، وكان المسلمون يتفائلون بقيادة سيدنا خالد، فكتم أبو عبيدة الكتاب عن خالد وغيره، حتى انقضت الحرب وكتب خالد الأمان لأهل دمشق وأبو عبيدة الأمير وهم لا يدرون حتى مضى عشرون ليلة، إذ بخالد يدخل

عليه ويقول: يغفر الله لك جاءك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي، والسلطان سلطائك؟

اسمعوا جواب أمين الأمة (قولوا رضي الله عنه) قال: يغفر الله لك ما كنت لأعلمك حتى تعلم من غيري، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله، وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل، وإن ما نرى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أخوان وقوام بأمر الله تعالى، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه.

فكم هي الأموال والعقارات التي جمعها أمير أمراء الجند في بلاد الشام، كيف كانت إمارته وقصره؟

اسمحوا لي معشر الإخوة أن أنتقل بكم إلى هناك إلى أطراف الأردن حيث مقر القيادة الإسلامية وقد جاء إليه سيدنا عمر بن الخطاب في جولة تفتيشية فتلقيه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة قالوا: يأتيك الآن فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم طلب منه أن يدخل بيته فقال: وما تصنع؟ لكن عمر أصر، فدخل سيدنا عمر غرفةً وراح في العتمة يتحسس فلم ير شيئاً، قال: أين متاعك؟ ما أرى إلا لبدًا وصحفة وشنا وأنت أمير. هل عندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة فأخذ منها كسيرات من الخبز، فبكى سيدنا عمر وقال: غرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة.

وخرج سيدنا عمر وتابع جولته التفتيشية لكنه جمع أصحابه فقال: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله عز وجل. فقال: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهرًا أنفقه في سبيل الله عز وجل وأتصدق به. ثم قال: تمنوا. قالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لكني أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح.

أيها الإخوة:

وقضى سيدنا أبو عبيدة إلى جوار ربه شهيداً بالطاعون الذي أصاب الشام سنة ثمان عشرة فحصد خمسة وعشرين ألف مطعون. نعاه سيدنا معاذ بن جبل حين وفاته فقال:

أيها المسلمون:

قد فجعتم برجل ما أعلم أني رأيت عبداً أبرَّ صدرًا ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حباً للعامة ولا أنصح منه، فترحموا عليه واحضروا الصلاة عليه.

وهكذا معشر الإخوة قضينا مع المرتبة السادسة من مراتب أفضلية الصحابة. أولها أولاد سيدنا محمد ﷺ، ثُمَّ الصديق، ثُمَّ الفاروق، ثُمَّ ذو النورين، ثُمَّ ذو الفقار حيدر سيدنا علي، ثُمَّ الستة تمام العشرة.

فما هي المرتبة السابعة في الأفضلية؟

أعلق هذا السؤال لأجيب عليه في الجمعة القادمة إن شاء الله، وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراكم ما هنا، هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

لا إله إلا الله

(١١٣)

سيدنا عبد الله بن عباس

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، وأنزله بحسب المصالح منجماً ، وجعله بالتحميد مفتتحاً ، وبالاتعاذة مختتماً ، أوحاه على قسمين : متشابهاً ومحكماً ، وفصله سوراً ، وسوره آيات وميّز بينهن بفصول وغايات ، فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شيء سواه بالحدوث و العدم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزله كتاباً ساطعاً تبياناً ، قاطعاً برهانه وحيّاً ناطقاً ببينات وحجج ، قرآناً عربياً غير ذي عوج ، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداً لما بين يديه من الكتب السماوية .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله آتاه الله كتاباً معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان ، فأفحم من طولب بمعارضته من العرب العرباء وأبكم من تحدّى به من مصارع الخطباء .

فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من _فصحائهم_ ، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة ناهض من بلغائهم .

اللهم صل وسلم وبارك على خير من أوحى إليه ، حبيب الله أبي القاسم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، ذي اللواء المرفوع من بني لؤي ، وذو الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي ، المثبت بالعصمة ، المؤيد بالحكمة ، الواضح التحجيل ، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل ، وعلى آله الأطهار ، وحلفائه من الأختان والأصهار وعلى جميع المهاجرين والأنصار وسلم تسليمًا .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام : أمسكت بالقلم لألوي عنانه فأكتب سيرة الإمام المفسّر مجاهد بن جبر أحد أئمة التابعين وأحدث عن جمعه لعلم الأولين

السابقين إلى الإسلام من الصحب الكرام، ثم وجدت أنني لكي أتعرف وإياكم على قدر هذا الإمام لابد أن نعرف قدر هؤلاء الأثبات الذين أخذ عنهم، وعلى الأقل أن نعرف قدر من جمع علمهم فأوعى.

أتعرفون ماذا وجدت ؟

وجدت نفسي أقف بإجلال أمام صحابي جليل من آل بيت النبوة، حنكته رسول الله ﷺ بريقه عندما ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وهم في شعب أبي طالب، ولازم سيدنا رسول الله ﷺ حياته الثلاث سنوات الأخيرة جمع خلالها ستين وستمئة وألف حديث سمعها من رسول الله ﷺ .

إنه سيدنا عبد الله بن عباس ابن عم النبي الأعظم الذي إذا رأيته قلت أجمل الناس، فإذا نطق قلت : أفصح الناس. فإذا تحدّث قلت: أعلم الناس. يأخذ العقول بجماله وعمامته السوداء التي يرخي عذبتها شبراً بين كتفيه وبين يديه .

إخوة الإيمان :

لن نعرف قدر سيدنا مجاهد حتى نعلم قدر هذا الصحابي الجليل، الذي امتلأ صدره بالأوسمة العلمية ، فقد كان يلقب بالخبر والبحر لكثرة علمه، وانتهت إليه الرئاسة في الفتوى والتفسير وقال فيه الفاروق وساماً أعظم وقد كان يجلسه مع كبار الصحابة وهو يقول له : إنك لأصبح فتياننا وجهاً وأحسنهم خلقاً وأفقههم في كتاب الله . وقال في شأنه : ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً .

وكان لفرط أدبه إذا سأله عمر مع الصحابة عن شيء يقول : لا أتكلم حتى يتكلموا . دخل مرة مع الفاروق وكبار الصحابة في المجلس فتحرج بعضهم من وجوده بينهم وقالوا: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناءً مثله؟ فانبرى عملاق الإسلام يومها وقال: إنه من أعلمكم. ثم اختبرهم بسؤال واحد فقط قال لهم الفاروق : ماتقولون في قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال بعض كبار الصحابة الكرام : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم

يجب ؟ وهنا التفت إلى جدي ابن عباس وقال : أؤكدك تقول يا ابن عباس؟ فقال: لا . قال فما تقول ؟ قال ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ، قال له: إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا.

فقال عمر الفاروق : لا أعلم منها إلا ما تقول . والتفت إلى من حوله من الصحب الكرام وقلّد ابن عباس وساماً من أشرف الأوسمة وهو يقول : ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد ﷺ ، فكانت إذا وردت الأقضية المعضلة إلى سيدنا عمر دعا ابن عباس قال : أنت لها ولأمثالها .

إخوتي في الله : لقد سبق ابن عباس الصحابة بكثير من الخصال (عبيد الله بن عبد الله بن عتبة) :

١ . حلم ونسب وتأويل ، وعلم ماسبق ، وفقه في الدين

٢ . وكان أعلم الصحابة بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ

٣ . وبقضاء الصديق والفاروق وذوي النورين .

ولقد كان يجلس يوماً لا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر ويوماً لأيام العرب. حتى قال فيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (ما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلاً قط سألته إلا وجد عنده علماً) .

ومرة اعترض أحدهم على الإمام طاووس فقال له : لزمت هذا الغلام ابن عباس وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله إذا تدارؤوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس .

فمن أين جاء سيدنا ابن عباس بهذا العلم الغزير، وبهذا النبوغ العربي بأكمل معانيه علماً وفصاحة ؟

أيها الأحبة والصحب : أدعوكم أولاً أن ترفعوا أكفكم بالدعاء قائلين : اللهم فقهننا في الدين وعلمنا التأويل وآتينا الحكمة ببركة سيدنا ابن عباس ، هذا الدعاء هو دعاء النبي الأعظم لابن عمه العباس هو أول بركة حصل عليها جدي ابن عباس بعد تحنيكه بريق رسول الله ﷺ ، والذي يرجع إلى كتب التفسير يرى أثر هذا الدعوة النبوية .

والسبب الثاني : نشأته في بيت النبوة وملازمته لسيدنا رسول الله ﷺ من عهد التمييز يشهد ويسمع الكثير من أسباب النزول والوقائع.

السبب الثالث : ملازمته لأكابر الصحابة الكرام بعد وفاة النبي ﷺ يروي عنهم ويعرف مواطن نزول القرآن وتاريخ التشريع، وبهذا استعاض عما فاته من العلم عن رسول الله ﷺ حتى هو نفسه قال : وجدت عامة حديث رسول الله عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ، وأسأله عما أريد وأنصرف. ويقول أيضاً : إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ .

والسبب الرابع : حفظه للغة العربية ومعرفته لغريبتها وآدابها وخصائصها وأساليبها .

والسبب الخامس : بلوغه مرتبة الاجتهاد وعدم تحرجه وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق، وكثيراً ما انتقد عليه سيدنا ابن عمر جرأته على تفسير القرآن حتى أقر له أخيراً بمبلغ علمه وفضله، فقد روي أن رجلاً أتى سيدنا ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ (الأنبياء ٣٠) .

فقال : اذهب إلى ابن عباس ثم تعال فأخبرني. قال فذهب الرجل وسأله فأجابه بقوله : كانت السماوات رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتق هذه بالمطر

وهذه بالنبات، فرجع إلى سيدنا ابن عمر فأخبره فقال : قد كنت أقول ما يعجبني
جرأة ابن عباس على تفسير القرآن فالآن قد علمت أنه أوتي علماً .

معشر السادة الكرام : لهذه الأسباب وغيرها نتبين عظمة هذا الصحابي الجليل
في التفسير حتى قال فيه تلميذه الإمام مجاهد : إنه كان إذا فسر الشيء رأيت عليه
النور .

وقال فيه سيدنا علي : كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .
لذا كان الصحابة والتابعون لا يعدلون عن رأيه فيما أشكل عليهم من كتاب الله ،
لأنه كان إذا أشكل عليه أمر ولم يجد نصاً من القرآن أو السنة أو أقوال الصحابة
الكبار يرجع في فهم معاني الألفاظ إلى الشعر العربي القديم ، أو يرجع إلى أهل
الكتاب بسبب اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في كثير من المواضع إلا إذا تناهى مع
القرآن فإنه لا يقبله، يقول جدي ابن عباس رضي الله عنهما ((الشعر ديوان العرب،
فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا فيه إلى ديوانها
فالتمسنا ذلك منه (الاتقان ١/١١٩) (الموافقات ٢/٨٨) .

ولأدلل لكم على هذه القضية بالذات اسمحوا لي أن أشهد معكم هذا المشهد
من أمام الكعبة المشرفة ، هاهو حبر الأمة يجلس بفنائها والناس حوله يسألونه عن
تفسير القرآن، وإذا برجل يدعى نافع بن الأزرق يقول لصاحبه قم بنا إلى هذا
المتجرى على كتاب الله يفسره بما لا علم له به . وما أن وقف أمامه حتى قال: نريد
أن نسألك أشياء عن كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة ذلك من كلام العرب،
فإن الله تعالى (إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين) . قال جدي ابن عباس . سلاني
عما بدا . لكما فقال ابن الأزرق : أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن
الشمال عزين ﴾ (المعارج ٣٧) . قال: العزون حلق الرفاق . قال: هل تعرف العرب
ذلك؟ قال : نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص يقول :

فجاؤوا يُهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال: فأخبرني عن قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾

قال: الوسيلة الحاجة، قال : وهل تعرف العرب ذلك

قال : نعم ، أما سمعت عنزة يقول :

إِنَّ الرِّجَالَ لَهْمُ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْحَلِي وَتَخْطِي

وكلما سأله سؤالاً جاءه بشاهد من أقوال العرب . حتى أسكت ابن الأزرق وجعله يقتنع بحق أن ابن عباس إمام التفسير في عهد الصحابة الكرام. حتى قال المفسرون في شأنه : إنه هو الذي أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن (المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ٦٩).

وقد طبع في مصر جزء كبير في التفسير نسب إلى ابن عباس باسم تنوير المقباس من تفسير ابن عباس جمعه صاحب القاموس المحيط الفيروز آبادي، قيل أكثره لم يقله ابن عباس

أيها الاخوة : قضى سيدنا ابن عباس سبعين سنة وهو يفسر كتاب الله تعالى حتى فقد بصره، وكان النبي قد هياه لهذا البلاء عندما دخل عليه يوماً فرآه يتحدث مع دحية الكلبي فقال له : استوص بابن عمك خيراً فهو خير الأمة، وإن ذريته ستسود بعده . فقال سيدنا ابن عباس: ما هذا يارسول الله قال : ذاك جبريل هل رأيته؟

قال: نعم

فقال له : أما انه سيذهب بصرك

وذهب بصر ابن عباس ، وصارت ذريته من ولده علي من خلفاء بني العباس بعد ذلك .

وفي سنة ثمان و ستين هجرية حضرت وفاته في الطائف، وحمل على الأعناق ورأى الناس طائراً أبيض يدخل في نعشه لم يخرج أبداً ، ودفن في الطائف بجوار مكة

المكرمة ، دفنه بيده الإمام محمد بن الحنفية بن سيدنا علي بن أبي طالب وما أن
سوى عليه التراب حتى قال : مات والله اليوم حبر هذه الأمة .

ونادى منادٍ لم يرمن على شفير القبر : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى
ربك راضية مرضية ﴾ (الفجر ٢٧) فمن أراد أن يجتمع به هناك في جنات ونهر
فليبق معنا هنا ليشهد تلميذ ابن عباس الأول وهو الإمام مجاهد ، تلميذ آخر من
مدرسة سيدنا محمد ﷺ فليبق معنا هنا في هذه المدرسة، الجالس فيها عليه أن يرفع
التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله :

صلى الله
عليه
وسلم

المصادر :

سير أعلام النبلاء ٣/٣٣١

حلية الأولياء ١/٣١٤

التفسير والمفسرون للذهبي ١/المقدمة

المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ٦٩

الإتقان للسيوطي

الموافقات للشاطبي ٢/٨٨

أسد الغابة لابن الأثير .

(١١٤)

أمير المؤمنين السادس

مؤسس الدولة الأموية

سيدنا معاوية بن أبي سفيان - ٥ ق. هـ - ٤١ هـ

الحمد لله مُسَهِّلَ ماصعب من الأمور الكائنات، فاتح فاتحة الفتوح الميسرات، المتقدس عن الحدث والنقصان والآفات، المستحق لكمال النعوت والصفات، المسبِّح بصنوف اللغات، المحمود على جميع الأفعال والحالات. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منزهة عن الشك والشبهات.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله استخرجه من أشرف الآبات والأمهات، وابتعته بالمعجزات البالغات، والآيات والحجج الواضحات، وختم به النبوة والرسالات، واتخذ له أصحاباً سادوا الخليقة باتباعهم لسيد الكائنات. اللهم صلِّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأزواجه الطيبات الطاهرات وأصحابه عظماء السادات ، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فحديثنا اليوم عن رجل آخر من كبار صحابة سيدنا رسول الله ﷺ، عن أحد كتبة الوحي الفصحاء، عن رجل كانت حياته كلها عظمة ومجداً وفخراً، رجل لم تتوقف حياته وحياة آبائه عن قيادة العرب (أو الرئاسة) في الجاهلية ولا في الإسلام، منذ أن انتقلت إلى أبيه رئاسة قريش وحتى أصبح ملك الإسلام، نعم إنه ملك الإسلام وكسرى العرب، أمير المؤمنين سيدنا معاوية بن أبي سفيان صخر بن

حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. يكنى أبا عبد الرحمن القرشي الأموي المكي، فخر الإسلام والمسلمين.

معشر الإخوة الكرام :

وقبل أن أفتح ملف هذا الصحابي الجليل مؤسس الدولة الأموية العربية الإسلامية التي دامت قرابة الثمانين سنة، أرى لزماً علي أن أستعرض تاريخ رؤساء قريش، تلك الحقبة التي كانت قبيل الإسلام.

فقد كان في قريش فرعان يتنافسان على رئاسة قريش في الجاهلية: هما فرع بني هاشم بن عبد مناف وفرع عبد شمس بن عبد مناف، ومن الفرع الأول جدي عبد المطلب وأولاده. ومن الفرع الثاني: أمية بن عبد شمس.

وأمية هذا كان رجلاً تاجراً كثير المال، وأعقب عشرة من الأولاد، وقد كان المال وكثرة الولد في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب، وهؤلاء العشرة كلهم ساد وشرف، ومن هؤلاء ولدان: (حرب، وأبو العاص).

وحرب بن أمية هذا كان قائد قريش كلها في حرب يوم الفجار، وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس إلى الصلح في ذلك اليوم، ورهن لسدادها ولده أبا سفيان ابن حرب.

وكان حرب هذا يسهر ويسمر مع جدي عبد المطلب بن هاشم، وقد دامت الألفة بينهما طويلاً، وكان أيضاً أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب صديقان حميمان:

وعندما بعث سيدنا رسول الله ﷺ ورسله دعا الناس إلى الإسلام فاستجاب من بني هاشم وبني عبد شمس جمع كثير إلا أن الذي حمى سيدنا رسول الله ﷺ وحذب عليه هم بنو هاشم والمطلب حيث حماه عمه أبو طالب كبير القرشيين وقتها. ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله ﷺ كان المتآمرون من جميع قبائل قريش إلا بني هاشم (إذا استثنينا أبا لهب) وحين مات أبو طالب تولى رئاسة قريش

من بني عبد شمس عقبة بن ربيعة ثم تولاهما أبو سفيان ابن حرب وهو والد سيدنا معاوية رضي الله عنهما.

وكان أبو سفيان رأس قريش وقائدهم يوم أحد والخنديق، وكان فضل الله عليه عظيماً إذ تداركه بالإسلام يوم الفتح، وهو رجل عظيم في نفسه، ذو شرف، يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة، ويحب الفخر والذكر.

لذلك رأينا رسول الله ﷺ يوم الفتح يؤلف قلبه ويتحجب إليه ويعطيه مالم يعط أحداً، فقال: "من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"، فسوى بين بيته وبين بيت الله ﷻ، وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن، وكل الذين أسلموا يومها سموا مشيخة الفتح.

أيها الإخوة :

الذي أريد قوله من عرض هذا التاريخ أن أقول إن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام، وقد قال ﷺ : "الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا".

فكان من هذين الفرعين فرع حرب بن أمية ثلاثة خلفاء، وكان من فرع أبي العاص بن أمية عشرة خلفاء.

إخوة الإيمان :

إننا في الصفحة الأولى من ملف هذا الصحابي الجليل، وعنوان هذه الصفحة والدا سيدنا معاوية رضي الله عنهم، فقد كان أبو سفيان من دهاة العرب، ومن أهل الرأي والشرف فيهم، وهو أسنّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين وعاش بعده عشرين سنة، وقد تزوج رسول الله ﷺ ابنته السعيدة السيدة أم حبيبة ليرغبه في الإسلام، وكانت في الحبشة، وكان وكيلاً عن سيدنا النبي ﷺ في هذا الزواج ملك الحبشة، ثم هاجرت إلى المدينة في السنة السابعة فبنى بها رسول الله ﷺ ، وحين بلغ أبا سفيان نبأ زواجها بسيدنا النبي ﷺ قال: هو الفحل لا يقدر أنفه.

شهد أبو سفيان حيناً وأعطاه رسول الله ﷺ مئة من الإبل وأربعين أوقية من الدراهم يتألفه بذلك.

وشهد قتال الطائف فقلعت عينه حينئذ، ثم قلعت الأخرى يوم اليرموك، وكان يومئذ قد حسن إسلامه، فإنه كان يحرض على الجهاد يوم اليرموك، وكان تحت راية ولده يزيد، وقد فقدت الأصوات إلا صوت رجل واحد هو أبو سفيان فكان يصيح: يا نصر الله اقترَب.

وكان يقف على كتائب الخيل ينادي ويقول: الله الله إنكم أنصار الإسلام ودارة العرب، وهؤلاء أنصار الشرك ودارة الروم، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك. ولأجل هذا وغيره كان محترماً في أعين المسلمين وخاصة سيدنا عمر لأنه كان كبير بني أمية، ولم يمت أبو سفيان حتى رأى ولديه يزيد ثم معاوية أميرين على دمشق، وتوفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين.

إخوتي في الله :

وأما والدته سيدنا معاوية (زوجة أبي سفيان) فهي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية القرشية.

فقد كانت امرأة لها نفسٌ وأنفٌ ورأيٌ وعقلٌ، وشهدت أهدأ كافرة، وكانت تحمّس المقاتلين الكفار وتقول لهم:

نمشي على النمارق

نحن بنات طارق

أو تدبروا نفارق

إن تقبلوا نعانق

فراق غير وامق

فلما استشهد سيدنا حمزة مثلث به وشقت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها، فلم تطق إساعتها، فبلغ ذلك النبي الكريم فقال: لو أساعتها لم تمسّها النار.

فلما رأت دخول المسلمين مكة عام الفتح، ورأتهم يقومون الليل ساجدين وراكعين يتعبدون حول الكعبة المشرفة أمام أعين كفار قريش، رأت هند كل ذلك فجاءت إلى زوجها أبي سفيان وقالت له:

- إني أريد أن أباع محمداً.

فقال لها: قد رأيته تكذبين هذا الحديث أمس؟! قالت: والله ما رأيته الله عُبِدَ حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين.

فقال لها أبو سفيان: فإنك قد فعلت ما فعلت فذهبي برجل من قومك.

فذهبت إلى سيدنا عثمان بن عفان، فاستأذن لها رسول الله ﷺ فدخلت وهي منتقبة، فقال لها الحبيب الأعظم تبايعيني على أن لا تشركي بالله شيئاً؟ قالت: نعم. قال: ولا تسرقين ولا تزنين؟ قالت هند: وهل تزني الحرة وتسرق؟! قال: ولا تقتلين أولادك؟ فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً. فقال لها رسول الله ﷺ: لعلك هند زوجة أبي سفيان؟ فقالت: عفا الله عما سلف يا رسول الله وشكت أبا سفيان وقالت: إنه لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وولدها، فقال لها رسول الله ﷺ:

- خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك وولديك.

وشهدت اليرموك مع زوجها أبي سفيان وحرضت على القتال معه، وتوفيت هند في خلافة الفاروق في اليوم الذي مات فيه سيدنا أبو قحافة والد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً.

أيها السادة:

هؤلاء هم آباء وأجداد سيدنا معاوية حلم ووقار وسيادة ورئاسة ودهاء كلها اجتمعت وصبت في شخصية سيدنا معاوية رضي الله عنه.

وها نحن الآن قد أصبحنا في الصفحة الثانية من هذه الشخصية الفذة في سماء الإسلام، وعنوانها: الولادة والنشأة والشباب. فقد ولد هذا الصحابي الجليل قبل

البعثة النبوية بخمس سنين، وشب في ظل قريش من بني هاشم والمطلب وبني عبد شمس، وورث الهبة والجلال منذ شبابه، وكان يرتدي أحسن الثياب، وبطيّب نفسه ويحضر مجالس قريش والإسلام، فقد دخل معاوية على عمر بن الخطاب وعليه حلة خضراء فنظر إليه الصحابة - يعني نظرة إعجاب - فلما رأى ذلك سيدنا عمر قام ومعه الدرّه، فجعل ينزل ضرباً بمعاوية، ومعاوية يقول: **اللَّهُمَّ** يا أمير المؤمنين فيم فيم؟ فلم يكلمه حتى رجع فجلس في مجلسه. فقالوا: لم ضربت الفتى، وما في قومك مثله. فقال (عمر): - ما رأيت إلا خيراً، وما بلغني إلا خيراً، ولكني رأيته (وأشار بيده يعني إلى فوق) فأردت أن أضع منه.

أيها الأحبة:

كان إسلام هذا الصحابي في عهد الحديبية (السنة السادسة للهجرة) فقد روى هو عن نفسه فقال: لما كان عهد الحديبية وصدوا رسول **اللَّهُمَّ** عن البيت وكتبوا بينهم القضية (العهد) وقع الإسلام في قلبي فذكرت لأمي فقالت: إياك أن تخالف أباك فيمنع عنك القوت، فأخفيت إسلامي، فو**اللَّهُمَّ** لقد رحل رسول **اللَّهُمَّ** في الحديبية وإني مصدّق به. ودخل عام عمرة القضية وأنا مسلم، وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يوماً: لكن أخوك خير منك وهو على ديني، فقلت: لم آل نفسي خيراً، وأظهرت الإسلام يوم الفتح، فرحب بي النبي **ﷺ** وكتبت له.

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم تماماً العقل الذي أتاه **اللَّهُمَّ** معاوية، فقد استشار أبا بكر وعمر في أمر فقالا:

- **اللَّهُمَّ** ورسوله أعلم. فقال: أشيراً علي. ثم قال: ادعوا معاوية واحضروه أمركم (أشهدوه أمركم) فإنه قوي أمين.

وهذه شهادة عظيمة من سيدنا النبي **ﷺ** وجعله النبي الكريم كاتباً له بينه وبين العرب، وإليكم هذه الحادثة الطريفة فيما يرويه الإمام أحمد في مسنده: أن سيدنا

رسول الله ﷺ دعا معاوية مرة ليكتب له. فقيل: إنه يأكل فدعاه ثانية وثالثة " وهو ما زال يأكل " فقال النبي الكريم في الثالثة: لا أشبع الله بطنه.

وكان النبي الكريم يدعو له فيقول: اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ومكن له في البلاد وقه العذاب ، اللهم اجعله هادياً مهدياً وأهد به.

ومرة أردف النبي الكريم معاوية خلفه فقال: مايليني منك. قال بطني يا رسول الله فقال: اللهم املأه علماً وحلماً.

ذكرت أمام رسول الله ﷺ بلاد الشام فقال له رجل: وكيف نستطيع الشام وفيه الروم قال ومعاوية في القوم ويده عصا، فضرب بها كتف معاوية وقال: يكفيكم الله بهذا.. وهذه من أعظم البشارات لسيدنا معاوية بأنه سيكون أميراً على الشام، بل إن النبي الكريم صرح أنه سيكون خليفة وملكاً فقال له: يامعاوية إن وليت أمراً فاتق الله (واعدل) وفي رواية: (يامعاوية إن ملكت فأحسن).

ولذلك سيدنا معاوية يقول: والله ما زلت أعرف أنني مبتلى بهذا الأمر منذ سمعت ذلك من رسول الله ﷺ .

أيها الإخوة:

وفي خلافة سيدنا الصديق رضي الله عنه ولأه قيادة جيش مدداً لأخيه يزيد بن أبي سفيان، وأمره أن يلحق بأخيه فكان غازياً تحت امرته، وقد فتح معه صيدا، وببيروت وسواحل دمشق الشام، ثم ولّاه سيدنا عمر الأردن.

ولما توفي سيدنا يزيد في طاعون عمواس ولّاه سيدنا عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق وما معها .

وفي عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه جمع لمعاوية الشام كلها، فكان ولاية أمصارها تحت أمره، وما زال والياً حتى استشهد سيدنا عثمان رضي الله عنه.

فانظروا - أيها الإخوة - من الذي ولّاه على دمشق والشام إنه سيدنا عمر، فقام به أتم قيام وأبقاه سيدنا عثمان، ورضي أهل الشام به لحلمه وسخائه، وإن كان غيره

من أصحاب رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، ولكن سيدنا معاوية ساد
وساس الناس بكمال عقله وفرط حلمه ، وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه، شهد بذلك
سيدنا ابن عباس فقال وقد سأله عكرمة التابعي: إن معاوية أوتر بركة . فقال ابن
عباس: إن معاوية لفيقيه.

وكان رضي الله عنه محبباً إلى رعيته بقي أميراً على الشام عشرين سنة قبل أن
يتولى الخلافة بعد جدي سيدنا علي والحسن وقدم عليه سيدنا عمر إلى هنا إلى
دمشق الشام فلتلقاه سيدنا معاوية في موكب عظيم مهيب، فلما دنا منه. قال:
- أنت صاحب الموكب العظيم؟!

قال: نعم

قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟! قال: نعم.

فقال: ولم تفعل ذلك؟!

قال: يا أمير المؤمنين! نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير فيجب أن نظهر من
عزّ السلطان ما يرهبهم فإن نهيتني انتهيت؟!

قال: يا معاوية ما سألك عن شيء إلا تركتني مثل رواجب الضرس، لئن كان
ما قلت حقاً إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً فإنه لخدعة أديب. قال: فمربي. قال:
لا أمرك ولا أنهاك. فقليل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ماصدر عما أوردته (ما أحسن
ما أجاب عما سألته) قال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ماجشمناه.

وخرج حاجاً مع سيدنا عمر، وكان إذا نظر الفاروق إليه تعجب من أمره وكان
يقول: هذا كسرى العرب. ويقول لأصحابه: تعجبون من دهاء هرقل وكسرى
وتدعون معاوية؟!

وكانت عبادته أشبه بعبادة سيدنا رسول الله ﷺ فإن أبا الدرداء كان يقول في
الشام:

ما رأيت أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم معاوية.

وحينما تولى سيدنا عثمان الخلافة كان معه بقوته وعقله، وأراد عند الفتنة أن يصطحبه معه إلى الشام فأبى سيدنا عثمان وقال : لا أترك جوار رسول الله ﷺ أبداً.

وعندما استشهد بعثت زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية كتاباً بما جرى، وبعثت بالقميص وعليه الدم، فقرأ معاوية الكتاب، وصعد منبر دمشق ونشر القميص وخصلة من الشعر التي نتفت من لحية سيدنا عثمان، وضج أهل الشام من هذا الخبر الرهيب ونادوا على سيدنا معاوية فقالوا:

- هو ابن عمك، وأنت وليه ونحن الطالبون بدمه معك.
وأمر سيدنا معاوية بالقميص أن يطاف به في الشام وأن يُحرض الناس على الطلب بدم الشهيد سيدنا عثمان رضي الله عنه.
ولما استبطأ سيدنا علي بأخذ الثأر للشهيد عثمان حينما قامت الفتنة قال له ابن عباس رضي الله عنهما :

"وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية، لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن قُتلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾ .

ورفض سيدنا معاوية البيعة لسيدنا علي حتى يؤخذ بثأر سيدنا عثمان ، ونادى في الناس أن الزبير بن العوام قادم عليكم الشام لتبايعوه بالخلافة، ولكنه حينما علم أنه استشهد في معركة الجمل ترحم عليه.

وفي صفين دارت رحى الحرب، وتجلّى بوضوح دهاء سيدنا معاوية في هذه الموقعة، وكان الناس لا يعرفون الحق مع أي الجانبين حتى استشهد سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه .

فقد تواترت الأخبار عن النبي المختار أنه قال: "تقتل عماراً الفئة الباغية"، وهذا من إخباره بالغيب ، ومن دلائل نبوته، قال ابن حجر في كتابه العظيم: "الإصابة في

تمييز الصحابة": "ظهر بقتل عمار أن الصواب كان مع سيدنا علي، واتفق أهل السنة على ذلك، وأن معاوية وفئته هي الباغية".

يا أحباب رسول الله :

في اللحظة نفسها التي استشهد فيها سيدنا علي سنة أربعين من الهجرة كان في اللحظة نفسها يعتدى على سيدنا معاوية في الشام بخنجر مسموم من قبل أحد الخوارج المارقين من الدين، وقد جرح سيدنا معاوية جرحاً بليغاً فُلِقَ أليته وسقي أدوية خلصته من السم، لكن قطع نسله.

ثم آلت الخلافة لجدي سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما فصالح سيدنا معاوية، وتنازل له عن عرش الخلافة الذي حلم به سيدنا معاوية سنة ٤١ هـ، وسمي هذا العام بعام الجماعة.

ولكن هذا الحدث العظيم في الأمة لم يعجب بعض أصحاب سيدنا الحسن رضي الله عنه فكانوا إذا لقوا جدي الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين! (سبحان الله بعد أن وُحِدَ كلمة الأمة وجمع شملها وهم يقولون له هذا لأنه تنازل عن الخلافة) فاسمعوا جواب جدي الحسن (ترضوا عنه) كان يجيبهم: العار خير من النار.

وقال له آخر: يأمزِلُ المؤمنين فقال له: لا تقل هذا فإني سمعت أبي يقول: لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية، فعلمت أن أمر الله واقع فكرهت القتال.

وهكذا- أيها الإخوة- تحققت معجزة عظيمة من معجزات سيد البرية في تولي معاوية الخلافة، ولكن ترى كيف كانت خلافة سيدنا معاوية؟

هل بقى يسير على هدي الخلفاء ، أم تتحقق كلمة الفاروق: هذا كسرى العرب.

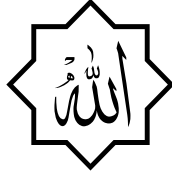
هل بقيت خلافة راشدة أم أصبحت ملكاً عضوضاً؟

إننا بانتظارنا معجزة أخرى سوف تتحقق لسيد الكائنات تأتيكم على منبر رسول

الله ﷺ في الجمعة القادمة بإذن الله. هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا

محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا
رسول الله :

الصلاة والسلام عليك



(١١٥)

أمير المؤمنين السادس

«ثم تكون ملكاً عضواً»

سيدنا معاوية بن أبي سفيان - ٤١ ق.هـ - ٦٠ هـ

الحمد لله ثم الحمد لله،

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وما توفيقي
واعتمادي وتوكلي واعتصامي إلا بالله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه ولا يكون أبداً.

وأشهد أن سيدنا وحيبنا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً

عنده ورسوله وصفيه وخليله أكرمه الله بالخلفاء الراشدين والصحابة المهديين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين صدّقوه

واتبعوه ففازوا بالبشرى ، وسلم تسليمًا.

أما بعد: "فإني والله وليتُ أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي

ولا تحبونها، وإني العالم بما في نفوسكم، ولكن خالستكم بسيفي هذا مخالسةً، ولقد

أردت نفسي على عمل أبي بكر وعمر، فلم أجدها تقوم بذلك، ووجدتها على

عمل عمر أشد نفوراً، وحاولتها على مثل سنّيات عثمان فأبت علي، وأين مثل

هؤلاء، هيهات أن يدرك فضلهم ، غير أنني سلكت طريقاً فيه منفعة، ولكم فيه مثل

ذلك، ولكل فيه مواكلة حسنة، ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، فإن لم تجدوني

خيركم فأنا خير لكم "وإن فيكم من هو خير مني؟ ابن عمر وعبد الله بن عمرو

وغيرهما، ولكني عسيت أن أكون أنكاكم في عدوكم وأنعمكم ولاية، وأحسنكم

خلقاً، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدّم مما قد علمتموه

فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا ببعضه، وإن السيل إن

جاء تترى - وإن قل - أغنى، إياكم والفتنة فلا تهمّوا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة وتورث الاستئصال، واستغفر الله لي ولكم .

معشر الإخوة الكرام: كانت هذه الكلمات هي خطبة العرش التي خطبها سيدنا معاوية إبان تسلمه الخلافة سنة (٤١ هـ) وهي تبين الطريقة التي سوف يسلكها هذا الخليفة السادس، وقد نفذها في خلافته حرفياً التي دامت قرابة عشرين سنة.

والحق يقال: إن الناس قد نعموا من خلال خلافته وشعروا بالأمن والطمأنينة، واستقرار البلاد، والازدهار في داخل الدولة الإسلامية، والانتصارات الحربية خارجها، وكان رضي الله عنه من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو بريء من الهنات، والله عز وجل يغفر له.

ولقد أحسن المسلمون أنهم تحت راية واحدة في الدولة العربية الإسلامية، راية بني أمية التي كان مؤسس مجدها ودولتها سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. واتخذ عاصمة لها دمشق الشام، نعم هنا في دمشق، واتخذ لسكناه القصور الملكية، إذ كان قصره مقابل الجامع الأموي في جهة القبلة يدعى قصر الخضراء، عاش فيه على أسلوب كسرى وقيصر منذ بداية عهد الملك، وأحاط قصره بحرس وعسس خاص، وجعل الحراس يمشون أمام مواكبه والحجبة يحولون بينه وبين الشعب.

وهو أول من اتخذ الديوان للختم، واتخذ المقاصير في الجامع، وأول من قام على رأسه الحرس، وأول من خطب في الناس جالساً - بعد أن سمن - وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام، وأول من جعل درجات المنبر خمس عشر درجة، وكان يقول: أنا أول الملوك، يقول فيه ابن عباس: ما رأيت أحلى للملك مثل معاوية رضي الله عنه.

وقد صدق لأن سيدنا النبي ﷺ قال: "الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً" فانقضت خلافة النبوة ثلاثين عاماً، فلما ولي سيدنا معاوية بالغ في التجمل

والهيئة، وقل إن بلغ سلطان إلى رتبته، هذا كله في ظاهر الأمر، ولو أننا تركنا الظاهر إلى حقيقة الأمر وباطنه لوجدنا أنه كان نتيجة سبق قضاء الله عليه لتصدق معجزة سيدنا النبي ﷺ في تحول الخلافة إلى ملك وراثي، لأن سيدنا معاوية غير تشريع تنصيب الخليفة الذي سار عليه الخلفاء قبله، واستخلف ولده يزيداً استخلاقاً قاهراً، وكان قد أمر ولاته أن يهيئوا له هذا المنصب فصاروا يروجون لهذا في الأمصار ومن الذين روجوا له مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص، وحلفاء بني أمية.

فقد قام مرة مروان بن الحكم يخطب في الناس ليهيئ يزيد للخلافة، فقال لهم: - إن أمير المؤمنين قد اختاره عليكم، وأنه أفضل الخلفاء بعده، مما أثار هذا الكلام غضب الصحابة، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال لمروان: - كذبت - والله يا مروان، وكذب معك معاوية، ما الخيار أردتما لأمة محمد ﷺ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل).

إخوة الإيمان: كان من الصعوبة بمكان تولية يزيد بن معاوية ولاية العهد، وذلك لعدة أمور أهمها: ١ - صغر سنّه فقد كان مازال في الخامسة والعشرين والعرب اعتادوا على تزعيم ذوي الأسنان.

٢ - أنه كان يحب اللهو والغناء، وكان ماجناً سكيراً، وهذا ما أثار عليه نقمة أهل العراق والحجاز.

٣ - ثم إن الصعوبة العظمى تكمن في قلب نظام الشورى، وجعل الحكم وراثي، وانقلاب الخلافة ملكاً، لأن الشورى السياسية في اختيار الحاكم كانت قاعدة أساسية هامة في الدولة الإسلامية.

لكن سيدنا معاوية استطاع بتدبيره و إنفاذ بصيرته و إصراره أن يزيل هذه العراقيل، وينفذ مشروعه، فكيف فعل ذلك؟!

إخوتي في الله: كانت مراكز الثقل في الأمصار: الشام، والعراق، والحجاز، ولو استطاع معاوية أن يسيطر على هذه المراكز لاستطاع أن ينفذ ما يريد بسهولة.

أما بالنسبة إلى الشام فقد تولى أمرها باكراً، أيام كان والياً عليها لعمر وعثمان رضي الله عنهما، فقد كانت أقوى القبائل وأكثرها عدداً في الشام هي قبيلة بني كلب، ولكي يضمن سيدنا معاوية ولاء أهل الشام قبل أن يصبح خليفة، صاهر هذه القبيلة العظيمة حيث تزوج من ميسون الكلبية وهي التي ولدت له ولي عهده يزيد الفاسق، ولأجل هذا سُمي المؤرخون هذا الزواج زواجاً سياسياً، نعم زواجاً سياسياً وهي عادة قبلية معروفة قديماً عند العرب، لأنهم أصبحوا أحوال ولي العهد والحماة الطبيعيين للبيت الحاكم.

وأما أهل العراق فكان فيه جبهتا معارضة لحكم سيدنا معاوية، هما أصحاب سيدنا علي رضي الله عنه، والخوارج الناقمين على أي دولة سوف تقوم.

ولأجل القضاء على هاتين الجبهتين المعارضتين استخدم سيدنا معاوية رجلين من أهل ثقيف، عرف أحدهما بالدهاء، والآخر بقوة الشكيمة والفصاحة:

أما الأول الداهية فهو المغيرة بن شعبة الثقفي، ولآه الكوفة.

وأما الثاني القوي الفصيح فهو زياد بن أبيه ولآه البصرة.

كما اعتمد قواداً عسكريين من ثقيف أيضاً للفتوحات شرقاً أمثال محمد بن القاسم ويوسف بن عمر الثقفيان.

ولقد كان ولاء المغيرة بن شعبة عظيماً لسيدنا معاوية، ولكنه وليضمن ولاء زياد

بن أبيه وهو رجل مجهول الأب، أتدرون ماذا فعل سيدنا معاوية؟!

إنه ارتكب غلطة في ذلك، فقد اعترف سيدنا معاوية بزياد هذا أنه أخوه من أبي

سفيان أي أنه استلحقه بنسب أبيه، وهذه العملية عدّها المؤرخون أيضاً عملية

سياسية بحته المقصود منها ولاء ابن زياد للبيت الحاكم.

أيها الأحبة : زياد هذا كان ابن جارية من الطائف، واسمها سمية، وادعى سيدنا

معاوية أن أباه أبا سفيان كان في الجاهلية قد زنى بها فحملت منه، فلما شبّ الفتى

ثبت أنه صاحب ملكات وكفاءات غير عادية فقد كان حازم الرأي، ذا هيبة،

داهية، وكان مفوهاً خطيباً فصيحاً بليغاً، ولكي يخضعه معاوية ويجعل منه نصيراً له، جاء بشهود شهدوا أن والده أبا سفيان قال: إن زياداً جاء من نطفته تلك، وأن زياداً ابن غير شرعي لأبيه، وعلى هذا أقرّه أخاً له، وواحداً من أهل أبيه.

وهذا الفعل - أيها الإخوة - علاوة على أنه عمل غير مشروع فإنه مكروه من الناحية الأخلاقية، فإنّ الشريعة لا تثبت نسباً من الزنا، وحكم سيدنا النبي ﷺ واضح في أمثال هذا الموقف ، حيث يقول: "الولد للفرش وللعاهر الحجر" (الرجم).

ولهذا كانت أم المؤمنين السيدة أم حبيبة (أخت معاوية) ترفض الاعتراف بزياد أخاً لها، وكانت تحتجب منه، حتى ماتت رضي الله عنها سنة ٤٤ هـ وكانت من العابدات الورعات رضي الله عنها.

وحين استلم زياد هذا البصرة ساس أهلها سياسة قوية حكيمة ، وقضى على المنازعات والمشاغبات، وأثبت جدارته في توليها، ولأجل ذلك حين مات المغيرة سنة ٥٠ هـ/ ضم له سيدنا معاوية الكوفة، فأصبح زياد حاكم العراق بلا منازع، بل أصبح حاكم على المشرق وسجستان وفارس والسند والهند، وقمع جميع تحركات الخوارج وكل من أراد الفتنة، وإليكم مثلاً واحداً على ذلك قصة حُجر بن عدي الكندي، الصحابي أحد رؤساء أهل الكوفة، الذي شهد الجمل وصفين إلى جوار سيدنا علي، وكان أحد أمرائه.

كان هذا الصحابي يدافع عن سيدنا علي كلما انتقصه أحد ، و هذا حق منه لا ريب، ولكنه لما رأى المغيرة بن شعبة والي الكوفة يسكت عنه ويحلم عليه ويصفح عنه كلما تهادى في كلامه، وراح يشتد أكثر فأكثر، وجمع حوله أصحاباً شددوا من أزره.

وكان المغيرة يحذّره مغبة هذا الصنيع ولكنه ركب رأسه، فلما مات المغيرة وتولى زياد الكوفة مع البصرة، دخل الكوفة فوجد حُجر بن عدي قد جمع حول أصحابه يشدون على يده ويسبون معاوية علناً ويتبرؤون منه. فماذا فعل معه زياد؟

لقد استدعاه بلطف فأكرمه وقال له: أنشدك الله أن تقطر لي من دمك قطرة فاستفرغه كله، أملك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدي، فاكفني نفسك فأني أعرف عجلتك، فأنشدك الله في نفسك، وإياك وهذه السقطة (سب معاوية) وهؤلاء السفهاء أن يستنزلك عن رأيك.

أسمعت هذا الكلام، وهذا اللطف، وهذا اللين، وهذا الصفح والحلم والأناة التي عامل بها زياد حُجراً الصحابي؟

ألا يكون بعد ذلك قد عذرنا زياداً عندما يتصرّف أي تصرّف مع هذا الصحابي الجليل؟

المهم أنه وافق على ذلك، ولكنه ما إن عاد إلى بيته وأصحابه حتى عاد سيرته الأولى. وخرج زياد وترك نائباً عنه في الكوفة، إلى مقر إقامته في البصرة، لكن حُجراً وأصحابه حصبوا والي الكوفة على المنبر يوم الجمعة بالحجارة.

ومرة ثانية عاد زياد إلى الكوفة فدخل مسجدها وخطب وجنوده حوله، وراح يذكر حق أمير المؤمنين على الناس، فإذا يُحجر وأصحابه يأخذون كفاً من الحصى فيرمونه بها ويقول له: كذبت عليك لعنة الله. فخفف زياد الصلاة، وعاد إلى بيته وأرسل إلى سيدنا معاوية بالخبر. فكتب إليه يقول له: شدّه في الحديد واحمله إلي.

أيها السادة : لقد قتل سيدنا حجر نفسه بهذه الفعال، لأن السلطان ظل الله في أرضه، لا تثار ضده الفتن إلا بحالة واحدة أن يصرح السلطان بالكفر، فإن صرح بأنه يكفر بالله ورسوله فلا طاعة له علينا يقول ﷺ " السمع والطاعة حق على المرء المسلم في ما أحبّ أو كره مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " (ق) ، بغير هذا لا يباح لأحد أن ينال السلطان بالسب هكذا علانية وفي بيت الله، لذلك نقول: إن حُجراً قتل نفسه هو وأصحابه.

ولأجل هذا امتنع حجر عن الذهاب إلى والي العراق حين استدعاه وامتنع بأصحابه فأرسل إليه الوالي جيشاً استخرجه من بين أصحابه وسجنه عشرة أيام، ثم بعثه إلى معاوية، الذي أمر أن يقتل هو وأصحابه الخمسة ، وخاصة بعد أن شهد سبعون شهيداً أنه مناهض للحكم وأنه يثير الفتن في الكوفة.

لقد قتل حجر نفسه، وسيدنا معاوية حين قتلهم تأول حديث رسول الله ﷺ: "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه" (م).

وحينما اعتمر سيدنا معاوية ودخل على السيدة عائشة رضي الله عنها وسلم عليها من وراء حجاب بعد مقتل حجر وأصحابه قالت له:

أين ذهب عنك حِلْمُكَ يا معاوية حين قتلت حجراً وأصحابه؟
فقال لها: فقدته حين غاب عني من قومي مثلك يأمأه، ثم قال لها: فكيف برِّي بك يا أمّهُ. فقالت: إنك بي لبار.

فقال: يكفيني هذا عند الله، وغداً لي ولحجر موقف بين يدي الله عز وجل.
وفي رواية: إنما قتله الذين شهدوا عليه. وفي رواية قال لها: إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس خير من استحياؤه في فسادهم.

وهكذا- أيها الإخوة- استطاع زياد أن يقود العراق بحكمة وسياسة قوية، فلما توفي زياد تولى ولده عبيد الله بعد أن استقام عوده ، وشبَّ عبيد الله هذا على حبِّ معاوية حتى كان مخلصاً له أكثر من أبيه. وعبيد الله هذا له شأن كبير فيما بعد في قتل سيدنا الحسين حين تولى يزيد بن معاوية الحكم.

هذا بالنسبة للعراق والشام.

أما أهل الحجاز- مكة والمدينة- فقد كان فيهم أهل القرآن والصحابه الأخيار الذين رغبوا عن الخلافة، وبقي سيدنا معاوية يروض الناس لبيعة ابنه يزيد سبع سنين

حتى استوثق أخيراً سنة ٥٦ هـ، حيث أذاع هذا القرار بتولية يزيد عهده حين اعتمر في رجب وزار المدينة أولاً ثم مكة.

وقد أخذ منهم البيعة قهراً، فقد أخذ بالكلام مع أبناء الصحابة رضي الله عنهم منهم سيدنا الحسين وابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ودار بينهم كلام في بيعة العهد ليزيد ثم هددهم وقال: إني متكلم بكلام فلا تردوا علي اقتلكم. فخطب وأظهر أنهم قد بايعوا، وسكت الصحابة ولم ينكروا، وبذلك أخذ البيعة منهم قهراً كما قال المؤرخون.

أيها المؤمنون : ومنذ أن تولى سيدنا معاوية الخلافة، لم تهدأ الفتوح براً ولا بحراً، فقد سير القادة في كل جهة، وطرق ولأول مرة أسوار القسطنطينية، وكان قائد هذه الحملة يزيد الفاسق نفسه، وإنما فعل ذلك سيدنا معاوية ليصرف الناس عن مجون ولده وفسقه، وكان تحت رايته تلك أبناء الصحابة أمثال ابن عمر وابن الزبير وأبي أيوب الأنصاري، وطبعاً جيش قائده فاسق سوف يعود بالخيبة والخسران فعاد هذا الجيش خائباً واستشهد سيدنا أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ في هذه المعركة ودفن بجوار أسوار القسطنطينية، وصحيح أن هذا الجيش قد خسر هذه الحرب لكنهم عادوا بغنيمة عظيمة، لقد عادوا وقد غفر الله تعالى لهم أندرون لماذا؟ لأن النبي الأعظم ﷺ ثبت عنه في صحيح البخاري أنه قال: أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم.

معشر المسلمين : وكان من ضمن القواد العظام الذين قاموا بالعمليات العسكرية ضد الروم لواء الإسلام، سيدنا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان سيدنا معاوية: يخاف منه وكانت له هيبة وشجاعة وبأس، ومات مسموماً من قبل رجل في حمص ، وتوفي ودفن بجوار والده سيف الله المسلول سيدنا خالد بن الوليد، وقد أخذ بثأره ولده خالد بن عبد الرحمن من الرجل الذي قتل أباه.

معاشر الإخوة : لم يستعن سيدنا معاوية بأفراد أسرته في الحكم إلا في الحجاز، حيث ولى مروان بن الحكم على المدينة، وخالد بن العاص بن هشام على مكة. وكانت له سياسة حكيمة في توليه الولاية، كان إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ابن أمية ولأه الطائف لأن الطائف بلد لا يخشاه معاوية، وتكون ولايته عليها ولاية تجربة وبداية طريق، فإذا مرت هذه المرحلة بنجاح ولاه جارتها مكة، لأنها لم تعد مركز الثقل السياسي، بل هي بلد القراء وبقية صالحة من أبناء الصحابة والتابعين، فإذا ما أثبت أهليته وثقته ضم إليه المدينة المنورة، مستقر الأنصار وبعض رجالات المعارضة فيكون قد تمت تجربته وأثبت جدارته.

يا أحباب النبي ﷺ: حج سيدنا معاوية قبل وفاته، فلما كان بالأبواء اطلع في بئر قديمة فضربته اللقوة (شل نصفه) فدخل داره بمكة وأرخی حجاباه واعتم بعمامة سوداء على شقه الذي لم يصب، ثم أذن للناس.

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس: إن ابن آدم معرض للبلاء، إما مبتلى ليؤجر أو معاقب بذنب، وإما مستعْتَبٌ لِيُعْتَبَ وما اعتذر من واحدة إلى ثلاث:

فإن ابتليت فقد ابتلي الصالحون قبلي، وإن عوقبت فقد عوقب الخاطئون قبلي، وما آمن أن أكون منهم، وإن مرض عضو مني فما أحصي صحيحي، ولو كان الأمر إلى نفسي ما كان لي على ربي أكثر مما أعطاني، فأنا ابن بضع وستين، فرحم الله من دعا لي بالعافية، فوالله لئن عتب علي بعض خاصتكم لقد كنت حَدِثاً على عامتكم.

فعج الناس يدعون له، وبكى.

فلما بلغ الثمانين من عمره خطب الناس قائلاً: إني من زرع قد استحصد، وقد طالت إمركم عليكم حتى مللتكم ومللتموني، ولا يأتاكم بعدي خيرٌ مني، كما أن من كان قبلي خير مني، اللهم قد أحبيت لقاءك فأحبّ لقائي.

ودعا ولده يزيد فأوصاه قائلاً: اتق الله فقد وطأت لك الأمر، ووليت من ذلك ما وليت فإن بك خيراً فأنا أسعد به، وإن كان غير ذلك شقيت به، فافرق بالناس، وإياك وجبه أهل الشرف والتكبر عليهم.

وأوصاه : أن يستوصي بأهل الحجاز، وأنه إن سألته أهل العراق في كل يوم أن يعزل عنهم عاملاً ويولى عليهم عاملاً فليفعل، فعزل واحد أحب إليك من أن يسلم عليك مئة ألف سيف. وأن يستوصي بأهل الشام، وأن يجعلهم أنصاره، وأن يعرف لهم حقهم، وقال له لست أخاف عليك من قریش سوى ثلاثة:

الحسين وابن عمر وابن الزبير.

فأما ابن عمر: فقد وقده العباد.

وأما الحسين: فرجل ضعيف، وأرجو أن يكفيكم الله تعالى بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وقربة من محمد ﷺ، ولا أظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو صاحبتة عفوت عنه.

وأما ابن الزبير فإنه خب ضب، فإن شخص لك فانبد إليه إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل منه واصفح عن دمائه قومك ما استطعت.

وقال له: شهدت رسول الله ﷺ يوماً قلم أظفاره وأخذ من شعره فجمعت ذلك، فإذا مت فاحش به فمي وأنفي.

وكنت اوضىء رسول الله ﷺ فنزع قميصه وكسانيه فرفعته، فإذا مت فألبسني القميص على جلدي فعسى الله أن يرحمني ببركتها.

ودخل عليه الناس يعودونه في مرض الوفاة وسمعه يقول:

هل الدنيا إلا ما ذقنا وجربنا، والله لوددت أن لم أغبر فيكم إلا ثلاثاً، ثم ألحق بـالله، قالوا: إلى مغفرة الله ورضوانه. قال: إلى ما شاء الله، قد علم أي لم آل، ولو أراد أن يغير غير.

وراح يدعو: اللهم أقلّ العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءه مذهب، ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

عباد الله: توفي سيدنا معاوية عن ثمانين سنة في عام ستين للهجرة، ففزع الناس إلى المسجد، فلما ارتفع النهار سُمع البكاء من قصر الخضراء، وكان ابنه يزيد خارج دمشق، ومعه بعض أصحابه وأخواله من بني كلب، فلما علم بموته قدم دمشق، فإذا بسيدنا معاوية قد دفن في باب الصغير، فسار إلى قبره فوقف عليه وصف أصحابه خلفه وكبر أربعاً - صلاة الجنازة - ثم ركب بغلته إلى قصر الخضراء بجوار الجامع الأموي.

ثم نودي وقت الظهر - الصلاة جامعة - فاغتسل وخرج فجلس على المنبر وعَجَّل العطاء وأعفاهم من غزو البحر، فافترق الناس وما يفضلون عليه أحداً.

فكيف كان ملك يزيد؟. ماهي الحوادث الكبرى التي كانت في عصره؟ هل بقي على مجونه وفسقه؟ أعلق هذه الأسئلة إلى الجمعة القادمة إن شاء الله وأعود بكم من هناك إلى هنا. هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول الله هي :
الصلاة والسلام عليك.

(١١٦)

الملك السابع

**استشهاد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه
في ملك يزيد بن سيدنا معاوية - ٦١ هـ - ٢٦ - ٦٤ هـ**

الحمد لله الذي يعجل بالأبرار ليدلّ على أنهم من الأخيار، وطبع هذه الدار عاد الأكدار، فسبحانه وتعالى عالم الجهر والأسرار، ومقلب القلوب والأبصار .
أحمده حمداً دائماً بالعشي والإبكار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنجي قائلها من عذاب النار. وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله نبيه المختار ، ورسوله المجتبي من أشرف نجار، الذي استأذن عليه ملك القطر أن يأتي النبي الكريم، فأذن له، فقال لأم سلمة: احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبي الكريم فقال الملك: أتجبه؟ قال؟ نعم. فقال: إن أمتك تقتله، فإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، فضرب بيده فأراه تراباً أحمرأ. فإذا بأُم سلمة: تأخذ ذلك التراب فتصره في طرف ثوبها، قال: فكنا نسمع أنه يقتل بكربلاء. وهنا بكى رسول الله وفاضت عينا النبوة. ومر علي بن أبي طالب وهو ذاهب إلى صفين بكربلاء، وسأل عنها، فقال: كرب وبلاء، فنزل وصلى عند شجرة هناك ثم قال: يقتل ههنا شهداء هم خير الشهداء غير الصحابة، يدخلون الجنة بغير حساب.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الأطهار، وأصحابه الجدراء بالتعظيم والإكبار، صلاة دائمة باقية بقاء الليل والنهار وسلم تسليماً.

أما بعد: فحديثنا اليوم معكم حول جريمة نكراء حدثت في العصور الغابرة، إنها أول جريمة ينتهك فيها بيت رسول ﷺ ، وهي جريمة قتل سيدي وقرة عيني جدي الحسين بن علي وأهل بيته الأطهار، وقبل أن أفتح هذا الملف المؤلم، أستعرض بين يدي هذا الحدث خلافة يزيد وأنقلها لكم .

فقد ولد يزيد بن سيدنا معاوية رضي الله عنه سنة ٢٦ هـ وقد تفرس فيه سيدنا معاوية منذ صغره بأنه سوف يتولى ولاية عهده ولأجل ذلك سعى بها إليه وتولاها يزيد في حياة أبيه، ثم أصبح ملكاً وهو ابن أربع وثلاثين سنة، بعد وفاة سيدنا معاوية رضي الله عنه.

فأقرّ نواب أبيه على الأقاليم، لم يعزل واحداً منهم، وعُدّ هذا من ذكائه، ولكنه بعد تولّيه لم يكن له هم إلا أخذ البيعة من نفر الذين أبوا على سيدنا معاوية البيعة ليزيد، إذ كتب لنائبه على المدينة الوليد بن عقبة فقال:

- خذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام.

وامتنع سيدنا الحسين وابن الزبير عن البيعة وماطلا ثم سارا إلى مكة ليعودا بالبيت، وأما ابن عمر رضي الله عنهما فقد قال: إذا بايع الناس بايعت، ثم بايع مع الناس.

ولما لم يفلح الوليد بن عقبة في أخذ البيعة، عزله يزيد الفاسق وولاه عمرو بن سعيد بن العاص نائب مكة، وكان هذا الرجل متأهلاً متكبراً، وحين عرف العداوة بين ابن الزبير وأخيه عمرو ولاه شرطة المدينة، فإذا بعمره يجلد أصحاب سيدنا عبد الله كلاً منهم أكثر من أربعين جلدة.

وأرسل يزيد الفاسق إلى والي الحجاز أن يبعث إليه بابن الزبير مربوطاً عنقه برسن، فأرسل والي الحجاز عمرو بن الزبير - رئيس شرطته - ليأتي بأخيه، وأرسل معه جيشاً من ألفين مقاتل. وجرت بينه وبين أصحاب أخيه مقتلة ارتد عمرو بن الزبير على

عقبه فسجنه سيدنا عبد الله ﷺ وضربه بكل من ضربه بالمدينة حتى مات تحت السياط.

وهكذا عظم شأن الصحابين الجليلين سيدنا الحسين وسيدنا عبد الله ﷺ بن الزبير رضي الله عنهما، وعكف الناس حولهما، وكان ابن الزبير يقدم سيدنا الحسين عليه فهو أحق بالأمر منه، كيف لا، وهو السيد الكبير، وابن بنت رسول الله ﷺ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه، ولأجل ذلك أرسل إليه أهل العراق يدعونه إليهم ليبياعوه. فأرسل سيدنا الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ليكشف حقيقة الأمر في العراق. فلما وصل الكوفة التف حوله ثمانية عشر ألفاً يريدون بيعته، فأرسل إليه مسلم أن يحضر إلى العراق بسرعة وأخبره الخبر.

إخوة الإيمان :

وتجهز سيدنا الحسين للخروج إلى العراق مع أهل بيته فطاف حول البيت سبعاً واعتمر وحلّ من عمرته أثناء موسم الحج، وجاءه الصحابة يطلبون منه عدم الخروج إلى العراق بلد الفتن، جاءه سيدنا ابن عباس فقال له:

- أي أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قومٌ غدّرٌ فلا تغترّ بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم.

فقال سيدنا الحسين: يا ابن عم، والله أني لأعلم أنك ناصح ولكني قد أزمعت المسير. فقال له ابن عباس: فإن كنت لا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وأولاده ينظرون إليه.

وجاءه ابن عمر فمنعه من الذهاب فأبى، فقال له ابن عمر: إني محدثك حديثاً: إن جبريل أتى النبي فخيّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا، وإنك بضعة من رسول الله ﷺ والله ما يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم. فأبى سيدنا الحسين أن يرجع.

وقال له ابن الزبير: أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك. فقال: لأن أقتل هناك أحب إلي من أن تستحلّ بي مكة.

وقالت له إحدى النساء (عمرة بنت عبد الرحمن) أشهد أنني سمعت عائشة تقول: إنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقتل الحسين بأرض بابل. فقال جدي الحسين: فلا بُدَّ لي إذاً من مصرعي. ومضى.

إخوتي في الله: إن جدي الحسين كما ترون مضى لأجله الذي قدره له الله تعالى، ولأجل ذلك ضرب بأراء مشيريه عرض الحائط وظنّ بأهل العراق خيراً، رغم أنهم قتلوا سيدنا علياً وطعنوا أخاه الحسن ودعاة الفتنة ومحبو الشر. وخرج بأولاده ونسائه مع تسعة عشر رجلاً من بني عبد المطلب مع ستين من أهل الكوفة، ولقد أخطأ رضي الله عنه خطأ عظيماً في خروجه، وطلب أمراً لم يتهيأ له، ولم يُعدَّ له عدته. ولكنني أعود فأقول قد خرج إلى أجله ليمضي إلى ربّه عز وجل وينال الشهادة في سبيل الحق والعدل.

ولكن هذا العدد الكبير الذي كتب عنه مسلم وهو ١٨ ألف يريدون بيعة الحسين كان غثاءً كغثاء السيل - لا قيمة لهم - إذ أن والي العراق عبد الله بن زياد بن أبيه فرّق جمعهم بعد أن هددهم فلم يبق من ١٨ ألف مع مسلم إلا ثلاثين رجلاً ثم أصبحوا عشرة، ثم لم يبق معه أحد حين أراد الخروج من العراق، ولم يجدوا أحداً يذّله على الطريق إلى الحجاز، فاستجار برجل قتله عبيد الله أيضاً وحيء بمسلم إليه ليقتله، فطلب مسلم من محمد بن الأشعث أن يرسل للحسين رسالة يخبره فيها ألا يخرج من مكة قال له فيها: ارجع بأهلك، ولا يغرنك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو بالقتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي.

ولكن هذه الرسالة لم تصل إلى سيدنا الحسين إلا وهو على مقربة من (٤ ليال) من الكوفة، فقال سيدنا الحسين:

- ما حُمَّ نازل، عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا.

أيها الأحبة :

وأرسل يزيد الفاسق إلى واليه على العراق عبيد الله بن زياد يخبره:
إن الحسين قد توجه نحو العراق، وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك
من بين البلدان، وابتليت به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما ترق
العبيد وتعتق.

وعلى الطريق التقى جدي سيدنا الحسين بأحد الحجاج، فسأله عن أهل العراق
فقال: القلوب معك والسيوف مع بني أمية.

وأرسل عبد الله بن جعفر ابنه عوناً ومحمداً إلى جدي الحسين برسالة قال له
فيها:

أما بعد: فأني أسألك بـالله لما انصرفت حتى تنظر في كتابي هذا، فأني أشفق
عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك، إن
هلكت اليوم طفئ نور الإسلام، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجل
بالسير فإننا في أثرك والسلام.

ثم أخذ عبد الله بن جعفر أماناً للحسين من والي الحجاز أن يعود إلى مكة
ومن معه، ولكن جدي الحسين أبي أن يرجع .

معشر الكرام :

ابتدأت المذبحة في عهد يزيد الفاسق عندما أرسل سيدنا الحسين رسولاً إلى
الكوفة يخبرهم بقدمه، فألقى القبض عليه ابن زياد وأمره أن يصعد إلى سطح مقره
فيسب سيدنا الحسين وعلياً، فصعد رسول الحسين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس:

إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم وقد فارقت بالحاجر من بطن ذي الرمة، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي والحسين.

فبدأت المذبحة بأن أمر ابن زياد أن يلقي هذا الرجل من رأس القصر إلى أسفله، فتقطعت وتكسرت عظامه، ثم قام رجل فذبجه أيضاً.

ومر سيدنا الحسين برجل وهو لا يعلم شيء مما وقع، فسأله عن أخبار الناس في الكوفة، فقال لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل هو ومن أجاره ورسولك الذي أرسلته.

فراح سيدنا الحسين يكرر: إنا لله وإنا إليه راجعون، وراح يقول: لا خير في العيش بعدهم.

ووثب بنو عقيل وقالوا له: والله لا ترجع حتى ندرك ثأرنا أو نذوق مذاق أخونا مسلم. ولكن ابن زياد أرسل كوكبة من الفرسان وعلى رأسهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص لاحتضار الحسين ومن معه إلى الكوفة موجوداً، ونزل سيدنا الحسين أرضاً ونصب عليها خيمة هو ومن معه، فسأل عن اسم هذه المنطقة، فقالوا كربلاء. فقال: كرب وبلاء.

ووصلت كوكبة الفرسان، والتقى سيدنا الحسين بعمرو بن سعد فطلب منه إحدى ثلاث:

١- أن يدعه يرجع إلى مكة.

٢- أو يسيره إلى يزيد.

٣- أو أن يُسَيِّره إلى الترك ليقاتلهم حتى يموت.

فاستأذن ابن سعد والي العراق ابن زياد فأبى عليه إلا أن ينزل على حكمه، وأرسل ثلاثين مقاتلاً أشداء من أعيان الكوفة على رأسهم شمر بن الجوشن، ولكنهم انقلبوا على شمر وانضموا إلى سيدنا الحسين وهم يقولون:

- يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ﷺ ثلاث خصال فلا تقبلوا منها شيئاً. وقدم جيش آخر من الكوفة في ألف مقاتل على رأسهم الحر بن يزيد التميمي، ومعه أمر شديد اللهجة بإحضار جدي الحسين ومن معه، وأن يمنع عنه الماء كما فعل بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. هكذا قال لهم ابن زياد، فدعا الحسين عليه فمات مانعه من شدة العطش.

وفي اليوم التاسع من المحرم قام أعوان ابن زياد المجرم وقد بلغوا آلافاً بالهجوم على كوكبة طاهرة من آل بيت رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر.

وكان جدي الحسين جالس أمام خيمته محتبياً بسيفه، ونعس فخفق برأسه، وسمعت

أخته الضجة فأسرعت إليه فأيقظته، فقال لها: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: إنك قادم إلينا.

وإذا بعشرين فارساً يأتون إليه ويقولون: جاءنا أمر: إما أن تأتوا على حكمه وإما أن نقاتلكم .

فصار أصحاب الحسين يقولون: بئس القوم أنتم، تريدون قتل ذرية نبيكم وخيار الناس في زمانهم؟..

وطلب سيدنا الحسين مهلة ليلة واحدة للصلاة والدعاء والاستغفار.

وقام خطيباً في أهله فقال:

من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له، فإن القوم إنما يريدوني.

فقال له أصحابه وأهله:

- لا بقاء لنا بعدك، ولا أرانا الله فيك ما نكره.

فقال جدي الحسين: يا بني عقيل حسبكم بمسلم أخيكم، اذهبوا فقد أذنت لكم. فقالوا: ماتقول الناس إن تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، لم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف رغبة في الحياة الدنيا، لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

وجاءت إليه أخته فقالت:

واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة اليوم، ماتت أمي فاطمة، وعلي أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضي وثمان الباقي. فنظر إليها وقال:

- يا أخته لا يذهب حلمك الشيطان.

فقالت: أبي أنت وأمي يا عبد الله استقتلت، ولطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشياً عليها. فقام إليها فصب على وجهها الماء وقال:

- يا أخيه اتقي الله واصبري وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويميتهم بقهره وعزته، ويعيدهم فيعبدون وحده وهو فرد وحده، واعلمي أن أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولكم ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة، وراح يدعو الله تعالى مع أصحابه:

اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعدة، فكم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، وتحذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، فأنزله بك، وشكوته إليك رغبة فيه وإليك، وفرجته وكشفته وكفيتني، فأنت لي ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية.

أيها السادة :

وبات أهل بيت رسول الله ﷺ مع أصحابهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون، فلما صلى عمرو بن سعد الصبح بأصحابه يوم الجمعة، وكان يوم عاشوراء انتصب للقتال، وقبل المذبحة قام جدي الحسين يذكر المجرمين بفضله وعظيم نسبه وعلو قدره وشرفه، حتى إنه قال لهم:

راجعوا أنفسكم وحاسبوها، هل يصلح لكم قتال مثلي، وأنا ابن بنت نبيكم، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري، وعلي أبي، وجعفر ذو الجناحين عمي، وحمزة سيد الشهداء عم أبي، وقال لي رسول الله ﷺ ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة.

بهذه الكلمات العذبة الرقيقة خاطب الشهيد قاتليه قبل بدء المذبحة.

وخرج أحد أصحاب الحسين وهو زهير بن القين، ينذر الناس بالعذاب ويدعوهم لخذلان الطاغية بن الطاغية عبيد الله ﷺ بن زياد. وقال لهم:

خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية يذهب حيث شاء، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.

عباد الله لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا ينال شفاعته محمد قوم أهرقوا دماء ذريته، وقتلوا من نصرهم وذبح عن حريمهم.

وقد أثرت هذه الخطابات في بعض المقاتلين فتركوا صفوف المجرمين وانضموا إلى لواء الحق والدين إلى فريق سيدنا الحسين رضي الله عنه، ومنهم الحر بن يزيد وكان من أشجع أهل الكوفة، فلامه بعضهم فقال مجيباً لهم:

والله إني لأخير نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة غيرها، ولو قطعت وحرقت، ثم نادى أصحابه فقال:

أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة والوسيلة التي لا يمنع

فيها الكلب والخنزير، وحلتم بينه وبين الماء الفرات الذي يشرب منه الكلب والخنزير وقد صرعهم العطش، بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لاسقاكم الله يوم الظم الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا، في ساعتكم هذه. ولكن - وكما يقول المثل السائد:

قد أسمعت إذ ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادي

وبدأت المذبحة بالترشق بالنبال، وكلما استشهد واحد من أصحاب الحسين أوصى من خلفه قائلاً:

أوصيك بالحسين أن تموت دونه (دفاعاً عنه).

ثم ابتدأ القتال فاقتتلوا مقتلة عظيمة وصناديد أصحاب سيدنا الحسين يدافعون عنه، ولما رأى سيدنا الحسين أنهم قد كثروا عليهم وأنهم لا يقدرّون على أن يمنعوا الحسين ولا أنفسهم تنافسوا أن يقتلوا ينيديه.

وقدم إليه عابس بن أبي شبيب ليقاتل أعداء جدي الحسين وراح يقول له:

- يا أبا عبد الله أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشيء أعز علي من نفسي وروحي لفعلته، السلام عليك يا أبا عبد الله إشهد لي أبي على هديك، وألقى درعه ومغفره، ثم شد على الناس بكل قوته، يقول من شاهده .

- والله لقد رأيت أكثر من مئتين من الناس بين يديه يهربون ثم عطفوا عليه من كل جانب حتى قتلوه رحمه الله.

معشر الإخوة :

وبدأ يتساقط على أرض المذبحة دماء أهل بيت رسول الله ﷺ فكان أول من استشهد علي الأكبر بن الحسين فما أن طعن حتى أسرع القتلة يقطعونه بأسيا فهم. فقال جدي الحسين رضي الله عنه:

قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجراًهم على الله وعلى انتهاك محارمه، فعلى الدنيا بعدك الفناء.

ثم استشهد عبيد الله بن مسلم بن عقيـل، وعون ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر، ثم عبد الرحمن وجعفر ابنا عقيـل بن أبي طالب، ثم القاسم بن الحسن بن علي. ومكث سيدنا الحسين نهاراً طويلاً وحده لا يأتي أحد إليه إلا رجع عنه لا يجب أن يقوم بقتله، حتى جاءه رجل يقال له مالك بن البشير، فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه، فدعا عليه الحسين لأأكلت بها ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين، ودعا بعمامة فلبسها.

واشتد عطش سيدنا الحسين وأهل بيته، فحاول جدي الحسين أن يصل إلى ماء الفرات ليشرب فما قدر، بل مانعوه عنه فخلص إلى شربة منه فرماه رجل يقال له الحصين ابن تميم بسهم في حنكه نفر الدماء من عنقه، فنزعه جدي الحسين ثم رمى به وقال: اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً. قال الراوي: فوالله ما مكث الرجل الرامي إلا يسيراً حتى صبَّ الله عليه الظمأ فجعل يشرب ويشرب فلا يروى، ويسقى الماء بارداً، وتارة يبرد له اللبن والماء جميعاً ويسقى فلا يروى وهو يقول: ويلكم اسقوني قتلي الظمأ ، حتى مات غماً وهماً وكمداً وعذاباً.

وهجم المجرمون على جدي الحسين بتحريض من ثمر بن الجوشن من كل جانب، والحسين رابط الجأش، ماضي الجنان وهو يقول: أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم بقتله مني.

وانقضوا عليه كما ينقض الحيوان المفترس على الحمل الوديع.

يقول الراوي: وجدنا بالحسين حين قتل ثلاثة وثلاثين طعنة، وأربعة وثلاثين ضربة، وقام مجرم يدعى سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فذبحه وحرَّ رأسه ودفعه

إلى خولي ابن يزيد الأصبحي، الذي سار به إلى قصر ابن زياد الطاغية فوجده مغلقاً، فخرج به إلى بيته فوضعه في إجنّاه، وقال لامرأته نورا بنت مالك:

- جئتكَ بعزّ الدهر. فقالت: وما هو. فقال: برأس الحسين. فقالت: جاء الناس بالذهب والفضة وجئت أنت برأس ابن بنت رسول، والله لا يجمعني وإياك فراش أبداً. فاستدعى امرأته الثانية التي كانت تقول: والله ما زلت أرى النور ساطعاً من تلك الإجانة إلى السماء، وطبوراً بيضاء ترفرف حولها.

معاشر المسلمين :

لم تنته المذبحة عند هذا الحد، بل إن المجرمين القتلة قطعوا رؤوس شهداء آل البيت وبعثوا بها إلى ابن زياد، وسار معها الموكب الحزين ممن بقي حياً من آل بيت نبينا ﷺ، الذي أمر بهم جميعاً أن يرسلوا إلى يزيد الفاسق.

ثم سيق بأهل بيت رسول الله ﷺ من النساء والصبيان من الكوفة إلى يزيد في الشام، فلما مروا على مكان المذبحة بكته النساء وصرخن، وندبت زينب أخاها الحسين وأهلها، فقالت وهي تبكي : يا محمداه، يا محمداه، صلى عليك الله، وملك السماء، هذا حسين بالعراه، مُزْمَلٌ بالدماه، مقطّع الأعضاء .

يا محمداه، وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسقى عليهم الصبا.

وبكى كل من في القافلة من بُكائها ونعيها صديقاً كان أم عدواً.

وما أن وصلت الرؤوس حتى سُمع البكاء (هنا في دمشق)، سمع البكاء من كل بيت دمشقي على شهداء آل بيت رسول الله ﷺ ، وحملت الرؤوس إلى يزيد الفاسق وما أن رآها حتى دمعت عيناه ﴿الآن وقد عصيت﴾.

وقال: كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابنَ سمية، أما والله لو أُنِي صاحبه لعفوت عنه ، ورحم الله الحسين. قال له أبو بزة الأسلمي:

- ألا إن هذا سيحيي يوم القيامة وشفيعه محمد وتحيي وشفيعك ابن زياد.

ودخل أسارى آل البيت على يزيد الفاسق، فضمهم لأهل بيته وأكرمهم واعتذر إليهم عما فعله ابن الجارية، وكساهم وأعطاهم أكثر مما أخذ منهم، وقال لعلي بن الحسين:

قبح الله ابن سمية، أما والله لو إني صاحب أبيك ما سألتني خصلة إلا أعطيتها إياها، ولدفعت عنه الحنف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى مارأيت. ثم قال له: كاتبني بكل حاجة تكون لك.

أيها المؤمنون :

وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين، يقول عبد الملك بن عمير: دخلت على عبيد الله ابن زياد وإذا برأس الحسين بن علي بين يديه على ترس، فوالله ما لبثت إلا قليلاً حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد وإذا برأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس.

وكل أولئك الذين قتلوا آل البيت قل من نجا منهم من آفة أو عاهة في الدنيا، وأكثرهم أصابهم الجنون، وخاصة عندما رجعوا فباتوا وهم يشربون الخمر والرأس معهم، فبرز لهم قلم من حديد فرسم لهم في الحائط بالدم هذا البيت:

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب

يا أحابيب رسول الله :

واستيقظ ابن عباس في الحجاز فزعاً يسترجع فقال: قتل الحسين والله ، فقال له أصحابه: لم، فقال: رأيت رسول الله ومعه زجاجة دم فقال: أتعلم ما صنعت أمتي من بعدي قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما.

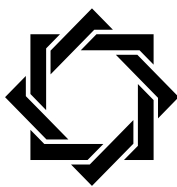
وعند الترمذي: دخلت امرأة على أم سلمة وهي تبكي فقالت لها ما يبكيك، فقالت: رأيت رسول الله وعلى رأسه لحيته التراب. فقلت مالك يا رسول الله؟ فقال: شهدت قتل الحسين آنفاً.

تقول أم سلمة: سمعت الجن يكيّن على الحسين وسمعت الجن تنوح على الحسين
وهن يقلن:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ونبي ومرسل وقيل
قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وصاحب الانجيل
أيها المؤمنون:

كان مقتل جدي سيدنا الحسين سنة ٦١ هـ في السنة الأولى من ملك يزيد
الفاسق، فليستبشر القاتل بالقتل، و الذابج بالذبح ، والجالد بالجلد فإن الله يمهل
ولا يهمل ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص
فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء.

هنا منبر رسول الله ﷺ الجالس في هذه الروضة عليه أن يؤدّي العزاء إلى سيدنا
رسول الله ﷺ، وعزأؤنا إليك يا رسول الله ﷺ الاستغفار فاستغفروا الله يغفر لكم فيا فوز
المستغفرين.



(١١٧)

الملك السابع

نهاية يزيد

الحمد لله الذي تتبدل الأعوام ولا يتبدل على الدوام يرفع أقواماً ويخفض آخرين ، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويدل من يشاء ، كل يوم هو في شأن.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كتب على نفسه ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ .

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا وأميرنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله كان يدعو مولانا عز وجل ويقول: (يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

اللهم صلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه السادة البررة نجوم الهدى ومصابيح الآخرة ، وسلم تسليماً .
أما بعد:

فهذه هي الحلقة الثانية من ملكية يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وعنوانها: المخازي التي جرت في عهد يزيد الفاسق الذي دامت دولته أقل من أربع سنوات ويزيد هذا- ممن لانسبه ولا نجبه، لأنه افتتح دولته بمقتل الشهيد سيدنا الحسين واختتمها بواقعتين فظيعتين، فمقتله الناس، ولم يبارك الله في عمره، وخرج عليه غير واحد بعد جدي الحسين كأهل المدينة وابن الزبير في مكة، والخوارج في العراق. وقد كان للمذبحة التي وقعت في عهد يزيد الفاسق أثرها السيئ على المسلمين جميعاً وخاصة أهل الحجاز فإن سيدنا عبد الله بن الزبير تمسك بهذه الحادثة فشهر

بها يزيد، وأثار عليه الناس واتهمه بأفعاله المنافية لما يجب عليه أن يكون المسلم فكان مما قاله:

- (أما- والله- لقد قتلوه- (يعني جدي الحسين) طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى به في الدين والفضل.
أما- والله- ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالجلوس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد ،
﴿فسوف يلقون غيا﴾ .

ووقع أهل المدينة في حيرة من أمر يزيد وأرادوا التعرّف على أحواله، فأرسل أهل المدينة عدداً من أشرفهم إلى الشام ليقرروا ما يفعلون بعد ذلك ببيعة يزيد الفاسق.
ولما دخلوا على يزيد أكرمهم ، ورأوه رجالاً كثير اللحم عظيم الجسم، كثير الشعر جميلاً طويلاً ضخماً الهامة، وشهدوا فيه خصالاً محموداً من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك ، ورأوا أنه قد أسر أهل الشام بهذه الخصال، وأنه وسّع النهر المسمى بيزيد في ذيل جبل قاسيون، وكان جدولاً صغيراً، فوسعه أضعاف ما كان يجري فيه من الماء.

وشهد أهل المدينة أموراً أخرى لاتليق بمسلم عادي ، وإليكم هذا المشهد من مشاهد ترفه. فعن زياد الحارثي قال: سقاني يزيد شراباً ماذقت مثله، فقلت يا أمير المؤمنين لم أسلسل مثل هذا، قال: هذا رمان حلوان بعسل أصبهان، بسكر الأهواز، بزبيب الطائف بماء بردى.

ونظروا إلى خليفة المسلمين، فرأوا رجالاً يستمع إلى الآلات والمعازف ويشرب الخمر ويحب الغناء والمغنيات ويتخذ الغلمان والكلاب والقروء، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخموراً وحدّث من رآه: أنه سكر مرة فقام يرقص فسقط على رأسه فانشق وبدأ دماغه (يارحيماً على من عصاك يارب).

وكان يشد القرد على فرى مسرحة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وبلغ من سفهه أنه كان إذا مات قرد حزن عليه، ورأوه وهو مقبل على هذه الشهوات ، يترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، ويميتها في غالب الأوقات، وقد صدق سيدنا رسول الله ﷺ إذ يقول:

(يكون خُلف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا، ثم يكون خُلف يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن يؤمن به) ومنافق (كافر به) وفاجر (يتأكل بالقرآن).

أيها الإخوة:

رأى أشراف أهل المدينة كل ذلك وعرفوه حق اليقين، وهم الذين شهدوا خلافة الصديق أبي بكر وعمر وعثمان ، والفرق بينهم وبين يزيد كما هو الفرق بين السماء والأرض، فما أن انصرفوا من عند يزيد الفاسق، ووصلوا إلى المدينة المنورة حتى راحوا يروّجون ماشاهدوه من أمر خليفة المسلمين فكانوا يقولون لكل من يلقونه:

- قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، تعزف عنده المغنيات بالمعازف، ويسكر حتى يترك الصلاة.

وهكذا تجمع أشراف أهل المدينة عند منبر سيدنا رسول الله ﷺ في سنة ٦٣ هـ وأعلنوا على الملأ أنهم قد خلعوا بيعة يزيد من أعناقهم، فكان الواحد منهم يقول:

- قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي هذه. ويقول آخر: خلعت يزيد كما خلعت نعليّ هذين.

بهذه الكلمات - أيها الإخوة - خلع أهل المدينة يزيد، وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ، إنهم وكما قال المؤرخون: فتقوا فتقاً وارتكبوا جرماً عظيماً تسبب بمأساة عظيمة: وإليكم المأساة:

فقد بلغ يزيد ما فعله أشراف أهل المدينة بعد أن أكرمهم وأحسن إليهم، فبعث الصحابي الجليل النعمان بن بشير ينهاهم عما صنعوا ويحذرهم غب ذلك، ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة.

وكذلك فعل الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وأمر أهل بيته ألا ينزعوا يداً من طاعة وإلا تبرأ منهم.

لكن أهل المدينة رفضوا الرجوع عن موقفهم ، ووصلوا إلى نتيجة واتفاق بينهم: وهي أن يخرجوا من المدينة واليهام عثمان بن محمد بن أبي سفيان وجميع بني أمية، فاجتمع بنو أمية في دار شيخ بني أمية مروان بن الحكم، وأحاط بهم أهل المدينة يحاصروهم، فاستنجدوا بيزيد في الشام، فبعث إليهم جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل، على رأسهم شيخ كبير ضعيف العقل يدعى مسلم بن عقبة المري وقال: والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة.

فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ.

وقال له عبد الله بن جعفر: رأيته إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم. قال يزيد الفاسق: إن فعلوا فلا سبيل عليهم. والتفت إلى مسلم بن عقبة وقال له:

- ادع القوم ثلاثاً فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم وإلا فاستعن عليهم بالله وقتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبج المدينة ثلاثاً ثم اكفف عن الناس، واستوص بعلي بن الحسين خيراً فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه.

إخوة الإيمان : هذا الحدث هو أدهى وأمر في نظر المؤرخين من قتل سيدنا الحسين وأهل بيته رضي الله عنهم، لأنه كان انتهاكاً لحرمة مدينة رسول الله ﷺ ومهبط الوحي الإلهي، وهي التي حرّمها رسول الله ﷺ كما حرم إبراهيم مكة، فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال، فانتهاك حرمة إحداهما من الشرور

العظيمة والمصائب الكبرى فكيف بانتهاك حرمتها معاً في سنة واحدة ،يقول عليه الصلاة والسلام (م): (لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع "يذوب" الملح في الماء). ويقول: (لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، ومن أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً) أحمد- (أي لا يقبل الله منه فريضة ولا نفلاً) نعوذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وقلة العقل من الجهلاء.

إخوتي في الله : اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى مدينة الحبيب الأعظم لنشهد معاً مأساة عظيمة دبر وخطط لها يزيد الفاسق، إننا بجوار الحبيب الأعظم (صلوا عليه).

فقد سار هذا الجيش نحو المدينة المنورة بقيادة هذا المسرف على نفسه بأمر فاسق الأمة يزيد، فلما اقترب منها وعلم أهلها بقدومه شددوا الحصار على بني أمية، ثم أطلقوهم بعد أن أخذوا عليهم العهود الموثقة ألا يدلوا عليهم أحداً من هذا الجيش، فجعل مسرف بن عقبة يسألهم الأخبار فلا يردوا عليه حتى جاءه عبد الملك بن مروان بن الحكم فقال له:

- إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في الحرّة، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس في أفقيتكم وفي وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك وإلا فاستعن عليهم بالله وقاتلهم فإن الله ناصرك عليهم إذ خالفوا الإمام وخرجوا عن الطاعة. ونفذ مسرف هذا الترتيب تماماً ، فما أن بلغ الحرّة حتى دعا أهل المدينة ثلاثة أيام، وكلهم يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما مضت الثلاث قال لهم في اليوم الرابع

وهو يوم الأربعاء ٢٨ ذو الحجة سنة ٦٣ هـ :

- يا أهل المدينة مضت الثلاث وإن أمير المؤمنين قال لي : إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرني أن أوصلكم ثلاثاً، فقد مضت، فماذا أنتم صانعون، أتسلمون أم تحاربون؟

فقالوا: بل نحارب.

فقال: لاتفعلوا بل سالموا ونجعل جدنا وقوتنا على هذا الملحد (يعني ابن الزبير).
فقالوا: ياعدو الله، لو أردت ذلك لما مكناك منه، نحن نذكركم تذهبون فتلحدون
في بيت الله الحرام.

ودارت رحى الحرب بين أهل المدينة الأطهار (جيران الحبيب الأعظم) وبين
جيش يزيد الفاسق، وقتل من السادات والأعيان خلق كثير وانهمز أهل المدينة، ثم
أباح مُسْرِف ابن عقبة - هذا - قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة
أيام كما أمره يزيد الفاسق، وقتل عدداً من أشرافها وقرائها، وانتهب أموالاً كثيرة
منها، ووقع شرّ عظيم وفساد عريض، وانتهكت الأعراض في المدينة حتى قيل: إنه
حبلى ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج، ثم استدعي عمرو بن عثمان بن
عفان لم يكن قد خرج مع بني أمية فأمر به فتفتحت لحيته بين يديه، وجاءت ابنة عم
لمسرف بن عقبة تطلب منه أن يجيرها. فقال: لأصحابه قبحهم الله، أن يبدءوا بها
(بانتهاب أموالها)، وجاءته امرأة تقول له: أنا مولاتك - أعتقتك أو أعتقت أباك -
وابني في الأسارى فقال: عجلوه لها واضربوا عنقه، ثم قال: أعطوها رأسه.

واختفى جماعة من سادات الصحابة أمثال سيدنا جابر بن عبد الله وأبي سعيد
الخدري الذي لحقه رجل رآه يلتجئ إلى غار في جبل وشهر عليه سيفه فقال: إني
أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فقال له
الرجل: من أنت؟ قال: أنا أبو سعيد الخدري. قال: صاحب رسول الله؟ قال:
نعم. فمضى وتركه.

وجيء بسيدنا سعيد بن المسيب فقال له بايع. فقال: أبايع على سيرة أبي بكر
وعمر.

فأمر بضرب عنقه، فشهد رجل: إنه مجنون، فخلى سبيله.

وصاحت النساء والصبيان في المدينة فكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: هذا الذي حدث لأهل المدينة كان جزاءً بعثمان بن عفان رضي الله عنه. وانتهت المجزرة، وقتل من وجوه الناس سبعمئة من المهاجرين والأنصار، وغيرهم قريباً من عشرة آلاف، ووقع من المفاسد العظيمة ما لا يحمد ولا يوصف.

ولأجل ذلك أفتى بعض العلماء بجواز لعن يزيد بن معاوية، ولكن الأصح في ذلك عدم جواز لعنه لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم، وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول أو أخطأ وقالوا: إنه مع ذلك كان إماماً فاسقاً، والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح أقوال العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء، فكل واحدة من هذه الأمور أشد من فسق يزيد، وقد أخطأ أهل المدينة أيضاً بخروجهم على الإمام، وقد جاء في الحديث الصحيح: (من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان) .

أيها السادة : لم يكتف يزيد الفاسق بهاتين المجزرتين في عهده، بل عمد إلى مجزرة ثالثة لكن الله تعالى لم يمكنه من استكمالها وهي مهاجمة مكة المكرمة لقتال ابن الزبير ومن معه من المسلمين فاقتتلوا عند ذلك قتالاً شديداً مدة شهرين وبلغ جهل وقلة عقل قائد جيشه حصين بن نمير السكوني أن نصب المجانيق على الكعبة ورموها بالنار فاحترق جدار الكعبة وانهد ثلاثاً من أركانها، وهنا نادى ابن الزبير في جيش يزيد الفاسق:

- يا أهل الشام قد أهلك الله طاعتكم.

وإلى هنا توقفت المعركة في شهر ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ.

وكان سبب موت يزيد الفاسق أنه حمل قردة فعضته، وكان آخر ما تكلم به: اللهم لا تؤاخذني بما لم أحبه ولم أردّه واحكم بيني وبين عبيد الله بن زياد. ومات بجوارين من قرى الشام بعد أن خلف خمسة عشر ذكراً وخمس بنات من أمهات

شتى. وحمل بعد موته إلى دمشق ليدفن بمقابر باب الصغير ولتبقى سيرة حياته عبرة لمن يعتبر، لكل من تسول له نفسه أن يقتل نفساً بغير حق أو يهتك عرضاً أن الله لا يغفل عنه، وأنه إذا أخذه أخذه أخذه عزيز مقتدر.

فمن هو أمير المؤمنين، الخليفة الراشدي السادس، أمير الحجاز والعراق ومصر وبعض الشام، الذي حكم بسيرة أبي بكر وعمر، أعلق هذا السؤال وأعود بكم من هناك من مكة المكرمة إلى هنا إلى دمشق.

هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك.

صلى الله
عليه وسلم

(١١٨)

ال خليفة الراشدي السادس

أمير المؤمنين سيدنا عبد الله بن الزبير ١-٧٣ هـ

الحمد لله المبدىء المعيد، الغني الحميد، ذو العفو الواسع والعقاب الشديد، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن أرشده إلى سبيل النجاة ووقفه فهو الرشيد كل الرشيد.

فسبحانه قسّم خلقه قسمين، وجعلهم فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، إن ربك فعال لما يريد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد.
وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا قائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من أظلت السماء وأقلت البيد.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه أولي المعونة والتأييد، صلاة دائمة في كل حين تنمو وتزيد. وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فحدثنا اليوم عن رجل آخر من أصحاب سيدنا محمد ﷺ، رجل رباه رسول الله ﷺ، على قراءة كتاب الله ﷻ وإتباع سنة سيدنا رسول الله ﷺ ، كان قانتاً لله، صائماً في الهواجر مخافة الله، إنه ابن حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وأما جده فهو المسلم الأول بعد رسول الله ﷺ وشيخ الإسلام الصديق أبو بكر، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وعمته السيدة خديجة بنت خويلد، وخالته السيدة عائشة حبيبة حبيب الله ﷺ وزوجة رسول الله ﷺ، إنه الرجل الذي لا ينازع في ثلاث: في العبادة والشجاعة والفصاحة، وكان لفصاحته وقوة صوته إذا خطب تجاوب لصوته جبلا

مكة، فلا يجهل فضله إلا من أعماه ﷲ تعالى .

إنه سيدنا عبد ﷲ بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب .

يكنى هذا الصحابي الجليل كنيّتين : أبو بكر وأبو حبيب القرشي الأسدي المكي ثم المدني .

أيها الإخوة:

وقبل أن أفتح ملف هذا الفارس القرشي في زمانه، ألفت معكم ذات اليمين وذات الشمال لنرى معاً أبوي هذا الخليفة الراشدي السادس الإمامين الصحابين الفدائيين :

أما والده فهو الزبير بن العوام أول من سلّ سيفاً في سبيل ﷲ، إنه رائد الجهاد، البطل السمح الكريم الذي قال عنه الحبيب الأعظم: (لكل نبي حواريّ وحواريّ الزبير، ومرة قال له رسول ﷲ: فذاك أبي وأمي، وقد بشره رسول ﷲ بالجنة فقال: (طلحة والزبير جاراى في الجنة).

وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه، ولم تحب عليه زكاة، لأنه لم يكن يدّخر شيئاً.

وأما والدته فإنها درس لكل سيدة، وأريدكم اليوم أن تنقلوا هذا الدرس لأهل البيت، لجميع النساء، لأن في قصتها عبرة للنساء، إنها إثبات لمن يحتقر المرأة ، أن المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال، إنها امرأة لها من نبل القلب وكبر العقل وثبات الأعصاب ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال.

إنها السيدة أسماء بنت أبيها سيدنا أبي بكر الصديق رضي ﷲ عنه : أسماء ذات النطاقين، التي شاركت في أجمل الأحداث في السلم وفي الحرب، وهي أخت السيدة عائشة الكبرى.

أسلمت بعد سبعة عشر إنساناً ، وبايعت الرسول على الوفاء للإسلام، وحين رأت أن الإيمان قد يتعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية (مع حب الأم)

غلبت إيمانها على عاطفتها.

جاءت أمها تزورها، وكانت مشركة لم تدخل في الإسلام بعد، فهشت للقائها، وارتسمت ابتسامة على شفتيها ثم ذكرت أن أمها مشركة ، وأن رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وأن الله تعالى يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

فجمدت التحية على اللسان وأرسلت إلى أختها السيدة عائشة تسألها: أسألي رسول الله أصل أمي وهي مشركة، فقال لها الرسول الكريم (نعم صلي أمك). فعلمها أن الإسلام لا يحول أبداً دون عواطف الخير ، ولا يقتل أبداً دوافع النبل في النفوس.

وحين كان درس الهجرة، حمل صديق الأمة أبو بكر ماله كله معه، ليعين رسول الله على دعوته التي كان يراها أولى من نفسه وأسرته. وبلغ ذلك أبا قحافة والد الصديق وكان مكفوف البصر فجاء متأسفاً غضبان وقال:

- ما أراه إلا فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه.

فقالت السيدة أسماء: لا يا جدي. وأخذت حجارة فوضعتها في كيس كان يضع ماله فيه وألقته في صندوق ثم قالت: تعال وانظر. ووضعت يده على الكيس. فقال: إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن.

وسار موكب رسول الله، موكب مامشي من مكة إلى يثرب فقط، بل إلى دمشق والبصرة والكوفة ثم إلى بغداد والقاهرة ثم إلى اليمن والمغرب وسمرقند ودهلي ، إلى الدنيا العريضة التي حمل إليها أتباع سيدنا محمد الخير والهدى.

إنه موكب فيه رجالان وامرأة ليس فيه رايات تخفق، وتقرع أمامه الطبول، ويمشي وراءه الجند، ولكنه موكب كانت تمشي فيه ملائكة الرحمن وتحفّ به رحمة الله تعالى.

رجالان وامرأة، امرأة لم تقطع معهما الطريق، ولكنها أمدتهما بالطعام والزاد، وكذلك تصنع المرأة إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه، فإن لها الفضل

في إمداده وعونه، فلولا المرأة (المرأة أماً، والمرأة زوجاً وسكناً) ما استطاع الرجل خوض غمرات الحياة.

كانت السيدة أسماء تعد الطعام وتحمله إلى الرسول العربي وصاحبه، وتمزقت سفرتها فشقت نطاقها (زناها) اثنين فربطتهما بواحدة، وانتطقت بالآخر، فسميت ذات النطاقين.

ومرة أعدت لهما الطعام فجاء أبو جهل وأصحابه في زهوة الباطل وكبره السخيف فسألها عن أبيها، وكانت الهجرة سرّاً لا يعرفه في مكة إلا رجل وامرأة : علي وأسماء، فأبت أن تذيع السر، فهددها فلم تخف، فرفع يده فضربها وهي حامل، وكذلك يفعل الجبان، عجز أن يضرب الرجال فضرب امرأة حاملاً، وكذلك يفعل الجبناء في كل عصر، عجز اليهود عن مواجهة الأبطال فواجهوا العجائز والأطفال في دير ياسين وغيرها، لكن ضربة أبي جهل دمّرت الشرك ، وأطفال الحجارة سيدمرون صهيون.

إخوة الإيمان :

لما تزوج سيدنا الزبير السيدة أسماء لم يكن له في الدنيا شيء، لآمال ولا عقار، ليس له إلا فرسه، فلم يكن عليها أن تصبر على الفقر فقط، ولا أن تروض نفسها على الحرمان وتخدم زوجها، بل كان عليها أن تخدم هذا الفرس، تمشي في الطرقات فتجمع له نوى التمر، ثم تدق النوى وتعلف الفرس.

وصبرت، وأطاعت زوجها وحرصت على مرضاته (لتسمع النساء)، وراها السيد الأعظم مرة وهو على ناقته وهي تحمل النوى، وهي أخت زوجته، وزوج ابن عمته فأناخ الناقة ليركبها معه، تقول السيدة أسماء:

- فذكرت غيرة الزبير فأبيت.

أبت أن تركب مع رسول الله ﷺ ، الطاهر المطهر المعصوم، خوف سخط زوجها وما كان زوجها ليسخط، ومبالغة في مرضاته، ولما أعطاها أبوها خادماً ترعى الفرس، رأت نفسها قد غدت ملكة.

لتسمع كلّ امرأة لها زوج فقير، إن السيدة أسماء صبرت فكانت العاقبة أنّها اغتنت وانصبت عليها وعلى زوجها النعم، حتى إنه لما مات كانت تركته (احزروا) كم خلف زوج السيدة أسماء بعد جمعها النوى ودّقه وصبرها على الفقر؟! خمسة ملايين درهم ومئتين ألف فقط لاغير، لم يجمعها من الحرام، ولا من الرشاوي أو فوائد البنوك، بل تاجر وتاجر حتى صار من أصحاب الملايين. وقديماً قالوا: نعمت الجارة ولو بالحجارة .

إخوتي في الله :

قد حان الآن أن أُلج معكم باب الولادة المباركة لأُمير المؤمنين وسادس الخلفاء الراشدين سيدنا عبد الله بن الزبير، فإن السيدة أسماء لحقت أباه في موكب الهجرة مباشرة في السنة الأولى أو الثانية، كانت حاملاً فما أن وصلت قُبَاء حتى وضعت ابنها عبد الله، أول مولود في الإسلام بعد الهجرة، وكان عيد ميلاده هو عيد ميلاد الحضارة واليُمن والخير.

أيها السادة:

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى أشرف بقعة على وجه الأرض، إلى الروضة المطهرة ، إلى مدينة سيد الوجود والبركة العامة لكل مخلوق موجود ، إلى حبيبي رسول الله ﷺ وهو بين المهاجرين والأنصار.

فقد أقام المهاجرون فترة لا يولد لهم، فزعم اليهود أنهم سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة، فلما ولد ابن الزبير كبر المسلمون تكبيرة واحدة ارتجت لها المدينة، وراح سيدنا الصديق يطوف به في المدينة ليكذب مزاعم اليهود.

وأنت به أمه رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضعها ثم تفل في فمه ، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنكه ودعا له، وأمر أبا بكر الصديق أن يؤذن في أذنيه بالصلاة. وكان أول كلام تكلم به ابن الزبير وهو صغير السن: السيف السيف، فكان والده يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام.

أيها الأحبة:

مازلنا هناك عند الحبيب المصطفى ﷺ ، وأرى الحبيب الأعظم وعنده الحجام نبينا (صلوا عليه) يحتجم وعنده عبد الله بن الزبير، والحجامة استخراج الدم من نواحي الجلد، وهي تنقي سطح البدن ، وهي أفضل من الفصد (أي استخراج الدم من الأوردة بالآلات كالتبرع بالدم) ، الحجامة أفضل من الفصد في الأزمنة الحارة ، والأمزجة الحارة ، التي دم أصحابها في غاية الحرارة والنضج ، لأن الدم ينضج ويرق ويخرج إلى سطح الجسد الداخل فتخرج الحجامة ما لا يخرج الفصد الذي يؤخذ من الأوردة مباشرة . وسيدنا النبي يقول: "من احتجم لسبع عشرة من الشهر وتسع عشرة وإحدى وعشرين كان له شفاء من كل داء " (د - ك) . وكان عليه الصلاة والسلام لبليغ حكمته ينفذ هذا الاحتجام بنفسه ويقول (ت . جه) : " ما مررت ليلية أسري بي بمألاً من الملائكة إلا كلهم يقول لي : " مُرْ أمتك بالحجامة " لذا كان يقول لأصحابه الكرام (م) : إن في الحجم شفاءً " .

وسيدنا ابن الزبير كان قد وُضع دم الحجامة النبوي في طست وقال له: يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهريقه حيث لا يراك أحد . وانطلق عبد الله ، فلما بعد عمد إلى ذلك الدم فشربه، فلما رجع قال: ما صنعت بالدم .

قال: إني شربته لأزداد به علماً وإيماناً، وليكون شيء من جسد رسول الله في جسدي، وجسدي أولى به من الأرض .

فقال له الحبيب الأعظم: أبشر لاتمسك النار أبداً، وويل لك من الناس، وويل للناس منك، ثم نزل بعد ذلك تحريم شرب الدم ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ الآية .

وشب هذا الصباحي عابداً طائعاً حتى كان حديث أهل عصره بالعبادة والطاعة يقول عنه ثابت البناني:

- كنت أمرّ بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف مقام إبراهيم كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك.

وكان إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جزءاً من جدار.

وقسم رضي الله عنه لياليه في العبادة، فكان يقوم ليلة يصلي حتى يصبح، ويركع ليلة حتى يصبح، ويسجد ليلة حتى يصبح، ويقول عنه بعض أصحابه:

"ركع ابن الزبير يوماً فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ومارفع رأسه". وكان خشوعه في الصلاة يضرب به الأمثال، فقد صلى يوماً في بيته فسقطت حية من السقف فطوقت على بطن ابنه هاشم فصرخ النسوة وأسرع أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلوها وسلم الله الولد، وكل ذلك وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا قطع قراءته.

وكان يواصل الصوم سبعاً، يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة، يقول عنه مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة، واسمعوا إلى هذا المشهد الفريد:

فقد جاء سيل فغمر البيت وأسرع الناس يتعدون عن المياه التي أحاطت بالكعبة المشرفة، وخلا الطواف إلا من رجل واحد هو سيدنا عبد الله بن الزبير جعل يطوف حول البيت سباحة.

كانت هذه الأوسمة الكثيرة التي علقت على صدر ابن الزبير أهله زمن سيدنا عثمان لأن يكون من ضمن نفر الذين كتبوا المصاحف مع زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

معشر الإخوة الكرام: أنتقل بكم الآن إلى إذاعة دينية أنقلها لكم من المغرب العربي في زمن الفتح الإسلامي زمن الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه لأسطر

لكم هذا المشهد الفريد التاريخي ، مشهد فريد لم يعرض على شاشة التاريخ إلا مرة واحدة ، على يدي ابن الزبير .

كان جيش المسلمين عشرين ألفاً فقط، وكان جيش البربر عشرين ومئة ألف، أحاطوا بالجيش إحاطة السوار بالمعصم أو كإحاطة البحر بماء الساقية، يقول الناظر إليهم إن هي إلا جولة واحدة ويلتقم البحر ماء الساقية، ولكن الله غالب على أمره، إذ أنه ألهم ابن الزبير إلى خطة عجيبة رهيبة، فقد جمع حوله ثلاثين فارساً وسار نحو ملك البربر وهو منفرد خلف الجيش وجواريه يظللنه بريش النعام فسار حتى انتهى إليه الناس يظنون أنه ذاهب برسالة إلى الملك، وإذا بالملك بآخر لحظة يفهم ماينوي عليه ابن الزبير فيولي مدبراً، فيلحقه عبد الله بن الزبير فيقتله بسيفه ويحتز رأسه ويجعله في رمح ويكبر في وسط المعركة، فيكبر المسلمون ويحملون على البربر فيهمزموهم بإذن الله ويقتلون منهم خلقاً كثيراً ويغنمون غنائم كثيرة ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ .

وما أن يصل المدينة المنورة ويدخل على الخليفة هو وقائده ابن أبي سرح فيعلم الخبر حتى يأمره الخليفة عثمان أن يصعد المنبر فيخطب بالناس بما فعله، فيقوم الشاب ابن الخامسة والعشرين خطيباً بالناس، ويراه أبوه الزبير بن العوام ويسمع فصاحته وخطابته فلما نزل ولده قال له: والله لكأني اسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يابني.

وحين يشتد الحصار يوم الدار على الشهيد عثمان نرى ابن الزبير يقف مع الفئة المؤمنة على باب الخليفة حتى يجرح بضع عشرة جراحة.

ثم يشهد معركة الجمل مع خالته السيدة عائشة وأبيه ، فيتصارع في وسط المعركة مع نذ له من الأشداء اسمه مالك ، فيصرع مالك ابن الزبير فيحتضنه ابن الزبير وينادى في المقاتلين: اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي.

ثم يتفرق كلاهما عن بعضهما ولم يقدر أحدهما على الآخر.

وقد ظنت السيدة عائشة أن ابن الزبير قد استشهد ، فلما جاء رجل وأخبرها أنه بخير أعطته عشرة آلاف درهم لبشارته وسجدت لله شكراً، وكانت تحبه حباً شديداً لأنه ابن أختها حتى لقبها رسول الله ﷺ بأُم عبد الله، لشدة حبها له، وكانت تقول : إنها لم تكن تحب أحداً بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر مثل حبها لابن الزبير. وفي عهد سيدنا معاوية كان له شأن عظيم ، فقد عرف القاصي والداني فضل ابن الزبير وشجاعته وفصاحته.

معاشر المسلمين :

أنتقل بكم الآن إلى جوار جامع بني أمية إلى قصر الخضراء حيث قصر سيدنا معاوية، فقد دخل الناس عليه يوماً وهو على سرير الملك، فقال لمن حوله: أنشدوني لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة من أجمع ما قالتها العرب. ثم قال لابن الزبير: يا أبا حبيب. فقال: مهيم. قال: أنشد ذلك. فقال: نعم يا أمير المؤمنين بثلاثمائة ألف، كل بيت بمئة ألف. قال: نعم إن ساوت - قال أنت بالخيار وأنت وافٍ كاف. فأنشد للأفوه الأزدي:

فلم أرَ غيرَ خَتَالٍ وقالِ

بلوت الناس قرناً بعد قرن

فقال معاوية صدق .

وكيداً من معادات الرجال

ولم أرَ في الخطوب أشدّ دفعاً

فقال معاوية صدق .

فما شيء أَمَرٌ من السؤال

وذفت مرارة الأشياء طراً

فقال معاوية: صدق.

وهنا دعا معاوية بثلاثين عبداً على عنق كل واحد منهم بدره، وهي عشرة آلاف درهم، فمروا بين يدي ابن الزبير حتى انتهوا إلى داره. وكان ابن الزبير في الجيش الذي غزا القسطنطينية في عهد سيدنا معاوية فنال مغفرة الله ﷻ ورضوانه لقوله ﷺ : (أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفورٌ لهم).

وفي عهد سيدنا معاوية أيضاً وقف أربعة من الشبان الفرسان في هذه الأمة كل منهم يتمنى على الله تعالى أمنية.

أيها المؤمنون :

أنقل إليكم جلسة من جلسات الصفا لفرسان قريش، والفرسان هم عبد الله بن الزبير وأخواه مصعب وعروة، وعبد الملك بن مروان.

قال مصعب بن الزبير: أتمنى أن أحكم العراقيين (الكوفة والبصرة) وأتزوج عقيلتي قريش وأجمل جميلات العصر: سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة.

وقال عبد الله بن الزبير: أنا أتمنى أن أنال الخلافة وأملك الحرمين.

وقال عبد الملك بن مروان: أنا أتمنى أن أقعد مقعد معاوية وأحكم الأرض.

أما عروة بن الزبير فقال: أنا لست في شيء من ذلك ، أنا أتمنى أن أكون عالماً وأن أدخل الجنة. فلم تمض سنوات طويلة حتى حقق الله تعالى أمنية كل واحد منهم.

إذ أنه لما تولى يزيد الفاسق الخلافة بعد أبيه انشمر من بيعته جدي الحسين بن علي وابن الزبير فقصدوا مكة فأقاما بها، فلما استشهد جدي الحسين تفرد ابن الزبير بالرياسة والسؤدد بمكة، فلما راح الناس يبايعونه سراً على الخلافة وعلم يزيد بذلك أقسم ليأتيه ابن الزبير في قيد من ذهب وسلسلة من فضة وجامعة من فضة وأرسلها إلى عامله على مكة، فقال لابن الزبير: برّ قسم أمير المؤمنين، فقال ابن الزبير:

ولألين لغير الحق أسأله حتى تلين لضرر الماضع الحجر

ثم قال: والله لضربة سيف بعزّ أحبّ إلي من ضربة بسوط في ذلك، ثم دعا إلى نفسه وأظهر الخلاف ليزيد بن معاوية.

فلما مات يزيد تولى ولده معاوية الثاني، وهو فتى في العشرين من عمره يختلف تماماً عن والده، فلم يطل به الحكم بل استمر عشرين يوماً ثم خرج إلى الناس فخلع نفسه أمامهم ولم يعين خلفاً له، لأنه لم يجد فيهم أمثال أبي بكر وعمر، أو أمثال

الستة من أهل الشورى الذين تم بهم انتخاب الشهيد عثمان، وتوفي بعد إعلانه الاعتزال بقليل .

وأصبح منصب الخلافة في الشام خالياً، وأصبح البيت الأموي في موقف لا يحسد عليه، إذ أن الأقطار الأخرى غير الشام لم تجد أمامها إلا البيعة لابن الزبير الذي كان أهل الحجاز قد بايعوه، وكذلك بايعه فريق من أهل الشام من العدنانيين القيسيين.

واستلم أمير المؤمنين سيدنا عبد الله بن الزبير الخلافة سنة ٦٤ هـ وأرسل عماله إلى الآفاق، إلى المدينة والبصرة والكوفة ومصر واليمن وخراسان والشام، وحقق الله أمنية مصعب بن الزبير إذ بعثه أخوه الخليفة إلى العراقين والياً.

وقام ابن الزبير في خلافته بالعدل والقسطاس والشورى على منهج الخلفاء الراشدين، وأعاد بناء الكعبة المشرفة التي ضربت بالمنجنيق زمن يزيد الفاسق، أعادها كما كانت عليه زمن إبراهيم الخليل لا كما تركها رسول الله ﷺ ، لأنه سمعه يقول لخالته السيدة عائشة:

" لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأعدت بناء الكعبة على قواعد إبراهيم وجعلت لها بابين بالأرض".

ونفذ ابن الزبير رغبة رسول الله ﷺ وكسى الكعبة بالحرير، وكان يطيبها حتى كان يوجد ريحها من مسافة بعيدة، إننا نستطيع أن نقول بكل يقين: إن أمير المؤمنين الخليفة الراشدي ابن الزبير كان راشدياً في انتمائه إلى الحجاز وتمسكه به، وسار على منهج الخلفاء وكان يحاسب نفسه كل المحاسبة في شؤون المال، لا كما يفعله الأمويون.

وكان غنياً موسراً، بل كان له مئة عبد كل واحد منهم يتكلم بلغة غير لغة الآخر، وكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته وكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله والدار الآخرة طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين.

أيها المسلمون:

يقول المؤرخون عن ابن الزبير: انه كان رجل حرب أكثر مما كان رجل سياسة، فقد ترك ابن الزبير أمور الشام هامشية في حياته السياسية، لأن مروان بن الحكم بعد موت معاوية الثاني بويج على الخلافة من قبل البيت الأموي، وسار في جيش كبير فاستولى على مصر واستعمل عليها ابنه عبد العزيز، ثم توجه نحو العراق لكنه مات في الطريق إليه، فتولى ولده عبد الملك بن مروان ، وبويج خليفة من قبل أهل الشام ومصر، ثم وجه السرايا لقتال مصعب بن الزبير في العراق، الذي تفرق عنه أصحابه العراقيين بعد أن أغراهم عبد الملك بالأموال، فتركوا مصعباً ليقتل بيد جيش عبد الملك الذي استلمه الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم وجهه عبد الملك لقتال ابن الزبير في مكة، ولكنه لم يستطع القضاء على ابن الزبير، فاستعمل أسلوب العراق إذ أنه أغرى بالمال جنود ابن الزبير وأعطى الأمان لهم إن هم تركوا القتال معه. فتفرق عن ابن الزبير عشرة آلاف مقاتل ، بل إن بعض أبنائه تفرق من حوله، وخير الحجاج ابن الزبير بين ثلاث:

١- إما أن يذهب في الأرض حيث شاء.

٢- أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد.

٣- أو يقاتل حتى يقتل.

فدخل على أمه السيدة أسماء وقد بلغت من العمر مئة سنة وذهب بصرها- على أحد القولين- ولم يسقط لها سن. فقال لها:

إنّ في الموت لراحة . فقالت: ما أحبّ أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك، إما أن تملك فتقرّ عيني، وإما أن تقتل فاحتسبك.

واستشارها في قول الحجاج فقالت: إن كنت ترى أنك على حق فمت في سبيل حقك.

وهكذا- أيها الإخوة- دفعت أسماء بابنها إلى الموت، أريدكم أن تذكروا هذا الموقف الذي وقفته هذه السيدة، هل سمعتم أن أمّاً تحكم على ولدها بالموت؟ لقد وقفت أسماء موقفاً لم تقفه امرأة أخرى. وخرج ابن الزبير، ولم يلبس درعاً، وراح يحض أصحابه على القتال ، وقد بلغ السبعين من عمره ، فكان كلما دخل جيش من باب من أبواب الحرم حمل عليهم حتى يخرجهم.

وصار الحجاج يضرب الكعبة بالمنجنيق بعد أن استأذن عبد الملك بن مروان، وبينما ابن الزبير يقاتل مع القلة الباقية من أصحابه وقعت شرفة من شرفات المسجد الحرام على رأسه فصرخته، فأراد أن ينهض فلم يقدر، فأقبل عليه مقاتل فضربه فقطع رجله، ثم تكاثروا عليه حتى قتلوه واحتزّوا رأسه، ثم دخل الحجاج، وأمر بصلب ابن الزبير على جذع شجرة منكسا، وصلبه أياماً حتى كادت أعضاؤه تتفتت.

وإليكم يا أحباب رسول الله ﷺ: هذا الموقف الأخير من الأم الصابرة، الأم المجاهدة، فقد أتت إلى ابنها فوقفت عنده وهو مصلوب تدعو له طويلاً، ولا تقطر من عينيها دمعاً، ثم قالت قولتها المأثورة:

- أما آن لهذا الفارس أن يترجل.

وأقبل عليها الحجاج فأراد إغاضتها فقال: كيف رأيت؟ نصر الله الحق وأظهره. فقالت؟ ربما أديل الباطل على الحق وأهله.

فقال: إن ابنك ألد في هذا البيت وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ يَلْحَاقْ بِهِ ظَلَمٌ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم.

قالت: كذبت، كان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسرّ به رسول الله ﷺ، وحنكه بيده، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجّت المدينة فرحاً به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك براً بالوالدين، صوماً قواماً بكتاب الله ﷻ، معظماً لحرم الله ﷻ، ييغض من يعصي الله ﷻ، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير، أما الكذاب فرأيناه (المختار بن عبيد الله الثقفي) وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

وهنا انكسر الحجاج لكلامها، وردّه الله خائباً، وأمر بإنزال الفارس المصلوب.
وغسلته أمه السيدة أسماء بعدما تقطعت أوصاله، وحنطته وكفنته وصلت عليه
ودفنته في دار صفية أم المؤمنين، ثم زيد دار صفية في المسجد الشريف .
يا أمة الحبيب الأعظم :

كانت خلافة ابن الزبير في سنة ٦٤ هـ ومكث في الخلافة تسع سنين، وحج
بالناس فيها كلها، واستشهد سنة ٧٣ هـ وصدقت فيه معجزة سيدنا رسول الله
ﷺ :

(ويل لك من الناس وويل للناس منك) .
هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب
الأعظم، وتحيتنا إليك يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.



الملك التاسع والعاشر

مروان بن الحكم - ٢ - ٦٥ هـ وولده عبد الملك بن مروان - ٢٦ - ٨٦ هـ

الحمد لله الصبور الشكور، العلي الكبير، السميع البصير، العليم القدير.
شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور، قدر مقادير
الخلائق وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معاشهم وأحوالهم، وخلق
الموت والحياة ليلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله جلّ عن الشبيه والنظير، وتعالى
عن الشريك والظهير، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.
وأشهد أن سيدنا وحيبنا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً
عبده ورسوله، وخيرته من بريته، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه، أعرف
الخلق به وأعلامهم عنده منزلة، وأوسعهم عنده شفاعة.
اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا
ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه خير صحب وخير آل صلاة دائمة بالغدو
والأصال، وسلم تسليمًا.

أما بعد: فقد بقي القتل في هذه الأمة الإسلامية مستمراً منذ وفاة سيدنا معاوية
وحتى سنة ٨٦ هـ حيث قام ملك من ملوك بني أمية بتوطيد دعائم الحكومة الأموية
ثانية، واستقرت أوضاع الدولة الإسلامية في خلال ملكه، هذا الملك هو أول من
سمي بعبد الملك في الإسلام إنه: عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن

أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الخليفة الفقيه أبو الوليد الأموي ، وهو أول خليفة من بيت أبي العاص بن أمية.

وقبل أن أفتح ملف هذا التابعي أتناول معكم حياة أبيه مروان بن الحكم الذي مهد لولده عبد الملك.

وجده: الحكم من أكبر أعداء سيدنا النبي ﷺ في الجاهلية، أسلم يوم الفتح، وقدم المدينة فطرده سيدنا النبي ﷺ إلى الطائف ومات بها.

وأما مروان فقد ولد في السنة الثانية من الهجرة، فنشأ مروان مسلماً، وكان سيدنا عثمان يكرم مروان ويعظمه، وكان كاتب الحكم بين يديه، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار، وبسببه حوضر عثمان بن عفان فيها، لأن مروان زور على لسان الخليفة الشهيد عثمان كتاباً إلى مصر بقتل ذلك الوفد الذين قدموا على عثمان يشكون واليهم، وألح عليه أولئك الرهط بعد أن اكتشفوا الخدعة أن يسلمهم مروان فامتنع سيدنا عثمان أشد الامتناع، لأنه عرف أنهم سيقتلونه، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالاً شديداً، وقتل بعض الخوارج يوم الجمل، ويقال: إنه رمى طلحة رضي الله عنه بسهم في ركبته فقتله.

أيها الإخوة: وفي زمن سيدنا معاوية ولي مروان المدينة عدة مرات، ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه، لولا ابن زياد الذي أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بني أمية فاستشرف لها، وتم لهبيعة البيت الأموي، بشرط أنه إذا انتظم له الأمر نزل عن الإمرة لخالد بن يزيد الفاسق، ويكون لمروان إمرة حمص، ولعمرو بن سعيد نيابة دمشق، وكانت البيعة لمروان سنة ٦٤ هـ.

وجهز مروان جيشاً وسار على رأسه فثبت حكمه بالشام، ثم سار إلى مصر فبايعه أهلها، وولى عليهم ولده عبد العزيز، ثم عاد إلى دمشق فطلب البيعة من بعده لولده عبد الملك ثم من بعده لولده عبد العزيز، وترك البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية لأنه كان لا يراه أهلاً للخلافة، فدبرت أم خالد مكيدة لمروان - وكانت قد تزوجته -

فوضعت على وجهه وسادة هي وجواربها فمات مخنوقاً سنة ٦٥ هـ، وله من العمر ٦٣ سنة، واستمرت ولايته تسعة أشهر، ومن أولاده:
عبد الملك وعبد العزيز ومعاوية وغيرهم من البنات ، وكان نقش خاتمه : العزة لله.

إخوة الإيمان : إننا في الصفحة الأولى من حياة هذا التابعي أعظم خلفاء بني أمية ودهاتهم بعد سيدنا معاوية رضي الله عنه.
ولد سنة ٢٦ هـ، ونشأ في المدينة، وشهد مقتل سيدنا عثمان وهو ابن عشر، واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة، وكانت نشأته مفخرة للشباب، كان فقيهاً واسع العلم متعبداً، ناسكاً. شهد له ابن عمر فقال: إن لِمَرْوَانَ فقيهاً فسلوه، وَلَدَ الناس أبناء وولد مروان أباً.

ونظر إليه أبو هريرة وهو غلام فتفرس فيه فراسة صادقة فقال: هذا يملك العرب.
وكان عبد الملك يعد من فقهاء المدينة المنورة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وهو من رجال الدهر ودهاة الرجال، كان فصيحاً عالماً بالأخبار.
وصفه المؤرخون فقالوا: كان عبد الملك قوي العزيمة، ثابت النفس، لاتزعزعه الشدائد، ولي أمر الأمة وهو في غاية الاضطراب والاختلاف، ولكنه ما إن تمت له البيعة والمصحف بين يديه حتى أطبقه وقال:

- هذا آخر العهد بك، هذا فراق بيني وبينك . (اللهم لاتمكر بنا).
وبدا لعبد الملك بعد أن تمت له البيعة بالشام ومصر أن ينشر الدعوة، وأن يسترجع الحكومة الأموية إلى ما كانت عليه أيام معاوية الأول، فجهز الجيوش لمحاربة مصعب بن الزبير وأخيه سيدنا عبد الله رضي الله عنهما واستنفر الناس لأجل ذلك.

وابتداً أولاً بمقاتلة مصعب بن الزبير والي العراق وخراسان، وخرج عبد الملك بنفسه قائداً لتلك الحملة سنة ٧١ هـ أي بعد خمس سنوات من خلافة سيدنا عبد الله بن الزبير، ولكن هذا الجيش واجه صعوبة مُرة في طريقه، إذ أن جماعة سمو أنفسهم بالتوابين خرجوا يطلبون بثأر سيدنا الحسين بعد أن تخلّوا عنه وخذّلوه، ثم ندموا على خذلانه فلم يروا أنهم يكفّرون عن ذنوبهم إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته، فكانت بينهم وبين جيش عبد الملك معركة فاصلة انتهت بهزيمتهم شرّ هزيمة .

ثم واجه عبد الملك رجلاً آخر يدعى المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب، يدعو الناس باسم سيدنا محمد بن علي بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية، وأنه أرسله للأخذ بثأر من قتل من آل البيت، وأنه يحكم باسمه ولقبه بالمهدي، وهذا كله كذب.

فاجتمع حول المختار الكذاب هذا طائفة كبيرة من أهل العراق وكان شعارهم: يا لثارات الحسين، فكانوا يتتبعون قتلة جدي الحسين بالكوفة فيقتلونهم قتلاً ذريعاً (وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين).

واشتبكت معركة فاصلة بينه وبين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وكان قائد جيشه عبيد الله بن زياد الفاسق الذي أمر بقتل الحسين، ولكن الله عز وجل انتقم منه شر انتقام، فقتله المختار واحتز رأسه كما فعل بجدي الحسين تماماً وانهمز جيش عبد الملك هذا.

إخوتي في الله : وأراد الخليفة عبد الملك أن يصرف وجوه أهل الشام عن الحج إلى مكة حتى لا يبايعوا ابن الزبير سراً في مكة، فبنى على صخرة بيت المقدس قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وعين لها خدماً، وأخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة، هل سمعتم أعجب من هذا.

وحين قدم مصعب بن الزبير البصرة أميراً على العراقيين، وانتشر كذب المختار بين الناس تخاذل عنه أصحابه وانضموا إلى جيش مصعب الذي جهزه للقضاء على المختار الكذاب فقتله شر قتلة على باب قصره.

ولكن عبد الملك بن مروان جهز جيشاً آخر بقيادته ودخل العراق وحصلت الهزيمة لجيش مصعب الذي استشهد وهو يقاتل.

معشر السادة : بهذه المعارك المستمرة منذ أن قتل جدي الحسين استطاع عبد الملك أن يستولي على مصر والشام والعراق ولم يبق إلا الحجاز مكة والمدينة، عندها جهز جيشاً لمقارعة سيدنا ابن الزبير في عقر داره وقرارة مأمنه مكة المكرمة، واختار لقيادة تلك الجيوش الحجاج بن يوسف الثقفي، لما علم من بلائه ونصحه وشدته في الأمور، فسار حتى حاصر مكة المكرمة، ورمى الكعبة بالمجانيق، واشتدت الحال على أهل مكة من الحصار ففرقوا عن ابن الزبير وخرجوا إلى الحجاج بعد أن أمّنهم، وكان ممن فارقه ابنه حمزة وحبيب، وخيّر الحجاج ابن الزبير بين ثلاث:

١ - إما أن يذهب في الأرض حيث شاء.

٢ - أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد.

٣ - أو يقاتل حتى يقتل.

أيها الأحبة: اسمحوا لي أن انتقل بكم إلى المسجد الحرام لأنقل لكم هذا المشهد الفريد من نوعه، مشهد الاستشهاد في سبيل العقيدة والمبدأ، مشهد فيه رجل وامرأة، رجل بلغ ثلاثاً وسبعين سنة، وامرأة قد بلغت مئة سنة وقد ذهب بصرها.

قال لها بحزن كئيب:

- يأمّاه خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي، ولم يبق إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن رقبتهك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت

الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن كنت على حق فلما ذهب أصحابك ضعفت... فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين... كم خلودك في الدنيا؟! القتل أحسن.

فقال: يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني.
قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله.
وهنا قال لها سيدنا عبد الله بن الزبير:

- انظري يا أماه فإني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلمي الأمر إلى الله،
فإن ابنك لم يتعهد ايثار منكر، ولا عمل فاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر
في أمان، ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد، ولم ييلغي ظلم عن عمالي فرضيت به بل
أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضاء ربي، اللهم لا أقول هذا تركية لنفسي،
ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني.

فقالت أمه: لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك، وإن
ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك. فقال: جزاك الله
خييراً، فلا تدعي الدعاء لي. فقالت: لا أدعه لك أبداً.

وهكذا. أيها الاخوة-

جاهد ابن الزبير حتى آخر قطرة من دمه ، ودخل الحجاج مكة .
وكان الحجاج ركن دولة عبد الملك الركين، وسهمه النافذ في كلّ الذين خرجوا
على الدولة الأموية، جرّده سيفاً على المارقين فما نبا ولا خائنه مضاربه، ولكنه عدّ
من ذنوب عبد الملك وسقطاته، فإنه طاغية من طغاة الولاة، بقي والياً على مكة
حتى سنة ٧٥ هـ قام خلالها بنقض ركن الكعبة حجر إسماعيل الذي كان ابن الزبير
قد ضمّه إلى الكعبة، فأعاد الحجاج كما كان زمن رسول الله ﷺ ، ثم عزله عبد
الملك وولاه العراقيين، فسار إليها فدخل الكوفة ثم البصرة، وصعد منبر مسجدها

وهو متلثم بعمامة خز حمراء، فاجتمع إليه الناس، وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه، ثم كشف الثام عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، وألقى فيهم خطبة العرش عرف فيها أهل العراق أنه سفاك قاهر، سوف يسوسهم بالعسف والجور، ولكن الحجاج لم يهدأ، بل حول رجال العراقيين إلى الحروب حروب المشرق، فكلما فتح مصرًا انتقل لآخر. وراح الخليفة عبد الملك يثبت دعائم ملكه مع الروم فكان يغزوهم في الشتاء والصيف، حتى استقرّ للدولة هيبتها في عهده، وساس دولته بالعنف، وأكره الناس على الطاعة إكراهًا. فكان جباراً على معانديه، قوي الهيبة واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد استشهاد مصعب وعبد الله بن الزبير، ومن ذنوبه ومساوئه غدره بعمر بن سعيد وقتله إياه بعد أن كتب له كتاب أمان، قتله بيده غدراً، وهو أول غدر في الإسلام. ثم أرسل لزوجته أن ترسل له كتاب الأمان الذي كتبه له، فقالت له:

– لقد دفنته معه في القبر حتى يحاكمك الله به يوم القيامة.

ومن مساوئه استعماله والياً على مصر وهو قرّة بن شريك فقد كان أعرابياً جافياً تعزف أمامه الملاحى والمغنيات وكان يشرب الخمر في مجالسه.

ومن ذنوبه ومساوئه تكبره على الخلق. فقد قال مرة وهو على المنبر: من قال لي بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه. لكنه اعترف بخطئه هذا على المنبر فقال: اللهم إن ذنوبي عظام وهي صغار في جنب عفوك يا كريم فاغفرها لي.

أيها السادة : قام عبد الملك بعمل يعد عظيماً في باب التمدن الإسلامي، ألا وهو صك الدنانير الذهبية في الإسلام ، وهو أول من نقش بالعربية عليها وعلى الدراهم (وكان سيدنا عمر قد صك الدراهم). ونقل الدواوين من الفارسية والرومية

إلى العربية، وضبطت في عهده الحروف بالنقط والحركات. وبذلك تمت هبة الدولة الإسلامية، دَوَّنَ عمر الدواوين واتخذ سيدنا معاوية البريد، وعَرَّبَ عبد الملك الدراهم والدنانير، إذ أن من المعلوم أن الدول لاتبلغ الأمد الأسمى حتى تستقل في شؤونها وأسباب عمراتها، وقد كان العرب في أول الإسلام يتعاملون بالنقود الفارسية لكن ما إن نشأت الدولة الإسلامية الكبيرة حتى تنبه عبد الملك، فأمر بتعريبها وتمييز المغشوش منها من الخالص وذلك سنة ٧٤ هـ وكتب عليها **الله** أحد **الله** الصمد، فكره ذلك الفقهاء فسميت تلك العملة بالمكروهة.

أيها المؤمنون : كان مروان بن الحكم قد ولىَّ عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز بن مروان وفي سنة ٨٥ هـ ، أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولي مكانه الوليد بن عبد الملك فنهاه أصحابه فلم يفعل، ثم جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز وهنا أسند ولاية العهد إلى ابنه الوليد ثم من بعده سليمان، وكتب ببيعته إلى البلدان. وفي يوم الخميس منتصف شوال ٨٦ هـ سنة (٧٠٥ م) توفي عبد الملك بدمشق فكانت خلافته منذ قتل الزبير ثلاث عشرة سنة ونصف، وكان عمر عبد الملك ستين سنة، ودفن بمدفن باب الصغير.

أيها المسلمون : قال المؤرخون في الخليفة عبد الملك أقوالاً كثيراً، منها: معاوية للحلم وعبد الملك للحزم، وكان نقش خاتمه (آمنت ب**الله** مخلصاً).

فمن هو الخليفة بعد عبد الملك، من هو الذي شاد عز الدولة الأموية بعد سيدنا معاوية رضي **الله** عنه، من هو فاتح الفتوح الإسلامية؟!

أعلق هذه الأسئلة إلى الجمعة القادمة بإذن **الله** تعالى، وأعود بكم إلى هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد **صلى الله عليه وسلم** الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول **الله** هي الصلاة والسلام عليك.

(١٢٠)

الخلافة ١١ و ١٢

خلافة الوليد بن عبد الملك - ٤٧ - ٩٦ هـ وأخيه سليمان بن عبد الملك - ٥٤ - ٩٩ هـ

الحمد لله الذي رفع منار العلم في كل مصر وعصر، وأقام أهله ظاهرين على الحق مؤيدين بالفتح والنصر.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن سيدنا وحيبنا وعظيمنا وقائدنا وأميرنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله المنزل عليه سورة الفتح والنصر.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاماً لا يحويهما عدٌ ولا حدٌ ولا حصر، وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا أيها الإخوة :

أعود بكم اليوم ثلاثة عشر قرناً أو يزيد ، رحلة بعيدة في الزمان، ولكني لن أبعد بكم في المكان، بل سأقف بكم على باب الجامع الأموي- الباب الجنوبي، ثم أسير بكم وراء جدار القبلة إلى هذا الزقاق الذي اتخذناه سوقاً لبيع القباقيب، هذه البقعة- أيها الإخوة- كانت يوماً من الأيام عاصمة الأرض كلها، فيها الغني والسلطان، فيها الجمال والجلال، وكانت الكلمة تخرج منها فلا يردها شيء حتى تصل إلى أقصى المشرق وأبعد المغرب، يوم كانت ههنا الدار الخضراء، قصر الخلافة الأموية التي كانت تحكم ما بين كراتشي ومدرید، ثم تضاعف ذلك المجد، وتقلص الظل، وذهب الغنى والجاء والسلطان حتى لم يبق إلا اسم قصر الخضراء ولكن تحت تراب الزقاق المجاور لجامع بني أمية الكبير.

وكذلك سنة مولانا عز وجل في الدنيا تمنح يوماً وتمنع يوماً، ويتعاقب فيها البؤس والنعيم، فلا يدوم سرور على بشر ، ولا تدوم عظمة لمكان أو مخلوق وإنما العظمة لله تعالى، وليس للمخلوق منها شيء.

نحن الآن - أيها الإخوة- في الدار الخضراء، قصر الخلافة الأموية حيث ولد الوليد بن عبد الملك سنة ٤٧ هـ من زوجة عبد الملك الأولى وهي ولادة بنت العباس، لأن عبد الملك تزوج تسعاً من الزوجات وكان له عدد من الجواري، ومن زوجاته عاتكة بنت يزيد بن معاوية التي لها مقام في حي قبر عاتكة، والوليد وسليمان من أم واحدة شبا في دمشق الشام.

إننا في أزهى عصور بني أمية في الشرق، فإن الوليد بن عبد الملك لما رجع من دفن والده لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

أيها الناس: إنه لا مقدّم لما أحرّ الله، ولا مؤخّر لما قدّم الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحمله عرشه: الموت، وقد صار إلى منازل الأبرار ولي هذه الأمة بالذي يحق عليه الله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور، وشنّ هذه الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً.

أيها الناس: عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد.

أيها الناس: من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي منه عيناه، ومن سكت مات بدائه». .

فلما انتهى الوليد من خطبة العرش قام الناس إليه فبايعوه.

أيها السادة : استلم الخليفة الوليد الخلافة والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة، فحوّل همه إلى عمارة المملكة والفتوح العظيمة، ففي عهده اشتهر القواد العظام

أمثال: فاتح المشرق الإسلامي محمد بن القاسم بن محمد الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي الذي وصل حتى حدود الصين.

وفاتح المغرب العربي والأندلس موسى بن نصير، ومولاه طارق بن زياد اللذين أدخلوا الإسلام إلى القارة الأوروبية.

وفاتح بلاد الروم مسلمة بن عبد الملك بن مروان القائد الفاتح الذي هابت سطوته الروم .

ومن حسنات الخليفة الوليد بن عبد الملك عمارة المباني العظيمة كمسجد المدينة المنورة والمسجد الأقصى والجامع الأموي بدمشق، وكان إذا عمّر المساجد زخرفها بأساطين الرخام وجعل على رؤوسها الذهب وكسى الحرم بالرخام من داخله، وكساها بلوحات الفسيفساء وهو أول من ذهب الكعبة المشرفة وفرشها بالرخام في الإسلام، وهو الذي وضع الميزاب الموجود اليوم على ظهر الكعبة، ووضع على بابها الصفائح، ولم يعارض أحد من بقايا صحابة سيدنا رسول الله ﷺ .

وقد كتب إلى عامله على المدينة المنورة سيدنا عمر بن عبد العزيز وكان قد تولى ولاية المدينة المنورة سنة ٨٧ هـ: أ أن يهدم المسجد النبوي وبيوت أزواج الرسول الأعظم ويؤدّخلها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخرة ونواحي المسجد ليتسع حتى يكون مئتي ذراع في مثلها).

وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنايين من الشام، وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ ويطلب منه أن يعينه فيه. فبعث إليه بمئة ألف مثقال ذهب، وبعث إليه بمئة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملاً، وترك حجرة السيدة عائشة التي فيها قبور سيد الأم وصاحبيه. وجعلها خمسة الأضلاع حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم.

وكذلك اهتم لبناء جامع بني أمية الكبير بدمشق واحتفل له احتفالاً عظيماً، وبقي في بنائه عشر سنوات مدة خلافته كلها وقد كان هذا المسجد كنيسة سيدنا

يحيى، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة فحولوا الجانب الشرقي مسجداً، وبقي الجانب الغربي كنيسة من سنة ١٤ إلى سنة ٨٦ هـ فعزم الوليد على أخذ بقية الكنيسة منهم وعرضهم عنها كنيسة مريم، فهدم نصف الكنيسة الثاني وضمه إلى مسجد الصحابة وجعله على هيئة بديعة لا يعرف له نظير في البنيان والزينات والعمارات.

وقد جاء إليه أساقفة النصارى وقساوسهم فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال الوليد:

- أنا أحب أن أجن في الله تعالى. وأمسك بالفأس ثم كبر وضرب رأس مذهبهم الأكبر، وكبر المسلمون وتبادروا إلى الهدم، ثم بناه بالرخام والرصاص وزينه بالفسيفساء كل ذلك من ماله الخاص وقال لأهل الشام رضي الله عنهم:

- يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع.

ووضع في قبلته صفائح أربع مذهبة فيها الآيات القرآنية وقصار السور.

وبقي بعض من هذه الفسيفساء إلى أيام الحريق الأخير الذي حدث للجامع الأموي سنة ٣١٠ هـ .

وهو الذي بنى المئذنة الشمالية مأذنة العروس، وكان فيه قبل مئذنتين، وحين حرق النصارى المئذنة الشرقية للجامع جددت من أموال النصارى بحجارة بيضاء وهي - والله أعلم - الشرفة التي ينزل عليها سيدنا عيسى بن مريم آخر الزمان بعد خروج الدجال، باختصار كان الجامع الأموي الذي بناه الوليد على غير سابقة أحد عجائب الدنيا.

معشر الإخوة الكرام: اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى المسجد النبوي الشريف لنزور معاً بأرواحنا سيدنا رسول الله ﷺ ونشهد معاً الخليفة الأموي الوليد وهو يزور المدينة المنورة ليطلع على تجديد بنائه للمسجد النبوي.

فقد حج الوليد سنة ٩١ هـ ودخل مدينة سيدنا رسول الله ﷺ ثم مسجده فأخرج الحرسُ الناس منه إلا واحداً لم يجترئ أحد منهم أن يخرجوه، أتدرون من هذا؟ إنه سيدنا سعيد بن المسيب سيد التابعين وفقهه الفقهاء في عصره الذي ولد في خلافة الفاروق في اليمن ، قالوا له: لو سلمت على أمير المؤمنين؟! فأبى أن يقوم إليه، وكان سيدنا سعيد فقيهاً محدثاً أديباً شاعراً عابداً زاهداً بقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو في مسجد رسول الله ﷺ ، ولم يكن يبدل مكانه في الصف الأول.

يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم ويخرج إلى بيته، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة. فقال: من ذلك الجالس؟.... أهو الشيخ سعيد بن المسيب؟

فجعل سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك، وهو ضعيف البصر قال (اسمعوا العظمة، انظروا تعظيم العلماء) قال الوليد: نحن نأتيه فنسلم عليه.

فدار في المسجد حتى وقف على المنبر، ثم أقبل حتى وقف على سيدنا سعيد بن المسيب فقال: - كيف أنت أيها الشيخ . فلم يتحرك سعيد ولم يقم وقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟

قال الوليد: خير والحمد لله .

فانصرف الوليد وهو يقول: هذا بقية الناس. فقال سيدنا عمر: أجل يا أمير المؤمنين. وهكذا نرى أن الوليد لم يتجبر ويتكبر وقد ملك ثلث الأرض، وأن سيدنا سعيداً بن المسيب لم يُذهب دينه بمداهنة السلطان ولم يحطَّ من مرتبة العلماء، أتعرفون لماذا؟ لأنه لا يبيع دينه ولا يملك الأرض كلها. فماذا كانت النتيجة؟ ماهي نتيجة من يعز الإسلام والعلم الشرعي، إن الوليد أرسل رسولاً إلى سيد التابعين

سيدنا سعيد يخطب ابنته لولده، وتوقع الناس أن يطير ابن المسيب فرحاً بهذه النعمة، ولكن موازين ابن المسيب كانت غير موازين الناس، فماذا تفيده دنيا الوليد إن أذهبت ابنته بهذه الدنيا دينها، إن الرجل الدّين الحسن الخلق الفقير خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين، لأن هذا يكون لها وحدها، وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري ومن تدرى ومن لا تدرى.

وإذا كان لك عبد مخلص يحبك ويشكر فضلك ويطيع أمرك وأرسلته بأمانة ليدفعها إلى زيد فأعطاها عمرا هل تكون عنه راضياً، كذلك أنت أيها الأب، إنك عبد الله والبنت أمانة عندك، وقد أمرك مولاك أن تعطيه لمن يماثلك في مسلكك ومشربك ويرضيك دينه وخلقه فإن رفضته وبحث عن الغني أو جعلت بنتك سلعة تباع فقد أسخطت ربك وآذيت بنتك، ويا آخذ القرد على ماله...

وهل البنت فرس أو نعجة حتى تباع لمن يدفع فيها الثمن الأكبر، وماذا يفيدك كثرة المهر، والزواج إذا كان موفقاً كان لها ماله وله مالها، وإن لم يكن موفقاً لم ينفع البنت ما أخذت من مال.

فكر ابن المسيب في كل ذلك فقال لرسول الخليفة: لا، رفض أن يعطي ابنته لأmir المؤمنين.

هل تعلمون لمن زوّجها، زوجها لتلميذ له اسمه عبد الله أبي وداعة، متين الدين، رضي الخلق، انقطع عن الدرس ليمرض زوجته التي توفيت بعد ذلك، ثم راح يبرر سبب غيابه عن الدرس لشيخه ابن المسيب. فقال له: هل تزوجت غيرها؟ قال: لا. ومن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم. قال سيدنا سعيد: أنا. وزوجها لتلميذه.

هل سمعتم مثل هذا الموقف. ابن المسيب رفض ابن أمير المؤمنين الذي يملك ما بين البحر الأطلنطي وجبال الصين بزواج لا يملك إلا أربعة دراهم.

اسمعوا بقية الحدث: ذهب ابن أبي وداعة إلى بيته وهو لا يصدق. فلما كان المساء قرع الباب، فقال من؟ قال: سعيد. يقول ابن أبي وداعة: مرّ على بابي كل

سعيد في الدنيا أعرفه إلا سعيد بن المسيب، لأنه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة، ولا رأيي إلا بين بيته والمسجد. ففتح الباب فرأى شيخه أمامه. قال له ابن المسيب: كرهت أن يسألني الله عن وحدتك. ولك زوجة فجئت بها ودفع العروس. هكذا بلا حفلات ولا عرس ولا جهاز (نكاية بالأغنياء).

ترى هل كان فيها عيب من العيوب وأراد ابن المسيب أن يتخلص منها؟ مازلنا في الحدث: يقول- ابن أبي وداعة: ورأيته أجمل امرأة وأكملها. ولما انتهت الأيام السبعة قام ليذهب إلى المسجد فقالت: إلى أين؟ قال: إلى مجلس سعيد. فقالت: أقعد أعلمك علم سعيد. فإذا هي عالمة محدثة، وكان العلماء يعيون بالمسألة فيرجعون إليها (وهذا الموقف نكاية بالطالبات السافرات) اللواتي يشترين الدنيا بترك الدين، وتوفي سيدنا سعيد بن المسيب سنة ٩٤ هـ (١)

أيها الأحبة :

إننا في عهد ملك من ملوك بني أمية الذي حقق خلال خلافته التي دامت عشر سنوات الحلم الذي لا يزال يتعلل بذكره قادة الدول والملوك، حلم العدالة الاجتماعية، لأن الخليفة الوليد جعل الأمة كلها أسرة واحدة ليس فيها عاجز ولا محتاج، وفعل في القرن السابع الميلادي ما لم تفعل مثله دولة في القرن العشرين، إن الوليد بن عبد الملك قضى على الفقر والمرض والجهل، أحصى المرضى ذوي المرض المزمن ورتب لكل منهم خادماً يخدمه وهو في داره وأجرة هذا الخادم على خزنة الدولة، وجعل لكلٍّ أعمى مرافقاً يقوده وأجرة هذا المرافق على خزنة الدولة، وجمع الأيتام فجعل لهم مدارس مجانية، وتولت الخزينة الإنفاق عليهم، وحارب الجهل بأن جعل للفقهاء والعلماء رواتب من خزنة الدولة، ومنع الشحادة والسؤال ورتب للفقراء العاجزين ملاجئ وقرر لهم رواتب يعيشون منها ليستغنوا عن سؤال الناس.

(١) أنظر كتابنا القضايا الإسلامية ج ٤ / ١٣٢٠

معاشر المسلمين :

وفي عهد الوليد سنة ٩٥ هـ توفي سفاك العراقيين وطاغيته الحجاج بن يوسف الثقفي وكان ولد سنة ٤٠ هـ وحكم عشرين سنة على العراق والمشرق ، والحجاج - أيها الإخوة - ممن نسبته ولا تحبّه بل نبغضه في الله تعالى كما نبغض كل مثاله متكبر متجبر، وإن كان له حسنات فهي مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله تعالى. وإنما يهمننا اليوم موقفاً له مع سيدنا أنس بن مالك خادم سيدنا رسول الله ﷺ فقد دخل عليه فأغلظ له الطاغية القول، فأرسل الصحابي إلى الخليفة بما فعله معه، فهدده الخليفة الحجاج الطاغية وأنذره وتوعده أن يعود لمثلها).

إخوة الإيمان :

اسمحو لي أن أنقل لكم هذا المشهد لنأخذ منه العبرة والعظة، فقد دخل سيدنا أنس على الحجاج مرة ثانية فقال له الحجاج: لولا خدمتك لرسول الله ﷺ وكتاب أمير المؤمنين فيك كان لي ولك شأن، فقال سيدنا أنس: ايهات ايهات لما غلظت أرنبتي، وأنكر رسول الله ﷺ صوتي، علمني كلمات لم يضرني معهن عتو جبار ولا عنوته مع تيسير الحوائج ولقاء المؤمنين بالحبّة.

فقال الحجاج؟ لو علمتنيهن. قال؟ لست لذلك أهلاً.

فدس إليه الحجاج ابنه ومعهما مئتا ألف درهم وقال لهما: الطفا بالشيخ عسى أن تظفرا بالكلمات ، فلم يظفرا بها، فلما كان قبل أن يموت سيدنا أنس بثلاث وكان قد بلغ مئة عام أو يزيد وهو آخر من توفي من أصحاب رسول الله ﷺ في البصرة ، فقد توفي سنة ٩٣ هـ. قال لخدمه أبان: دونك هذه الكلمات ولا تضعها إلا في موضعها وعلمه إياها، وهي:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

بسم الله على نفسي وديني، بسم الله على أهلي ومالي، بسم الله على كل شيء أعطانيه ربي بسم الله خير الأسماء، باسم الله رب الأرض والسماء، بسم

اللَّهُ الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، بسم الله افتتحت، وعلى الله توكلت.

اللَّهُ، اللَّهُ ربي لا أشرك به شيئاً.

اللَّهُم إني أستجير بك من كل شيء، خلقت، وأحترس بك منهم، وأقدم بين يدي، بسم الله الرحمن الرحيم و (يقرأ سورة الإخلاص) - ومن خلفي - وعن يميني - وعن شمالي - ومن فوقي - ومن تحتي (ويقرأ سورة الإخلاص بعد كل واحد منها). يقول سيدنا أبان: فقد أعطاني الله تعالى مثلما أعطى أنساً (من الحفظ والعصمة من الظلمة والطواغيت).

أيها المؤمنون :

عاش الحجاج ٥٥ سنة، وفي السنة التي توفي فيها قام بقتل سيد أهل عصره من التابعين سيدنا سعيد بن جبير الصالح التقي - وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه، وهو من أكابر أصحاب ابن عباس، يقرأ القرآن كله في ركعة واحدة في جوف الكعبة^(١) وقبل أن يموت دعا الله تعالى ألا يسقطه على أحد بعده فما عاش بعده أكثر من أربعين يوماً، وكان يراه في منامه وهو يمسك بثوبه وهو يقول: ياعدوا الله فيم قتلتي.

ولما بلغ الحسن البصري قتل الحجاج لسيدنا سعيد بن جبير قال: اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج فما بقي إلا ثلاثة أيام حتى وقع دود في جوفه فأنتن منه، ومات غماً وهماً وكمداً، وراح كل من يسمع بموته يسجد لله شكراً، وكان في سجنه لما أهلكه الله تعالى أكثر من ثمانين ألف سجيناً، ولما عرف أنه ميت لا محالة راح يناجي مولانا عز وجل ويقول: اللهم اغفر لي فإنهم يزعمون أنك لا تفعل:

إِنَّ الموالى إذا شابت عبيدهم في رِقِّهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرمًا قد شبت قي الرق فاعتقني من النار

(١) انظر كتابنا الشخصيات الإسلامية الحلقة ٢٤ .

أيها المسلمون :

أعود بكم إلى هنا، إلى قصر الخضراء، ولكن القصر لا يضحك بالبشر، ولا يرقص من الفرح، إنه واجم كئيب لأن ضيف الخليفة مريض وقد حشد له الأطباء فجاؤوا من كل مكان، وحملوا معهم كل دواء.

هل تدرون من هو هذا الضيف؟ أي أمير هو من أمراء البيت الأموي؟ أي ملك من ملوك الأرض؟ أي قائد؟ إنه أعز من كل أمير، وأكبر من كل قائد، إنه عالم من أجل علماء المسلمين، وأعجب من ذلك أنه من الأسرة التي طالما عادت بني أمية وناصبتها الحرب، ونازعتها الملك بالسيف، وكادت تهد عليها عرشها، إنه من آل الزبير بن الدوام إنه سيدنا عروة بن الزبير شقيق الخليفة الشهيد عبد الله وابن أبيه وأمه، فقد حقق الله له أمنيته فأصبح من فقهاء المدينة الأعلام وقد ولد سنة ٢٣ هـ، وكان إذا جاءت أيام التمر والرطب ثقب جدار بستانه فيدخل الناس فيأكلون ويحتلمون^(١) هذا هو ضيفنا اليوم وضيف الخليفة الذي كان يقرأ ربع القرآن كل ليلة يقوم به في الليل، فما تركه حتى هذه الليلة، ليلة مابعدا ليلة إلا الموت، فقد قرر الأطباء أنه لابد من قطع رجل عالم المدينة، وجزع الخليفة ولم يدع باباً من أبواب الترغيب والترهيب إلا فتحه لهم، وعرض عليهم كنوز الخزان ولكنهم عجزوا.

يا أحباب رسول الله :

إليكم وصفاً لهذه العملية الجراحية التي تمت قبل ألف وثلاثمئة سنة، في الوقت الذي كان أهل أورية يسرحون فيه مع الأنعام.

إنني أنقل لكم هذه العملية على الموجة الإيمانية التي بثها لنا سيدنا عروة بن الزبير، فقد عرض عليه الأطباء الخمر ليسكروه فلا يحس بألم القطع فأبى، وقال: لأستعين على قدر الله بمعصية الله.

(١) انظر كتابنا الشخصيات الإسلامية الحلقة ٢٢ .

فراودوه على أن يشرب المرقّد (البنج) فقال: لا، فإني مأحِب أن أُسَلِّب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك لأحتسبه عند الله تعالى.

وعجب الأطباء كيف سيحتمل هذا الشيخ الألم، ولم يدروا أن عنده ماهو أشد أثراً من المسكر ومن المرقّد، لديه شيء يستطع أن يغيب به عن الدنيا كلها، وينساها ولا يعود إلى التفكير فيها، إنه شبيه بأخيه سيدنا عبد الله قال لهم:

- إني سأدخل في الصلاة، فإذا رأيتموني استغرقت فيها فشأنكم برجلي. ودخل في الصلاة، وراح يتلو كتاب الله لا كما نتلوه نحن بالستتنا وقلوبنا في غفلة عن الله تعالى، بل تلاه بلسانه وقلبه وروحه، وبدأت العملية الجراحية، قطعوا اللحم بالسكين المحمى بالنار (للتعقيم) حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار، وهو لم يهتز يتلو كتاب الله، وقد جلله العرق، ثم عمدوا إلى طريقة التعقيم: حموا الزيت في مغارف الحديد حتى إذا غلى كواه به فأغمى عليه.

وأبى الخليفة أن يشهد العملية الجراحية إكراماً للشيخ، وأي شيخ؟ أن يضع جميع عمام عصور الانحطاط في جيبه الصغير، ولما أفاق الشيخ الجليل من غشيته رأى القدم في أيديهم فأخذ يقلبها وهو يقول:

- أما والذي حملني عليك، إنه ليعلم أني مامشيت بك إلى معصية قط. وإنه لفي غمرة هذا المرض صاح صائح: مات ابن الشيخ، ابنه محمد بن عروة، الشاب العالم الصالح الذي كان أمل أبيه وكان قرّة عينه، دخل الاصطبل ليخرج فرساً له فرمحه فمات لساعته.

وترنح الشيخ ثم تماسك ولم يغادره إيمانه لحظة واحدة، ومازاد على أن قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

وقدم على الوليد من الغد وفد بني عبس، وفيهم رجل ضرير فسأله ماحاله فقال:
- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَت لَيْلَةٍ فِي بَطْنِ وَاِدِّ، وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي، فَطَرَقْنَا سَيْلَ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مُوَلُودٍ، وَكَانَ

البعير صعباً فنَدَّ فوضعت الصبي واتبعت البعير، فلم أجاوز إلا قليلاً حتى سمعت صيحة ابني ورأيت رأسه في فم الذئب وهو يأكله، فلحقت البعير لأحبسه فرماني فذهب بصري.

فقال الخليفة الوليد: أرسلوه إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أشد منه مصاباً. واتعظ عروة وقال: اللهم إن كنت أخذت طرفاً لقد أبقيت أطرافاً، وإن كنت أخذت ولداً لقد تركت أولاداً، فلك الحمد على ما أعطيت وما أخذت، وتوفي عروة في سنة ٩٤ هـ في خلافة الوليد.

يا أمة الحبيب الأعظم :

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يلحن في الكلام وحرص على دروس النحو فما نفع، قرأ مرةً على المنبر:

(ياليئها كانت القاضية) بضم التاء، فقال له سيدنا عمر بن عبد العزيز:

- ياليئها كانت عليك وأراحتنا منك.

وفي أواخر أيام الوليد أمر موسى بن نصير أن يكفَّ عن التوغل في الفتوحات في الأندلس، ورتب العمال والولاة لكل ما افتتحه من مدن، ونظم أحوال المغرب العربي كله، وعاد موسى بن نصير راجعاً إلى المشرق بالهدايا والغنائم. ولكن المنية وافت الوليد بدمشق سنة ٩٦ هـ الموافق سنة ٧١٥ م، وله إحدى وخمسون سنة وكانت خلافته حوالي عشر سنوات ودفن في باب الصغير.

وتولى الخلافة بعده أخوه سليمان بن عبد الملك الذي ولد في دمشق سنة ٥٤ هـ وحين مات أخوه كان بالرملة فلم يتخلف عن مبايعته أحد، وكان طويلاً جميلاً، كبير الوجه، مقرون الحاجبين، فصيحاً بليغاً متوقفاً عن الدماء، فما أن تولى الخلافة حتى أطلق الأسرى، وأخلى السجون، وعفا عن المجرمين وأحسن إلى الناس، وكان طموحاً إلى الفتوح، إذ جهز جيشاً سنة ٩٨ هـ وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك فحاصروا القسطنطينية حصاراً طويلاً، وفتح بلاداً كانت في أيدي الترك،

ولكن أساء معاملته موسى بن نصير فاتح إفريقية والأندلس . والحسنة العظيمة التي كانت له هي اتخاذه لسيدنا عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً ثم عهده بالخلافة إليه ثم من بعده لأخويه يزيد وهشام ابني عبد الملك، إذ أن خلافته لم تطل، فمرض من طول حصاره مع جيشه للقسطنطينية، ووقف مرة أمام المرأة في يوم جمعة وقد لبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر، وقد بسط ماحوله بالخضرة، ثم نظر في المرأة فأعجبه حسنه فقال وهو ينظر في المرأة:

كان محمد نبياً، وكان أبو بكر صديقاً، وكان عمر فاروقاً، وكان عثمان حياً، وكان علي شجاعاً، وكان معاوية حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب. فحسد نفسه فازداد مرضاً فلم يمض عليه شهر حتى مات، ولما حضرته الوفاة بقي يكرر الشهادتين حتى قبض ومات سنة ٩٩ هـ بعد أن حكم سنتين ونصف تقريباً، وكان عمره ٤٥ سنة.

فكيف فتحت الأندلس في عهده؟

ومن هو الخليفة بعده، من هو الخليفة الراشدي السابع، من هو مجدد القرن الأول الذي أعاد بهاء الخلافة الراشدة؟ أعلق هذه الأسئلة إلى الجمعة القادمة وما بعدها إن شاء الله تعالى، فلا تغيبوا عن حضور خلافة هذا الإمام العلم فإن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين.

هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك.

(١٢١)

الملك ١١ و ١٢

فتح الأندلس

الحمد لله ثم الحمد لله ، ﴿ الحمد لله الذي هذا هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ ، وما توفيقى واعتمادى وتوكلى واعتصامى إلا بالله .
الحمد لله الذي يؤيد من يشاء بنصره ، ويجعل الذل والصغار على أهل عصيانه وكفره ، فسبحانه من إليه يطلع على سرّ العبد وجهه .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في أمره .
وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليفه ، المؤيد بتأييده وقهره .
اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وحزبه ، وسلّم تسليماً كثيراً .
أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام : ما زلنا في هذه المدرسة مدرسة الخلفاء ، وقد قاربنا على الخليفة الأخير ، لكنني أرى حدثاً عظيماً كان في رمضان ، وما أدراك ما رمضان ؟ شهر أعزّ الله فيه الإسلام ، ورفع رايته على بقاء الأراضي الإسلامية ، فهذا الشهر حافلٌ في الأحداث التاريخية الهامة التي غيرت وجه التاريخ ، وكان للمؤمنين الصابرين فيها أثرٌ محمود وجهاد مرير حتى سجّل التاريخ أسمائهم على مرّ الزمان بحروفٍ من نور ، فأَيُّ شهرٍ من الشهور فيه مثلُ هذه الأحداث التي سجّلت التاريخ للمسلمين؟ وسجّل لهم التاريخ تاريخاً ناصعاً مشرفاً مشرقاً. لذلك كان سيدنا رسول الله صادقاً وبلغياً حينما وصفه بقوله : « أيها الناس قد أظلكم شهرٌ عظيمٌ مبارك » إنه عظيم لما فيه من الأحداث العظيمة التي أكسبت المسلمين

مجدداً خالداً وهو مبارك لما نتج عن هذه الأحداث من خيرٍ وبركةٍ عمّت المسلمين بل العالم كله.

١ . غزوة بدر ، وما أدراك ما غزوة بدر ، يوم التقى الفريقان: فريق الإيمان وفريق الكفر لأول مرة في التاريخ .

٢ . فتح مكة المكرمة هذا الفتح العظيم الذي حطمت فيه الأصنام وظهر فيها البيت الحرام ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ودالت دولة الشرك والأصنام ، وأنزل فيها مولانا ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

٣ . وفي رمضان كانت موقعة عين جالوت في فلسطين ضد جيوش التتار سنة ٦٥٨ هـ في ٢٥ رمضان وما هي إلا جولة صادقة حتى سقط القائد كتبغا قتيلاً وابنه أسيراً وجيشه مصرعون في حومة القتال .

٤ . وفي رمضان سنة ٥٨٢ هـ قاتل صلاح الدين الصليبيين في سوريا ، واستخلص منهم البلاد التي كانوا قد استولوا عليها من قبل .

٥ . وفي رمضان سنة ٩٢٢ هـ للهجرة وصل السلطان سليم إلى مصطبة القابون ولما أطلق البارود في المصطبة ظن أهل دمشق أن السماء أطبقت على الأرض .

٦ . وفي رمضان سنة ١٣١١ للهجرة افتتح المسجد الأموي بعد الحريق الكبير الذي أصابه في ربيع الثاني تلك السنة .

٧ . وفي رمضان سنة ٩٢ هجرية فتح الله تعالى الأندلس للمسلمين وانتصر طارق بن زياد على الملك لزريق عند نهر لكّا ، أتدرون كيف فتحها ؟

ذهب طارق بن زياد على رأس جيش من ٧٠٠٠ / آلاف كل واحدٍ منهم مثلنا يقول لا إله إلا الله ، وسار على موج البحر بالسفن العسكرية ، فإذا به يتراعى على سمعه أن الإسبان قد جمّعوا جموعهم حتى بلغوا ١٠٠,٠٠٠ / مقاتل على رأسهم ملكٌ لزريق ، فماذا يفعل سيّدنا طارق ؟ أيرسل إلى لواء الإسلام سيّدنا موسى بن نصير يخبره بذلك ويطلب منه نجدةً ومدداً ، أمّاذا يفعل ؟ ونام سيّدنا

طارق تلك الليلة وهو يتفكر بالحل الأمثل ، لكنّه نام وهو على ثقةٍ و يقينٍ بـالله ربّ العالمين ، ومن وثقَ بـالله فإنَّ الله لا يخيبُ ثقته ، إذا به يرى في منامه سيدنا رسول الله ﷺ رآه يمشي على أمواج البحر ووراءه سيدنا أبو بكر ، ووراء أبي بكر سيدنا عمرُ ووراء عمر سيدنا عثمان ، ووراء عثمان سيدنا عليٌّ وهم متوجّهون إلى طارق بن زياد قال له سيدنا رسول الله ﷺ : السلام عليك يا طارق أنا محمدٌ رسول الله .

صلة الرسول ، يدير المعارك وهو في الرفيق الأعلى ، لا يرسل إلى البيت الأبيض ولا إلى البيت الأحمر ، بل يُقدّم بنفسه إلى أحبائه إلى المؤمنين به ، هذه هي الاتصالات بين القائد الأعلى للأمة الإسلامية ﷺ وبين أولوية الإسلام ، اتصالات لاسلكية ، بل قلبية ، ليست اتصالات بموسكو أو بواشنطن ، ليست اتصالات شرقية أو غربية لأنَّ نور الله ﷻ ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ نورٌ يسري في القلوب، اتصالات بين القلوب (يا طارق أنا محمدٌ رسول الله ﷻ) محمد بنفسه صاحب الإسراء والمعراج ، محمدٌ ، لا سفيره ولا نائبه ولا مندوبه ولا مبعوثه ، محمدٌ بنفسه ، « ومن رآني في المنام فقد رآني حقاً فإنَّ الشيطان لا يتمثل بي » (يا سعد من صلّى عليه) .

إنها القلوب المؤمنة العامرة بالإيمان ، إنَّ جهاز الإرسال سليم وجهاز الاستقبال سليم، جهاز الاستقبال طارق ، وجهاز الإرسال قلبُ سيدنا محمد ﷺ : . يا طارق بن زياد أنا محمدٌ رسول الله ﷻ ، اقدم ولا تتأخر ، فإنَّ الله تعالى سينصرك على أعدائك ، فلا تخف ولا تتردد .

سرت هذه الكلمات كالكهرباء التورانية في جسد طارق ، مدد إلهي سرى إلى قلب طارق فثبته ، ومن قلب طارق إلى قلب جنوده ، إنَّ العقيدة إذا ثبتت في القلب ثبت الكيان كله ، وإذا اهتزت في نفس المؤمن اهتزَّ الكيان كله .

ودخل سيدنا طارق أرض إسبانيا ، وما أن نزل على الشط حتى أعطى الأمر العسكري بإحراق السفن ، ثم توجه إلى جنوده وألقى فيهم كلمة الحرب .

إخوة الإيمان : أنتقل بكم إلى هناك فالخطب جلل ، والثقة بالله على أشدها ، والإيمان قد بلغ ذراه ، واسمعوا معي إلى هذا الخطاب الموجز البليغ الذي قلب موازين الموقف قال طارق : « أيها الجند البحر من ورائكم ، والعدو من أمامكم ، وليس لكم والله إلا التقوى والصبر ، **﴿وما النصر إلا من عنده﴾** » .

هذا هو الدرس اليوم ، إنَّ النصر من المنتصر ، وإنَّ القوة من القوي ، وإنَّ المسلمين لا يؤمنون بالكثرة ولكن يؤمنون بالواحد الأحد ، لم يقل إننا نملك أسطولاً جويّاً من الفاتوم ، إف ١٥ ، أو نملك الأسطول السادس أو السابع أو المئة ، إنَّ العقيدة إذا تمكنت من قلوب الرجال تحرك الجبال من أماكنها . وحلّوا الله .

إنني لأذكر تماماً سيف الله المسلول سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما بعثه الخليفة الصديق لقتال فارس (الفرس) فوصل سيدنا خالد فوجد أن عدد الفرس (١٢٠٠٠٠) وأنَّ عدد جنده لا يتجاوز ٢٠,٠٠٠ فماذا يفعل؟ أرسل رسالة إلى الخليفة الصديق رضي الله عنه ليطلب منه نجدةً ومداً ، فأرسل إليه الصديق القعقاع بن عمرو ، فارس من فرسان المسلمين ، وأرسل معه رسالةً ، ونظر سيف الله على طرف الصحراء المترامية ليرى هذا الجيش الجرّار القادم ، فكم جيشاً أرسل له الصديق ؟ كم كتيبةً أرسل إليه ؟ كم فصيلة ؟ كم مجموعة ؟ كم طائفة ؟ كم دبابة ؟ كم مدفعاً ؟

أرسل إليه رجلاً واحداً هو القعقاع بن عمر ، ورأى خالد القعقاع يمشي على أطراف الصحراء وحيداً ، فلما وصل إليه قال له : ألم يرسل خليفة الله سواك ؟! قال : لا ، وأرسل لك معي رسالةً . ففتح سيدنا خالد بن الوليد الرسالة فقرأ فيها :

أما بعد : فلعلك تعجب أن أرسلت إليك رجلاً واحداً هو القعقاع بن عمرو ولكنني أقسم بالله إن جيشاً فيه القعقاع بن عمرو لا يغلبه أحد .

بالإيمان ، بالعقيدة في القلب ، فماذا فعل سيدنا خالد ؟

أرسل إنذاراً إلى كسرى وقال له : يا كسرى أسلم تسلم ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

هؤلاء صحابة نبينا الأعظم ، فارتعدت أوصال كسرى ، وتفككت أعصابه ، وأرسل رسالةً إلى حاكم الصين يطلب النجدة والمدد ، فردَّ عليه حاكم الصين قائلاً : يا كسرى لا قبل لي بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها .

لخلعوها بالإيمان والعقيدة ، لا تستعينوا بالبيت الأبيض ولا بالبيت الأحمر بل استعينوا بالله ، إن الناصر الحقيقي هو الله ، هو الناصر الحقيقي ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ استعينوا بالله : نزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين ، وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين خير لي من أن أقف على بابٍ غير باب الله يضع فيه ماء عيني ، (وإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) لا إله إلا الله .

ودخل طارق أرض إسبانيا في سنة ٩٢ للهجرة ، وما هي إلا ساعات حتى رفع راية لا إله إلا الله في أرض المعركة . وأصبحت الأندلس قطعة من أرض التوحيد من سنة ٩٢ إلى سنة ٨٩٦ هجرية ، ثمانية قرون على التمام والكمال ، ثم دخلت الدنيا في قلوب حكام الأندلس وضاع الملك بعد ثمانية قرون ، بعد معركة يقال لها معركة الزلاقة بقيادة الإسفنج الكافر ، ورأى هذا القائد في المنام رؤية أفلقتة رأى نفسه وهو يركب فيلاً وأمامه تنقر الطبول فجمع الرهبان والقساوسة وحكى لهم الرؤية . فقالوا له : أبشر أيها القائد بالنصر ، فركوب الفيل مجد ودق الطبول نصر .

لكن القائد الكافر قال : أنا لأثق بهذا التفسير فأرسلوا إليّ واحداً من أتباع محمد (اللهم اجعلنا من أتباع سيدنا محمد) فقدم إليه رجلٌ عالم مسلم يدعى محمد بن

القاسم بلغ من صلاحه وتقواه أنّه رأى في تلك الليلة سيّدنا رسول الله ﷺ ، قال له النبي الكريم : يا محمد قم فتوضأ وصل فإنك اليوم ستبيت عندنا شهيداً .

قدم هذا العالم إلى الكافر الإسفنج وقال له : نعم ماذا تريد ؟ قال له القائد : رأيت في منامي أنني أركب فيلاً وأمامي قومٌ ينقرون الطبول ، فما هو تأويل رؤياي . فقال العالم المسلم مباشرةً : أبشر بالهزيمة اليوم يا عدو الله ﷻ . فانتفض وثار وقال : وكيف ذلك؟ قال محمد : أفسرها لك من كتاب ربّي جلّ جلاله ، سوف أفسرها لك من القرآن الكريم . قال العالم المسلم : أما ركوبك الفيل فقد قال الله تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجين فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾ قال فما تقول بنقر الطبول ، فقال : من القرآن : فإن مولانا يقول :

﴿ فإذا نُقِرَ في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ . هذا هو العلم ، وهؤلاء هم العلماء لا يخافون إلا الله ﷻ . أتعرفون لماذا ؟ لأن وجهتهم ﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ وأصبحت الأندلس بعد ثمانية قرون غير إسلامية ، وأصبح البحر الأبيض بحيرة غير إسلامية بعد أن كان بحيرة من بحيرات الإسلام .

أيها السادة الكرام : علاجنا في العودة إلى الله ﷻ ، من أراد النصر فليطلبه من الناصر ، ومن أراد العزة فليطلبها من العزيز ، لا تطلبها من شرق ولا من غرب ، من أراد العزة ﴿ فله العزة جميعاً ﴾ ﴿ والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم ، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله ﷺ :

وَسَلَامٌ
عَلَيْكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ

(١٢٢)

سابع الخلفاء الراشدين

سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) ٦٢-١٠١ هـ

الحمد لله الذي رفع منازل المخلصين، وتجلّى بالرضوان على المطيعين والمحسنين
أحمده حمد المنيبين إليه، وأشكره شكر المعتمدين عليه.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل في محكم كتابه: ﴿وما أمروا
إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾.
وأشهد أنّ سيدنا وحيبنا وعظيمنا وقائدنا وأميرنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً
عبده ورسوله، المرسل رحمة للعالمين، الصادق الأمين المبلغ كلّ ما أمر بتبليغه من
ربّ العالمين، القائل: (إنّ الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مئة عام من
يجدد لهذه الأمة أمر دينها).
اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم
سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الهداة المهتدين، والتابعين لهم بإحسان إلى
يوم الدين. وسلم تسليماً.
أما بعد:

فتنح اليوم على موعد مع الحلقة الأخيرة الخامسة والعشرين من سلسلة تاريخ
الخلفاء، هذه السلسلة التي بدأناها بالحديث عن سيرة سيد المرسلين ﷺ ، وها نحن
ننهينا بسيرة إمام عظيم، وحاكم عادل، حاكم لا نراه إلا مرة واحدة كل مئة سنة،
وليس من أمثاله في تواريخ الأمم كلها إلا آحاد ، كان علماً: العلماء الكبار تلامذة
أمامه، وكان كاتباً: الكتّاب البلغاء مبتدئون لديه، وكان دّيناً : دين فعل لا دين
قول، دين إخلاص وخلوة لا دين رياء وإعلان، كان يتواضع لله حتى ليكبر عنده

الصغير والمسكين، ويشتد حتى ليزل عنده الطاغية الجبار، كان يعيش عيش الفقر وبيده خزائن

الأرض، ويحيا حياة العفاف والحرمان وتحت سلطانه كل جميلة في الدنيا*
إنه مَلِكٌ لولا أنه كان بشراً لقلت إنه مَلِكٌ ، إنه أشج بني مروان الذي قال عنه الخليفة الفاروق سيدنا عمر بن الخطاب: إنَّ من ولدي رجلاً بوجهه شجان يلي فيملاً الأرض عدلاً.

إنه مهدي هذه الأمة وأحد أئمة الهدى والعدل سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه.

كان هذا هو الموجز أيها الأخوة وإليكم الأنباء بالتفصيل.
وقبل أن أُلج إلى الولادة المباركة اسمحوا لي بأن أرجع إلى الوراء أربعة عشر قرناً ، يوم كان مثال العدل والنزاهة يقوم بجولته التفتيشية في الليل على عادته، وقد مرَّ بجباء قوم من الأعراب فسمع امرأة تقول لابنتها:
- اخلطي الحليب بالماء.

قالت البنت: أما سمعت منادي عمر ينهي الناس عن ذلك؟! قالت الأم:
اخلطيه فإنه لا يدري بك عمر ولا منادي عمر.
قالت البنت: ماكنت لأطيعه في الملاء وأعصيه في الخلاء، وإن كان عمر غائباً
فإن ربَّ عمر حاضر يسمعنا ويرانا.

قال سيدنا عمر: لغلّامه: علِّم الخباء. وذهبا.
وقدم عمر في الغد على أولاده بعد أن سأل عن الفتاة فإذا هي يتيمة، قال لأولاده: من يريد الزواج منكم. قال ابنه عاصم: أنا لازوجة لي. فزوجه بها فكانت خير امرأة وأفضلها، فولدت له بنتاً دعاها أم عاصم، ونشأت مثل أمها تقية ورعة.

* انظر رجال من التاريخ بقلم الكاتب الإسلامي الشيخ علي الطنطاوي .

وأراد عبد العزيز بن مروان الزواج، فقال دلوني على امرأة صالحة فدلوه عليها:
فقال لقيمه:

- اجمع لي أربعمئة دينار من طيّب مالي فإني أريد أن أتزوج من أهل بيت لهم
صلاح. فتزوجها فولدت له سيدنا عمر بن عبد العزيز سنة ٦٢ هـ.

فعمر بن عبد العزيز ابن هذه السلسلة التي لم تعرف الباطل في حياتها.
وعبد العزيز بن مروان كان أمير مصر، ولي العهد بعد عبد الملك، عقد له أبوه
بذلك، واستقل بملك مصر عشرين سنة وزيادة، كان سمحاً كريماً، وربى ابنه سيدنا
عمر تربية صالحة؛ إذ أنه وقبل أن يسافر إلى مصر سلّم سيدنا عمر إلى الحبر الإمام
شيخ المسلمين التقي الصالح عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فرباه على عينه،
وتولّى تعليمه معه فحول العلماء والصالحين في عصره: عبيد الله بن عبد الله بن
عتبة، وأنس بن السائب وعبادة وصالح بن كيسان وغيرهم.

وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن الكريم وهو صغير السن، وكانت سيماء الصلاح
والتقوى بادية عليه منذ صغره، دخلت عليه أمه - مرة - فرأته يبكي - وهو غلام
صغير - فقالت له: ما يبكيك. فقال لها: - ذكرت الموت فبكيت.

ونشأ رضي الله عنه في الدلال والنعيم، فقد كان أبوه والي مصر وملكها وولي
عهد الخلافة، وجدّه مروان خليفة، وعمه عبد الملك خليفة، وكانت الثياب التي
يلبسها تصير موضة يقلدها الشباب، وتسمى الموضة العمرية، واتخذ أغلى العطور،
فإذا طلع من أول الشارع هبت من طلوعه نسمة عطرة كأنها نسيمات الروض
الزاهر.

وأدركت والده الوفاة سنة ٨٥ هـ في خلافة أخيه عبد الملك فعقد عبد الملك
ولاية العهد لولديه الوليد وبعده سليمان.

أيها الإخوة: تزوج سيدنا عمر رضي الله عنه فاطمة بنت عبد الملك، السيدة
ذات الحظ السعيد، التي لم تبلغ سيدة من النبالة والأرستقراطية مابلغته هذه السيدة،

فقد كان أبوها عبد الملك خليفة (لا أمير قرية ولا حاكم مدينة) كان الحاكم على ثلث المسكون من الأرض، وجدها مروان خليفة، ثم صار أخوها الوليد خليفة، وصار أخوها سليمان خليفة، وصار زوجها عمر خليفة، وصار أخوها يزيد خليفة، وأخوها الآخر هشام خليفة، وصار ابنا أخيها من بعده خلفاء، فأى سيدة في التاريخ كان من أهل بيتها الأقربين تسعة خلفاء.

ومع ذلك لم تر نفسها على زوجها رغم جمالها، فقد كانت وفية، وكان الحب الذي عاشه مثلاً يضرب للأزواج، وتولى سيدنا عمر في عهد الوليد المدينة المنورة، فاسمعو إلى حاشية الأمير (أمير المدينة) الذي كان عمره / ٢٥ / سنة. لقد جمع طائفة من علماء المدينة وصلحائها وأساتذتها وأنا أذكر أسماءهم لتبارك بذكرها اليوم فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة:

فقد دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر سليمان بن خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجه بن زيد بن ثابت فجعلهم مستشاريه وحملهم أمام الله رفع كل مظلمة إليه فخرجوا يدعون له بالخير، وكانت هذه أولى بوادير سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي عهد إمارته جدد الحرم المدني كله، وكان يتولى شؤون تحديده بنفسه، ولكن الوليد عزله عن المدينة سنة ٩٣ هـ بسبب شكوى الحجاج للوليد بأن المارقين من أهل العراق يقدمون المدينة يسكنون فيها يشهدون عدل عمر بن عبد العزيز، فعاد هذا الأمير جندياً من جنود الإسلام.

فلما تولى سليمان بن عبد الملك كان مستشاره الأول سيدنا عمر بن عبد العزيز، وفي ليلة مباركة جليلة، رأى سيدنا عمر في المنام روضة خضراء فيها سيدنا رسول

اللَّهُ ﷻ فقال له: إنك ستلي أمر هذه الأمة، فَرَّعَ عن الدَّم ، فَرَّعَ عن الدَّم (كُفَّ عنه) فإن اسمك في الناس عمر بن عبد العزيز واسمك عند اللَّهِ ﷻ جابر.

وتحققت بشارة سيدنا محمد ﷺ فقد عهد سليمان بن عبد الملك لسيدنا عمر بالخلافة سراً، على أن تكون من بعده الخلافة ليزيد بن عبد الملك، وكادت قائمة البيت الأموي تقوم، لولا أنهم عرفوا أنها من بعده ليزيد، ومع ذلك قام بعد وفاة سليمان على المنبر فخلع نفسه، ولكن الناس صاحوا من كل طرف في المسجد: لا نريد غيرك.

معشر الاخوة الكرام:

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى جامع بني أمية الكبير لأنقل لكم على الموجة الإيمانية خطبة العرش، اسمعوا معي بيان سياسة الحكومة الأموية في عهد حضارتها وزهوها ومجدها.

إننا في عام ٩٩ هـ في شهر صفر الخير، وأرى أمير المؤمنين سيدنا عمر بن عبد العزيز على المنبر يقول:

أما بعد:

فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد القرآن كتاب، ألا ما أحلَّ اللَّهُ ﷻ فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا لست بشارع (مشرع) ولكني منقِّد، ألا وإني لست بمبتدع ولكن متَّبِع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصيته، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن اللَّهُ ﷻ جعلني أثقلكم حملاً، أطيعوني ما أطعت اللَّهُ ﷻ، فإذا عصيت اللَّهُ ﷻ فلا طاعة لي عليكم. ثم نزل.

وارتجت الأرض من دبدبة الموكب الرسمي، وأعدت السراقات الملكية، ماهذا؟

سأل سيدنا عمر، قالوا: الموكب الملكي. فقال: نحوها عني وقربوا لي بغلتي.

وأمر ببيع الموكب الملكي بكل ما فيه وإدخال ثمنها في بيت مال المسلمين.

إخوة الإيمان :

لم يكد يصعد الخليفة الجديد المنبر، ويلقي خطبة العرش، ولم يكد يبيع أثاث الموكب الملكي حتى أدرك الناس أنه أمر ليس كالذي عرفوا، وأنه خليفة ليس كالذين كانوا قبله، ولكنهم في الوقت نفسه خافوا أن يكون رجلاً صالحاً متعبداً فحسب، وأنه سيعجز عن إدارة حكم البلاد الممتدة أجزاؤها من فرنسة إلى الصين وأمسكوا بقلوبهم.

فما الذي حدث؟!

إنّ الخليفة دخل إلى بيته بعد تشييع جنازة الخليفة سليمان وخطبة العرش، دخل ليرتاح قليلاً من عناء هذا اليوم، فأتاه ابنه الصالح عبد الملك، اسمعوا عندما تكون نطفة الرجل الصالح نابعة من الحلال والصلاح والتقوى، قال له ولده:

- يا أمير المؤمنين! ماذا تصنع. قال: أي بني أقتل. قال: تقيل ولا ترد المظالم؟! قال: أي بني إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم. قال: يا أمير المؤمنين: من لك أن تعيش إلى الظهر؟! قال: ادن مني أي بني. فدنا منه فالتزمه وقبّل بين عينيه وقال: الحمد لله الذي أخرج من صليبي من يعينني على أمر ديني. فخرج وأمر المنادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها.

فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص، أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي، والعباس جالس، فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي، قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه يا عباس ضيعته. فردها عليه.

فجعل سيدنا عمر لا يدع شيئاً مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة، حتى انتصف النهار وضجر وملّ، فقال للناس: مكانكم حتى

أنصرف إليكم، ودخل ليسترخ ساعة فجاء إليه ابنه عبد الملك فسأل عنه فقالوا: دخل. فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل قال:

- يا أمير المؤمنين ما أدخلك؟ قال: أردت أن استريح ساعة. فقال: أو أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ينتظرونك وأنت محتجب عنهم. فقام عمر فخرج إلى الناس. وحين بلغ الخوارج سيرته قالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل. وأما رجال البيت الأموي فقد قاموا قومة واحدة. ولم يسكتوا عن فعل ابن عمهم سيد سادات التابعين، فقد كتب إليه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال:

- إنك قد أزييت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم ولمن بعدهم من أولادهم، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل، إذ عمدت إلى أموال قریش وموارثهم فأدخلتها في بيت المال جوراً وعدواناً ولن تترك على هذا.

فلما قرأ كتابه كتب إليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، أما بعد:

فقد بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه:

أما أول شأنك ابن الوليد كما تزعم فأملك (بنانة) أمة السكون، كانت تطوف في سوق حمص وتدخل وتدور في حوانيتها. ثم الله أعلم بها اشتراها ذبيان من فيء المسلمين فأهداها لأبيك ، فحملت بك فبئس المحمول وبئس المولود.

ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً تزعم أني من الظالمين لما حرمتك وأهل بيتك فيء الله عز وجل، الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبيّاً سفيهاً على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماء كما يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من

استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ مال الحرام، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرّة بن شريك أعرابياً جافياً على مصر أذن له في المعازف والله والشرب، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل العالية البربرية سهماً في خمس العرب، فرويداً يا بن بنانه، فلو التقى حلقنا البطان وردّ الفيء إلى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعهم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق، والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين.

أيها الاخوة: وقع الأمن والطمأنينة واستقرار البلاد في عهد الخليفة عمر، علم بهذا كلّ الناس والرعيان في رؤوس الجبال ، فقد سألوا الناس: من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس ؟ ف قيل لهم: وما علمكم بذلك وأنتم في رؤوس الجبال ؟ قالوا: إنه إذا قام خليفة صالح كفّت الذئاب والآساد عن شياها.

وصدق الرعيان فإن ابن عبد العزيز لم ينم ملء عينيه أبداً، بل قعد من فوره يكتب إلى البلاد ويضع الخطة الفورية (لأسنوية ولا خمسية) بل خطة فورية التنفيذ للحكومة الجديدة، وأول أمر أصدره:

١- فك الحصار عن القسطنطينية الذي كان زمن سليمان بعد أن أنهك هذا الحصار الجنود المسلمين وفشت فيهم الأمراض ولم يأت حصارها بطائل، وأمر برجوع الجيش.

٢- ثم عين الوزارة الجديدة، وعزل الأمراء والظلمة والطغاة.

٣- وحل نظام الحرس والشرطة في قصره.

٤- وقام بعمل عظيم ما سمعنا به في التاريخ الإسلامي إلا مرة واحدة، فقد باع كل عقاراته وأملاكه وضمها لبيت مال المسلمين.

ثم توجّه إلى أمراء البيت الأموي، فجمعهم ووعظهم وخوّفهم في أن يردّوا الحقوق لأصحابها، ولكن بدون فائدة، فعمد إلى الشدة وجردّها منهم بقوة وردّها إلى أهلها أو بيت مال المسلمين.

فوسطوا له عمة كان بنو أمية يوقرونها لسنها وشرفها، وكلمته. فقال لها:

- يا عمة قبض رسول الله ﷺ فترك الناس على نهر جار، فولي بعده رجل فلم ينتقص منه شيئاً، ثم ولي بعده رجل فلم ينتقص منه شيئاً، ثم ولي بعده رجل فشق فيه ساقية صغيرة، ثم لم يزل الناس يشقون السواقي حتى لم يبق منه شيء، وايم الله لأسدن السواقي حتى أعيده كما كان.

ودعا بفحم ودينار، فألقى الدينار في الفحم الذي أوقده حتى إذا احمرَّ أخذه بشيء وقربه من جلده، وقال:

- يا عمة أما تشفقين على ابن أخيك أن يكوى بهذا يوم القيامة؟
فخرجت عمته فقالت لبني أمية: هذا ذنبكم لم زوجتم أباه بنت عمر بن الخطاب.

وقد صدقت عمة الأمراء فإن صفات سيدنا عمر بن الخطاب قد ظهرت عليه بدءاً من عدله وإلى تواضعه. ومرة كان مستشار الدولة رجاء بن حيوة يدرس مع أمير المؤمنين أوراقاً رسمية، فاحتاج السراج إلى إصلاح، فنادى الخادم فوجده نائماً، فقام رجاء فمنعه، وقال: ليس من الكرم أن يستعمل الرجل ضيفه وأصلحه بنفسه (اسمعوا إلى عظمة التواضع) قال رجاء: أتقوم وأنت أمير المؤمنين. فقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر. ودخل مرة المسجد ليلاً فداس إنساناً نائماً فقال له: أنت حمار؟ قال: لا، أنا عمر. فهُمَّ به الحارس الأوحده للخليفة أن يضربه فقال له: دعه، سألني أنت حمار؟ فأجبهته: لا، أنا عمر.

وغضب مرة غضباً شديداً أمام ولده عبد الملك، فلما سكن غضبه قال له ولده: يا أمير المؤمنين أنت في قدر نعمة الله عليك وموضعك الذي وضعك الله به وماولاك من أمر عباده يبلغ بك الغضب ما أرى؟! فقال له: أما تغضب يا عبد الملك. فقال: بل أكتمه في جوفي حتى لا يظهر منه شيء أكرهه.

وماهي إلا أيام حتى بلغه وفاة ولده عبد الملك، وحين دفنه استوى قائماً وأحاط به الناس فقال:

- وَاللَّهِ يَا بَنِي لَقَدْ كُنْتُ بَرًّا بِأَبِيكَ، وَاللَّهِ مَا زِلْتُ مِنْذُ وَهَبَكَ اللَّهُ لِي مَسْرُورًا بِكَ، وَلَا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَشَدَّ سُرُورًا وَلَا أَرْجَى لِحَظَّتِي مِنَ اللَّهِ فِيكَ مِنْذُ وَضَعْتِكَ فِي هَذَا الْقَبْرِ، وَاللَّهِ لَأَنْ تَكُونَ فِي صَحِيفَتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي صَحِيفَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَرَحِمَكَ اللَّهُ وَغَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ وَجَزَاكَ بِأَحْسَنِ عَمَلِكَ، رَضِينَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَسَلَمْنَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها السادة : وعمّ الأمن وهدأت الثورات، وشملت السعادة كلّ الناس، واختفت مظاهر البذخ الفاحش، ومظاهر الفقر المدقع، وصارت هذه البلاد التي تمتد من فرنسة إلى الصين كأنها مدرسة داخلية تعيش الحب والإخلاص في أعظم صورهِ.

وفاض المال في عهده حتى لم يجد أحداً يأخذ الصدقة، فأرسل منادياً ينادي: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ فوفى ديون المدينين ، وزوّج العزّاب والمتزوجين وأغنى الفقراء والمساكين وآوى اليتامى والأرامل . فلما لم يبقى أحد منهم ، اشترى رقاب العبيد وأعتقهم لوجه اللَّهِ فقد أغنى الجميع وشملت عدالته كل طبقات المجتمع، حتى مع أهل بيته، فقد قدم إلى زوجته فاطمة وعندها مجموعة حلّي ليست لامرأة مثلها، فقال لها: إن هذه لا تحلّ لك، وقد أخذت من أموال اللَّهِ وأنا أخيرك بيني وبينها. قالت: بل اختارك وَاللَّهِ عَلَى أَمَثَالِهَا، فَأَخَذَهَا وَوَضَعَهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ، فَلَمَّا مَاتَ سَيِّدُنَا عَمْرٌ وَوَلِيَ أَخُوهَا يَزِيدٌ رَدَّهَا إِلَيْهَا، فَتَصَوَّرَتْ زَوْجَهَا عَمْرٌ أَمَامَهَا وَفَاضَ قَلْبُهَا دَمْعاً مِنْ عَيْنَيْهَا، وَغَلَبَهَا حُبُّهَا لِمَرْضَاتِهِ عَلَى الْحَلِيِّ وَلَذَّتْهَا وَقِيَمَتُهَا فَقَالَتْ: لَا، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَعْصِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، مَالِي فِيهَا مِنْ حَاجَةٍ، فَقَسَمَهَا الْمَلِكُ بَيْنَ نِسَائِهِ.

تقول زوجته السيدة فاطمة : وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُهُ اغْتَسَلَ مِنْ جَنَابَةٍ أَوْ احْتَلَامَ مِنْذُ اسْتَخْلَفَ عَمْرٌ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ، فَقَدْ كَانَتْ خِلَافَتُهُ نِعْمَةً عَلَى النَّاسِ وَنِعْمَةً عَلَى

عمر وآل عمر. وراحت تحمل زينتها فلامها بعض النسوة، فقالت: وهل تصنع الزوجة لزوجها إلا ما يحب؟ قلن: نعم فقالت: فإنه يحب هذا مني.

وكان يصلي ليلاً فتصلي زوجته معه بصلاته ويكي من خشية الله فيكي أهل بيته لبكائه، وتسأله زوجته مرة : مم بكيت؟ فقال: ذكرت يوم ينصرف الناس من بين يدي رب العالمين : فريق في الجنة وفريق في السعير.

ومرة سال الميزاب من كثرة دموعه، فسألته: مالك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، واليتيم المأسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير والشيخ الكبير وذو العيال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ ، فخشيت أن لا تثبت لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت.

وجلس زياد العبدى في مجلس سيدنا عمر فسأله فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله؟ قال: سيئ الحال، قال: فإن كانا خصمين ألدّين؟ قال: فهو أسوأ حالاً. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال ذاك حيث لايهنئه عيش. قال: فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك. فبكى عمر ولم ينقطع عن البكاء حتى تمنى زياد ألا يكون قد حدثه.

وقال لزوجته يوماً: أين نحن من ذلك النعيم الذي كنا فيه؟! فقالت: أنت اليوم أقدر عليه لو أردت. قال لها: يافاطمة إن لي نفساً تواقه، ما أعطيت شيئاً إلا تآقت إلى ماهو أفضل منه، تمنيت الإمارة، فلما أعطيتها تمنيت الخلافة، فلما أعطيتها تمنيت: (احذروا، هل هناك شيء أكبر من الخلافة، هل شيء أعظم من الدنيا) قال: فلما أعطيت الخلافة تمنيت الجنة.

أيها الأحبة : كان مورد الخليفة السنوي مئة وخمسين ديناراً في السنة، لم يسكن قصور الخلافة، وإنما أقام في داره في موضع السمساطية اليوم بجوار باب العمارة في الجامع الأموي. وكان يصلح ما وهى من داره بيده، ومرة جاءت امرأة من أقاصي إيران تسأل عن قصر الخليفة، فدلّوها على داره ، فدخلت فإذا رجل يطين جداراً، وامرأة تناوله الطين وهي حاسرة فقالت لها: ألا تحتجبين من هذا الطيان؟ قالت: إنه ليس بطيان ولكنه زوجي أمير المؤمنين.

السيدة فاطمة قريبة الخلفاء التسعة تعمل أجيرة طيان، زوجة الخليفة، وأخت الخلفاء.

وكان عنده خادم صغير تقدم له كل يوم العدس، فتذمر الخادم الصغير فقالت له: إنه طعام مولاك أمير المؤمنين.

وحاول مرة ولد من أولاده أن يتناول تفاحة من الفيء، وكان سيدنا عمر يقسمها على الناس فانزعها من فمة، فذهب الولد ييكي إلى أمه، فاشترت له تفاحاً من السوق، فلما عاد الخليفة إلى بيته وجد ريح التفاح فقال:

- يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذا الفيء ، فقالت : لا ، وقصت عليه القصة، فقال لها: - والله لقد انتزعته من ابني كأنما نزعته عن قلبي، ولكني كرهت أن أضيع نصيبي من الله عز وجل بتفاحة من فيء المسلمين.

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم	وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرقّت	مدامع عينيك الدموع السواجم
بل أصبحت في النوم وقد دنت	إليك أمور مفضعات عظام
هناك يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ	وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك ما يفنى وتشغل بالمنى	كما غرّ باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف يكره غبّه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم

أيها المؤمنون :

مرض الخليفة مرضاً شديداً فكان الناس يعودونه، ومنهم مسلمة بن عبد الملك القائد الفاتح، فأشار على أخته أن تبدل قميص أمير المؤمنين لأنه وسخ، ورجع فرآه مرتدياً القميص نفسه، فأغلط لأخته الكلام، فأطرقت رأسها وبدت في عينيها دمعة وقالت: والله! ماله قميص غيره، قميص واحد؟! كم بدلة، كم سيارة؟! كم طيارة؟ كم عقار؟! كم ضيعة؟! كم وكم إلى آخر الكمّات التي لا نهاية لها.

رأى مرة ابنة له اسمها أمينة فنادها فلم تجب، فأمر بإحضارها فإذا ثوبها مقطّع فقال لمولاه مزاحم: انظر تلك الفرش التي فتقناها فاقطع لها ثوباً منها، ثوباً من ملحفة عتيقة لبنت أمير المؤمنين، فهل تقبل به بنت أحد الحاضرين. (وحدوا الله) (وصلوا على معلم الناس الخير). وجيء إليه مرة بتفاح على دواب البريد فأمر ببيعه ودفع ثمنه لخزانة بيت مال المسلمين مقابل أجرة الدواب والسيارة الرسمية لبريد الدولة، أروني اليوم موظفاً يمتنع عن أكل كيس تفاح إذا جاؤوه به في سيارة الدولة وهي فارغة وقادمة على كل حال. ودخل عليه في مرة أخرى مسلمة بن عبد الملك فقال:

- يا أمير المؤمنين إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لاشيء لهم، فلو أوصيت بهم إلي وإلى نظرائي من أهل بيتك.

فقال له: أما قولك أني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله ما منعتهم حقاً هو لهم ولم أعطهم مالم يس لهم، وأما قولك لو أوصيت بهم فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

بني أحد الرجلين: إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له مخرجاً، وإما رجل مكب على المعاصي، فإني لم أكن أقوى على معاصي الله.

ثم بعث إليهم وهم ١٢ ولداً فنظر إليهم وقد ذرفت عيناه وقال:

- بنفسي الفتية الذين تركتهم عيلةً (لاشيء لهم) ، فإني بحمد الله قد تركتهم بخير، أي بني إن أباكم مثلُ بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله.

معاشر المسلمين :

اسمحو لي أن أشهد معكم نهاية هذا الخليفة الراشدي السابع، فقد حضره الموت، وسمعه الناس يناجي مولانا عز وجل ويقول:

أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا أنت.

ورأى الناس الخليفة يؤكد بنظره، فقالوا: إنك لتنظر نظراً شديداً، فقال: إني لأرى حضرة ماهم بأنس ولاجان. ثم قبض رضي الله عنه وهو ابن تسع وثلاثين سنة في رجب سنة ١٠١ هـ ودامت خلافته سنتين وأشهر وغسل الخليفة، وصلي عليه ودفن في حمص في دير سمعان، وما أن سوي عليه التراب حتى قامت ريح شديدة فسقط عليهم صحيفة بأحسن كتاب، فلما فتحوها قرأوا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار* .

يا أحباب رسول الله : وعرف الرعاة في رؤوس الجبال أن الخليفة الصالح قد مات ، فقد كانوا يروون أن الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافته في موضع واحد، فعدا ذئب على شاة يوماً، فقال الراعي: إنا لله وإنا إليه راجعون مات الرجل الصالح.

وقد سئل عبد الله بن المبارك العالم الرباني المجاهد، من أفضل عند الله عمر بن عبد العزيز أو معاوية بن أبي سفيان فقال سيدنا عبد الله:

لغبار فرس معاوية أفضل عند الله من عمر بن عبد العزيز (ذلك لأنه رأى وصاحب رسول الله ﷺ).

* ابن عساكر في تاريخه.

إلى هنا . أيها الاخوة الكرام . تنتهي سيرة الخلفاء الراشدين ، ونبدأ صفحة جديدة إن شاء الله تعالى مع سيرة الفقهاء .

وهكذا . إخواني في الله . وقفت معكم على مدى حلقات ممتدة بلغت واحدة وثمانين موقفاً ، مع تاريخ المئة الأولى الهجرية . ويبدو أن الأمة اليوم قد أصبحت بحاجة لمعرفة تاريخ الأئمة الأربعة ، للتعريف بفضلها وعظمتها ، للرد على من يقول إنه يريد فقهاً جديداً للأمة ، لأن الفقه القديم فقه مرض ومحنة ، فهل هذا صحيح ؟

هل نصدق هذه الدعوى النفاقية ؟ هذا ما ستبينه الأيام القادمة إن شاء الله تعالى إذا بقينا هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم .

صلى الله
عليه
وسلم

(١٢٣)

سيدنا أويسر بن عامر (القرني)

الحمد لله الذي سلك بأحبابه نهج الصراط المستقيم، واختصَّ بالعناية من أتى إلى بابه بقلب سليم، أمات الله قلوباً بالمعاصي وأحيا قلوباً بالطاعة، فسبحان من يحيي العظام وهي رميم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. شهادة من به يتوله وفيه يهيم.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله النبي الكريم. صاحب الخلق العظيم والفضل الجسيم. القائل خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.
اللهم صلِّ وسلِّم وبارك وأنعم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وأنزلهم في مقعد صدق عندك يا مليكنا المقتدر وسلِّم تسليمًا.

أما بعد: فسأدخل اليوم مع حضراتكم في رحاب طبقة جديدة من طبقات الأفضلية الذين كانوا قريباً من عصر النبوة، وتلمذوا على أيدي رجال المدرسة المحمدية الأولى، فإذا هم صورة لصحابة رسول الله في رسوخ الإيمان والتعالي عن عرض الحياة الدنيا والتفاني في مرضاة الله.

هذه الطبقة التي كانت حلقة محكمة مؤثرة بين جيل الصحابة وجيل أئمة المذاهب ومن جاء بعدهم، وهم على طبقات أولهم من أدرك العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم من لقي صغار الصحابة.

إننا اليوم نسير مع منظومة العقيدة في قول صاحب الجوهرة وصحبة خير القرون فاستمع فتابع لمن تبع إننا مع تلاميذ المدرسة التي أخرجت للأمم الإسلامية رجال الأخلاق والتقشف والتصوف الحق الذي ينبع من الشريعة الغراء. إننا مع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

واسمحوا لي معشر السادة أن أنتقل بكم إلى قرية في اليمن العربي. نرى في هذه القرية فتى أشهب ذو صهوبه، بعيد ما بين المنكبين، ضارب بذقنه على صدره رام ببصره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله يتلو القرآن، ييكى على نفسه ذو طمرين، لا يؤبه له، تيزر بإزار صوف ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض، معروف في السماء. يرمى الإبل على دربهما.

هو في عصر سيدنا محمد ﷺ، لم يره، ولم يغادر بلده، أتدرون لماذا؟ لأنه كان عاكفاً على أمه وتحت رعايتها، وكان شديد البر بها، لم يفارقها حتى ماتت في خلافة سيدنا عمر ؓ.

وكان يتمنى لقاء الحبيب الأعظم وأن يكون في عداد الصحب الكرام، لكن برّه بأمه منعه ذلك، فمن الذي أعلن بشخصيته هذا التابعي، من هو الذي علق على صدره وسام خير التابعين؟ إنه سيدنا محمد رسول الله ﷺ والذي أوصى صحابته بهذا العابد الزاهد قال لهم: «خير التابعين رجل يقال له أويس بن عامر (القري) كان به بياض فدعا الله فأذهب عنه إلا موضع الدرهم في سرتة، لا يدع باليمن غير أم له هو بها برّ، لو أقسم على الله لأبره، فمن لقيه منكم فبروه فليستغفر لكم».

إخوة الإيمان: وبقي الصحابة الكرام في شغف وشوق ينتظرون سيدنا أويساً القري سيد التابعين. هذا التابعي كان إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود فيسجد فلا يرفع رأسه حتى يؤذن الفجر، وكان إذا أمسى تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب، ثم يقول: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به، وكان يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة. لحق به رجل يوماً فسمعه يقول: اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد

جائعة، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني، وليس في بيتي شيء من الرياش إلا ما على ظهري (وكان على ظهره خرقة قد تردى بها).

أتى رجل فقال له: كيف أصبحت أو كيف أمسيت؟ فقال: أصبحت أحب الله، وأمسيت أحمد الله. وما تسأل عن حال رجل إذا هو أصبح ظن ألا يمسي، وإذا أمسى ظن أنه لا يصبح، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحاً، وإن حق الله في مال المسلم لم يدع له من ماله فضة ولا ذهباً، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع للمؤمن صديقاً، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين.

ليس بفقيه من يحدث بالحديث من غير عمل.

أيها الإخوة: بقي الصحابة ينتظرون سيدنا أويساً عشر سنين وهم كلما قدم موسم الحج يسألون حجاج اليمن عن أويس حتى إذا كان آخر عام دعا سيدنا عمر أهل اليمن إلى طعام، وقال لهم: أ بقي أحد لم يحضر وليمتنا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين إلا فتى حامل الذكر يرعى إبلنا يقال له: أويس، فقال سيدنا عمر: أهو أشهل ذو صهوبة آدم (أسمر)؟ قال: يا أمير المؤمنين كأنك تعرفه. قال: فتسابق سيدنا عمر وسيدنا علي إليه، فلما جاءا وقالوا: من الرجل؟ قال: راعي إبل وأجير قوم. قالوا: لسنا نسألك عن ذلك، ما اسمك؟ قال: عبد الله، قالوا: وقد علمنا أن أهل السموات والأرض عبيد لله. ما اسمك الذي سمي بك به أمك؟ قال: يا هذان من أنتما وما تريدان مني؟ فقال سيدنا علي: أنا علي وهذا عمر أمير المؤمنين. فانتفض وقال: جزاكم الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين، ويا صهر رسول الله، أما أنتما فقد كان لكما شرف الصحبة، وأما أنا فقد حرمت هذا الشرف. فقال سيدنا علي: كيف تتصور النبي يا أويس؟ قال: أتصوره لا كما شاهدتموه أنتم أتصوره نوراً يملأ الفضاء قدماه في الأرض ورأسه في السماء السابعة. فبكى سيدنا عمر وعلي شوقاً إلى النبي. فقال سيدنا عمر: يا أويس إن النبي قد طلب منا أن تدعو لنا. قال: ما

أخصّ بالدعاء أحداً ولكن أعمم. فقال سيدنا عمر: يا أويس بم بلغت هذا المقام. قال: يا أمير المؤمنين بالخوف حتى يصبح الرجل من خوفه من الله وكأنه قتل الناس جميعاً. قال سيدنا عمر: عظمي يا أويس. قال: يا أمير المؤمنين اطلب رحمة الله عند طاعته، واحذر نعمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه بين ذلك. فقال سيدنا عمر: يا أويس أفلا نأمر لك بصلة؟ قال: يا أمير المؤمنين! أخذت من عملي أربعة دراهم ولي على القوم ذمة. متى تراني أنفقها، وعليّ إزار ورداء متى تراني أخرقهما؟ إن بين يدي ويدك يا أمير المؤمنين عقبة كؤوداً لا يقطعها إلا كل مُحِفٍ مهزول. فبكى سيدنا عمر وقال: ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتني كنت نسياً منسياً. قال: يا أويس أفلا تقيم عندنا؟ قال: يا أمير المؤمنين أريد الكوفة. قال: أفلا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين فإني أحب أن أكون في دهاء الناس.

أيها السادة: واختفى سيدنا أويس عن أعين الناس في الصحارى والقفار حتى وليّ سيدنا علي وجرت معركة صفين، يومها نادى منادٍ في أهل الشام: أفيكم أويس القرني فقالوا: نعم وما تريد منه. قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أويس القرني خير التابعين بإحسان».

أيها الإخوة: وقاتل سيدنا أويس في جيش سيدنا علي حتى استشهد معه بصفين فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة.

وارتقت روحه مع أرواح الشهداء المحبين لسيدنا محمد رسول الله ﷺ من أراد أن يكون معه هناك فليترض عنه هنا، وما أدراك ما هنا. هنا مدرسة التوحيد، الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

لا إله إلا الله

(١٢٤)

سميد بن المسيب القرشي

الحمد لله الدائم بلا زوال، القائم بعميم الفضل والنوال، المتصرف في عباده باختلاف الأحوال، المتوحد بالعظمة والجلال، المنفرد بالقدم والبقاء والكمال، المتعالي عن الأشباه والأمثال، لا إله إلا هو الكبير المتعال، أحمدته حمداً يحفظ النعم من الزوال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تبلغ قائلها نهاية الآمال. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسله هادياً من الضلال، وداعياً إلى شرف الخلال، ومرشداً إلى صالح الأعمال، ومحذراً من الجحيم والنكال، ومبشراً بالنعيم والظلال.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وأنزلهم في مقعد صدقٍ عندك يا مليكنا المقتدر وعجل فرجنا بحقهم وبحق من جعلته رحمة للعالمين وسلم تسليمًا. أمَّا بعد: فأقف اليوم مع حضراتكم مع إمام علم، شيخ من كبار شيوخ المسلمين، فقيه المدينة وأحد سادات التابعين فقهاً وديناً وورعاً وعبادة وفضلاً، هو أفقه أهل الحجاز في عصره، وأعبر الناس بالرؤيا، قوال بالحق، صلب في الرأي، مستقيم بالسلوك.

جمع بين الحديث والتفسير، أسهر ليله بالصلاة، وأظمأ نهاره بالصوم، وأضنى نفسه في الأسفار لحج بيت الله الحرام خلال أربعين حجة، حتى لُقِبَ براهب الإسلام لفضله وعبادته.

ما نودي بالصلاة من أربعين سنة إلا وهو في المسجد، يصلي فرض الصبح في وضوء العشاء خمسين سنة.

كان (كما قال عن نفسه) يمشي الأيام في طلب الحديث الواحد، وبلغ فيه منزلة شهد مكحول الدمشقي العلامة: بأنه طاف الأرض كلها في طلب العلم، فلم يجد أعلم منه، وكان أحد بناء هذا الصرح العلمي الذي شاده العلماء المسلمون من تلاميذ سيدنا محمد ﷺ:

كان في هيئته وجرأته وصراحته مع الملوك أمةً واحدةً، وله مواقف مع عبد الملك بن مروان والوليد والحجاج تقرأها فتحسبها من أحاديث الخيال. رأى الحجاج مرة يسيء الصلاة فنبتّه فلم يسمع، فرماه بكف من حصي المسجد.

أراد عبد الملك بن مروان أن يبايع لولديه الوليد وسليمان من بعده، وتبعه الناس وبايعوا، ولكن هذا السيد الإمام أفتى بأن رسول الله ﷺ نهي عن بيعتين. لم يقل إني واحد من الناس، وقد بايعوا فلا يبيعنّ مثلهم، ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول: إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة.

هدده أمير المدينة بالجلد علناً، وضح العلماء في عصره: عروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد بن ثابت، وأبا بكر عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهؤلاء هم المعروفون بالفقهاء السبعة: عرضوا عليه أن يسكت فلا يقول: لا، ولا نعم، قال: أنا أسكت عن الحق! لا. وكانوا يعلمون أنه إذا قال: لا، فليس في الأرض قوة تجعله يقول: نعم. قالوا: فاعتزل في بيتك أياماً حتى تمر العاصفة. قال: أبقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة وأنا أسمع: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد؟ لا.

ودعاه الأمير فهدده بالقتل، فقال: نهي رسول الله ﷺ عن بيعتين.. يقرر الحكم كأنه في حلقة الدرس وكأن السيف ليس على عنقه، لا يسكت خوفاً من

السيف، ولا يكتنم العلم، ولا يبذل الحكم.
فأمر أن يساق إلى ساحة العقوبات وجرد من ثيابه وضرب خمسين وأخذ إلى الحبس.

إننا مع سيد من سادات التابعين أبوه وجده صحابي، إننا مع سيدنا أبي محمد سعيد بن المسيب القرشي المدني مع الحلقة الرابعة والعشرين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله

وخير ما نستهل به حلقتنا اليوم تلاوة عطرة من كتاب مولانا عز وجل على الموجات العاملة من سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠ التوبة).

إخوة الإيمان:

ولد سيدنا سعيد سنة ١٥هـ، بعد سنتين من تولي سيدنا عمر الفاروق سدة الخلافة، في المدينة المنورة دار الهجرة وعاصمة الخلافة ومقر الصحب البررة، ومهد السنة ودار الفقه ومنبع الحديث.

في هذا الجو الإسلامي الكبير نشأ هذا التابعي وفيه تكونت شخصيته قوة وعزة وصلابة في الحق واستقامة في السلوك، فكان خير خلف لخير سلف، وأصبح تاجاً في رأس القرن الثاني.

تزوج سيدنا سعيد بابتة الصحابي الجليل سيدنا أبي هريرة، فكان صهره، وكان إذا التقى به قال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، ولهذا أكثر عنه من الرواية. وكان يقول: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل، ولا أهانت

أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرةً من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله.

أيها الإخوة الكرام:

وأرى خطباً عظيماً يحدث في المدينة شيء لا ندري ما هو؟ إن الناس قد خرجوا إلى الطريق، والنساء قد أطلن من شقوق النوافذ، إنهم يرقبون شيئاً؟ فاسمحو لي معشر السادة أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى مدينة سيدنا رسول الله ﷺ فأرسلوا تحتكم إلى الحبيب الأعظم.

وأرى الناس قد خرجوا يرقبون المندوب الخاص لعبد الملك، وصل الموكب متوجهاً نحو المسجد فالمسجد مجمع كل أمر جليل، فيه تكون البيعة، وفيه يستقبل الأمير وفيه تلتقي الوفود، وفيه يكون القاضي، وتجري المحاكمات، وفيه تلقى الدروس ويؤخذ العلم، فهو البرلمان وهو القصر وهو المحكمة وهو الجامعة.

وأقبل رسول الخليفة حتى وقف على حلقة سيدنا سعيد، فأبلغه سلام أمير المؤمنين، وأنه قادم يخطب إليه ابنته للوليد ولي عهد المسلمين.

وغبط الناس سيدنا سعيداً على هذه النعمة التي نزلت عليه وعلى هذا التشريف الذي ناله وعلى الدنيا التي سيقّت إليه، ابنته زوجة الوليد ولي عهد المسلمين اليوم، وأمير المؤمنين غداً، وسيد البلاد الإسلامية كلها.

وارتقب الناس أن يهش سيدنا سعيد ويهش ويطيّر فرحاً بهذه النعمة، ولكن موازين الناس غير موازين سيدنا سعيد، ميزانه ميزان الشرع: الناس يفتشون عن المال والجاه، ولكن سيدنا سعيداً يفتش لابنته عن السعادة الزوجية، عن الخلق والدين، عن الطهر والفضيلة، وماذا تفيده دنيا الوليد، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟ ما ذا تنفع الدنيا إذا باع المسلم دينه لأجلها.

إن الرجل الدّين الحسن الخلق الفقير خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين، لأن هذا يكون لها وحدها وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري ومن تدري ومن لا تدري.

وإذا كان لك عبد مخلص يحبك ويشكر فضلك ويطيع أمرك وأرسلته بأمانة ليدفعها إلى زيد فأعطاها عمرا هل تكون عنه راضياً؟ كذلك أنت أيها الأب، إنك عبد الله، والبنات أمانة عندك، وقد أمرك أن تعطيهما لمن يماثلك في مسلكه ومشربه، ويرضيك دينه وخلقه، فإن رفضته وبحثت عن الغنى، أو جعلت بنتك سلعة تباع فقد أسخطت ربك وأذيت بنتك.

وهل البنت فرس أو نعجة حتى تباع لمن يدفع فيها الثمن الأكبر؟ وما ذا يفيدك كثرة المهر، والزواج إذا كان موفقاً كان لها ماله وله مالها، وإن لم يكن موفقاً لم ينفع البنت ما أخذت من مال.

فكر سيدنا سعيد في هذا كله في لحظات، ورسول الخليفة واقف ينتظر جوابه ولا يشك في أنه جواب الموافقة ولا يشك الناس. وإذا سيدنا سعيد يقول: لا. لا! إنه رفض أن يعطي ابنته للأمير المؤمنين: كثير بن المطلب.

ومرت أيام، وكان له تلميذ اسمه ابن أبي وداعة، متين الدين، رضي الخلق، انقطع عن الدرس ثم جاء فسأله: فقال: مرضت زوجتي فمرضتها وعנית بها، ثم توفيت فدفتها. فقال: هل تزوجت غيرها قال: ومن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم؟ فمن يزوجني بأربعة دراهم قال سيدنا سعيد: أنا. هل سمعتم -أيها السادة- سيدنا سعيد رفض ابن أمير المؤمنين الذي يملك ما بين البحر الأطلنطي وجبال الصين، يزوج ابن أبي وداعة الذي لا يملك إلا أربعة دراهم.

وشدَّ الرجل، وكذَّب أذنه وعقدت المفاجأة لسانه وحسب نفسه في منام، ولكن سيدنا سعيداً دعا بالشهود وعقد العقد. وذهب الرجل إلى داره وهو لا يزال في حمى الدهشة، وقدم عشائه، وكان خبزاً وزيتاً وإذا بالبواب يقرع. قال: من؟ قال: سعيد.

قال ابن أبي وداعة: ومَرَّ على بالي كل سعيد في الدنيا إلا سعيد بن المسيب لأنه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة، ولا رأيي إلا بين بيته والمسجد ففتح له. فقال

سيدنا سعيد: كرهت أن يسألني الله عن وحدتك، ولك زوجة فجئت بها، وكانت العروس وراءه فدفع بها إليه .

هكذا! بلا حفلات ولا عرس ولا جهاز!

قال: رحمك الله ألا انتظرت حتى أحصل مالا وأعد للعرس عدة. قال: أما قلت إن معك أربعة دراهم.

أربعة دراهم! فعلام الحفلات؟. وهل الزواج رباط بين روحين وصلة بين قلبين، وبيت يضم اثنين، أو هو معرض أثاث وثياب، ومناقرة كرم، واكتساب شهرة.

إن هذه الحفلات يا ناس لا تخرب بيت الزوج والأب فقط. بل تخرب عشرين بيتاً، تتزوج بنت عم خال امرأتك فتكلفك ثوباً يعجز عنه موردك فإن شريته اضطربت موازنتك، وإن أبيت تنغص عيشك.

قال كثير بن وداعة: ورأيتها أجمل امرأة وأكملها، ولما أصبحت غدوت لأذهب قالت: إلى أين؟. قلت: إلى مجلس سعيد فقالت: اقعد أعلمك علم سعيد. وإذا هي عالمة محدثة، ولقد كنا بعد إذا أعيت العلماء مسألة رجعنا إليها. أيها الإخوة:

ومرض سيدنا سعيد مرضاً شديداً فاستدعى تلميذاً له وقال: إني أشهدك على ابني محمد لا يؤذن بي أحداً لا يعلم أحداً بموتي حسبي أربعة يحملوني إلى رب. ومات سيدنا سعيد بن المسيب وترك لمن خلفه درساً للعلماء ودرساً للآباء، وارتقت روحه إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر فمن كان أن يكون معه هناك فليترض عنه هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

لا إله إلا الله

(١٢٥) سيدنا الحسن البصري

الحمد لله الذي نشر للعلماء أعلاماً، وثبت لهم على الصراط المستقيم أقداماً، وجعل مقام العلم أعلى مقام، وفضل العلماء بإقامة الحجج الدينية ومعرفة الأحكام، وأودع العارفين لطائف سرّه فهم أهل المحاضرة والإلهام، ووفق العاملين لخدمته فهجروا لذيد المنام. وأذاق المحبين لذة قُربه وأنسّه فشغلهم عن جميع الأنام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كرم الأمة المحمدية وفضلهم على غيرهم بالإسلام، وجعل فيهم قادة وسادة يدعون بأمره إلى دار السلام.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله اختصه الله بالقرآن العزيز المعجز وجوامع الكلام، فبين للناس ما أرسل به من أصول الديانات وفروع الأحكام.

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً.

أمّا بعد: فنحن اليوم مع علم من الأعلام الشوامخ، وإمام من الأئمة الكبار، ونادرة من نواذر الرجال، مع رجل ملأ في زمانه القلوب والعيون والأسماع، ولا يزال وقد مرّ عليه ثلاثة عشر قرناً يملأ الأسماع والعيون والقلوب. مع رجل كان في الورع والتقوى آية طاهرة، وكان في العلم بحراً زاخراً، وكان في الفصاحة والبيان علماً مفرداً، وكان أعظم وعَظا الإسلام في تاريخه كلّه.

إننا مع رجل كان إذا جلس في حلقة في المسجد. أدار درسه في جوانب العلوم الشرعية والعربية يمرّ فيه على القرآن والحديث والفقه واللغة وربما كان يسأل عن التصوف فيجيب، فكان تلامذته قسم يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص، حتى إنك لو جلست إليه لقلت إنك لم تجالس فقيهاً قط. ولو أنك رأيته لقلت قد

بُثَّ عليه حزن الخلائق من طول تلك الدمعة وكثرة ذلك النشيج وكأن النار لم تخلق إلا له وكان إذا سئل عن بكائه قال: أخاف أن يطرحني اللَّهُ غداً في النار ولا يبالي. قال عنه مجالسوه: إنه مكث ثلاثين سنة لم يضحك وأربعين سنة لم يمزح. إنه شيخ علماء أهل البصرة سيدنا الحسن البصري. أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، ومع الحلقة الخامسة والعشرين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إله إلا اللَّهُ سيدنا محمد رسول اللَّهِ

إخوة الإيمان: كان والد الإمام الحسن البصري في الأصل عبداً مملوكاً من سبي بيسان وكانت أمه كذلك، ولكن اللَّهُ تعالى أراد لهما ولذريتهما الخير، وإذا أراد اللَّهُ الخير لأحد هيئاً له أسبابه فصار أبوه مولى سيدنا زيد ابن ثابت أحد أئمة الصحابة وعلماء الصدر الأول، وصارت أمه خيرة مولاةً لأم المؤمنين السيدة أم سلمة هند بنت سهيل، السيدة أم سلمة أكمل نساء العرب عقلاً وأوفرهن فضلاً وأشدهن حزماً وأوسع زوجات رسول اللَّهِ علماً وأكثرهن رواية عنه، إذ روت ثلاثمائة وسبعة وثمانين حديثاً، فكان من تمام خط سيدنا الحسن الذي ولد لسنتين بقيتا من خلافة الفاروق عمر. كان من تمام حظه أن أمه كانت تغيب فيكي فتعطيها السيدة أم سلمة ثديها فربما درّ عليه اللبن من حناها، فهل في التكرمة أكثر من أن يتربى في حجر أم المؤمنين زوجة رسول اللَّهِ ﷺ.

وعاش بين الصحابة وتلمذ على أيدي كبارهم في المسجد النبوي الشريف، حيث روي عن عثمان وعلي وأبي موسى الأشعري وعبد اللَّهِ بن عمر وعبد اللَّهِ بن عباس وأنس بن مالك وجابر بن عبد اللَّهِ لكنه أوسع أكثر ما أوسع بأمير المؤمنين سيدنا علي، فقد راعه منه صلابته في دينه وإحسانه لعبادته وزهادته بزيينة الدنيا وزخرفتها، وحلّبه منه بيانته المشرق وحكمته البالغة وأقواله الجامعة وعظاته التي

تهز القلوب هزاً فتخلق بأخلاقه في التقى والعبادة ونسج على منواله في البيان والفصاحة حتى بلغ أربعة عشر ربيعاً من عمره، ودخل في مداخل الرجال فسار مع أبويه إلى البصرة واستقر فيها مع أسرته، ومن هنا نسب الحسن إلى البصرة وعرف بين الناس بالحسن البصري.

وقلما قرأت كلاماً أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه، ولقد شبهوه من قديم بكلام الأنبياء وشهد له شيخ العربية وإمام أئمتها أبو عمرو بن العلاء بأنه كان هو والحجاج أفصح الناس . قيل فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

أيها الإخوة: كان الوعاظ يُدعون القصاص وكان أكثرهم ممن يتخذ الدين حرفة، والتقوى صناعة ويأكلون بها الدنيا ويجمعون بها المال، يمخرقون على العامة باللفظ الجميل والمظهر الخداع والخشوع الكاذب يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم. لذلك منع أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب القصاص من دخول المسجد في البصرة، ولم يستثن إلا سيدنا الحسن البصري لأنه كان يقول الحق ويروي الحديث الصحيح. لا يسرد الإسرائيليات ولا ينقل الموضوعات ولأنه كان يتكلم من قلبه، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين، لا يأخذ منهم أجراً ولا يقبل منهم هدية ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الخطوة عند الملوك والقرب من السلاطين.

واسمحوا لي أن أنقل لكم بعض كلام الحسن لتروا لوناً من ألوان البلاغة المطبوعة في كلام مليء بالدين والعلم والنظر السديد والرأي الصائب (صلوا على سيدنا محمد ﷺ).

سأله بعض القوم أن يخبرهم عن صفة أصحاب رسول الله ﷺ فبكى وقال: ظهرت منهم علامات الخير في السيماء والسمت والهدى والصدق وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، ومشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل ومطعمهم ومشرهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا وإعطائهم الحق من أنفسهم، ظمئت حناجرهم ونحلت أجسامهم واستخفوا

بسخط المخلوقين لرضا الخالق، لم يفرطوا في غضب ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله في القرآن، شفّعوا الألسن بالذكر، بذلوا لله دماءهم حين استنفرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين من إنقاذ حكم الخالق. حسنت أخلاقهم وهانت مؤنتهم وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم. أيها السادة: هذه الأوصاف التي ذكرها سيدنا الحسن عن الصحب الكرام. كان يطبقها على نفسه طيلة حياته كان صداعاً للحق، لا يسكت عن إنكار منكر ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا بطش ملك، لكنه كان حيناً يعرض تعريضاً وحيناً يصرح تصريحاً.

من صراحته في نقد الملوك والأمراء أنه لما انتقل الخليفة الزاهد سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى جوار ربه وآلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولّى على العراق عمر بن هبيرة الفرازي، فدعا عمر كلاً من الحسن البصري وعامر بن شراحيل المعروف بالإمام الشعبي وقال لهما:

إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك قد استخلفه الله على عبادته وأوجب طاعته على الناس وقد ولاني ما ترون من أمر العراق ثم زادني فولاني فارس، وهو يرسل إلي أحياناً كتباً يأمرني فيها بإنفاذ ما لا أطمئن إلى عدالته، فهل تجدان لي في متابعتي إياه وإنفاذ أوامره مخرجاً في الدين.

فأجاب الإمام الشعبي جواباً فيه ملاطفة للخليفة ومسايرة للوالي، وسيدنا الحسن ساكت. فالتفت إليه عمر وقال: وما تقول أنت يا أبا سعيد. فقال: يا بن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله واعلم أن الله عز وجل يمنعك من يزيد وأن يزيد لا يمنعك من الله، يا بن هبيرة إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره فينزلك من سريك هذا وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد، يا بن هبيرة إنك إن تك مع الله في طاعته يكفك بائقة يزيد بن عبد الملك (يمنع عنك

أذاه) في الدنيا والآخرة، وإن تك مع يزيد في معصيته لله تعالى فإن الله يكللك إلى يزيد، واعلم يا بن هبيرة أنه لا طاعة لمخلوق كائناً من كان في معصية الخالق عز وجل. فبكى عمر بن هبيرة حتى بليت دموعه لحيته.

أيها الإخوة المؤمنون: هذا موقف بسيط مع ابن هبيرة، ولكن موقفاً أعظم وقفه الإمام الحسن مع حاكم العراقين الحجاج ابن يوسف الثقفي، فاسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى هذا الرجل الذي لا نخبه ولا نسبه فقد استدعى الإمام الحسن لما بلغه عنه من كلام فيه مسبة للحجاج وأمثاله. إذا كان الحسن يعرض بالحكام وينالهم بالحق ويقول عنهم إن أناساً اتخذوا عباد الله خولاً وكتاب الله دخلاً (تعاهدوا العباد وتركوا العمل بالقرآن) ومال الله دولاً يأخذون من غضب الله وينفقون في سخط الله والحساب عند البيدر. وصل هذا الكلام إلى الحجاج فاشتات غضباً فاستدعاه، وما هو إلا قليل حتى جاء سيدنا الحسن، فشخصت نحوه الأبصار ووجفت عليه القلوب فلما رأى الحسن السيف والنطع والجلاد حرك شفثيه وأقبل على الحجاج وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم ووقار الداعية إلى الله، فلما رآه الحجاج على حاله هذه هابه أشد الهيبة وقال له: ههنا يا أبا سعيد ههنا، ثم ما زال يوسع له ويقول ههنا والناس ينظرون إليه في دهشة واستغراب حتى أجلسه على فراشه بجواره. وراح يعاتبه على كلامه فيه فإذا بسيدنا الحسن يقول: إن الله أخذ ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبينه للناس ولا يكتُمونه. ثم قال له:

كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب. قال: كثير. قال: أين هم؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكراً ثم قال: يا جارية الغالية (الطيب)، فخرجت بها فقال الحجاج: ضمّخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت.

وانصرف الإمام الحسن عزيزاً رافع الرأس لكنه تبعه حاجب الحجاج وقال: يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك وإني رأيته عندما أقبلت ورأيت السيف

والنطع قد حركت شفتيك فماذا قلت؟ فقال الحسن: قلت: يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي، اجعل نقمته برداً وسلاماً علي كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

إخوة العقيدة والدين: هزت مواعظ الإمام الحسن الأفعدة واستدرت الشؤون ودلّت التائهين على الله، ونبهت الفارّين الغافلين إلى حقيقة الدنيا وحال الناس معها. سأله سائل عن الدنيا وحالها فقال: تسألني عن الدنيا والآخرة؟ إن مثل الدنيا والآخرة كمثل المشرق والمغرب متى ازددت من أحدهما قريباً ازددت من الآخر بعداً، ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك.

أيها السادة: عاش سيدنا الحسن أكثر من ثمانين عاماً قضاها في خدمة الشريعة. حتى إذا كان ليلة الجمعة من أول رجب سنة مئة وعشر أغمي على الإمام ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم. ثم أغمض عينيه ولجى نداء ربه عز وجلّ وارتجت البصرة لموته رجاً، لكن الناس كأنما أصابتهم ساكنة فقد مضى عالمهم ومعلمهم وداعيتهم فلم يستطع أحد أن يتكلم لشدة حزنه عليه، وازدحم الناس على جنازته بعد صلاة الجمعة ولم يصلوا إلى قبره حتى بعد صلاة العصر، ولم تقم صلاة العصر في مسجد البصرة لأول مرة ولآخر مرة، لأنه لم يبق أحد إلا اتبع جنازة الإمام.

لقد مضى الإمام وهكذا سنمضي فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وأعود بكم من البصرة إلى الشام من هناك إلى هنا وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

لا إله إلا الله

(١٢٦)

سيدنا عطاء بن أبي رباح القرشي

الحمد لله الذي وفق لنشر محاسن التابعين وطيبها في أحسن كتاب، وجعل ذلك قرّةً لأعين الأحاب وذخيرةً ليوم المآب.

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره فبحمده يفتتح كل كتاب ويختتم كل خطاب. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجلب كل ثواب وتدفع كل عقاب.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الألباب والذي انقشع بنوره ظلام كل سحاب وكدر كل ارتياب.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وسلم تسليماً.

أمّا بعد: فنحن اليوم ننزل ضيوفاً على مكة المكرمة حرسها الله تعالى، وبالذات على إمام علم ومفتي الحرم، على الزاهد التقى والمحدث الثقة والفقيه الورع، على تلميذ كوكبة من الصاحب الكرام، على شيخ شهد له أهل عصره من العلماء بأنه ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم منه بمناسك الحج، على التلميذ الأول لسيدنا عبد الله بن عباس، على رجل وقف على عرفات الله سبعين حجة وهو يسأل الله تعالى رضاه والجنة، ويستعيز به من سخطه والنار.

إنه عالم مكة في عصره سيدنا أبو محمد عطاء بن أبي رباح القرشي مولاهم المكّي. رضي الله عنه. مع الحلقة السادسة والعشرين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية.

ومع بداية هذه الحلقة أدعو المؤمنين جميعاً ليرفعوا شعار التوحيد.

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سيدنا مُحَمَّد رسول اللَّهِ

إخوة الإيمان:

كان سيدنا عطاء بن أسلم (وهو اسم أبي رباح) في صغره عبداً مملوكاً لامرأة من أهل مكة، لكن مولانا أكرم هذا الغلام منذ نعومة أظفاره بأن وضع قدميه على أول طريق العلم فقسم وقته أقساماً ثلاثة: قسم جعله لسيدته يخدمها فيه أحسن ما تكون الخدمة ويؤدي لها حقوقها على أكمل ما تؤدي الحقوق، وقسم جعله لربه عز وجل يفرغ فيه لعبادته أصفى ما تكون العبادة وأخلصها لله عز وجل، وقسم جعله لطلب العلم حيث أقبل على ما بقي حياً من صحابة رسول اللَّهِ ﷺ وطفق ينهل من مناهلهم الثرة الصافية، فأخذ عن سيدنا أبي هريرة، وسيدنا عبد اللَّهِ بن عمر، وعبد اللَّهِ بن عباس وعبد اللَّهِ بن الزبير وغيرهم، حتى أصبح أشياخه الذين أخذ عنهم (احذروا كم؟) مئتي صحابي من صحابة رسول اللَّهِ ﷺ وحتى امتلأ صدره علماً وفقهاً ورواية.

أيها الإخوة:

لما رأت السيدة المكية أن غلامها قد باع نفسه لله، ووقف حياته على طلب العلم. تخلت عن حقها فيه وأعتقت رقبته تقرباً لله عز وجل، لعل اللَّه أن ينفع به الإسلام والمسلمين. واستجاب اللَّه لأمنيته فقد اتخذ سيدنا عطاء بن أبي رباح البيت الحرام مقاماً له فجعله داره التي يأوي إليها، ومدرسته التي يتعلم فيها، ومُصَلَّاه الذي يتقرب فيه إلى اللَّه بالتقوى والطاعة، حتى قال المؤرخون: كان المسجد فراش عطاء بن أبي رباح نحواً من عشرين عاماً وأصبح له شأن أيّ شأن حتى قال فيه سيدنا ابن عمر حين أمّ مكة معتمراً وقد أقبل عليه الناس يسألونه ويستفتون. قال لهم: إني لأعجب لكم يا أهل مكة! أتجمعون لي المسائل لتسألوني عنها وفيكم عطاء بن أبي رباح؟!

أُتَدْرُونَ أَيُّهَا الْأَحْبَةُ وَالصَّحْبُ - بِمَ بَلَغَ سَيِّدُنَا عَطَاءُ مَا بَلَغَ مِنَ الْمَكَانَةِ وَالْمَرْتَبَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْدِينِ ؟ بِخَصْلَتَيْنِ : أَوْلَاهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمُ سُلْطَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمْ يَدْعَ لَهَا سَبِيلًا لَتَرْتَعَ فِيهَا لَا يَنْفَعُ .

وَتَأْنِيْتُهُمَا : أَنَّهُ أَحْكَمُ سُلْطَانَهُ عَلَى وَقْتِهِ فَلَمْ يَهْدِرْهُ فِي فَضُولِ الْكَلَامِ وَالْعَمَلِ .
حَدَّثَ أَحَدُ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ لِمَجَاعَةٍ مِنْ زَوَارِهِ فَقَالَ : أَلَا أَسْمَعُكُمْ حَدِيثًا لَعَلَّهُ يَنْفَعُكُمْ كَمَا نَفْعَنِي . قَالُوا : يَا بَنَ أَخِي إِنْ الَّذِينَ مَنْ قَبْلُنَا كَانُوا يَكْرَهُونَ فَضُولَ الْكَلَامِ . فَقُلْتُ : وَمَا فَضُولُ الْكَلَامِ عِنْدَهُمْ ؟ . فَقَالَ : كَانُوا يُعَدُّونَ كُلَّ كَلَامٍ فَضُولًا مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْرَأَ وَيَفْهَمَ ، وَحَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَرُوى وَيُدْرَى أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيًا عَنْ مَنْكَرٍ ، أَوْ عِلْمًا يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحَاجَتِكَ وَمَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بَدَ لَكَ مِنْهَا . ثُمَّ حَدَّثَ إِلَى وَجْهِي وَقَالَ : أَتُنْكِرُونَ (إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ) ، وَأَنْ مَعَ كُلِّ مِنْكُمْ مَلَكَيْنِ (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا بِهِ رَقِيبٌ عْتِيدٌ) .

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ :

وَلَكِي تَرَوُا الْمَكَانَةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا هَذَا التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ . اسْمَحُوا لِي أَنْ أَثْقَلَ بِكُمْ إِلَى هُنَاكَ إِلَى مَكَّةَ أَمْ الْقُرَى فَإِنْ مَوَكَّبَ الْخَلِيفَةُ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمَ مَكَّةَ حَاجًا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمَعَ الْخَلِيفَةُ وَلَدَاهُ ، وَهَاهُمْ مَعَ الْحَاشِيَةِ يَطُوفُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ . خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْظَمُ مُلُوكِ الْأَرْضِ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . حَاسِرُ الرَّأْسِ حَافِي الْقَدَمِينَ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارٌ وَرَدَاءٌ ، وَأَنْ انْتَهَى مِنْ طَوَافِهِ حَتَّى سَأَلَ عَنْ إِمَامِ مَكَّةَ سَيِّدُنَا عَطَاءُ ، فَقَالُوا : هَاهُوَ هُنَاكَ فِي صَلَاتِهِ غَارِقًا فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ ، فَمَضَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ نَحْوَهُ وَجَلَسَ مَعَ الْجَالِسِينَ ، يَنْتَظِرُ الْإِمَامَ حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ صَلَاتِهِ .

فَنَظَرَ وَلَدَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَرَأَى شَيْخًا حَبِشِيًّا مَغْلَغَلَ الشَّعْرَ ، أَفْطَسَ الْأَنْفَ ، أَشْلَ الْيَدَ أَعْرَجَ الرَّجْلَ . إِذَا جَلَسَ بَدَا كَالْغَرَابِ الْأَسْوَدِ ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ لَا يَزِيدُ ثَمَنَهُ عَلَى خَمْسَةِ دِرَاهِمٍ ، وَقُلَنْسُوءَةٌ لَازِقَةٌ بِرَأْسِهِ وَخَلْفَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَظِرُهُ هُوَ وَحَاشِيَتُهُ .

وما أن انتهى سيدنا عطاء حتى حيّاه الخليفة فرد التحية بمثلها، وأقبل عليه الخليفة يسأله عن مناسك الحج منسكاً، ومنسكاً، وهو يفيض بالإجابة عن كل مسألة، ويسند كل قول يقوله إلى سيدنا رسول الله ﷺ. وانتهى الخليفة من مساءلته ودعا له بالخير، ومضى الراكب نحو المسعى فإذا بالمنادي ينادي: ألا لا يفتي الناس في هذا المقام إلا عطاء بن أبي رباح.

وهكذا -معشر السادة- نفع الله تعالى سيدنا عطاء العبادة من حجاج بيت الله الحرام من الأفراد والعلماء والأئمة الأعلام، فهذا هو سيدنا الإمام أبو حنيفة النعمان يحدثنا عن نفسه فيقول: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام، وذلك أني أردت أن أحلق لأخرج من الحرم (للتحلل من الإحرام) فأتيت حلاقاً وقلت: بكم تحلق رأسي؟ فقال: هداك الله النسك لا يشارف فيه. اجلس واعط ما يتييسر لك. فخجلت وجلست، غير أني جلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ إلي بأن أستقبل القبلة ففعلت، وازددت خجلاً على خجلي، ثم أعطيته رأسي من الجانب الأيسر ليحلقه فقال: أدر شقك الأيمن فأدرته، وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت أنظر إليه، وأعجب منه. فقال لي: ما لي أراك ساكناً كبر. فجعلت أكبر حتى إذا قمت لأذهب فقال: أين تريد؟ فقلت أريد أن أمضي إلى رحلي. فقال: صل ركعتين ثم امض إلى حيث تشاء، فصليت ركعتين. وقلت في نفسي ما ينبغي أن يقع مثل هذا من حجام إلا إذا كان ذا علم. فقلت: من أين لك ما أمرتني به من المناسك. فقال: لله أنت لقد رأيت عطاء بن أبي رباح يفعله، فأخذته عنه ووجهته إليه الناس.

أيها الإخوة:

كان سيدنا عطاء يعيش في دنيا من عقيدته وإيمانه، ترك الدنيا للناس وزهد فيها ولم يحرص متعها ولذائدها، فانقادت له الدنيا وذل له جبابرتها حتى وقف موقف الأبطال لا يهاب أحداً إلا الله تعالى ومن خاف الله يا أيها الناس خافه كل

شيء، ومن أخلص له وضع هيئته ومحبته في كل قلب. هذه الحقائق كانت متمثلة في شخصية سيدنا عطاء، هاهو يشرف دمشق بزيارة هامة في عهد هشام بن عبد الملك، فاستقبلوا سيدنا عطاءً بالترضي عنه.

وما إن علم الخليفة بأن الشيخ الإمام بالباب حتى بادر بالإذن له، وما أن وقعت عيناه عليه حتى رَحَّب به أشد الترحيب وقال: ههنا يا إمام ههنا، وما زال يقول ههنا حتى أجلسه على سريره ومسَّ بركبته ركبته. أرايتم كيف كانت مكانة العلماء في عصر الصدر الأول؟

تري ما الذي جاء بسيدنا عطاء؟ هكذا سأله الخليفة ما حاجتك يا أبا محمد. قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين أهل الله وجيران رسول الله تقسم عليهم أرزاقهم وأعطيتهم. فقال: نعم. يا غلام اكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة. ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم، فقال: نعم وهل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل الثغور يقفون في وجوه عدوكم ويقتلون من رام المسلمين بشر تجري عليهم أرزاقاً تُدْرَها عليهم، فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. فقال: نعم. هل من حاجة غيرها؟ فماذا يقول له هل من حاجة حتى أعطاه كل ما يريد لعباد الله جميعاً، حتى طلب من نصيحة فقال: نعم اتق الله في نفسك يا أمير المؤمنين واعلم أنك خلقت وحدك وتموت وحدك وتحشر وحدك وتحاسب وحدك ولا والله ما معك ممن ترى أحد، فأكب هشام فبكت من في الأرض وهو يبكي، حتى قام سيدنا عطاء فما أن صار عند الباب حتى لحقه الحاجب بكيس وقال: إن أمير المؤمنين بعث لك بهذا، فقال: هيهات (بعيدة على ذقنك) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين. يقول الراوي يا سادة يا كرام: فوالله إنه دخل على الخليفة وخرج من عنده ولم يشرب قطرة ماء. أيها الإخوة:

عاش سيدنا عطاء مئة عام ملأها بالعلم والعمل وأترعها بالبر والتقوى وزكاها
بالزهادة بما في أيدي الناس فلما أتاه اليقين وجدته خفيفاً كثير الزاد من عمل الآخرة.
توفي سنة أربع عشرة ومئة وانتقلت روحه إلى أعلى عليين إلى جنات ونهر في
مقعد صدق عند مليك مقتدر فمن أراد أن يكون معه هناك فليترض عنه هنا، وما
أدراك ما هنا، هنا مدرسة التوحيد الجالس فيها عليه أن يوحد الله.

لا إله إلا الله

الأئمة المجتهدون

وأتباعهم

(١٢٧)

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الولادة ، طلب العلم

الحمد لله الذي هدانا للتفقه في الدين ، وشرح صدورنا لاقتفاء سلف المؤمنين
وشرع لنا شرائع والأحكام لنميز بها الحلال من الحرام.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أحصى كل شئ علما ووسع كل
شئ رحمة وحلما .

وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً
عبده ورسوله وصفيه وخليله خاتم الأنبياء وإمام الأصفياء وسيد العلماء وخير من
مشى تحت أديم السماء القائل عليه الصلاة والسلام : «لو كان العلم بالثريا لتناوله
رجال من فارس» .

اللهم صلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا
ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأشياعه وأحزابه ماجرى يراع وطابت بذكره
الأسماع وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام :
كيف ؟. ولماذا ؟.

سؤالان هاما أسألهما وأستمد العون من مولانا عز وجل لأجيب عنهما .
كيف أصبح سيدنا أبو حنيفة النعمان رحمته الله علماً من أعلام الأمة الذين خلّد
ذكرهم التاريخ وعمّ فضلهم الملايين من الأنام..؟ ولماذا هو يلقب بالإمام الأعظم..؟

لماذا كان قمة شامخة في الفقه وكان الفقهاء من بعده عالية عليه...؟
لماذا كان من أعلم هذه الأمة بما جاء عن الله ورسوله ..؟

كيف كان من الزهد والورع والسخاء والبذل وإيثار الآخرة وأخلاق القرآن التي هي بمحل لا يدركه فيها أحد..؟

لماذا كان يؤثر رضاء الله على كل شئ ولو أخذته السيوف في الله لا احتملها..؟

هذه الأسئلة أستمد العون من مولانا رحمه الله لأجيب عنها، وأقول باختصار :

إننا أمام قمة شامخة من قمم الفقه الإسلامي ورث علم الصحابة والتابعين .

كان هذا . أيها الإخوة . هو الموجز ، وقبل أن أنقل لكم الأنباء بالتفصيل اسمحوا لي أن أنتقل بكم أولاً إلى صاحب الرسالة ومنبع الهداية إلى سيدنا رسول الله ﷺ لأذكر لكم سلسلةذهب الفقهية في الإجابة عن السؤال الأول : كيف أصبح الإمام الأعظم سيداً وفقياً..؟

أيها الإخوة الكرام :

كان سيدنا رسول الله ﷺ مرجع الصحابة الكرام ﷺ في جميع ما يعرض لهم من القضايا، في العقيدة، في الفقه، في علوم الشريعة الأخرى. وكان مع ذلك جماعة من فقهاء الصحابة الكرام يفتون في عهد النبي الكريم ﷺ في غيبته وفي حضوره، ولكنهم كانوا يرجعون إلى حضرة النبي الأعظم ﷺ بكل ما أفتوا أو قضاوا، ليستيقنوا حكم الله فيما قضاوا أو أفتوا وانتهى علم الصحابة جميعاً واجتمع في ستة من كبارهم وهم:

سيدنا عمر، سيدنا علي، سيدنا عبد الله بن مسعود، سيدنا زيد بن ثابت، سيدنا أبو الدرداء ، وسيدنا أبي بن كعب . خلاصة فقه الصحابة انصب في هؤلاء الستة ، ثم اجتمع علم هؤلاء الستة الكبار في عَلمين من أعلام الأمة وأشرفها هما سيدنا علي وسيدنا عبد الله بن مسعود اللذين سكنا الكوفة ، فهذان الصحابيَّان الجليلان خلاصة فقهاء الصحابة جميعاً .

وابن مسعود . أيها الإخوة . يلقب بابن أم عبد، وهو سادس من أسلم من الصحابة وكان ﷺ لا يفارق سيدنا رسول الله ﷺ في كل أحواله، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة والمدينة وشهد جميع المشاهد، وأعطاه النبي ﷺ وساماً عظيماً علقه على صدره فقال ﷺ : « رضيتُ لأمتي ما رضي لها ابنُ أم عبد وسخطتُ لها ما سخط لها ابنُ أم عبد » .

وقبل وفاة الحبيب الأعظم قلّده وساماً زيّن به صدره الشريف طول العمر وأبد الدهر، فقال ﷺ اقتدُوا باللّذين من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد «، فحاز هذا الصحابي الجليل شرفاً وفخراً عظيمين لم ينلهما كثير من الصحابة الكرام وقد بلغوا أكثر من مئة ألف صحابي، وقد بيّن لنا سبب هذا الشرف الذي حازه ابن مسعود أمين سر سيدنا النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ فقال :

« لقد علم المحفوظون^(١) من أصحاب سيدنا محمد أن عبد الله ﷺ بن مسعود كان من أقربهم وسيلة إلى الله ﷻ يوم القيامة، وحلفت ب الله ﷻ لأعرف أحداً أشبه دلاً^(٢) وهدياً برسول الله ﷺ من حين يخرج من بيته إلى حين يرجع من ابن مسعود » .

ولأجل هذا . أيها الإخوة . كتب سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ إلى أهل الكوفة حين أرسله إليهم معلماً قال: « إني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من صحابة رسول الله ﷺ من أهل بدر، وقد آثرتكم بعبد الله ﷺ على نفسي » .

(١) الذين حفظهم الله

(٢) حالاً

أترون . أيها الإخوة . هذه الشهادات العظيمة التي شهدها لابن مسعود الخليفة العادل عمر، إذاً هو يعلم تماماً القدر الفقهي والعلمي الذي كان يحمله عقل وقلب هذا الصحابي الجليل.

بهذا الصحابي الجليل تفقه أهل العراق ، حتى أحصى عددهم فبلغ أربعة آلاف رجل ، من هؤلاء الأربعة آلاف تابعي جليل القدر يدعى علقمة بن قيس النخعي ، وعلقمة هذا قال فيه ابن مسعود : « لا أعلم شيئاً إلا وعلقمة يعلمه » ، وكان له ابن أخ اسمه إبراهيم بن يزيد النخعي كان تلميذاً عند علقمة واحفظوا هذا الاسم جيداً إبراهيم بن يزيد النخعي، لماذا يجب علينا أن نحفظ هذا الاسم ؟.. لأن هذا الفقيه الإمام قال فيه من أَرخ للتاريخ والفقه: « إنه كان أفقه أهل الأرض في عصره » ، ليس أفقه أهل الشام، بل أفقه أهل الأرض كلهم، وقد سُئل هذا الإمام الفقيه من نسأل بعدك؟ فقال : « سلوا حماد بن أبي سليمان » أسمعتم : أفقه أهل الأرض رَشَّح تلميذاً من تلامذته واسمه حماد بن أبي سليمان وحماد هذا - أيها الإخوة - يكفيه فخراً أن تلميذه الأول هو :

سيدنا أبوحنيفة ؓ

هذه هي سلسلة الذهب الفقهية:

المعلم الأول حبيبنا وقرّة أعيننا سيّدنا رسول الله ﷺ

الثاني سيدنا عبد الله بن مسعود

الثالث سيدنا علقمة بن قيس

الرابع سيدنا إبراهيم بن يزيد

الخامس سيدنا حماد بن أبي سليمان ؓ

وانصب علم هؤلاء كلهم في سيدنا

الإمام أبي حنيفة النعمان ؓ

وهنا يأتي جواب السؤال الثاني: لماذا هو الإمام الأعظم...؟

هو الإمام الأعظم لأنه روى عن الإمام حماد ألفي حديث من أحاديث الأحكام ولأنه بقي تلميذاً عنده حتى مات، لأجل ذلك كان سيدنا أبوحنيفة النعمان عليه السلام أعلم أهل عصره، ورث العلم كابراً عن كابر.

أيها الإخوة الكرام :

إننا في الصفحة الأولى لهذا الإمام الأعظم وعنوان هذه الصفحة:

الآباء والأجداد : من هو الإمام الأعظم ؟ ما نسبه وسلالة آبائه ؟.

سيدنا أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن المُرْزُبَان ^(١) فارسي الأصل من الأسر الشريفة الأحرار في فارس ، وأصل أجداده من كابل (التي يتصارع فيها الأفغان الآن).

قَدِم جده المُرْزُبَان وأسلم زمن سيدنا عمر رضي الله عنه ، ثم تحول هذا المُرْزُبَان وسكن الكوفة، وأما ثابت والد الإمام الأعظم فقد قدم إلى سيدنا علي رضي الله عنه وهو صغير فدعا له سيدنا علي بالبركة فيه وفي ذريته، وقد استجاب الله له فجعل ملوك الأرض والآفاق وأكثر أهل الإسلام تبعاً لسيدنا أبي حنيفة في الدين وعالة عليه في الفقه.

أيها الإخوة الكرام :

وقبل أن أُلج إلى سيرة هذا الإمام الأعظم أدعكم لتصلوا على الحبيب الأعظم من قلوبكم ﷺ ولأبدأ معكم بـ :

الولادة المباركة

فقد ولد هذا الإمام وأطل على الوجود الإنساني سنة ثمانين للهجرة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ونما وترعرع ونشأ في أسرة صالحة غنية كريمة بالكوفة لأبوين صالحين كريمين، وكان والده يعمل في بيع الأثواب (خِرَّاز)، وكان من صلاحه وتقواه أنه وضع ولده الصغير في الكتّاب ليحفظ القرآن فحفظ سيدنا أبو

(١) هو اسم فارسي وهو يعني بالعربية الرئيس

حنيفة القرآن الكريم غيباً وهو بعد مازال صغيراً ، وحين بلغ السادسة عشرة من عمره خرج مع أبيه لأداء فريضة الحج وزيارة سيدنا رسول الله ﷺ ، وفي هذه الحجة اجتمع بأحد الصحابة الكرام ، إنه الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث بن شذب الزبيدي، رآه يحدث الناس فاقترب منه مع أبيه وسمعه يقول السهم الإندفاعي الأول في حياة الإمام، سمع الصحابي يقول بما يرويه عن سيدنا رسول الله ﷺ : « من تفقه في دين الله كفاه همه، ورزقه من حيث لا يحتسب ». كان هذا الحديث الكريم إشارة توجيهية بسلوك طريق الفقه، حتى التقي بأحد أعلام الأمة في الكوفة عندما عاد إليها بعد حجته تلك، إنه قاضي الكوفة وكبير محدثي الإمام الشَّعبي، ووجرت بينهما المحاورة التالية :

قال الإمام الشَّعبي : إلى من تختلف..؟

قال الفتى : أختلف إلى السوق.

قال : لم أعنِ هذا الاختلاف إلى السوق بل أعني الاختلاف إلى العلماء.

هناك تفكر النعمان هنيئة ، وأكمل الإمام الشعبي كلامه : عليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء فإني أرى فيك يقظة وحركة.

ومنذ تلك اللحظة المباركة انفتح الطريق أمام هذا الفتى ، هذه الطريق التي سار فيها بقية حياته وأعطى المسلمين منها زاداً يانعاً مازال حياً معطياً ولكنه وقع في حيرة إلى أي متون العلم يتجه والكوفة زاخرة بحلقاته وفنونه، والبصرة يومئذ تعج بالعلماء، وفيها مجلس التفسير والفقه والعقيدة، ترى هل يُعَلِّم القرآن ويدرسه للصبيان..؟ أم يسمع الحديث ويحفظه..؟ أم يلتمس من حلقات النحو أم الشعرا يروق له..؟ وراح يمر يجلس في هذه الحلقات جميعاً ، ولكنه يبدو أنه لم يجد نفسه عند واحدة منها حتى وقف بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان الفقيه، فجاءت النعمان امرأة تسأله قالت : رجل له امرأة أمة (جارية) أراد أن يطلقها نفسه كم يطلقها ، قال: فلم أدرِ ما أقول لها ، ثم أمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع فتخبرني ،

فسألت حماداً الفقيه فقال لها : يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقه ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فإذا اغتسلت حلت للأزواج ، فرجعت المرأة فأخبرتني، فقلت في نفسي : لا حاجة لي في شيء . ومضيت إلى حلقة حماد . وأراد الله به خيراً كثيراً لأن الحبيب الأعظم ﷺ يقول في صحيح البخاري : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

وفتح الله على هذا الفتى فكان يسمع مسائل حماد ويحفظ أقواله ثم يعيدها في الغد، كان يحفظها ويخطئ أصحابه حتى قال حماد الفقيه مرة : « لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة » .

هل رأيتم هذه الشهادة العظيمة، لقد برّ أقرانه في تعلم الفقه ، وتجاوز أمثاله وسابقه في حلقة شيخه لحفظه وأدبه، وكان أدبه مع شيخه موضع العجب، ولا يُنال العلم إلا بالأدب، فلقد كان يقصده في بيته، ينتظره على بابه حتى يخرج لصلاته أو حاجته، فيسأله ويصحبه، و إذا احتاج شيخه إلى شيء قام هو على خدمته، و إذا جلس في بيته لم يمد رجله جهة بيت شيخه حماد وإن بينهما سبع حارات، وكذلك الكعبة، فيكره مد الرجلين باتجاه القبلة، وهكذا كان سيدنا حماداً كعبةً للعلم في عصره، لم يمد رجله جهة بيت حماد، وكان إذا صلى دعا لشيخه حماد مع والديه، فلأزم شيخه ثمانية عشر عاماً حتى مات شيخه، وأخذ عن سبعة من الصحابة وثلاثة وتسعين من التابعين، وكثير من أتباعهم حتى بلغ عدد مشايخه أربعة آلاف شيخ (وهناك من لا يوجد له حتى شيخ واحد، وهناك أيضاً أناس شيخهم إبليس يفعلون ما يوسوس لهم) بينما ونحن في المسجد أسأل الله أن يجعل قلوبنا على قلب رسول الله ﷺ ، اللهم اجعل قلوبنا مرتبطةً بنبيك الأعظم ﷺ .

فهل أثمرت جهود هؤلاء جميعاً في هذا الفتى ..؟

هل أثر صلاح أبويه ..؟

كيف بلغ العلا ..؟

كيف رقى ذروة المجد ..؟

أعلق هذه الأسئلة إلى الجمعة القادمة بإذن الله .

هنا مدرسة الفقه والفقهاء من مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن
يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة
والسلام عليك.



(١٢٨)

فقه الإمام الأعظم رحمته الله

الحمد لله ، الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وما توفيقي واعتمادي وتوكلي واعتصامي إلا بالله .
الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا وأتم نعمته علينا ورضي لنا الإسلام ديننا فلن نرضى عنه بدلا ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره إذ أخرجنا من ظلمات الجهل إلى نور الفقه والفهم في كتابه وسنة رسوله الكريم ﷺ فلا نبغ عن ذلك حولا .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له من قالها خرج من قلبه كل شرك بالله .

وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمد عبده ورسوله وصفيه وخليله ، خاتم الأنبياء وإمام الأصفياء الذي فتح الله به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً وهدانا به من الضلالة وعلمنا به من الجهالة ، سيدي أبا القاسم يا رسول الله

روحي بحبك في الضياء تيمم والشوق مني في هواك عظيم
والقلب مسرور بذكر محمد في ذكره نور وفيه نعيم

اللهم صلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام ، وسلم تسليماً كثيراً .
إلهي إن كان صغيراً في جنب طاعتك عملي ، فقد كبر في جنب رجائك
أملني . إلهي كيف أنقلب بالخبية محروماً ، وظني بجودك أن تقبلني مرحوماً . إلهي
أعززت نفسي بإيمانك ، فكيف تذلها بين أطباق نيرانك . إلهي إذا تلونا في كتابك شديد العقاب أشفقنا ، وإذا تلونا منه الغفور الرحيم فرحنا ، فنحن بين أمرين سخطك ورحمتك ، فأفرض علينا يا مولانا رحمتك ، ولا تقطع عنا برّك ،

إن غفرت فبفضلك ، وإن عذبت فبعدلك ، يامن لا يُرْجى إلا فضله ولا يُخشى إلا عذابه هب لنا توبة نصوحا نذيقنا فيها من حلاوة إيمانك واجعلنا في رحمتك مع الأبرار .

أما بعد : فيا أيها الإخوة الكرام .

بهذه الكلمات كان الإمام الأعظم سيدنا أبو حنيفة النعمان رحمته الله يناجي مولانا عز وجل في ظلمات الليل.

إننا اليوم على موعد مع الحلقة الثالثة من سيرة الفقهاء ، إننا مع إمام الأئمة الذي يلقب عند الفقهاء بالإمام الأعظم ، إننا مع سيدنا أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن المرزبان ، واليوم نجيب عن سؤال هام : كيف أصبح هذا الفقيه إماماً أعظماً للمسلمين...؟ ولماذا هو الإمام الأعظم دون سائر الأئمة...؟ أدعكم أولاً لتصلوا على الحبيب رحمته الله فقد تحققت معجزة لنبينا الكريم في هذا الفقيه الذي يرجع أصله كما قلت لكم إلى بلاد فارس، يقول رحمته الله : « لو كان العلم بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » ، فكيف تناول هذا الإمام العَلَمَ هذا العلم الشريف ..؟ وكيف دانت له الرجال والبلدان ..؟

إليكم الخطة العلمية التي رسمها الإمام لنفسه ، والتي اتخذها لنفسه سلوكاً ومنهجاً :

إن الإمام أبا حنيفة لم تذق	عيناه قط لُدَاذَةَ الإغفاء
وعلى كتاب رحمته الله مذهبه بُني	لله ثم السنة الغراء
ثم اجتماع المسلمين فيهم	نظروا بنور الحق في الظلماء
ثم القياس على النصوص فإنه	زهرٌ لأهل الملة الزهراء

إن سيدنا أبا حنيفة النعمان رحمته الله صحب شيخه الفقيه حماداً مفتي الكوفة ثمانية عشر عاماً لا يفارقه ، فلما مات الفقيه حماد خاف أصحابه أن يموت ذكر العلم ويندرس بموته ، فراحوا يبحثون عن من يرأس حلقة الفقه حتى وصلوا إلى سيدنا أبي

حنيفة عليه السلام، وكان قد بلغ الأربعين من عمره، فسأله أن يرأس مجلس العلم هذا فقال لهم : « لا أحب للعلم أن يموت » وجلس معهم .

وهنا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ سيدنا أبي حنيفة النعمان عليه السلام مرحلة التعليم والتدريس وكان يفقه أصحابه في الدين، وكان شديد البر بهم والتعاهد لهم، وكان رجلاً موسراً سخياً ذكياً يجلس إليهم ويصبر نفسه عليهم ويحسن مواساتهم .

بقي كذلك مدة ثلاثين عاماً ، أفتى فيها في خمسمئة ألف مسألة، وبلغ عدد تلامذته في الحلقة سبعمئة وثلاثين شيخاً كلهم علماء ، ملؤوا أصقاع الأرض علماً شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى استحکم أمره واحتاج إليه الناس وأكرمه العلماء والأمرء ، واتسع شأنه في الكوفة حتى أصبحت حلقة في مسجد الكوفة أعظم حلقة ، وأصبح آية من آيات الذوق والعلم والخلق واتفق له من العلم شيء كثير فأظهره الله على بقية الفقهاء، وفاق أهل زمانه في العلم والفقه والعقيدة وكان فضل الله عليه عظيماً .

فما السر يا ترى في ذلك ؟.. ما الذي فعله سيدنا أبوحنيفة النعمان عليه السلام حتى أقبل عليه الناس ؟

أتدرون لماذا ؟ لشيئين : الشيء الأول نقله لنا الإمام أبوحنيفة نفسه عليه السلام فقال : « إنما أدركت ما أدركت بالحمد والشكر لله تعالى فكلما علمت أووقفت على علم وفقه وحكمة قلت الحمد لله فأزداد علماً بفضل الله تعالى » ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

والشيء الآخر أن هذا الإمام ابتكر منهجاً وطريقةً جديدةً في تقرير مسائل الاجتهاد فقد وضع مذهبه شورى بين أصحابه ، لم يستبد به بنفسه ودونهم، وهذا الأمر كان اجتهاداً منه في الدين ومبالغة في النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فكان عليه السلام يطرح المسألة أمام أصحابه العلماء ، وكل واحد من تلامذته يدي برأيه فيها ، ويقول ما عنده من العلم ، ويبقى في المسألة الواحدة يناظرهم ويحاوهم شهراً أو

أكثر ، وكلهم في هذه المجالسة يعرضون عليه القرآن ، فإذا لم يجدوا فيه الجواب عرضوا ما وصل إليهم من سنة رسول الله ﷺ ، ثم بحثوا في القياس ، قاسوا الأمور بعضها على بعض ثم يستعرضون أقوال الصحابة ويختارون من أقوالهم ما يشاؤون ، فإذا وصلوا إلى أقوال التابعين اجتهد الإمام كما اجتهد التابعون وقال كلمته : «**التابعون هم رجال ونحن رجال**» لأنه من التابعين رضي الله عنه حتى يستقر أحد الأقوال في المسألة ، ثم يأمر تلميذه أبا يوسف أن يثبت هذه المسألة عنده ، وهكذا فعلوا في كل مسألة حتى دونوا الفقه كله .

إذاً . أيها الإخوة . الفقه ليس وليد الإمام فحسب ، ليس اجتهد الإمام فقط ، إنه نتيجة آراء لعلماء قلبوا وجوه الرأي في كل مسألة عرضت لهم حتى خرجوا بهذه القواعد والأسس المتينة في جوانب الإسلام .

وقد كان حول أبي حنيفة رضي الله عنه ثلة مباركة من أصحابه العلماء ، كل واحد منهم متخصص في علم من علوم الشريعة وإليكم الدليل بعد أن تصلوا على الحبيب ﷺ .

إننا سنرُدُّ اليوم - أيها الإخوة - رداً شافياً وافياً على من يقول إن فقه أبي حنيفة غير نافع ، وأنه لا يفي بضرورات العصر !!؟

ذكر مسألة أمام سيدنا وكيع بن الجراح⁽¹⁾ فقال رجل في الجلسة: أخطأ أبوحنيفة.

فقال سيدنا وكيع : وكيف يقدر أبوحنيفة أن يخطئ ومعه مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن وزُفر في قياسهم واجتهادهم ، ومعه مثل يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وحفص بن غياث وجبان وقندل ابني علي في حفظهم للحديث ومعرفتهم به

(1) وهوشىخ الإمام الشافعي رحمه الله ، يقول الإمام الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك لمعاصي
و أخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

، ومعه مثل القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود في معرفته بالنحو واللغة وداود الطائي والفضيل بن عياض في ورعهما وزهدهما ، وعبد الله بن المبارك في معرفته بالتفسير والأحاديث والتواريخ . ثم قال سيدنا وكيع : فمن كان أصحابه وجلسائه هؤلاء كيف يخطئ وهو بينهم؟ وكل منهم يثني عليه ، لأنه إن أخطأ رده إلى الصواب . ثم قال سيدنا وكيع : من زعم أن الحق مع من خالف أبا حنيفة رحمه الله (حيث وضع المذاهب وحده) أقول له ما قال الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المجامع

أيها الإخوة الكرام : إن الذي دون الفقه الحنفي مجلس أعلى من مجالس فقه الشريعة ليفهم هذا تماماً من يريد أن يأتي بفقه جديد من جعبته ، ليفهم من يريدنا أن نترك فقه الأمة الإسلامية إلى فقه معاصر متساهل جديد ، إن الذي يتكلم بهذه الكلمة ويتهم فقه الأولين بفقه المرض وفقه المحنة هو المريض وهو الممتحن هذه الدعوى النفاقية وإن صدرت من أصحاب العمام فلم يكن يراد بها وجه الله تعالى ولكنه كان يريد بها وجه إبليس ، وجه الدنيا ، وجه الكراسي المزخرفة ، ومن لم يكن همه وجه الله سقط من عين نفسه وسقط من أعين الناس .

وقد فهم الإمام أن العلم يجب أن يكون لله تعالى ، اسمعوا ماذا يقول الإمام رحمه الله يقول: « من تعلم العلم للدنيا حُرِمَ بركته ، ولم يرسخ في قلبه ، ومن تعلمه لله بورك في علمه ورسخ في قلبه وانتفع الناس منه بعلمه » وكان يردد قول سيدنا الأعظم رحمه الله : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » .

وكان يوصي تلامذته ويقول: من ظن أنه يستغني عن العلم فليبك على نفسه، قال يوماً لأحدهم : « إن بقيتَ عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم، فإنك إن أعرضتَ عنه كان عيشك ضنكاً »، ويقول لإخوانه: « مَنْ مَرَضَ مِنْ إِخْوَانِكَ فَعَدِهِ بِنَفْسِكَ وَتَعَاهِدِهِ بِرَسَائِلِكَ ، وَمَنْ تَكَلَّمَ فِيكَ بِالْقَبِيحِ

فتكلم فيه بالحسن الجميل ، وأفشِ السلام ولو على قوم لئام » . ﴿واتبع
السيئة الحسنة تحمها﴾ .

إن الإمام الأعظم كان من سادة الأمة وأشرفها ، أقر بفضله كل واحد سمع به
أو رآه . ومما زاد في خبرته عمله في التجارة ومعرفته بالحلال والحرام والمعاملات
التجارية . ﷺ ارضَ عن هذا الإمام الأعظم ، كان يفيض علماً ، يطرح المسألة
واحدة واحدة حتى يفهم الناس رأيه ويقتنعوا به ثم يقول : « هذا رأينا أحسن ما
قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب » .

واتسم ﷺ بالسماحة والرفق في النقد ، وكان قدوة في الأدب والذوق والصبر إذ
جمع فيه مع العلم المحبة ومع العلم القصة والعبرة ولا يذكر الخصم بالنقد ، وكان
يقول : « إن لم تريدوا بهذا العلم الخير فلن توفقوا » .

تناهى إلى سمع الإمام أن في الكوفة رجلاً يقول عن سيدنا عثمان بن عفان ؓ
أنه كان يهودياً ، ولم يقدر العلماء على إقناعه أو حمله على أن يغير مقالته ، فأتاه
سيدنا الإمام أبو حنيفة ؓ ، وقال له : أتيتك خاطباً . قال : لمن ؟ . قال لابنتك ؛
رجل شريف غني بالمال ، حافظ لكتاب ﷻ ، سخي يقوم الليل في ركوع ، كثير
البكاء . فقال له : دون هذا مَقْنَعٌ يا أبا حنيفة . فقال : إلا أن فيه خصلة . قال :
وما هي ؟ . قال : يهودي . قال : سبحان ﷻ ! . أتأمرني أن أزوج ابنتي من يهودي
. قال : ألا تفعل . قال : لا .

قال : إن النبي قد زوج ابنته من يهودي وهو سيدنا عثمان .
وهنا أدرك الرجل خطأه الفادح وسارع فقال : أستغفر ﷻ وأتوب إليه النبي لا
يزوج ابنته من يهودي ، بل قال لسيدنا عثمان ؓ « لئن ماتت الأولى لأزوجك
الثانية » وقال له لما ماتت بنتا النبي وهما زوجتا سيدنا عثمان ؓ :

« لو كان عندي عشر بنات لزوجتهن لك يا عثمان » . أهذا يهودي..!!؟

فتاب الرجل إلى الله. رد مفحم يدل على قوة فراسة هذا الإمام وبصره بنفوس الرجال.

يقول أحد تلامذته وهوزفر بن الهزيم : « إذا تكلم الإمام خُيِّل إليك أن ملكاً يلقنه ما يقول ». وقال عنه غيره « إنه كان إذا سُئِل في الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويّاً وجهاً في الكلام ».

أيها الإخوة : شهد لهذا الإمام بورعه وتقواه كل من عرفه والتقى به، على رأس هؤلاء إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه وقد دخل عليه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه فرفعه واحترمه وقدره ثم قال لأصحابه : أتدرون من هذا ؟ قالوا: من هذا ؟. قال : هذا النعمان ، لو قال إن هذه الاسطوانة⁽¹⁾ من ذهب لأحضر لك الدليل على أنها من ذهب من قوة علمه وقوة بصيرته .

وقال عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه : الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة»، أي زيادة .

وقال فيه سيدنا عبد الله بن المبارك⁽²⁾ رضي الله عنه وقد دخل الكوفة فسأل عن أفقه أهلها، ف قيل له أبوحنيفة . وسأل عن أزهد أهلها، ف قيل له أبوحنيفة. وسأل عن أروع أهلها، ف قيل له أبوحنيفة. فأراد أن يعرف من هذا أبوحنيفة، فلما التقى به وجلس إليه وحديثه خرج من عنده وهو يقول: « ليس أحد أحق أن يُقتدى به من أبي حنيفة ». (قولوا رضي الله عنه) .

(1) عضادة في المسجد

(2) كان يحج عاماً ويجاهد عاماً قال عنه ابن عيينة (أحد الفقهاء): هذا عالم المشرق والمغرب وما بينهما

كان إماماً تقياً ورعاً عالماً فقيهاً، به كُشف العلم كشفاً لم يكشفه أحد ،
بيصر وفهم وفطنة وتقى، ولأجل هذا قال عنه الإمام الذهبي : **الإمامة في
الفقه ودقائقه مُسلّمة إلى هذا الإمام وهو أمر لا شك فيه**».

أيها الإخوة الكرام : عاش الإمام الأعظم سبعين سنة ملاً حياته خلالها بالفقه
والعلم والمعرفة دخل عليه رجل في حلقة في مسجد الكوفة، وحوله أصحابه
المخلصون، فقال للإمام: « ما تقول في رجل لا يرجو الجنة، ولا يخاف النار ، ولا
يخاف من الله تعالى ويأكل الميتة، ويصلي بلا ركوع ولا سجود، ويشهد بما لا يرى
، ويبغض الحق ، ويحب الفتنة ، ويفر من الرحمة ، ويصدق اليهود والنصارى ؟ قال
الإمام أبوحنيفة . وكان يعرف أن الرجل شديد البغض له .:
يا فلان سألتني عن هذه المسائل فهل لك علم بها .
قال الرجل :لا.

فالتفت الإمام لأصحابه وقال لهم : ما تقولون في هذا الرجل الذي يصفه .
قالوا جميعاً: شر رجل ، هذه صفات رجل كافر.

تبسم الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله وقال لأصحابه : هذا الذي يصفه هذا
الإنسان ولي من الأولياء ، ثم قال للرجل : إن أنا أخبرتك أنه من أولياء الله تعالى
تكف عن سوء لسانك. قال : نعم.
فقال سيدنا أبو حنيفة : أما قولك إنه لا يرجو الجنة ولا يخاف النار فإنه يرجو
رب الجنة ويخاف رب النار ، وأما قولك لا يخاف من الله فإنه لا يخاف من الله
أن يجور ويظلم في حكمه وعدله جل جلاله

﴿إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته محرّماً بينكم﴾ .

وأما قولك يأكل الميتة ، فإنه يأكل السمك ، وقولك يصلي بلا ركوع ولا
سجود أراد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . والفقهاء يقولون الصلاة على النبي خير من
صلاة النافلة (اللهم أنزل أكمل صلواتك وأتم تسليماتك على سيدنا محمد) ،

وقولك يشهد بما لم يرَ فهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فهو لم يرَ الله جلَّالَهُ وكذلك لم يرَ رسول الله ﷺ . وقولك يبغض الحق فهو يبغض الموت وهو الحق ويجب البقاء حتى يطيع الله تعالى ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ ، وقولك يجب الفتنة أراد أنه يجب المال والولد ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ، وقولك يفر من الرحمة فهو يفر من المطر وهو غيث ورحمة ، وأما قولك يصدق اليهود والنصارى فهذا قول الله جلَّالَهُ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ وقد صدَّق كليهما في هذا القول فهو صدق قول الله جلَّالَهُ . فقام الرجل وقبَّل رأس الإمام وقال: أشهد أنك على الحق.

أيها الإخوة:

روي عن هذا الإمام أحواله التي تشبه أحوال الصحابة ، وورعه وزهده وعبادته وقيامه الليل حتى قيل إنه ختم القرآن سبعة آلاف مرة، وقرأ القرآن كله في ركعتين من الليل، وحج خمساً وخمسين حجة، وصلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة . اللهم تب علينا يا تواب . .

وكان الإمام الأعظم إذا أراد أن يصلي تزيين وسرح لحيته وتعطر ولبس ثوبه الغالي الذي تبلغ قيمته ألف وخمسمئة درهم، ثم يقوم إلى الصلاة ويقول: «التزيين لله عز وجل أولى». وليس التزيين للمخلوق قال تعالى ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾.

أيها الإخوة الكرام :

الناس في بلدان الدنيا كانوا يركضون وراء الوظائف التي تملأ جيوبهم من الرِّشوة ، أما الإمام الأعظم فقد رفض أن يتولى القضاء مرتين ، مرة في عهد بني أمية ومرة في عهد بني العباس، وكان يقول: «إذا ارتشى القاضي فهو معزول شرعاً وإن لم يُعزل» وذلك لأن الرِّشوة من الكبائر ، وصفات القاضي العدل ألا يرتكب كبيرة ولا يصير

على صغيرة ويحافظ على مروءة أمثاله وأن تغلب حسناته سيئاته ، فلما ارتشى ارتكب كبيرة وذهبت عدالته وسقطت مروءته لذلك فحكمه أنه معزول شرعاً وإن لم يُعزل.

كان الإمام عليه السلام حسن الجوار حسن السمات حسن المعاشرة والمواساة كان يحتمل الناس ويداريهم ، وكان بجواره جار فاسق ، يضرب العود في الليل ويسكر كلما جن عليه الليل ، أقبل على لعبه وهواه وكان أكثر صياحه وغناه إذا سهر هو وأصحابه قوله:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى حُفظ عنه هذا البيت لكثرة ما كان يردده ، فأخذه الحرس من داره وهو سكران وحبسوه فلما قام الإمام الأعظم من الليل لم يسمع صوت جاره ، افتقده ، فلما أصبح سأل عنه ف قيل في السجن فقال لأصحابه : قوموا بنا نسعى في خلاص جارنا فإن حق الجوار عظيم عند الله. ومشى حتى أتى مجلس الأمير، فلما رآه الأمير قام من مكانه وأجلسه بجواره، وقال له : هلا دعوتني فجئتك يا إمام .

فقال له الإمام الأعظم عليه السلام : إن في سجنك جاراً لي أخذه الحرس البارحة. فقال الأمير: كل سجين حر اليوم لأجل الإمام أبي حنيفة، وأُخرج من السجن وأخذه الإمام بيده وقال له: أضعنك يا فتى...؟.

قال : لا يا سيدي ومولاي ما تراني بعد اليوم أفعل شيئاً تتأذى به.

فأعطاه الإمام صلة ومضى ، فإذا به يديم على حضور درسه ومجلسه حتى أصبح هذا الرجل من فقهاء الكوفة.

هذا هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان عليه السلام كان يعمل من كسب يده ، لم يقبل الجوائز والعطايا كما يفعل رجال السوء في عصرنا ، كان إذا رأى منكراً احمرت عيناه وانقلبت في أم رأسه، وانتفخت أوداجه، ما رأى منكراً قط إلا أزاله عليه السلام وكان يؤثر رضى مولانا رحمته الله على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله تعالى.

أبعد هذا يأتي أحد المنافقين الذين يدعون المشيخة قد أفسد دينه بالنفاق، يأتي منادياً أن نبدل مذهبه ونستغني عنه ونأتي بفقهِ جديد...؟ كيف يتسنى هذا...؟
هذا المتمشيخ لم يرد بكلمته وجه الله ﷻ وسوف يحاسبه الله، وسوف يهوي إلى الحضيض بدعواه النفاقية تلك.

إن الإمام الأعظم رفض أن يبيع دينه ، رفض أن يتولى القضاء مرتين ، وحين أرسل إليه أبو جعفر المنصور وأراد أن يوليه القضاء أبى فحلف أبو جعفر عليه إلا ليقبلن فحلف سيدنا أبو حنيفة لا أفعل فقال رجل للإمام الأعظم : ألا ترى أمير المؤمنين قد حلف.

قال سيدنا أبو حنيفة عليه السلام : أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه مني على كفارة يميني.

فأمر أبو جعفر المنصور بحبسه في السجن وبضربه كل يوم عشرة أسواط ، ثم دعا به فقال له : أترغب عما نحن فيه.

فقال سيدنا الإمام عليه السلام : أصلح الله الأمير ، يا أمير المؤمنين اتق الله ولا تشرك في أمانتك من لا يخاف الله ، والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ، فلا أصلح لذلك .

فقال أبو جعفر المنصور : كذبت أنت تصلح له .

فقال له الإمام عليه السلام : يا أمير المؤمنين قد حكمت على نفسك كيف تولي قاضياً كذاباً .

ولبت طويلاً في السجن وضربه المنصور مئة وثلاثين سوطاً وهو في سجنه ممتنعاً عن ولاية القضاء ، وجاءته أمه تزوره وهو يضرب في السجن ، وكان له ولد وحيد سماه حماداً على (اسم شيخه) قالت له : « يا أبا حماد ما خير علم يضيعك كل هذا الضياع » .

فقال لها : أيا أماه إنهم يريدونني على الدنيا وإنني أريد الله والآخرة وإنني

أختار عذابهم على عذاب الله ، والله يا أمي لو أردت الدنيا لوصلت إليها ولكن أردت أن يعلم الله أنني صنت العلم ولم أعرض نفسي لهلكته، ثم قال : والله ما أوجعتني الشياطين قدر ما آلمتني دموع أمي .

وخرج الإمام من السجن مريضاً وقد بلغ السبعين من عمره وبقي أياماً وهو مريض مثقل، فلما أحس الإمام بالموت سجد لله سجدة وصعدت روحه إلى ربها وهو ساجد فنهياً له القرب من الله تعالى . لأن سيدنا رسول الله يقول : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) .

أيها الإخوة الكرام :

توفي الإمام سنة مئة وخمسين للهجرة وفي السنة التي توفي فيها الإمام الأعظم ولد إمام عظيم هو الإمام الشافعي .

واسمعوا وصية سيدنا أبي حنيفة اسمعوها وقد كان يكررها على أصحابه ، كان يقول لكل واحد منهم : « كن لله في شرك كما أنت في علانيتك فلا يصلح للعالم إلا بأن يجعل سره كعلانيته» .

لقد خصص الله النبي محمداً بأشياء منها النفس دام ابتهاجها
فأتمته قد أخرجت خير أمة كما جاء ، والنعمان فيها سراجها
فها هو في أرض بغداد قد ثوى أضاءت به أرجاؤها و فجاجها
هنا مدرسة فقهاء الأمة من مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع
التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي :

الصلاة والسلام عليك

(١٢٩)

الإمام مالك، أمير المؤمنين في الحديث

الحمد لله الذي رفع منار العلم في كل عصر ومصر ، وأقام أهله ظاهرين على الحق مؤيدين بالفتح والنصر ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره حمداً وشكراً يستنزل الرحمة ويكشف الغمة ويغيث الملهوف ويزيل الكرب .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزل على نبيه سورتي الفتح والنصر .

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وأمیرنا وقائدنا وقرۃ أعیننا سيدنا محمد عبده ورسوله وصفیه وخلیله القائل : « ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة . وفي رواية . ليس على ظهر الدنيا أعلم منه ، فتضرب الناس إليه أكباد الإبل » .
اللهم صل على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد صلاة وسلاماً لا يعتريهما عد ولا حد ولا حصر وسلم تسليماً كثيراً .
أما بعد: فيا أيها الإخوة الكرام :

حديثنا اليوم عن مَلِكٍ ، ليس من ملوك الدنيا الفانية العريضة الذين يضعون في صالة الروليت ملايين الليرات وينفقونها في لحظة من الحرام ، والصومال يتضور جوعاً ، ليس عن هؤلاء الملوك أتكلم ولكنني أتكلم عن ملك الحديث النبوي الشريف ، وتاج الفقهاء في عصره ، من مَلِكٍ سيادة العلم كابراً عن كابر ، وتلقف الفضل من عظيم عن أعظم ، مَلِكٌ لم يكن بينه في رواية الحديث وعلوها وبين المشرع الأعظم سيدنا رسول الله ﷺ إلا رجلاً ، تابعي وصحابي ، مَلِكٌ لم يدع عالماً كبيراً ولا محدثاً أو فقيهاً إلا وجلس إليه وأصبح له من الشيوخ ما لم يكن لأحد من علماء عصره ، حتى جمع ثروة ضخمة من إرث النبوة من الحديث الشريف

قولاً وفعلاً وإقراراً جمع ثروة لم يجمع أحد مثلها ، لا ثروة من العقارات أو الضياع أو الأموال ولكن ثروة من إرث سيدنا رسول الله ﷺ .

**العلم ميراث النبي كذا أتى في النص ، والعلماء هم ورثته
ما خلف المختار غير حديثه فينا فذاك متاعه وأثاته**

جمع ثروة من هذا الإرث واجتهادات الصحابة والتابعين وفتواهم ، ثم جلس بعدها للناس يفتيهم مجتهداً إماماً علماً .

والمجتهد . أيها الإخوة . « هو الذي يبذل أقصى جهده ليكون في فقهه واجتهاده موافقاً لما شرع الله ﷻ ورسوله ، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد » .

مَلِكٌ أقبل كبار المحدثين والفقهاء من بقاع الأرض المسلمة من كل فج عميق من مكة والمدينة ، من الغرب والشرق ، من الأندلس ومصر ، من الشام والعراق ، أقبلوا إليه ليجمعوا منه كتاباً من أجل كتب الحديث هو الموطأ الذي رواه عنه الإمام الشافعي رحمه الله ومحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة رحمه الله والإمام أحمد رحمه الله رواه سماعاً ممن رواه له ، حتى أصبح مذهب عظيم امتد من إفريقية الشمالية إلى مصر إلى المغرب الأقصى ، وكان هذا المذهب يلقب باسم شيخه المذهب المالكي وكان الإمام لهذا المذهب يقول : « كلكم يؤخذ منه ويرد عليه إلا سيدنا رسول الله ﷻ » .

كان هذا أيها الإخوة هو الموجز ، وقبل أن أنقل إليكم الأنباء بالتفصيل أدعكم لتصلوا على صاحب الرسالة ﷺ ، الذي قال : « يخرج ناس من الشرق والغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » ، وقد أجمع أهل العلم أن عالم المدينة الذي بشر به سيدنا المصطفى ﷺ هو أمير المؤمنين في الحديث

سيدنا مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي

الذي قيل عنه : إنه إمام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز قولوا ﷺ .

ولد الإمام مالك رحمه الله في خلافة سليمان بن عبد الملك ، في السنة نفسها التي توفي فيها صحابي جليل هو سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أعني سنة ثلاث وتسعين للهجرة ، وقيل خمس وتسعين .

أيها الإخوة الكرام :

إننا مع الصفحة الأولى ، فقد ولد هذا الإمام في مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن حملت به أمه ثلاث سنوات ، وخرج من بطنها وأسنانه مكتملة .
وأمه هي العالية بنت شريك بن عبد الرحمن من قبيلة الأزد . وجده أبو عامر الأصبحي عربي حميري يعربي ، كان صحابياً جليلاً تباركت عيناه برؤيا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد معه الغزوات كلها إلا بدر .
ومالك جده الأول من كبار التابعين وعلمائهم ، وكان جده الأول هذا من جملة نفر الأربعة الذين حملوا سيدنا عثمان الشهيد رضي الله عنه حينما اغتيل ، حملوه في الليل ودفنوه في البقيع .

وعمه نافع من ثقة التابعين ، روى عنه الإمام مالك رحمه الله كثيراً .
وأخوه النضر وكان أشهر من الإمام مالك رحمه الله في أول عهده حتى كان يقال عن سيدنا مالك رحمه الله جاء أخو النضر ، فلما اشتهر الإمام مالك أصبح يقال جاء النضر أخو مالك .

هذه هي البركة التليدة التي منحها الله تعالى لأسرة هذا الإمام ، هذه البيئة الطيبة المباركة التي أخرجت نباتها بإذن ربها ، وقد دفعته هذه البيئة الصالحة لأن يحفظ القرآن وهو بعد لم يشب عن الطوق وانتسب إلى العلم وهولا يزال بعد شاباً ، يحدثنا عن نفسه فيقول : « كان لي أخ في سن ابن شهاب ⁽¹⁾ فألقى أبي يوماً علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت ، فقال أبي : يا مالك ألهتك الحمام عن طلب العلم .

(1) المحدث العظيم ، وهو شيخ الإمام مالك

ففضبت وانقطعت أتعلم إلى ابن هرمز سبع سنوات، بقيت آتية صباحاً فلا أخرج من بيته إلى الليل .

وهكذا أيها الإخوة بنفحة ربانية، وإشارة من أبيه بدأت الحياة العلمية لهذا الفتى العربي المسلم وصدق مولانا رحمته الله ﴿وما توفيقي إلا ب﴾ رحمته الله فقد قيض رحمته الله لهذا الإمام فقيه عصره في المدينة، مفتي المدينة ربيعة الرأي، قيضه رحمته الله له وهو بعد ما زال فتى في ميعة الصبا، فأخذ عليه الفقه وآلات الاجتهاد ، وكان شيخه ربيعة معجباً بعقله المتزن وبصيرته في مسائل الفقه، وكان إذا رآه يقول جاء العاقل .

وصدق سيدنا رسول رحمته الله من أخلص العبادة لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، أو كما قال .

فقد انقطع سيدنا مالك رحمته الله إلى العلم والحديث وانعزل عن الناس حتى ما يراه أحد ، شكت ذلك أخته إلى أبيها فقالت : « هذا أخي لا يأوي إلى الناس » ، فكان أبوه يقول لها : « يابنية إنه يحفظ حديث رسول رحمته الله ».

وما زال ينقطع إلى العلماء والفقهاء والمحدثين حتى أصبح لديه علم أكابر الصحابة : سيدنا أمير المؤمنين عمر وولده عبد رحمته الله وأم المؤمنين السيدة عائشة وابن عباس وابي هريرة وجابر رحمته الله.

كما ورث علم سيد التابعين سيدنا سعيد بن المسيب رحمته الله وعلم فقهاء المدينة السبعة وتلامذتهم وخاصة الإمام المحدث محمد بن مسلم بن شهاب الزهري القرشي والإمام نافع مولى ابن عمر وعبد الرحمن بن هرمز وربيعة الرأي مفتي المدينة وهو أساس الفقه الذي جمعه الإمام مالك رحمته الله (أنا أعدد الأسماء لأنه بذكر الصالحين تنزل الرحمة ، يا رب إن كنت قبلت هؤلاء فاقبلنا يامولانا)، وما زال يَدْرُسُ وَيَتَعَلَّمُ وَيَتَّبِعُ الشيوخ والعلماء حتى أصبح عدد مشايخه تسعمئة شيخ ثلاثمئة من التابعين وستمئة من تابعي التابعين (فقولوا رضي رحمته الله عنهم .)

أيها الإخوة الكرام :

هذه الأسماء اللامعة في سماء الإسلام ورث علمها هذا الإمام العَلَم من تابعي التابعين بل غدا عَلمًا طبقة تابعي التابعين .

ومن هم تابعو التابعين ؟.. إنهم الطبقة التي علّق الحبيب الأعظم على صدورهم وساماً دام فخره أبد الدهر، اسمع إلى حبيبك رسول الله ﷺ يقول : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ، فالقرن الأول أصحابه والتابعون والقرن الثاني تابعو التابعين ومن بعدهم من الطبقة الرابعة والقرن الثالث الطبقة الخامسة والسادسة وسيدنا الإمام مالك ولد في القرن الأول الهجري سنة ثلاث وتسعين للهجرة وكان قد مضى على وفاة الحبيب الأعظم ﷺ قرابة ثلاث وثمانين سنة .

ثم يأتي أحدهم ويقول: لا نريد فقه الإمام مالك ، دعونا مع النبي فقط هذه كلمة حق أريد بها باطل ، وهل علم هؤلاء إلا علم رسول الله ﷺ؟

ليسمع الفتيان كيف كانت نشأة هذا الفتى المسلم ، ليسمعوا ويقلدوا ليفلحوا، كانت نشأته إسلاميةً فذة ، جمع علوم أشياخه وتعلم منهم وحفظ آراءهم ونقل آثارهم وعرف مذاهبهم وأحكم قواعدهم ، كان عاقلاً حافظاً ضابطاً للحديث متقناً للسنة المطهرة ﷺ وتصدر للتدريس والتعليم والفتيا في وقت مبكر، وكان عمره حين جلس يدرس الناس عشرين سنة وكان ومشايخه مايزالون على قيد الحياة، وظهر فضله وعلمه يوم جيء إلى الوالي بسارق (اسمعوا هذا المشهد لتشهدوا سمو هذا الإمام في سن مبكرة من حياته)جيء بسارق وحضر العلماء وحكموا عليه بقطع يده، والإمام مالك جالس ساكت لا يتكلم، وهو مازال بعد في شبابه وشهامته ورجولته قالوا له: تكلم يا مالك. فقال الإمام : لا قطع عليه .

فاستعظم أشياخه هذه الفتوى وقالوا : وكيف ذلك ؟.

قال لهم : هل يجب القطع إلا في ربع دينار فصاعداً، فأما أن يسرق من

هذا درهماً ومن هذا درهماً فهذا لا قطع عليه (فهو لم يسرق ربع دينار من شخص واحد ولكنه سرق من أكثر من شخص ما مجموعه ربع دينار فأكثر ومن كل شخص منهم سرق ما يقل عن ربع دينار) هذه القاعدة التي سمت بالإمام مالك إلى علياء عصره وحبته احتراماً وتبجيلاً فانصرف العلماء وهم يُكَبِّرُونَ هذا الفتى المسلم، وكانت هذه هي البداية .

ثم جيء إلى أمير المدينة بفتى أقر على نفسه بالقتل عمداً وحضر العلماء وأفتوا بقتله إلا أن يعفو الأولياء، (أولياء القتل) والإمام مالك جالس ساكت، فسألوه فقال: هو القتل حتى أنظر .

قالوا : وما تنظر ؟. فقال : هل حبستموه ؟. قالوا: نعم منذ كذا وكذا . فإذا عندما حبسوه وأقر بالقتل كان دون سن البلوغ. فقال: لا قتل عليه لأنه كان حدث السن ولا يقام الحد على ولد .

كانت هذه أولى تباشير تفتح عبقرية هذا الإمام إن جاز لنا التعبير

أيها الإخوة الكرام : اسمحوا لي أن انتقل بكم إلى هناك ، إلى الروضة المطهرة إلى حيث الحرم النبوي الشريف إلى حيث يجلس الإمام مالك رحمته الله ، فقد بدأت حلقة الإمام تتسع وتكبر يوماً إثر يوم، واتخذ مكاناً لها في المكان نفسه الذي كان فيه فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين القبر والمقام وهو المكان نفسه الذي كان يدرس فيه سيدنا عمر وولده عبد الله رضي الله عنه ثم مولاه نافع رضي الله عنه ، حتى أصبحت حلقة بحجم حلقة شيخه ربيعة الرأي أو أكثر ، وما جلس للفتوى وتدریس الحديث والفقه حتى شهد له سبعون من علماء المدينة بالعلم وأذنوا له بالإفتاء ، وكان من عادته عندما يجلس في مجلسه العلمي ليدرس ألا ينطق بشيء حتى يقول «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم»، يتبرأ من نفسه لأن العلم من لدن الله جل جلاله ، واتخذ مجلسين مجلساً عاماً للناس كلهم ، ومجلساً خاصاً يجلس فيه فقهاء المدينة.

وكان مجلسه مجلس هيبة ووقار وإجلال ، لا يستطيع أحد أن يتكلم فيه كلمة، كما لا يستطيع أحد أن يسأل إلا في حال من الأدب وخفض الصوت ، ولقد بلغ من المكانة والسلطان والشهرة والعلم في عصره ما لم يبلغه أحد حتى قيل فيه «لا يُفتى ومالك في المدينة» وأصبحت مثلاً سائراً.

وترى العلماء يلتقون معه في موسم الحج في مكة يبحثون معه المسائل العلمية ﷺ وكان له شيء مميز، شيء ليس لأحد أبداً، أعظم شيء في رواية حديث سيدنا رسول الله ﷺ إنها سلسلة الذهب في الحديث إذ كان الناس يأتون إليه ليأخذوا هذا السند الحديثي، وقبل أن أذكر لكم هذه السلسلة الذهبية أريدكم أن تصلوا على الحبيب ﷺ لأن :رأس هذه السلسلة هو الحبيب الأعظم ﷺ .
ويليه سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

ويليه عبده الذي أعتقه نافع مولى سيدنا عبد الله بن عمر (وكان محدثاً ﷺ) . ثم تنتهي هذه السلسلة بالإمام مالك رضي الله عنه وتسمى هذه السلسلة بسلسلة الذهب الحديثية والتي هي أعظم سلسلة في الحديث ، إذا روي الحديث عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن سيدنا رسول الله ﷺ فهو أعظم شيء في الحديث النبوي .
ويكفي هذا الإمام فخراً أنه جمع في صدره من حديث سيدنا النبي ﷺ مئة ألف حديث وكان الناس يقبلون عليه من شرق البلاد وغربها ، يشدون إليه رحالهم كما قال النبي ﷺ ويزدحمون على بابه حتى يخرج الخادم فيقول : انتظروا! ليدخل أولاً أهل مدينة رسول الله ﷺ ثم أهل الشام ثم أهل العراق ثم بقية الناس .

ورغم ذلك كان الإمام يخشى من الفتيا إذا سُئل ، كان إذا سُئل مسألة قال نعم أو لا، ولا يقال له من أين قلت هذا؟ فالذين يجلسون في مجالس العلم ويقولون لشيخ المجلس: « ما دليلك» ليعلموا أن هذا قلة أدب، خاصة إذا كان الشيخ ثقة وكان المجلس مجلس فقه أي بدون أدلة فالدليل يُطلب عندما يكون المجلس مجلس أدلة أو مجلس حديث أو مجلس قرآن ولا يُطلب في مجلس الفقه وكان ﷺ يكره أن

يستزيده إنسان، أي يقول له ماذا بعد...؟ عزةً للعلم ورفعةً للعلماء ،وربما أجاب مرات ومرات عندما يُسأل « لا أدري » ، ومرة جاءه رجل فسأله مسألة فلم يجبه فقال له الرجل: جئتكَ من مسيرة ستة أشهر ثم تقول لا أدري ! وأي شيء أقول لأهل بلادي إذا رجعت إليهم؟.

فقال له الإمام مالك رحمه الله : « تقول لهم سألت مالكا فقال لا أدري » . نصف العلم لا أدري . ، ليس عيباً أن تقول لا أدري فهاهو إمام دار الهجرة يقول : لا أدري ولذلك كان يقول رحمه الله جُنَّة العالم لا أدري إذا أغفلها أُصِيبَ مقاتله . « .

وسُئل مرة فقال : لا أدري ، فقال له السائل : إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب الإمام وقال: « مسألة خفيفة سهلة ! ليس في العلم شيء خفيف أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ » ، وكان يكره الجدل والمرء ويقول : « إن هذا يُذهب بنور العلم من قلب العبد ويقسي القلب ويورث الضغن » وقد اعتاد ألا يجيب عن مسألة رحمه الله حتى يكون قتلها بحثاً وتديلاً وهو الذي يقول: «ربما وردت عليّ مسألة فتمنعي الطعام والشراب والنوم» فإذا قضى في مسألة أو أفتى بها قال « إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فما وافق السنة فخذوا به، كلٌّ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر » ويعني سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

جاءه رجل يسأله عن الاستواء في قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ قال ما الاستواء ؟ كيف استوى ؟..

فاحمر وجه الإمام وأطرق وتصبب عرقاً ثم رفع رأسه فقال: «الكيف منه غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا صاحب بدعة احملوه فارموه خارج المسجد » فحملوه وألقوه خارجاً.

وكان يقول ﷺ « من سبَّ أبا بكر جُلد ومن سبَّ عائشة قُتل » ، لأن أبا بكر صاحب النبي ﷺ فسبه يعني إهانة لسيدنا رسول الله ﷺ بطريق غير مباشر ، وأما الذي يقول إن السيدة عائشة زنت فهو يخالف صريح القرآن فﷻ برأها من الزنى ومن سبَّها واتهمها يكون منكراً لذلك .

وكان لا يقاطعه أحد ، دخل عليه مرة الخليفة هارون الرشيد وأجلسه معه على منصته التي يجلس عليها لسمع الحديث ثم قال : « يا أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا إلا وهم يحبون أن يتواضعوا لله » فنزل هارون الرشيد عن المنصة وجلس بين يدي الإمام مالك ﷺ تواضعاً وانقياداً لقوله .

أيها الإخوة : هذا العلم الواسع العريض كان يرافقه عبادة وتقوى وكثرة ركوع وسجود كان إذا وقف الإمام مالك ﷺ في صلاته كأنه خشبة يابسة لا تتحرك وهو يناجي مولانا ﷺ ، وكانت أكثر عبادته في الليل ، تقول خادمته : « إن لمالك اليوم أكثر من أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء » . لم يكن يسافر إلى باريس وغيرها في الصيف ثم يعود إلى بلده في الشتاء . فإذا كانت ليلة الجمعة أحياها كلها ، وسئلت أخته ما كان يشغل في بيته قالت : « المصحف بين يديه » ، وكان ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مجلسه لا يتكلم ولا يكلمه أحد حتى تطلع الشمس .

أيها الإخوة : كان أعظم عمل قام به الإمام مالك ﷺ في المدينة تدوينه للحديث النبوي في كتاب عظيم توخى فيه الإمام مالك القوي من حديث أهل الحجاز ، ووضع فيه أقوال الصحابة ومن بعدهم ، رتب على الكتب والأبواب فكان في كتابه محدثاً فقيهاً مجتهداً ، وقد عرض كتابه هذا على سبعين من فقهاء المدينة وكلهم وافقوه عليه ، وبقي يتفكر ماذا يسمى كتابه هذا ، فرأى الحبيب الأعظم ﷺ منامه فقال له : « يا مالك وطئ هذا العلم للناس » أي اشرحه لهم فسمى كتابه الموطأ ، وبقي يجمعه مدة أربعين سنة حتى قال الإمام الشافعي فيه

ﷺ: « ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله أنفع من موطأ مالك » . لسمع المنافقون !!

لذلك أراد بعض الخلفاء أن يحملوا الناس على أن يتبعوا الموطأ لكن الإمام مالكا نهاهم عن ذلك استحياء من علماء الأمة الإسلامية وكان يقول : «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » لسمع هذا الكلام من ينادي بفقهِ العافية وفقهِ المرض وفقهِ المحنة ! نعوذ بالله من علماء السوء

أيها الإخوة : وأقبل الناس من كل جهة من بلدان الدنيا إلى المدينة ، لينالوا قسطاً من علم الإمام مالك فأصبح له تلامذة كثيرون لا يُحصى عدداً ، لكنني أشير إلى تلميذ واحد من تلامذته إنه قدوتنا إلى الله سيدي محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله الذي قبل أن يأتي الإمام مالكا من مكة إلى المدينة حفظ الموطأ كله عن ظهر قلب ثم قدم إلى الإمام مالك فدخل المسجد وطلب أن يكون تلميذه قال له الإمام مالك: ما اسمك ؟ . فقال :محمد . هنيئاً لمن سُمِّي محمداً اسمعوا الحديث بإسناد حسن: « من جاءه مولود فسماه محمداً محبةً بي كان هو ومولوده في الجنة » ، وكذلك يقول النبي ﷺ « ما ضر لو كان في بيت أحدكم محمد أو محمدان أو ثلاثة » يأسعد من صلى على الحبيب .

قال له الإمام مالك : يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن وأي شأن . وتابع الإمام قوله : واطلب من يقرأ لك . فقال الإمام الشافعي رحمه الله أنا أقرأ .

وراح الإمام الشافعي يقرأ من الموطأ ويقرأ ويقرأ ، وكلما قرأ أعجبت الإمام مالكا فصاحه هذا الفتى وبلاغته ، ثم راح يسأل الإمام مالكا أسئلة ، ثم سأله الإمام مالك وراح الشافعي يجيب عن أسئلته فقال له الإمام مالك رحمه الله . «أنت يجب أن تكون قاضياً » .

أيها الإخوة : كان الإمام مالك طويلاً جسيماً أبيض البشرة أشقر حسن الصورة أصلع أزرق العينين عظيم اللحية وعريضها يحب استعمال الطيب الجيد من المسك وغيره ، يلبس أجود اللباس وأغلاه وأجمله ويقول : « إنه من مروءة العالم أن يختار الثوب الحسن يرتديه، ويظهر به وإنه لا ينبغي أن لا تراه العيون إلا بكامل اللباس حتى العمامة الجيدة » وكان من يرى الإمام مالك يشبهه بالملوك، وكان له خاتم من فضة، فسه من حجر أسود نقشه: **حسبنا الله ونعم الوكيل** بكتاب جليل .

أيها الإخوة الكرام : عاش الإمام مالك قريباً من تسعين سنة ، يفتي الناس نحواً من ستين أو سبعين سنة وأكرمه الله تعالى إكراماً عظيماً وكان من كرامته أن بعض مشايخه جاءوا إليه يستفتونه في المسائل العلمية، وبقي ذكره يتردد في كل عصر ومصر، يقول سيدنا الإمام الشافعي رحمه الله : « إذا ذكر العلماء فمالك النجم » ويقول الإمام الأوزاعي ⁽¹⁾ عندما ذكر أمامه الإمام مالك رحمه الله قال : « عالم المدينة ومفتي الحرمين » وقال فيه الإمام الذهبي : « لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ »، وقال فيه سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : « كان مالك سيداً من السادات في عقله وفي أدبه ».

هذه هي الشهادات، هذه هي الأوسمة التي إن دلت على شيء فإنها لتدل على أنه ما من مسلم يعظم الله ورسوله في نفسه إلا رفعه الله وعظمه بين الناس .

أيها الإخوة الكرام : ما زلنا هناك عند الحبيب الأعظم رحمه الله ما زلنا هناك في الروضة المطهرة حيث يجلس الإمام مالك رحمه الله وأنقل لكم هذا المشهد في تعظيم الإمام لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ها هو يمشي مشياً ولا يركب دابة في المدينة، ولو بُعد المزار، قالوا له يا إمام لم لا تركب ؟ فقال : « إني لأستحي أن أطأ بحافر الدابة

(1) إمام أهل الشام .

تربة فيها نبي الله سيدنا محمد ﷺ ، والله إنه لأدب والله إنه لاحترام والله إنه لتعظيم .

بل اسمعوا معي كيف كان يعظم حديث رسول الله ﷺ ، كان إذا أراد أن يتحدث بالحديث أو يحدث يقوم فيتوضأ، ويضع الطيب ويلبس ثيابه الفاخرة، ويضع عمامته، ويلبس عباءته، ويجلس إلى المنصة وعليه الخشوع وأمامه البخور ، ثم يأخذ في الحديث النبوي، فإذا سُئل :لم تفعل ذلك يا إمام ؟ قال الإمام مالك رحمه الله : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة»

وكان يقول : « إني لأذكر وما في وجهي طاقة من شعر : ما منا أحد يدخل المسجد النبوي إلا معتماً بعمامة إجلالاً لسيدنا رسول الله ﷺ الذي سن العمامة » اسمعوا أكثر من ذلك .. يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله : كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا فجاءته عقرب في رجله فلدغته وتصبّر وتغير لونه حتى انتهى مجلس الحديث وانفض الناس قال له سيدنا عبد الله : يا أبا عبد الله وكان للإمام مالك أربعة أولاد ثلاثة ذكور وبنت ، وأي بنت ! ما سمعت بمثل هذه البنت كانت تقف خلف الباب والدرس قائم في غرفة أبيها وطالب العلم يقرأ وربما ينشغل الإمام مالك فيخطئ الطالب فتدق البنت الباب من الخلف فينتبه الإمام مالك ويقول له : أخطأت يا فتى . قال سيدنا عبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الله قد رأيت اليوم منك عجباً.

فقال: نعم صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ .

رفع مرة الخليفة أبو جعفر المنصور صوته في مجلس الإمام وهو يحدث فقال له الإمام : « اخفض صوتك فإن الله تعالى يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ، وهذا الحديث هو كلام سيدنا رسول الله ﷺ .

فمن رفع صوته أثناء تلاوة الحديث فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ ثم قال : « وَحُرْمَتُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا سَوَاءٌ » ، أي يجب عليك تعظيم النبي حياً كان أوميتاً ومن تعظيم النبي ﷺ الصلاة عليه كلما ذكر .

يارب صلّ على النبي محمد واجعله شافعنا بفضلك في غد
فلقد عرفتك منعماً متفضلاً وإذا دعوتك فاستجب لي سيدي

أيها الإخوة الكرام : ماذا تتوقعون المكافأة من مولانا ﷺ على تعظيم الإمام
ﷺ للنبي ﷺ ولشعائر الله ، أتدرون كيف كافأ مولانا ﷺ الإمام مالكا ﷺ يقول
الإمام مالك : « ما نمت ليلة إلا ورأيت رسول الله ﷺ » .

هذه هي جولة الحق مع الإمام مالك ﷺ ، فهل كان على الإمام جولة
للباطل؟.

إن المكانة التي ارتقى إليها الإمام جعلته لا يسلم من الحكام الظلمة فقد كان
أبو جعفر المنصور قد أكره الناس على البيعة لابنه، وجعلهم يحلفون بالطلاق على
ألا ينكثوا البيعة، فأفتى الإمام مالك ﷺ أن هذا اليمين باطل واستدعي إمام دار
الهجرة استدعي من قِبَل أمير المدينة وجلده بالسياط على أن يرجع عن هذه الفتيا
فلم يرجع ، فحُمِل الإمام على ناقه وحُلِق له شعر رأسه ودار به زبانية الظلمة في
سوق المدينة وهو على الناقة، ولكنه لم يتراجع وكان وهو في هذه الحالة ينادي
ويقول : « ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس أقول
طلاق المكره ليس بشيء⁽¹⁾ وكان الزبانية يضربونه بالسياط وكان كلما ضُرب
يقول: « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » حتى في هذه متبع للسنة فقولوا رضي
الله عنه .

(1) طلاق المكره باطل على ثلاثة من المذاهب إلا المذهب الحنفي .

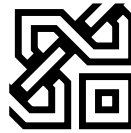
كانت هذه المحنة الشديدة سبباً لاعتزاله في داره خمساً وعشرين سنة لا يخرج من بيته، وما زال مولانا رحمته الله يعلي من قدر سيدنا مالك رحمته الله بعد هذه المحنة حتى أصبح في رفعة لا يسمو عليها مقام لأنه أعز دين رحمته الله فأعزه مولانا رحمته الله .

ومرض الإمام مالك رحمته الله اثنين وعشرين يوماً وحين حضرته الوفاة سمعه أهل بيته يقول : « أشهد ألا إله إلا رحمته الله وأن محمداً رسول رحمته الله ، لله الأمر من قبل ومن بعد » فدخلوا عليه فإذا هو قد فارق الحياة إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وخرجت جنازة الإمام ، حضرها كل من علم بها وراح الناس يقولون : « مات الليلة أعلم أهل الأرض » وحدث ذلك سنة ١٧٩ هـ ، ورئي بعد وفاته في المنام وهو يطير بين السماء والأرض على البراق فسئل : يا إمام ما فعل رحمته الله بك . فقال: قدمت على ربي عز وجل وكلمني مواجهة وبدون واسطة وقال : سلني أعطك وتمنّ عليّ أرضك .

هذه هي الحياة تطوى صفحة بعد صفحة وصدق مولانا رحمته الله ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ .

أعود بكم من هناك إلى هنا ، هنا مدرسة فقهاء الأمة من مدرسة سيدنا محمد رحمته الله الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول رحمته الله هي الصلاة والسلام عليك .



(١٣٠)

ولادة الإمام الشافعي رحمته الله

الحمد لله الذي شرع لنا ديناً قويمًا، وهدانا إليه صراطاً مستقيماً، وجعلنا من أهله تعلمًا وتعليمًا، حمد من عتمته رحمته وأفضاله، وغمرته أعطيته ونواله .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أستزيد بها وفور نعمه ، وأستزفد بها وفور كرمه .

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذي جمع بمبعثه شمل الحق بعد تفرقه، وجمع برسالته حزب الباطل بعد تطوقه، القائل : «يبعث الله هذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها» يقول الإمام أحمد رحمته الله : « فنظرت في سنة مئة فإذا عمر بن عبد العزيز ثم نظرت في رأس المئة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله ﷺ محمد بن إدريس الشافعي ».

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين سلكوا سننه وصوابه وسلم تسليما .

أما بعد فيا أيها الإخوة:

نحن اليوم مع إمام عظيم وصفه أصحابه فقالوا :

تسريل بالتقوى وليدًا وناشئًا وخص بلب الكهل مذ هو يافع

فمن يك علم الشافعي إمامه فمرتعته في ساحة العلم واسع

لئن فجعتنا الحادثات بشخصه وهن لما حكمن فيه فواجع

فأحكامه فينا بدور زواهر وآثاره فينا نجوم طوالع

إنه الإمام الشافعي رحمته الله الذي كان يقول: « للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والشكر .

ولا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع : الديانة، والأمانة والصيانة والرزانة .

خير الدنيا والآخرة في خمس خصال : غنى النفس ، وكف الأذى وكسب الحلال ، ولباس التقوى ، والثقة بالله في كل حال .
إنك لاتقدر أن ترضي الناس كلهم فأصلح ما بينك وبين الله ثم لاتبال بالناس .

من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضي ولم يرض فهو شيطان .
من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر في الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه
تفقه قبل أن ترأس ، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه .

ثلاث هن مهلكة الأنام	وداعية الصحيح إلى السقام
دوام مدامة ، ودوام وطء	وإدخال الطعام على الطعام
عُقُوا تعف نساؤكم في المحرم	وتجنبوا مالا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته	كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
يا هاتكأحرم الرجال وقاطعاً	سُبل المودة عشت غير مكرم
لو كنت حراً من سلاله ماجد	ما كنت هتاكاً لحرمة مسلم
من يزن يُزن به ولو بجداره	إن كنت ياهذا لبيباً فافهم

أيها الإخوة :

هذه الكلمات التي ملئت حكمةً ونوراً ، وتنطق من معدن النبوة هي من كلمات سيدنا محمد ، ولأعني به سيدنا رسول الله ﷺ بل أعني به ابن عمه سيدنا وقودتنا إلى الله تعالى محمد بن ادريس .

» محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد

بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد سيدنا رسول الله ﷺ .

فهو ابن عم المصطفى و لم نجد له نظيراً من قریش مجتهد

مُطَبِّقاً بعلمه الطباقا مطابقا للوارد اتفاقا

مجدداً في عصره للملة وبعده أصحابه الأجلة

وفي أجداده أربعة جدود من الصحابة الكرام :عبد يزيد، وولده عبيد، وولده

السائب، وولده شافع بن السائب ؓ .

والمطلب بن عبد مناف هو عم عبد المطلب جد سيدنا النبي ﷺ وهو الذي رباه

ونسب إليه فقيل عبد المطلب، وهاشم ولده توفي في غزة من أرض فلسطين أثناء

تجارة له في بلاد الشام، فالإمام الشافعي المطلبي عربي قرشي ؓ .

وكانت أمه ذكية فطنة ومن العابدات القانتات ،حملت به مدة أربع سنوات ،

ورأت في نومها كأن كوكب المشتري خرج من بطنها ثم ارتفع في الجو ، وسقطت

منه أجزاء أصاب كل جزء منها بلداً فأضاءه ،وحين قامت من نومها سألت المعبرين

عنها، فقالوا : بأنها ستضع ولداً يملأ طباق الأرض علماً.

أيها الإخوة :

كانت الولادة المباركة في نهار الجمعة آخر يوم من شهر رجب من سنة /١٥٠/

هـ في مدينة غزة بفلسطين في السنة نفسها التي توفي فيها الإمام الأعظم سيدنا أبو

حنيفة النعمان بن ثابت ؓ . فأى حق زُفع وأي فخر وُضع ، حملته في بطنها أربع

سنوات حتى وضعته وقد اكتملت أسنانه ؓ .

ثم ولما بلغ الستين ؓ أتت به أمه إلى مكة المكرمة، وأعظم ما في مكة المكرمة

المسجد الحرام الذي يكاد يكون عند كل سارية فيه محدث أو فقيه،وفي وسط الحرم

الكعبة المشرفة التي لا يفتر الطواف حولها في ليل أو نهار أبد الدهر .

وفي وسط هذا الازدحام العلمي في مكة راح الفتى المطلبى يتلقى العلوم على

أشياخها من قریش فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنوات، وأولع بالشعر واللغة

وبرع فيهما، وجالس العلماء، وحفظ الحديث وعلوم القرآن، كل ذلك وهو يحفظه
عن ظهر قلب، وكان يقول بعد أن يحفظه :

علمي معي حيثما يَمَّمْتُ ينفعني

صدري وعاءٌ له لا بطنُ صندوق

إن كنتُ في البيت كان العلمُ معي

أو كنت في السوق كان العلمُ في السوق

وهكذا بدأ يأخذ مكانه بين العلماء الأشراف ، وما له لا يفعل.....؟ وهو
القرشي الأصل ، الشريف نسبه ، وابن عم رسول الله ﷺ وهل لمثله غير طريق
العلم .

ولكن الفتى المطلبي في دراسته كان واقعاً وسط آفة الفقر، وقبض الله تعالى له
معلمين لا يأخذون على تعليمه أجراً فهو الذي يقول عن نفسه: كنت يتيماً في
حجر أمي ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم رضي مني أن أخلفه إذا
قام وكان يقول أيضاً: كان المعلم إذا أُملى على الطلبة الآية أو الحديث وإلى أن
يفرغ من الإملاء عليهم أكون قد حفظت جميع ما أملاه المعلم فقال لي: لا يحل
أن آخذ منك شيئاً .

ولكنه وقع في ثمن الورق، فعمد إلى التقاط العظام وأكتاف الجمال وغيرها وراح
يدون عليها بعض ما يسمعه من العلم، حتى كانت لأمه جرة ضخمة ملاءها عظاماً
مكتوباً عليها الحديث .

وقد آتاه الله تعالى قوة حفظ مدهشة، بل كان إذا فتح كتاباً ليحفظ منه اجتهد
أن يغطي بطرف كفه الصحيفة اليسرى مخافة أن يقع نظره عليها فيحفظها قبل أن
يحفظ الصحيفة اليمنى . وقد حدّث هو عن سبب تلك القوة الحافظة لديه فقال :
« كنت نائماً فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: من أنت يا غلام ؟ فقلت له :

أنا من رهطك يا رسول الله . فقال : أَدْنِ مِنِّي فدنوت منه فأخذ من ريقه وأمرَ على لسان الشافعي وفمه وشفتيه وقال : امض بارك الله فيك «
وكانت هذه الرؤيا مفتاح باب الفتوح على الإمام الشافعي رحمه الله
أيها الإخوة :

أقبل سيدنا محمد الشافعي على علم الحديث وحفظ موطأ الإمام مالك قبل أن يذهب إليه، فهو الذي يقول ﷺ: حفظت القرآن وأنا ابن سبع وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر.

ثم خرج يطلب العربية من أعراب البادية وتعلم فنونها كالرمي والطب وركوب الخيل .

ولقيه يوماً شيخ الحرم المكي مسلم بن خالد الزنجي (وكان أشقر) فقال له من أين أنت يا فتى ؟.

فقال له : من أهل مكة . قال أين منزلك ؟. قال : بشعب الخيف . قال : من أي قبيلة أنت ؟. قال : من عبد مناف.

فقال له : بخٍ بخٍ لقد شرفك الله في الدنيا و الآخرة، ألا جعلت فهمك في هذا الفقه فكان أحسن لك .

هذه الإشارة من فقيه الحرم كانت اللمحة الأولى النورانية وأما الموقف الذي دفعه إلى العلم فقد حدث معه حينما سأله بدوي : ما تقول في امرأة تحيض يوماً وتطهر يوماً ؟. قال : ما أدري .

قال : يا ابن أخي الفريضة أولى بك من النافلة .

وهنا لزم الإمام الشافعي أستاذه شيخ الحرم المكي مسلم بن خالد حتى ما إن بلغ الخامسة عشرة من عمره إلا وقد أتم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب والشعر، فلما رأى أستاذه ذلك ونبوغه أجاز له بالفتوى والتدريس وقال : أفَتِ فقد آن لك أن تفتي .

وَجُعِلَ لَهُ مَكَانٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّهِ يَعْلَمُ النَّاسَ الْعِلْمَ وَيَفْتِيهِمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، يَقُولُ تَلْمِيزُهُ حَرْمَلَةٌ : «رَأَيْتَ الشَّافِعِيَّ يُقْرِئُ النَّاسَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً» .

وكان ﷺ يقول :

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ إِلَّا الْحَدِيثَ وَعِلْمَ الْفَقْهِ وَالْدِينِ
الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ : حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ وَسِوَاكَ الشَّيَاطِينِ
أَيُّهَا الْإِخْوَةُ :

كَانَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ الشَّافِعِيُّ مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ، وَاضِحُ الْجَبْهَةِ، رَقِيقُ الْبَشَرَةِ لَوْنُهُ إِلَى السَّمَرَةِ، إِذَا قَبِضَ عَلَى لَحْيَتِهِ لَا تَفْضُلُ عَنْ قَبْضَتِهِ، يَقُولُ النَّازِرُ إِلَيْهِ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ وَجْهًا مِنَ الشَّافِعِيِّ .

وكان يلبس الثياب الرقيقة من الكتان والقطن البغدادي ، وكان يتختم في يساره بخاتم منقوش عليه : كَفَى بِاللَّهِ ثِقَةً لِمُحَمَّدَ بْنِ أَدْرِيسَ ، وكان ﷺ منذ صغر سنه يَقْسِمُ اللَّيْلَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : ثُلُثٌ لِلنَّوْمِ، وَثُلُثٌ لِلْعِلْمِ، وَثُلُثٌ لِلصَّلَاةِ. وكان يختم القرآن في كل يوم مرة، وفي رمضان يختمه في كل يوم مرتين في الصلاة .

وكان صوته جميلاً في قراءة القرآن : يَجِيءُ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ مَكَّةَ وَهُوَ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ مِنَ الْعَمْرِ يَجْمَعُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقُولُونَ : «هِيَ بَنَّا إِلَى ذَلِكَ الصَّبِيِّ الْمَطْلَبِيِّ لِيَسْمَعَنَا الْقُرْآنَ فَيُبَكِّينَا» ، فَإِذَا جَاؤُوهُ وَسَمِعُوهُ رَأَيْتَهُمْ يَتَسَاقَطُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كَثَرَةِ الْبُكَاءِ ، وَرَأَيْتُ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ طَرِبًا وَاسْتِحْسَانًا وَخُشُوعًا وَخُضُوعًا ، فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ سَيِّدُنَا الشَّافِعِيُّ أَمْسَكَ عَنِ الْقُرْآنِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةً بِهِمْ .

ومنذ صغره كان يقف في الليالي الحالكة يناجي مولانا ﷺ وعيون الناس غافلة، يدعوهُ وَيَسْأَلُهُ بِخُشُوعٍ وَذَلَّةٍ يناديه ويقول : «اللَّهُمَّ أَنْتَ عِياذِي بِكَ أَعُوذُ ، وَأَنْتَ مَلَاذِي بِكَ أَلُوذُ ، يَا مَنْ ذَلَّتْ لَهُ رِقَابُ الْجَبَابِرَةِ، وَخَضَعَتْ لَهُ مَقَالِيدُ الْفِرَاعِنَةِ ، أَعُوذُ بِجَلَالِكَ وَكَرَمِكَ مِنْ خَزِيكَ، وَكُشْفِ سِتْرِكَ، وَنَسْيَانِ ذِكْرِكَ، وَالْإِنْصِرَافِ

عن ذكرك ، أنا في كنفك في ليلي ونهاري، وظعني وأسفاري، ذكرك شعاري،
وثناؤك دثاري، لا إله إلا أنت تنزيهاً لاسمك، وتكريماً لسبحات وجهك، أجري من
خزيك، ومن شر عذابك، وقني سيئات مكرك، واضرب عليّ سرادقات
حفظك، وأدخلني في حفظ عنايتك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أيها الإخوة الكرام :

برز سيدنا الشافعي فقيهاً نابغة مفسراً بارعاً خبيراً بالعربية وبدأت أنظار أشياخه
تتحول نحوه بالاحترام والتقدير وهو بعد في مقتبل سن الشباب حتى كان إذا جلس
في حلقة شيخه سفيان بن عيينة رحمه الله يحدث الحرم المكي وجاءه سؤال في التفسير أو
الفتيا التفت إلى سيدنا الشافعي فقال: سلوا هذا الغلام.

أيها الإخوة :

استوعب سيدي محمد الشافعي معظم ما في مكة من علم ، فأخذ عن الزنجي
شيخ الحرم ومفتي مكة ، وروى عن سفيان بن عيينة عَلم مكة ، ولكنه بقي ظامئاً إلى
العلم الشريف فقرر أن يرحل إلى المدينة المنورة ليأخذ العلم عن إمامها العلم سيدنا
مالك بن أنس إمام دار الهجرة أول من جمع بين الحديث والفقه والاجتهاد رحمه الله ،
ولكنه رأى قبل رحيله إليها أن يستعير من رجل بمكة كتاب الموطأ ، فأخذه وحفظه
في تسع ليال .

ثم انطلق نحو مدينة رسول الله ﷺ سار ومعه وساطة إلى والي المدينة من والي
مكة، فدخلها وسلم على واليها وانطلقا معاً في هبة ووقار إلى الإمام العَلم ، ودخلا
عليه (وهو بعد في لم يجاوز الخامسة عشرة) ، اسمعوا الحديث يرويه لنا الإمام الشافعي
بنفسه ..

قال :نظر إلي الإمام مالك ساعة ، وكانت له فراسة فقال لي : ما اسمك.؟. قلت:
محمد. فقال لي :يا محمد اتقِ الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن وأي
شأن.

ثم قال :نعم وكرامة ،إذا كان غد تجيء ويحيىء من يقرأ لك .
قال :فقلت :أنا أقوم بالقراءة قال :فغدوت عليه وابتدأت أقرأ الموطأ ظاهراً
والكتاب بين يدي فكلما تهيت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي
،فيقول:يافتى زد حتى قرأته (الموطأ) في أيام يسيرة .

أيها الإخوة :

وأقام الإمام الشافعي في المدينة المنورة يجمع كل ما عند الإمام مالك وشيوخ
المدينة من حديث وفقه واجتهاد حتى فاق كل من حوله في المدينة المنورة .

أيها الإخوة الكرام :

اسمحو لي أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى الروضة المطهرة، إلى ما بين المنبر ومقام
سيدنا رسول الله ﷺ حيث أنقل لكم على الموجة الإيمانية الفقهية هذا المشهد
الفريد الذي نال فيه سيدي الإمام محمد الشافعي رحمه الله شهادة التقدير والفتوى والتي
هي أعظم من جميع الشهادات التي يحملها الناس اليوم لأنها عن شيخه الإمام مالك
بن أنس عن شيخه سيدنا نافع مولى ابن عمر عن سيدنا عبد الله بن عمر عن
سيدنا رسول الله ﷺ وتذكرون أن هذه الشهادة العالية تسمى بسلسلة الذهب
الحديثية فقد انضم لهذه السلسلة الذهبية سيدنا الإمام الشافعي رحمه الله . وهاهو يجلس
في حلقة الدرس عند شيخه إمام دار الهجرة فيدخل عليه رجلان مختصمان فيقول
أحدهما: باعني هذا الرجل عصفوراً وحلف عليه بالطلاق أنه لا يتوقف عن الصياح
فاشتريته منه، فلما أخذه إلى البيت رأيته يسكت في أوقات من الليل والنهار، فقال
الإمام مالك رحمه الله:أحق ما قال ؟ فقال البائع :نعم . فقال الإمام مالك :ما أرى
زوجتك إلا طلقت منك .

وخرج الرجلان من عند الإمام مالك ،فتبعهما سيدي الإمام الشافعي وهو فتى لم
يتجاوز العشرين من عمره وقال للبائع :لم تطلق زوجتك!! فأخذ الرجلان بيد سيدنا

الإمام الشافعي إلى الإمام مالك وقال له: إن تلميذك هذا يقول: إن زوجتي لم تطلق مني .

فقال الإمام مالك: وكيف ذلك يا شافعي ؟.

فقال سيدنا الشافعي: أنت حدثني عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه أتته فاطمة بنت قيس فقالت: خطبني معاوية وأبو الجهم، فمن أتزوج منهما، فقال النبي ﷺ: أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه .

أفلا ينام أبو الجهم فيضع عصاه عن عاتقه؟..، وإنما أراد رسول الله ﷺ أنه يعمل في أغلب أوقاته، وهذا العصفور في غالب أوقاته لا يكف عن الصياح فهذا قياس على هذا الحديث ولأجل ذلك قلت له أن زوجته لم تطلق .

وهنا قال الإمام مالك لتلميذه النجيب وقد أعجبه هذا القياس والاستنباط الفقهي لهذه المسألة قال له: أفَتِ يافتي قد آن لك أن تفتي .

أيها الإخوة: فكيف بلغ سيدنا الشافعي الإمامة، كيف جمع بين مدرستين عظيمتين، بين مدرسة الفقه في مكة والعراق ومدرسة الحديث في المدينة؟. كيف ساد أهل عصره؟..

أترك هذه الأسئلة لأجيب عنها في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى وأنتقل بكم من هناك إلى هنا .

هنا مدرسة الفقه والفقهاء من مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية للحبيب وتحيتنا إليك يا رسول الله ﷺ هي الصلاة والسلام عليك .

(١٣١)

إمامة سيدنا

محمد بن ادريس الشافعي رحمته الله

الحمد لله الذي أرسل سيدنا محمداً رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، ليظهر هـ
على الدين كله ولو كره الكافرون . وجعله هادياً ورسولاً وبشيراً ونذيراً، وكتب السعادة
لمن كان من أتباعه واتبع هديه إلى يوم الدين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت
الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله كان أسعد الناس به صحابته الكرام ثم
التابعون لهم بإحسان ثم تابعو التابعين ثم الطبقة الرابعة طبقة تابعي تابعي التابعين
التي كان في صدرها وعلى رأسها سيدي محمد بن ادريس الشافعي رحمته الله الذي قال
عنه الحبيب الأعظم رحمته الله : « لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً » وقد
اتفق أهل العلم بأن هذا العالم الذي يملأ الأرض علماً هو سيدنا الإمام الشافعي
رحمته الله .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته
وجميع المسلمين وسلم تسليماً .

أما بعد :

فنحن اليوم مع أحد أئمة الدنيا فضلاً وعلماً ودينياً، انتفع المسلمون بعلمه
واجتهاده منذ اثني عشر قرناً ولا يزالون ، وعرفه أئمة الإسلام في زمانه فشهدوا أنهم
مارأوا له مثيلاً وما عرفوا في عصره وما بعده أعظم منةً على الإسلام منه وشهد
المحدثون بفضله عليهم فلقبوه بناصر السنة وقالوا على لسان الإمام أحمد : « لولا
الشافعي ما عرفنا فقه الحديث

ولقد كنت علّقت معكم سؤالاً في الجمعة الماضية وهو :
كيف ساد الإمام الشافعي عصره بعد أن جمع بين مدرستين عظيمتين من
مدارس سيدنا محمد ﷺ ؟..

وأستعين بمولانا رحمه الله في الإجابة عن هذا السؤال .

أيها الإخوة :

ساد القرن الأول الهجري مدرستان عظيمتان :مدرسة الفقه والرأي وزعيمها
سيدنا أبو حنيفة النعمان ومدرسة الحديث الشريف وزعيمها سيدنا سفيان بن عيينة
في مكة و سيدنا الإمام مالك بن أنس في المدينة .

ولا شك أن سيدنا الإمام الشافعي أحاط بعلم الحجاز كله فإنه ﷺ بعد أن جمع
فقه مكة عن مفتي مكة مسلم بن خالد الزنجي وحديث مكة عن سفيان بن عيينة
وانتقل بعدها إلى المدينة فأخذ عن علماء المدينة علم الدليل وملاً نفس الشافعي
علماً وثقةً وفهماً حتى وفاة الإمام مالك ﷺ سنة ١٧٩ هـ ، ثم عاد إلى مكة يزور
أشياخه وأمه العابدة القاتنة، فعرض عليه بعض القرشيين أن يصحبه إلى اليمن لعله
يجد له عملاً هناك، وراقت الفكرة للإمام الشافعي فهو يحب التجوال ليجمع أكثر
من فقه الناس وعقولهم ،فذهب إلى اليمن فشهد عدله وأمانته أهل اليمن حتى
طارت شهرته إلى مكة وعلم شيخه سفيان بن عيينة بذلك فنهاه حين قدم عليه
مكة من اليمن وقال له : «نحن نتبوأ لك بشأن عظيم وأن تكون من أئمة
المسلمين ثم تذهب إلى العمل في اليمن ؟» .

وهنا عاد الإمام الشافعي إلى اليمن . لعله ينهي عمله هناك . ولكنه وقع في محنة
عظيمة ،محنة كانت ضريبة الشرف والدين وإقامة العدل وإزهاق الباطل، فسعى به
من لا يحب الحق وعلى رأسهم والي اليمن ،سعوا به إلى الخليفة هارون الرشيد يتهمه
وجماعة بالخروج على الخليفة ،فأمر به الخليفة أن يساق مع المتهمين إلى دار الخلافة
في بغداد .

وهنا بدأت مرحلة جديدة من مراحل عظمة الإمام ،مرحلة سوف يجمع فيها فقه الأحناف إلى ما تعلمه من مكة والمدينة فكيف تم ذلك ؟..

أيها الإخوة.

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى العراق إلى بغداد مهد الخلافة العباسية :

الزمان : سنة ١٨٤ هـ .

الحدث : مجيء الإمام الشافعي حاضرة الخلافة كرهاً لا طوعاً، وهو الآن في بغداد ينتظر دخوله على الخليفة ،وأثناء هذا الانتظار لم يضيّع الإمام وقته بل اجتمع بتلميذ الإمام أبي حنيفة الأول وهو المحدث الفقيه محمد بن الحسن، واطّلع على كل جديد من مذهب الفقه والرأي، وهذا الحدث الذي قام به الإمام حدث عجيب في حياته لشيئين :

. الأول :ضم الشافعي علم العراق إلى علمه وتفتحت عبقريته وازدادت معارفه قبل أن يضع مذهبه في الفقه .

. الثاني : رغم أنه متهم بتهمة توجب القتل وأنه رهن الطلب فإنه راح يتزود من العلم حتى قال : « حملت عن محمد بن الحسن حمل بُحْتِي وأنفقت عليها ستين دينارا ووضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً » .

وأذن له بالدخول على الخليفة الراشدي العباسي سيدنا هارون الرشيد وفي الطريق إلى حجرة الحكم في القصر رأى مؤدب أولاد أمير المؤمنين فقال له الخادم :هذا مؤدب أولاد أمير المؤمنين فلو أوصيته بهم .

فأقبل عليه الإمام الشافعي فقال له (اسمعوا الأدب اسمعوا أعلى من الجواهر والذهب) : « ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما تستحسنه والقيح عندهم ما تكرهه، علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه،

ثم رَوَّهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مَصَلَّةٌ للفهم .

أيها الإخوة الكرام :

مازلنا في دار الخلافة في بغداد وأنقل لكم على الموجة الإيمانية هذا المشهد الفريد بعد أن تصلوا على الحبيب ﷺ فقد أذن الخليفة الرشيد للإمام الشافعي رضي الله عنه بالدخول عليه وأمامه مجموعة سيوف وأنواع من العذاب وقال لخادمه الفضل: « يا فضل عليّ بهذا الحجازي » فقال الخادم : إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب هذا الرجل وسمعوا القصة من خادم مولانا هارون الرشيد. فقد خرج الفضل إلى الإمام الشافعي وقال له: « أجب أمير المؤمنين » ، فقال الإمام : « حتى أصلي ركعتين » ، فقال : « صلي » ، فصلّى ثم ركب بغلة كانت له، فسرنا معاً إلى دار الرشيد ، فلما دخلنا الدهليز الأول حرك الشافعي شفتيه (اسمعوا: حرك الشافعي شفتيه) . فلما وصلنا إلى حضرة الرشيد، قام إليه أمير المؤمنين كالمشرتب له، وأجلسه موضعه وقعد بين يديه يعتذر إليه، وخاصةً أمير المؤمنين قيام ينظرون إلى ما أعد له من أنواع العذاب ، فإذا هو جالس بين يديه ، فتحدثا طويلاً وهو معجب بفصاحته وبلاغته وعلمه وسعة عقله فقال سيدنا هارون الرشيد: صدق الله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ « تَعَلَّمُوا من قريش ولا تعلّموها وقدموا قريشاً ولا تؤخروها، ما أنكر أن يكون محمد بن ادريس أعلم من محمد ابن الحسن » .

وسأله أن يوليّه القضاء فامتنع الإمام. فقال له: سلّ.

فقال : حاجتي أن أعطى من سهم ذوي القرى بمصر، وأخرج إليها.

ففعل به ذلك وكتب إلى أميرها وأذن له بالانصراف وقال لخادمه يا فضل ، قلت لبيك يا أمير المؤمنين فقال : احمل بين يديه بدرة، فحملت ، فلما صرنا إلى الدهليز الأول لخروجه قلت : سألتك بالذي صير غضبه عليك رضى إلا ما عرفني ما قلت في وجه أمير المؤمنين حتى رضي فقال لي : يا فضل . فقلت له : لبيك أيها السيد الفقيه

قال : خذ مني واحفظ عني : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وبركة طهارتك، وبعظمة جلالك، من كل عاهة وآفة وطارق الجن والإنس، إلا طارقاً يطرقني بخير يا أرحم الراحمين، اللهم بك ملاذي فيك ألوذ، وبك غياثي فيك أغوث، يامن ذلت له رقاب الفراعنة وخضعت له مقاليد الجبابرة، اللهم ذكرك شعاري، ودثاري ونومي وقراري، أشهد أن لا إله إلا أنت، اضرب عليّ سرادقات حفظك وقني رعي بخير منك يا رحمن » .

يقول الفضل خادم الخليفة الرشيد : فكتبتها وجعلتها في صدر قبائي وكان الرشيد شديد الغضب عليّ وكان كلما هم أن يغضب أحركها في وجهه فيرضى . فهذا ما أدركت من بركة الشافعي رحمته الله .

أيها الإخوة :

بقي الإمام الشافعي في العراق مدة طويلة يجمع علوم أشياخها وينظرهم حتى قالوا فيه « لو كان أمعن في الحديث لاستغنت به أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره من العلماء » وقد أثير عنه رحمته الله : « إذا صح الحديث فخذوا به ودعوا قولي » ويقول « ما ناظرت أحداً وأحببت أن يخطيء » .

وهكذا . أيها الإخوة . عاد الإمام الشافعي إلى مكة وقد نال علوم مكة والمدينة والعراق وقبض في أهلية وقدرة وعلم على ناصية الاجتهاد، فراح يملئ مذهبه على الناس في المسجد الحرام، فأصل الأصول، ووضع القواعد وأنت إليه الوفود من كل مكان يستمعون إلى طرائقه الجديدة في الأصول والكتليات حتى أخذ عقولهم، وشهد له بالتفوق والفهم والعقل أهل زمانه، ومن كبارهم الإمام أحمد بن حنبل تلميذ الإمام الشافعي رحمته الله الذي كان لا يصلي صلاة إلا ويدعو للإمام الشافعي رحمته الله فكان ابنه يقول له : يا أبت أي رجل كان الإمام الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟

فيقول الإمام أحمد رحمه الله : يابني الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن فانظر هل لهذين من خُلف أو عَوْض .

وكان يقول لأحد أصحابه : « تعال حتى أريك رجلاً لم ترَ عيناك مثله » فأخذه إلى تحت ميزاب الرحمة فجلس إليه ودارت المسائل والإمام الشافعي يصول ويجول في العلم والحكمة كالأسد المصور حتى قام الناس من حلقتة وهم يقولون : « الشافعي إمام، الشافعي معه نصف عقل أهل الدنيا .

وأصبحت حلقة الإمام الشافعي في المسجد الحرام يشار لها بالبنان، قال أحد العلماء:وقفت بمكة على حلقة عظيمة وفيها رجل فسألت عنه فقيل:هذا محمد بن ادريس الشافعي فسمعتة يقول:سلوني عما شئتم أخبركم بأية من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول صحابي .فقلت في نفسي :إن هذا الرجل جريء، ثم قلت له : ماتقول في المحرم يقتل الزنور فقال : « قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربيعي عن حذيفة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :اقتدوا بالذَّين من بعدي أبي بكر وعمر.وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب أن عمر رضي الله عنه أمر المحرم بقتل الزنور » .

هذه هي طريقة الإمام الشافعي في الإجابة عن أسئلة الدين والفقه، فقولوا رضي الله عنه .

وكان يقول : العلم علمان :علم الدين وهو الفقه وعلم الدنيا وهو الطب وما سواه من الشعر وغيره فعناء وعبث .

وكان يكثر من الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم و يحض على ذلك أصحابه وحضوره فيقول: « أحب أن تكثروا الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكان يرى أن الدعاء لله لا يتم إلا بالصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك أوجب وفرض الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير من كل صلاة ،وكان أشد

الناس تعظيماً للنبي ﷺ فهو يكره أن يقول الرجل: قال الرسول، لكن يقول : قال رسول الله ﷺ تعظيماً له.

وقد نصَّ الشافعية رحمه الله بأنه يستحب عند ذكر اسم سيدنا النبي أن يقول العبد قبله سيدنا فيقول العبد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، وأما حديث لا تسودوني في الصلاة فباطل وموضوع اتفاقاً بين علماء الحديث، وعند الشافعية قاعدة علينا أن نحفظها جيداً وهي: **الأدب خير من الامتثال** ، والأدب هنا أن نقول سيدنا محمداً .

وما أدراك ما هنا هنا مدرسة فقهاء الأمة من مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أنه يؤدي التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك

وَسَلَامٌ
عَلَيْكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ

(١٣٢)

وفاته الإمام الشافعي رحمته الله

الحمد لله البر الجواد، الذي جلت نعمه عن الإحصاء بالأعداد، المانّ باللطف والإرشاد، والهادي إلى سبيل الرشاد، الموفق للتفقه في الدين من لطف به واختاره من العباد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الغفار .
وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً، عبده ورسوله المصطفى المختار القائل « يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها » ، يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله فنظرت على رأس المئة الأولى فرأيت سيدنا عمر بن عبد العزيز ثم نظرت على رأس المئة الثانية فرأيت رجلاً من آل رسول الله هو سيدنا محمد بن إدريس الشافعي
اللهم صلّ على سيدنا محمد بعدد من صلى عليه، وصلّ على سيدنا محمد بعدد من لم يصلّ عليه، وصلّ على سيدنا محمد كما أمرت بالصلاة عليه، وصلّ على سيدنا محمد كما تحب أن يُصلى عليه، وصلّ على سيدنا محمد كما ينبغي الصلاة عليه، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد : فإن هذا الصلوات ليست من إعدادي بل صاغها وأعدّها سيدنا الإمام الشافعي رحمته الله كان يصلي على سيدنا النبي بهذه الصيغة، وهذه الصلاة دليل محبته له، كيف لا وهو من آل بيت رسول الله وآل البيت أدرى بعظمة سيدهم رحمته الله هذه العظمة التي ملأت صدر الإمام الشافعي فحملته على طلب العلم وجعلته إماماً من أئمة الهدى والمذاهب المقتدى بها إلى يوم القيامة .

أيها الإخوة الكرام .

اسمحوا لي أن انتقل بكم إلى هناك حيث الإمام الشافعي رحمته الله في رحلته الثانية إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ .

الحديث: رحلة الإمام التي لم تتجاوز السنتين:

المكان: بغداد:

الهدف: نصر السنة وتدعيم أهلها والفتح المبين الذي فتحه الله على الإمام في أصول مذهبه والاستنباط من القرآن والسنة والإجماع والقياس وإحكام أحكام الشريعة.

ها هو في الجامع الغربي في بغداد يأتي كل يوم بجديد في فهم كلام الله تعالى وفقه حديث رسول الله ﷺ حتى أخضع الأعناق لفضله وحمل العلماء على الإقرار بعلمه، وظهر أمره بين الناس وانفضت إليه المجالس والحلقات التي كانت في الجامع الغربي . يقول أحد فقهاء المذهب الحنبلي : قدم الشافعي بغداد وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي (السادة الأحناف) فلما كان يوم الجمعة لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع . وكان من أهم تلامذته: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وكان أحياناً يزوره ويبيت عنده ،وقد أرادت ابنة الإمام أحمد أن تراقب هذا الإمام الذي يهيم والدها به فرأته ليلة وقد أكل كثيراً ثم بعد أن رُفع الطعام استلقى الإمام وراح والدها يصلي من الليل فلما قارب الفجر قام الإمام يصلي بدون وضوء . فطرقت الباب على أبيها ووجهت إليه ثلاثة أسئلة، فدخل الإمام أحمد إلى الإمام الشافعي وقال له : إن ابنتي تستفسر عن هذه الليلة وتقول : إنك أكلت كثيراً ،وأنت كنت ثم قمت لتصلي بدون وضوء فكيف ذلك؟ فقال الإمام الشافعي : «أولاً . أنا أكلت كثيراً لأنني أعلم أن طعامك حلال . ثانياً . أنا لم أُنم ،فقد استلقيت أتفكر في حديث النبي ﷺ (يا أبا عمير ما فعل النغير) وقد استخرجت منه سبعين حكماً فقهياً ثالثاً . لما لم أُنم فقد بقيت متوضئاً فقممت فصليت مباشرة ».

فقال الإمام أحمد لابنته : إن ما فعله الشافعي في هذه الليلة أعظم مما فعله أبوك طوال الليل .

وَأَلَّفَ الإمام كتباً عدة أهمها رسالة في الأصول، وكتاباً في الفقه يدعى الحجة (أو الزعفران) في أربعين مجلداً وضع فيهما مذهبه وجمع فيه بين طريقة المحدثين وبين طريقة الفقهاء .

وكان الإمام فيما بين سنة ١٩٥. ١٩٩ هـ يقوم بالتردد بين مكة وبغداد يتعاهد مذهبه الشافعي، إلا أن مولانا وَجَّهَ له زيارة إلى مصر بصحبة واليها الجديد أواخر سنة ١٩٩ هـ فخرج من بغداد مُودَّعاً من قبل علماء بغداد بمثل ما استقبل به من حفاوة وتكريم، وقال الإمام لمن حوله وقد رأى الإمام أحمد بن حنبل فقال : «خرجت من بغداد وما خَلَّفْتُ فيها أحداً أُرْع ولا أَتَقِي ولا أَفْقِه ولا أعلم من أحمد بن حنبل».

ووصل الإمام الشافعي مصر فنزل على أخواله من الأزد وجاء إليه شيخ المالكية عبد الله بن عبد الحكم واستضافه عنده، وقال للإمام إذا أردت أن تسكن البلد . مصر . فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به .

فقال له الإمام الشافعي : من لم تعزه التقوى فلا عزَّ له ، ولقد ولدت بغزة وربيت في الحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياً قط « أي لم ينسنا الله من فضله وكرمه، وكان ﷺ ينشد :

إذا أصبحت عندي قوت يومي فخلِّ الهم عني يا سعيد

ولا تخطر هموم غد ببالي فإن غداً له رزق جديد

أُسَلِّم إن أراد الله أمراً وأترك ما أريد لما يريد

أيها الإخوة :

كان المذهب المالكي في مصر هو السائد والأقوى بين المذاهب فما هي إلا سنة واحدة حتى وقف المذهب الشافعي كأقوى مايكون وعدل الإمام الشافعي بعض أقواله التي قالها في مذهبه القديم في العراق وابتكر أبواباً جديدة في الفقه، وكان يقول: «استخرت الله تعالى في تدوين المذهب سنة» . وأقبل عليه الناس في جامع عمرو بن العاص فاستمعوا إليه وأحبوه وما زال ينشر أصول مذهبه وآراءه ويستنبط الأحكام

ويؤيدها بالأدلة حتى تحول الناس إلى مذهبه، وألّف كتاباً سمّاه الأمّ في ستة مجلدات ضخام وقال فيه شيخ المالكية في مصر: « ما رأيت رجلاً مثل الشافعي وما رأيت رجلاً أحسن استنباطاً منه » وقال لابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: « يابني الزم هذا الرجل فما رأيت أبصر منه بأصول الفقه ».

أيها الإخوة :

اسمحوا لي أن أستعرض معكم جدول الأعمال اليومي الذي كان الإمام العلم قد التزمه في حياته اليومية .

فإن الإمام الشافعي كان يصلي الفجر في المسجد ثم ينصرف إلى مجلسه فيه ويختلف إليه التلاميذ من كل صف وتعتقد بهم الحلقة من حوله يبدؤه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس جاء أهل الحديث، فإذا ارتفعت الشمس جاء أهل العربية فإذا انتصف النهار انصرف لبيته .

يقول تلميذه الربيع : « كان أصحاب مالك يفخرون فيقولون، إنه يحضر مجلس مالك نحو من ستين معمماً ، والله لقد عددت في مجلس الشافعي ثلاثمائة معمم سوى ماشدّ عني ».

يقول تلميذه المزني : كنّا يوماً عند الشافعي إذ جاء شيخ وعليه ثياب صوف ، وفي يده عكازة ، فقام الشافعي وسوّى عليه ثيابه، وسلّم الشيخ وجلس، وأخذ الشافعي ينظر إلى الشيخ هيبة له، فسأل الشيخ الإمام الشافعي : مالحة في دين الله ؟.

قال الإمام : كتاب الله . قال : وماذا ؟ قال الإمام : سنّة رسول الله ﷺ . قال : وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة .

قال : من أين قلت اتفاق الأمة..؟.

فتدبر الشافعي ساعة ، فقال الشيخ : قد أجلتك ثلاثاً ، فإن جئتني بحجة من كتاب الله وإلا تب إلى الله تعالى . فتغير لون الشافعي ، ثم ذهب فلم يخرج من بيته

إلى اليوم الثالث بين الظهر والعصر، وقد انتفخ وجهه ويداها ورجلاه وهو مريض فجلس، فما هو إلا أن أسرع إليه الشيخ فقال: حاجتي؟.

فقال الإمام الشافعي نعم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين

نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا»

ثم قال : فلا يُصَلِّه جهنم على خلاف المؤمنين إلا وهو فرض. فقال الشيخ : صدقت. وقام فذهب. فقال الإمام الشافعي: قرأت القرآن في كل يوم وليلة ثلاث مرات حتى جمعي الله تعالى بهذه الآية

أيها الإخوة :

اجتمع للإمام الشافعي تلامذة كثيرون لا يحصون فإنه لا يكاد يوجد في مصر مكان لم يدخله علم الشافعي، ولكن نذكر منهم أربعة: الأول خليفة الإمام الشافعي أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي الذي يقول : قد رأيت الناس، والله ما رأيت أحداً يشبه الشافعي ولا يقاربه في صنف من العلم، والله إن الشافعي كان عندي أروع من كل من ينتسب إلى الورع .

والثاني : المزني أبو إبراهيم اسماعيل بن يحيى وهو ناصر المذهب الشافعي، قال فيه الشافعي : لو نظره الشيطان لغلبه .

الثالث : الربيع بن سليمان المرادي المؤذن وهو راوية كتب الشافعي وقد حط يوماً على بابه تسعمئة راحلة كلهم حريص على سماع كتب الشافعي من الربيع .

الرابع : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . ترك المذهب الشافعي بعد وفاة الإمام وعاد إلى مذهبه المالكي .

أيها الإخوة :

مرض الإمام الشافعي بمرض البواسير حين قدم مصر ولمدة أربع سنوات ، ومع ذلك بقي يواصل الدروس والأبحاث والمناظرات والمطالعات في الليل والنهار وكان هذا الدأب والنشاط في العلم والبحث هو الدواء الوحيد للإمام الشافعي رحمه الله .

يقول تلميذه الربيع : « أقام الشافعي ههنا أربع سنوات فأملى ألفاً وخمسمئة ورقة ، وخرّج كتاب الأم ألفي ورقة وكتاب السنن وأشياء أخرى في مدة أربع سنين ، وكان عليلًا شديد العلة ، وربما خرج الدم وهو راكب حتى تمتليء سراويله وخفه من البواسير » .

أيها الإخوة الكرام :

اسمحوا لي أنتقل بكم إلى هناك إلى فسطاط مصر حيث الإمام الشافعي يودع الناس وينتظر انتهاء الأجل ، فقد ألح المرض على الشافعي وأذابه السقم ، ودخل عليه تلامذته الأربعة يعودونه ويزورونه عام ٢٠٤ هـ فرأوا حوله ولديه وكان له ولدان وبنت كل واحد منهما اسمه محمد ، وكل واحد منهما كان قاضياً ، وتزوجت ابنته زينب من ابن عم لها فأعقبت ولداً اسمه أحمد عُرف بابن بنت الشافعي قال عنه الإمام النووي : « كان إماماً مُبَرِّزاً لم يكن في آل الشافعي بعد الشافعي مثله ، سرت إليه بركة جده » فرأوا رسالة من الخليفة المأمون إلى والي مصر يدعو الإمام الشافعي للقضاء فقال الشافعي : « اللهم إن كان خيراً لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فأمضه وإلا فاقبضني إليك » . وهنا سأل المزني شيخه فقال له : كيف أصبحت ؟ . فقال الإمام الشافعي أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله جلّ ذكره وارداً ، لا والله ما أدري روعي تصوير إلى الجنة فأهنتها أو إلى النار فأعزيتها ، ثم بكى وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سلما

تعاطمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وما زلت ذا عفوي عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منةً وتكرما

ونظر الإمام إلى تلامذته الأربعة فقال : أما أنت يا أبا أيوب فستموت في حديد لك ، وأما أنت يامزني فسيكون لك بمصر هنات وهنات ولتدركن زماناً تكون فيه أقيس أهل زمانك ، وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك ، وأما أنت ياربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب ، قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة .

يقول الراوي ياسادة ياكرام : فكان كما قال الإمام الشافعي رحمه الله .

أيها الإخوة :

قُبِضَ الإمام الشافعي رحمه الله في ليلة الجمعة بعد العشاء الآخرة آخر يوم من رجب سنة أربع ومئتين عن أربع وخمسين سنة وحُمِلَ على الأعناق من بيته في فسطاط مصر حتى مقبرة بني زهرة ولم يزل قبره يُزار ويُتبرك به .

أَكْرَمَ به رجلاً مامثله رجل مشارك لرسول الله في نسبه

اضحى بمصر دفيناً في مقطمها نِعَمَ الْمُقَطَّمُ والمدفون في تربه

يقول الأصبهاني : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله ! محمد بن ادريس الشافعي ابن عمك هل نفعته بشيء أو خصصته بشيء فقال : نعم سألت الله تعالى ألا يحاسبه .

فقلت : بماذا يارسول الله ؟

قال : إنه كان يصلي عليّ صلاة لم يصل عليّ بمثل تلك الصلاة أحد .

فقلت وما تلك الصلاة يارسول الله ؟

قال : كان يصلي عليّ فيقول : اللهم صلّ على محمد كلما ذكره الذاكرون، وصلّ على محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون .

هنا مدرسة الفقه الإسلامي من مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية للحبيب الأعظم وتحيتنا إليك ياسيدي يارسول الله هي الصلاة والسلام عليك .

صلى الله عليه وسلم

(١٣٣)

ولادة الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله

الحمد لله العلي الكبير الوهاب، الذي يعطي من فضله من يشاء بغير حساب،
نحمده على ما أطال من فضله وأطاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الرحيم التواب، سبحانه لا إله إلا هو
عليه توكلت وإليه متاب.

وأشهد أن سيدنا وحيينا وعظيمنا وأميرنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً
عبده ورسوله المنتخب من أشرف الأنساب، المؤيد بجنود الملائكة كما جاء في
الكتاب.

اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه خير آل وخير
أصحاب، وسلم تسليماً.
أما بعد : فيا معشر المسلمين.

نحن اليوم على موعد مع الحلقة العاشرة من ملف سيرة الفقه والفقهاء وبالذات
مع رجل قال عنه المؤرخون : « إنه الإمام العلم، المجتهد البارع الحافظ الضابط
المتقن، الناسك العابد، عالم الإسلام، وكهف الدين، قانع البدعة والمبتدعين،
داحض الحجاج الباطلة ».

إننا أمام إمام جعل حياته كلها رهناً لشريعة الله، رجل كان لا يتكلم ولا يفكر
ولا يحس ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا إذا أذن له الشرع بذلك أو أن قدوته سيدنا
رسول الله ﷺ أقر ذلك أو فعله، إنه واحد من كبار أئمة الإسلام على امتداد
تاريخه، وأحد أفراد هذه الأمة العظام الذين يقتدى بهم ويقتبس من نورهم.

إنه سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله الذي أعز الله به هذا الدين فلتن كان
سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد أعز الله به الدين يوم الردة، فإن هذا الإمام قد أعز

اللَّهُ به الدين يوم محنة خَلَق القرآن، إلا أن الصَّدِّيق وجد أنصاراً وأعواناً، وأما إمامنا ابن حنبل فلم يجد له ناصراً إلا اللَّهَ ﷻ، وكفى بـاللَّهِ نصيراً.

إننا اليوم نفتتح ملف إمام قال عنه سيدنا الإمام الشافعي رحمه الله إنه «إمام في ثمان خِصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السُّنة».

أيها الإخوة الكرام :

قد منَّ اللَّهُ على هذه الأمة بأربعة في زمانهم :

١. بسيدنا الإمام الشافعي، تفقه بحديث رسول اللَّهِ ﷺ وفتح للناس الأقفال.
٢. وبسيدنا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، ثبت في محنة خَلَق القرآن ولولا ذلك لكفر الناس.

٣. وبسيدنا يحيى بن معين نفى الكذب عن حديث سيدنا رسول اللَّهِ ﷺ
٤. وبأبي عبيد القاسم بن سلام فسّر الغريب في حديث رسول اللَّهِ ﷺ ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ.

كان هذا هو موجز السيرة الحياتية لهذا الإمام وإليكم الأنباء بالتفصيل :

الإمام أحمد هو أبو عبد اللَّهِ بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد من بني شيبان بن ذهل، من ولد نزار بن معد بن عدنان، قال ابن الأثير عن قبيلة جده الثاني عشر شيبان: « ليس في العرب أعز داراً، ولا أمتع جاراً، ولا أكثر خلقاً من شيبان ».

وكان في قبيلة شيبان كثير من القادة والعلماء والأدباء والشعراء. فالإمام أحمد عربي أصيل، يلتقي نسبه مع سيدنا النبي ﷺ في تاسع عشر أجداده في نزار بن معد بن عدنان، والعنصر العربي في صدر الحكم الإسلامي له شأن وجاه، وهو موضع فخر لمن سعى إليه لأن كتاب الإسلام وهو القرآن الكريم عربي ورسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ عربي .

أما والده : فهو أحد القادة في جيش خراسان، ثم استقر ببغداد. وأما جده :
حنبل بن هلال فقد كان والي سرخس في عهد الأمويين .

أيها الإخوة الكرام :

أذن مولانا رَحِمَهُ اللهُ بولادة هذا الإمام في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومئة،
ونشأ في حجر أمه لأن أباه كان قد انتقل إلى جوار أرحم الراحمين.

نشأ تقياً تقياً، وظهرت بوادر فضل هذا الإمام وهو بعد مازال غليماً حين وضعته
أمه في الكتّاب فكانت النساء يرسلن إلى المعلم : أن ابعث إلينا بأحمد بن حنبل
ليكتب إلى رجالنا في الغزو، فكان هذا الفتى العربي يجيء إليهن مطأطيء الرأس
فيكتب جواب كتبهن لأزواجهن وربما أملوا عليه الشيء من المنكر فلا يكتبه لهن .

وهذه الحادثة . **أيها الإخوة** . تدل على تكبير برّه وورعه وكفّ نظره عما حرم الله
تعالى حتى جعل الناس تتعجب من أدبه وحسن سلوكه.

على هذه الأخلاق . **أيها الإخوة** . شبّ هذا الفتى العربي تقياً يأكل من كسب
يده، وخلف له والده داراً صغيرة ضيقة يسكنها، وكان مورده ضعيفاً، فكان يحاول
أن يكسب مالاً حلالاً، ولا يبالي بالعمل الذي يأتيه بالمال مهما قيل فيه، وكان
شعاره « **اعمل وتعفف ولا تحتج إلى أحد ولو كان من الأولياء أو أقرب
الأقرباء** » .

وربما كان يؤجر نفسه ليحمل في الطريق ويعين الحمالين، وربما نسخ كتباً بالأجرة أو
ينسخ التكمك ويبيعها وينفق منها. وهذا يعني أن نفسه كانت عظيمة لا يضيرها أن تنزل
إلى درك عمل ما قد يستهين به الناس مادام حلالاً، فليس في العمل حطة لأنه حرٌّ في
عمله، هذه الحرية لا يدانيها حرية لا من حاكم ولا من محكوم ولا سيد ولا مسود.

وحين بلغ السادسة عشرة من عمره أخذ يدور على حلقات العلم وبدأ يعي
الحديث، أي منذ عام ١٧٩هـ وأول من كتب عنه الحديث أبو يوسف صاحب
الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، لكنه لم يلبث عنده إلا قليلاً، حتى انتقل إلى شيخه بشير بن

هشيم الذي كان يتردد عليه أثناء صغره، فلزمه ثلاث سنوات فكتب عنه بعض كتب الحديث، نحواً من ثلاثة آلاف حديث حتى بلغ العشرين من عمره حيث راح يأخذ من شيوخ الحديث ويكتب كل ما يسمع، وعندما استوفى كل ما عند محدثي بغداد بدأ في رحلاته في طلب الحديث النبوي الشريف، لأن العصور الأولى لم يكونوا يعدون الرجل محدثاً وحافظاً حتى يرحل لبلاد الإسلام يلتقي بكبار علمائها وحفاظها خصوصاً مكة والمدينة، يقول ابن كثير الدمشقي: «طاف الإمام في البلاد والآفاق وسمع من مشايخ، وكانوا يجلبونه ويحترمونه في حال سماعه منهم».

أيها الإخوة الكرام :

رحل الإمام إلى الشام والجزيرة، وسمع من كبار الشيوخ وكتب عن علماء كل بلد، وفي رحلته إلى مكة المكرمة التقى بسيدتين عظيمين من أهل الحديث: سيدنا سفيان بن عيينة وسيدنا الإمام الشافعي وحين انتقل إلى اليمن التقى بالمحدث عبد الرزاق الصنعاني سنة / ١٩٩ هـ، وكان قد اجتمع به في موسم الحج، وراح الإمام أحمد يجمع الحديث من كبار علمائه وثقاته حتى بلغ عدد مشايخه أربعمئة وخمسة وعشرين شيخاً، فلم يترك الإمام لحظة من شبابه وكهولته إلا وحرص فيها أن يسمع حديثاً أو يصحح رواية، ورحل في سبيل ذلك إلى أدنى الأرض، فإن لم يجد ما يركب فعلى قدميه يسير، ويقطع المراحل حتى شقق قدماه ، وما كان يرى بذلك بأساً مهما ينتهي إليه حاله وجسمه إذا ظفر ولو بخبر عن رسول الله ﷺ.

مر الإمام يوماً آتياً من الكوفة وبيده جملٌ كُتِبَ فأخذه رجل بيده وقال: مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة إلى متى؟!، إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث ألم يكفه ؟.

فسكت الإمام أحمد ثم قال (الرجل): ستين ألفاً ؟.

فسكت الإمام فقال الرجل : مئة ألف ؟ فنظر الرجل في كتب الإمام أحمد فإذا به ثلاثمئة ألف حديث عن سيدنا رسول الله ﷺ .

ورأى رجل مع سيدنا الإمام أحمد محبرة فقال له : يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين...؟!.

فقال الإمام أحمد : مع المحبرة إلى المقبرة.

وكان عليه السلام يحب أن يجمع أحاديث الأسانيد العالية لأن الحديث كلما قلَّ رواته علا إسنادُه، وكان يقول « طلب علو الإسناد من السنة » وكان يحب أكثر أن يجمع الأحاديث الثلاثية (التي رواها ثلاثة بينه وبين سيدنا رسول الله ﷺ) وتسمى هذه الأحاديث بالثلاثيات⁽¹⁾ فبلغ الإمام أحمد أن حديثاً ثلاثياً في ما وراء النهر عند رجل من أصحاب الحديث، فتكبد المشاق وسار مسيرة شهر أو أكثر حتى وصل إليه فوجده يطعم كلباً، فسلم عليه فرد عليه السلام وتابع إطعام الكلب. فلما انتهى قال للإمام : إن هذه المنطقة ليس فيها كلاب، فلما رأيت هذا الكلب علمت أنه ما جاء به إلا الجوع والعطش ورأيتُه يحوم حولي يرجوني أن أطعمه وتذكرت أن فلاناً حدثني عن فلانٍ عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة » فقدمت له الطعام والشراب خوفاً أن يفعل الله بي ذلك يوم القيامة. فقال الإمام أحمد : « يكفيني هذا الحديث » وقفل راجعاً ﷺ.

أيها الإخوة الكرام :

لم يكن في عصر الإمام أحمد ولا بعد عصره أحد حفظ من الحديث ما حفظ، وجمع ما جمع، وأتقن من هذا الفن ما أتقن، فقد بذل للحديث والسنة النبوية راحته وجهده، وأنفق شبابه وشيخوخته لم يكل ولم يمل حتى بلغ الذروة في علمه وحفظه

(1) استخرجها الشيخ محمد السفاريني من مسند الإمام أحمد ﷺ وبلغت ٣٣٣ وقام بشرحها شرحاً موفياً طبعه المكتب الإسلامي في مجلدين كبيرين. قرأت منهما الكثير لى سيدي الشيخ أحمد المحاميد سيد علماء حي التوبة .

وفهمه وحتى صار يلقب عند الناس بـ « فقيه المحدثين ومحدث الفقهاء، وإمام السنة » .

سُئل مرة أحد الحفاظ للحديث وهو أبو زرعة قيل له : أيهما أحفظ أنت أم أحمد بن حنبل؟ قال : بل أحمد بن حنبل قيل : وكيف علمت ذلك؟ قال : وجدت كتب أحمد بن حنبل ليس فيها أوائل الأجزاء (أسماء المحدثين الذين سمع منهم) فكان يكتب نص الحديث فقط ويذكر من رواه له من حفظه رحمهم الله وأنا لأقدر على هذا .

وقال أبو عبيد بن سلام: انتهى الحديث إلى أربعة : أبي بكر بن أبي شيبة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني. فأبو بكر أسردهم له، وأحمد أفقهم، ويحيى بن معين أجمعهم له، وأحمد وعلي أعلمهم به.

ومع هذا العلم والحفظ فقد كان الإمام أحمد إذا أراد أن يحدث لا يحدث إلا من كتاب حرصاً على جودة النقل والتثبت في الحديث، فقد جمع خلاصة علمه كله في كتابه العظيم مسند الإمام أحمد، وزعه على أبواب الرواة من الصحابة حيث جمع لكل صحابي أصح ما روي عنه من الأحاديث الشريفة، وجمع فيه أقوال الصحابة واجتهادهم وأقوال بعض التابعين، وبلغ عدد الأحاديث في المسند أكثر من ثلاثين ألف حديث سوى المكرر منها وقدره عشرة آلاف حديث، وقبل أن يموت الإمام قرأه على ابنه صالح وعبد الله رحمهم الله وقال لهما : « إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمئة وخمسين ألف حديث، فاحتفظا به فإنه سيكون للناس إماماً » .

هذا هو الإمام أحمد بن حنبل المحدث ، فمن هو الإمام أحمد الفقيه أعلق هذا السؤال لأجيب عنه في الجمعة القادمة بإذن الله رحمهم الله وأعود بكم من هناك إلى هنا ، هنا مدرسة الفقه والفقهاء، مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب ، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الصلاة والسلام عليك.

(١٣٤)

فقه الإمام أحمد رحمته الله

الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين المبين، وأكرمنا بالنبي الصادق الأمين، وجعل له خلفاء بررة متقين، ومن بعد الخلفاء سادة من التابعين، وأيد هذا الدين بالأئمة المجتهدين، فقادوا الأمة على ممر الأيام والسنين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين.

وأشهد أن سيدنا وحبينا وأميرنا وقائدنا وقرّة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله الهادي إلى الصراط المستقيم.

اللهم صلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد : فإن دين الله واحد، وهو ما أنزل الله به كتابه وأرسل به رسوله وارتضاه لعباده. كما أن نبيه واحد، وقبلته واحدة، فمن وافقه فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد على اجتهداده لا على خطأه، ولأجل هذا وجب على المجتهد أن يتحرى حكم الله تعالى في اجتهداده بما عرف من أساليب العرب، وفهم المقاصد الشرعية من غير إجهاد للنص بتأويل يخرج عما أريد به.

وهذا هو العمل الذي قام به سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله في حديثنا عنه في هذه الحلقة الحادية عشرة من ملف سيرة الفقهاء، وقد اكتسب هذه المهارة الفقهية من مجالسته شيوخ عصره، وخاصة سيدنا الإمام الشافعي رحمته الله، يقول محمد بن الفضل الفراء : « سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل فنزلت في مكان واحد معه، فخرج باكراً وخرجت بعده، فدرت المسجد الحرام فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره، حتى وجدته جالساً مع أعرابي فقلت له : يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة وجئت إلى هذا؟ فقال لي : اسكت إنك إن فاتك حديث بعلو

وجدته بنزول، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لاتجده، ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفقي، قلت من هذا ؟

قال: محمد بن ادريس (الشافعي) . »

أيها الإخوة : إننا نستطيع أن نقول : إن الإمام الشافعي قد أثر تأثيراً مباشراً في تربية الإمام أحمد على الفقه، حتى جعله حريصاً كل هذا الحرص على أن ينمي فيه ملكة الفقه قدر حرصه على أن يكتب الحديث النبوي، وحتى قيل: إنه الشيخ الوحيد له الذي درس على يديه الفقه.

قال الحسن بن محمد الزعفراني : كنا نحضر مجلس بشر المريسي (وهو رجل من الضالين المضلين في العراق) فكنا لانقدر على مناظرته، فمشينا إلى الإمام أحمد بن حنبل فقلنا له: إئذن لنا أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة لنخوض معهم إذا خاضوا .

فقال الإمام أحمد : اصبروا فالآن يقدم عليكم المطلي الذي رأيته بمكة قال: فقدم علينا الإمام الشافعي فمشينا إليه فسألناه شيئاً من كتبه فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد فدرسته في ليلتين، ثم غدوت على بشر المريسي وتخطيت إليه فلما رأي قال : ما جاء بك يا صاحب الحديث ؟ قال : فقلت : ذرني من هذا . إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد.؟ فناظرته فقطعته فقال : ليس هذا من كيسكم، هذا من كلام رجل معه نصف عقل أهل الدنيا.

وهكذا . أيها الإخوة . نرى الإمام أحمد يعتمد أقوال الشافعي، بل إنه يتخذها حجة في دين الله تعالى، يقول أحد تلامذة ابن حنبل : كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة فقال رجل لأحمد : يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث . فقال : إن لم يصح فيه حديث ففيه قول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه. (فقولوا رضي الله عنه) .

وكان يقول : إذا سئلت عن مسألة لا أعلم فيها خبراً قلت فيها بقول الشافعي لأنه عالم قريش الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ .

أيها الإخوة : كان الإمام أحمد لا يحب الجدل في المسائل الفقهية ولكنه أحياناً يتحرى البحث عن الحق مع من خالفه ، قبل منه ذلك بصدر منفتح للعلم، جرى مرة بينه وبين شيخه الإمام الشافعي مناظرة لطيفة حول مسألة : هل تارك الصلاة كسلاً وتهاوناً يكفر أم لا ؟ وكان سيدنا وقدوتنا إلى ﷺ محمد بن ادريس الشافعي يقول: إنه لا يكفر وخالفه الإمام أحمد وقال: إنه يكفر.

فقال له الإمام الشافعي : يا أحمد، أتقول إنه يكفر ؟ . قال الإمام أحمد : نعم . قال الإمام الشافعي : إذا كان كافراً فبم يسلم ؟ قال الإمام أحمد : يقول : لا إله إلا ﷻ.

قال الإمام الشافعي: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه !! . قال الإمام أحمد: يسلم بأن يصلي . قال الإمام الشافعي: صلاة الكافر لا تصح، ولا يحكم بالإسلام بها (فكيف تقول يسلم بأن يصلي) فسكت الإمام أحمد .

يمكننا . **أيها الإخوة .** أن نقول : إن الإمام أحمد بن حنبل نمت لديه الملكة الفقهية وأصبح على مقدرة علمية رفيعة، وخاصة لغزارة علمه في الكتاب والسنة، لأنه كان يخشى أن يقرر حكماً ليس هو حكم ﷻ ورسوله وخاصة وهو يتلو قول ﷻ تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى ﷻ ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص ﷻ ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » ويتلو كلام ﷻ تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي ﷻ ورسوله » أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه.

وأما المنافقون، وأما الذين يريدون الدنيا ولا يريدون حكم ﷻ ولا حكم رسوله فبشرهم بعذاب أليم، أولئك الذين قال مولانا رحمته عليهم: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل ﷻ فأولئك هم الكافرون ﴾ .

لذلك اسمعوا أيها الإخوة إلى سيدنا الإمام أحمد وأنتم تترضون عنه يقول: «من ردّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة»

وهذا القول أخذه الإمام أحمد من شيخه الإمام الشافعي فهو القائل : « أجمع المسلمون على أنه من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس

وهكذا . أيها الإخوة . بنى الإمام أحمد أسس مذهبه على كتاب الله وسنة رسول الله ، وكان لا يفتي إلا بآية أو حديث أو إجماع أو قياس أو فتوى صحابي وكان لا يعدل إلى اجتهاد الصحابة حتى يستنفذ النصوص الشرعية وإذا كان للصحابة رأيان رجّح بينهما أو قرّر الرأيين .

وإني لأعجب والله من الذين يقولون إننا بحاجة إلى فقه جديد، فقه العافية ، فإذا كان فقه الأئمة الأربعة مستمد من الكتاب والسنة وأن كلاً من الأئمة نصّوا على قاعدة شرعية هي « إذا صح الحديث فهو مذهبي » إذا كان فقه الأئمة من الكتاب والسنة فمن أين سيأتي هذا المدعي بفقهه ، من كتاب إبليس وسنة التلبس، وأنا متأكد تماماً أن هذا المنافق شريك إبليس في هذا التلبس .

إني أعلنها عالية خفاقة إن مصادر الفقه في مذاهب الأئمة ومنهم الإمام أحمد هي الكتاب والسنة وهذه الطريقة أيها الإخوة تسمى عند العلماء الطريقة الأثرية ، وتعني أن الإمام أحمد لا يفتي إلا بحديث أو آية أو أثر عن الصحابة ، ولهذا يقول عبد الوهاب الوراق:

ما رأيت مثل أحمد بن حنبل .

فقالوا له : وأي شيء بان لك من فضله؟ .

فقال: لأنه رجل سُئل ستين ألف مسألة فأجاب فيها : حدثنا وأخبرنا. وقد جمع هذه المسائل تلميذه أبو بكر الخلال .

نعم ، كان الإمام أحمد لا يفتي إلا بحديث رسول الله ﷺ حتى إنه يقول :

«الخبر الضعيف عندي خير من القياس (الرأي)»

ستون ألف مسألة هي التي صنعت من الإمام أحمد فقيهاً مجتهداً إماماً علماً حتى خضعت له رقاب العلماء إجلالاً وإكباراً وأكثروا من الثناء عليه وبالغوا في تعظيمه بما هو أهله، يقول أحد الأعلام في هذه الأمة وهو الإمام المحدث علي بن المديني : « إذا ابتليت بشيء فأفتاني أحمد بن حنبل لم أبالي إذا لقيت ربي كيف كان » (ليسمع الذين يريدون تبديل الفقه كلمة هذا الإمام ابن المديني التي تكتب بماء الذهب).

وقال أبو القاسم الحنبلي (من أئمة عصره) : « كان أحمد بن حنبل إذا سئل عن المسألة كأن علم الدنيا بين عينيه » .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : « قد جعلت أحمد بن حنبل إماماً فيما بيني وبين الله ﷻ » .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : خرجت من بغداد وماخلفت بها أحداً أروع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل » .
معشر الإخوة الكرام :

بعد هذه الحياة الزاخرة بالعلم والإيمان والأمانة والورع أقبل الناس يجلسون إلى الإمام أحمد يستفتونه في المسائل فقد جمع الإمام أحمد بين علم الحديث وعلم الفقه ، وكان دقيقاً بما يفتي ، عليمًا بما يأخذ أو يدع ، ومن دقيق اجتهاده أنه سُئل عن رجل حلف بالطلاق ثلاثاً أنه لا بد أن يطأ امرأته الليلة ، فوجدها حائضاً فقال الإمام : « تطلق منه امرأته ولا يطأها ، قد أباح الله الطلاق وحرم وطء الحائض » .

وإن من طريف ما يذكر أن امرأتين مجوسيتين اختصمتا في مواريث لهما إلى رجل من المسلمين ، فقضى لواحدة على الأخرى فقالت له : « إن كنت قضيت علي بقضاء أحمد بن حنبل رجعت وإلا فلا أرضى » .

وكتب إليه أحد علماء عصره رسالة طلب فيها أن يزوده ببعض المسائل الهامة
فكتب له الإمام أحمد مايلي:

نشهد للعشرة بالجنة وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد
وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ومن شهد له النبي بالخير
شهدنا له بالجنة.

ورفع اليدين في الصلاة زيادة في الحسنات، الجهر بآمين عند قول الإمام
(ولا الضالين) .

والصلاة على من مات من أهل هذه القبلة ، وحسابهم على الله عز وجل والخروج
مع كل إمام في غزوه وحجه والصلاة خلفهم صلاة الجماعة والجمعة والعيد.

ولانكاح إلابولي وخاطب وشاهدي عدل، والمتعة حرام إلى يوم القيامة. ومن
طلق ثلاثاً في يوم واحد فقد جهل، وحُرِّمت عليه زوجته، ولا تحل له أبداً حتى تنكح
زوجاً غيره، والتكبير على الجنائز أربعاً، فإن كَبَّرَ خمساً فكبَّرَ معه. قال ابن مسعود:
« كَبَّرَ مَاكَبَّرَ إمامك » ، وخالفني الشافعي وقال إن زاد على أربع تكبيرات أعاد
الصلاة واحتج علي بأن النبي ﷺ صَلَّى على النجاشي فكبر عليه أربع تكبيرات .

والمسح على الخفين للمسافر ثلاثة أيام وليلتين ، وللمقيم يوم وليلة، وإذا دخلت
المسجد فلا تجلس حتى تركع ركعتين تحية المسجد ، والوتر ركعة، والإقامة فرادى.

أحبوا أهل السنة على ماكان منهم ، أماتنا الله وإياكم على السنة والجماعة ،
ورزقنا وإياكم اتباع العلم ووفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه.. » .

هذا هو فقه الإمام أحمد كتبه بخطه وعَلَّمَهُ تلاميذه .

وحين رحل الإمام الشافعي عن العراق وانتشر علم الإمام أحمد بعد وفاة الإمام
الشافعي وقع الناس في حيرة بمن يأخذون بقول الإمام الشافعي أم بقول الإمام أحمد
،ومن هؤلاء المتحيرين قاضي دمشق أبو بكر أحمد الرملي اسمعوا قاضي دمشق يروي
هذه الحيرة فيقول: حضرت صلاة المغرب فدخلت المسجد فلما قلت الله أكبر
تفكرت في قول أهل العراق (من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة) وفي قول أهل

الحجاز (لاصلاة إلا بفتح الكتاب). قال فمن كثرة اختلافهما تركت الجماعة وخرجت ، فأصابني همّ، وبثُّ بغمّ، فلما كان في جوف الليل قمت وتوضأت وصليت ركعتين وقلت : اللهم اهديني لما تحب وترضى ثم أويت إلى فراشي فرأيت النبي ﷺ . فيما يرى النائم . دخل من باب بني شيبه فأسند ظهره إلى الكعبة ، ورأيت الشافعي وأحمد بن حنبل على يمين النبي ﷺ يتسم إليهما . ورأيت بشراً المرّيسي على يسار النبي ﷺ مكلّح الوجه فقلت: يا رسول الله من كثرة اختلاف هذين الرجلين لم أدرِ بأيهما آخذ فأوماً إلى الشافعي وأحمد بن حنبل وقال « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » ثم أوماً إلى بشر المرّيسي وقال : « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكنّا بها قوماً ليسوا بها بكافرين »

يقول قاضي دمشق أبو بكر : « والله لقد رأيت هذه الرؤيا وتصدقت في الغد بألف دينار وعلمت أن الحق مع الشيخين » .

أيها الاخوة : فما هي عقيدة الإمام أحمد بن حنبل . كيف انتقل إلى جوار الله تعالى ، لاتغيبوا الجمعة القادمة فإن حدثاً عظيماً سوف أنقله لكم عن الإمام أحمد رضي الله عنه .

هنا مدرسة الفقه والفقهاء مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إلى الحبيب وتحيّتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك.

وَسَلِّمْ
عَلَيْكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ

(١٣٥)

عقيدة الإمام أحمد رحمته الله

الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من آل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، وينهونه عن الردى، يُحيون بكتاب الله الموتى، وبسنة سيدنا رسول الله ﷺ أهل الجهالة والردى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائه قد هدوه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب.

وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا وقائدنا وقرة أعيننا سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي قال فيه مولانا « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ».

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين، وسلِّم تسليماً.
أما بعد : فما زلنا مع ناصر السنة النبوية الذي قيل فيه : « أبو بكر يوم الردة، وعمر يوم السقيفة، وعثمان يوم الدار، وعلي يوم الجمل وصفين، وأحمد بن حنبل يوم المحنة، لولا الإمام أحمد لكفر الناس ».

إننا مع رجل عظيم من أبطال الدين والسنة الذي كان يقول: « ما كتبت حديثاً عن النبي ﷺ إلا وعملت به ». وبلغنا عن سيدنا رسول الله ﷺ أن الله ﷻ ليدخل العبد الجنة بالسنة يتمسك بها.

إنه البطل الذي كان يقول كان يقول : « ما أعدل بالفقر شيئاً، ما أعدل بالفقر شيئاً أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء ». ومع ذلك كانت تهابه الشيوخ والأقران والحكام والسوقة.

إننا مع الحلقة الثانية عشرة من ملف سيرة الفقه والفقهاء أصحاب المذاهب الأربعة، وبالذات مع درس العقيدة، العقيدة التي لا يقبل إيمان العبد إلا بها، لأن أركان الدين ثلاثة: إسلام وإيمان وإحسان. ومعنى كلمة أعتقد أي أؤمن وأركان الإيمان ستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

يقول الإمام أحمد : « والإيمان قول وعمل يزيد وينقص، زيادته إذا أحسنت، ونقصانه إذا أسأت، ويخرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرج من الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم أو برّد فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً بها، فإن تركها كسلاً أو تهاوناً كان في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه .

وإن أهل الجنة يرون ربهم لا محالة، وإن الله يخرج أقواماً من النار بشفاعته سيدنا محمد ﷺ وأن الله كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلًا والصراط حق، والميزان حق، والأنبياء حق، وعيسى بن مريم رسول الله وكلمته، والإيمان بالحوض والشفاعة، والإيمان بمنكر ونكير وعذاب القبر، والإيمان بملك الموت يقبض الأرواح ثم ترد إلى الأجساد في القبور فيُسألون عن الإيمان والتوحيد، والإيمان بالنفخ في الصور (والصور قرن ينفخ فيه اسرافيل)، وأن القبر الذي في المدينة قبر سيدنا محمد ﷺ ومعه أبو بكر وعمر، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، ولا تؤثروا على القرآن شيئاً فإنه كلام الله عز وجل وما تكلم الله به فليس بمخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر بالله العظيم ومن لم يكفره فهو كافر.

والدجال خارج في هذه الأمة لا محالة ، وينزل عيسى بن مريم فيقتله بباب لد (في فلسطين) .

ولا عينَ نظرتُ بعد سيدنا رسول الله ﷺ خيراً من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولا بعد أبي بكر عينٌ نظرتُ خيراً من عمر، ولا بعد عمر عينٌ نظرتُ خيراً من عثمان، ولا بعد عثمان بن عفان عينٌ نظرتُ خيراً من علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال الإمام أحمد : هم والله الخلفاء الراشدون المهديون «

هذا هو نص عقيدة الإمام أحمد بن حنبل وهي عقيدة كل مسلم لأنها مستمدة من عيون الشريعة المطهرة ، ولنا وقفات مع العقيدة إن شاء الله تعالى بعد سيرة الفقه والفقهاء .

أيها الإخوة الكرام : اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى سيدي وقُدوتي إلى الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه إننا هناك في مصر القاهرة، التي كانت تسمى بالفسطاط، ونحن ضيوف على سيدي الإمام الشافعي الذي يظهر الفرح على محياه أتعلمون لماذا ؟ لأنه رأى سيدنا رسول الله ﷺ في المنام وقال له: « اكتب إلى أحمد بن حنبل وأقرئ عليه مني السلام وقل له إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجهم فسيرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة»

ونادى الإمام تلميذه الخاص الربيع بن سليمان المرادي ووجه معه الرسالة إلى الإمام أحمد بن حنبل، وسار مسيرة شهر أو يزيد، فدخل بغداد والتقى الإمام أحمد بعد صلاة الفجر فسلمه الرسالة وبعد أن فتحها وقرأها إذا به يأخذ بالبكاء فرحاً لأن رسول الله ﷺ يسلم عليه، ثم قال: «إذا كانت الجنة فيا مرحباً بالبلاء».

قال الربيع المرادي : البشارة .

فقال الإمام أحمد : نعم، فأعطاه قميصه الذي يلي جسده، وانطلق الربيع عائداً إلى مصر ودخل على الإمام الشافعي وابتدعه بقوله: ماذا أعطاك الإمام أحمد ؟.

قال : أعطاني قميصه الذي يلي جسده .

فقال : الإمام الشافعي لا أريد أن أفجعك بالقميص فأخذه منك ولكن اغسل القميص وأعطني الماء لأتبرك به.

وانتقل الإمام الشافعي إلى جنات ونَهَر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وبدأت الرؤيا تتحقق شيئاً فشيئاً وذلك عندما كتب الخليفة المأمون إلى ولاته في الآفاق أن يمتحنوا العلماء بالقول بخلق القرآن، وكل من لا يقول بخلق القرآن يُعزل من منصبه وابتدأت المحنة سنة ثماني عشرة ومئتين.

واستجاب للمأمون جماعة من الخائفين على مناصبهم وخوفاً على رؤوسهم من سيفه أو من سجنه، إلا مجموعة قليلة كان معها الإمام أحمد بن حنبل في بغداد فجمعهم الوالي وسأل كل واحد منهم : هل القرآن مخلوق..؟

فكان منهم من يجيب: أقول القرآن كلام الله. فيقول الوالي: أمخلوق هو؟ فكانوا يجيبون : الله خالق كل شيء.

قال الوالي: ما القرآن بشيء؟ قالوا : هو شيء. قال الوالي: فمخلوق . قالوا : ليس بخالق. قال : ليس أسألكم عن هذا، أمخلوق هو؟ قالوا جميعاً: ما نحسن غير ما قلنا لك. فالتفت إلى الإمام أحمد فقال : ما تقول في القرآن. قال الإمام : هو كلام الله لا أزيد عليها .

ورفع الوالي تقريره إلى الخليفة المأمون الذي استشاط غضباً على موقف هذه الثلة الطاهرة من العلماء، وشدد قبضته عليهم وأمر بكل من لا يقول إن القرآن مخلوق أن يُقيد بالحديد ويساق إلى (سُرٍّ من رأى).

فإذا ببعض الأئمة العلماء يستجيبون ظاهراً . لا عقيدةً . لأمر الخليفة وتأولوا قول الله تعالى ﴿ إِنْ مِنْكُمْ مِنْ يُكْفِرُ بِمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِهِ فَهُمْ لَا يَمُنُّونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ . منهم رجل اسمه أبو معمر القطيعي كان شديد التمسك بالسنة وقال : كفرونا وخرجنا.

ومنهم رجل اسمه سعيد بن سليمان المعروف بسعدويه، لما دُعي إلى المحنة خرج من دار الخليفة وقال : يا غلام قَدِّم الحمار فإن مولاك قد كفر.

كلهم أخذوا في المحنة إلا ثلاثة : الإمام أحمد بن حنبل وخليفة الإمام الشافعي وهو البويطي ومحمد بن نوح، أمر بهم أن يُشدوا في الحديد ويسير بهم إلى الخليفة، وفي الطريق

تحققت كرامة الإمام الشافعي في البويطي حيث قال له قبل وفاته: « وأما أنت يا بويطي فستموت في حديد لك »، فمات الإمام البويطي شهيداً في سبيل عقيدته .

وأما الإمام أحمد فالتقى به رجل من الأعراب يقال له جابر بن عامر فسلم على الإمام وهو مقيد في الحديد وقال له: يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس إلى يوم القيامة، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيئوا فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً.

وإن هي إلا أيام حتى اقترب الركب من جيش الخليفة، ونزلوا قبل الدخول عليه يرتاحون، فجاء خادم الخليفة وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول: يعز علي يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك إنه ليقسم بقرابته من رسول الله لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف.

أيها الإخوة الكرام : الأمر إذاً جدٌ خطير فاسمحوا لي أن أشد الرحال معكم إلى هناك حيث الإمام أحمد بن حنبل هنا على أطراف سورية شرقاً، فإن حدثاً عظيماً سوف يحدث، لأن الإمام أحمد ما إن سمع مقالة الخادم حتى جثا على ركبتيه والحديد في رجليه، ورفع طرفه إلى السماء وناجى مولانا ﷺ ، ناجى من لا يحب أحداً ﴿أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ قال الإمام أحمد: « سيدي غرّ حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أولئك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن

القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته» .

وما أن أنهى الإمام أحمد كلامه حتى نادى رجل في الناس: مات الخليفة المأمون (الله أكبر أشهد أن كلام الله غير مخلوق فقولوا نشهد بذلك) .
وأمر به إلى السجن فسُجن في سجن الرقة حتى ينظروا في أمره، وجاء عمه اسحق يطلب منه أن يتظاهر بأنه يقول: إن القرآن مخلوق تقيّة أمام الخليفة المعتصم.

فقال الإمام أحمد وكيف تصنعون بحديث خباب : « إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصدده ذلك عن دينه ». قال : فيئسوا منه .

فقال الإمام أحمد : لست أبالي بالحبس، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف السوط، وأخاف ألا أصبر فسمعه بعض أهل الحبس فقالوا له: لاعليك يا أبا عبد الله فما هو إلا سوطان ثم لا تدري.

أيها الإخوة الكرام : مات الخليفة المأمون غريباً عن عاصمة ملكه، لكنه أوصى من خلفه وهو المعتصم أن يستمر في المحنة ويستعين بالمعتزلي الضال أحمد بن أبي دؤاد، وكان المعتصم رجلاً عسكرياً أكثر منه رجل علم، بل وصفه المؤرخون بأنه كان عربياً من العلم، سلم مقاليد العلم لابن أبي دؤاد، وراح يسوم العلماء سوء العذاب، وعاد الإمام أحمد إلى سجن بغداد مع محمد بن نوح، ولكن ابن نوح وافته المنية في الطريق شهيداً في سبيل عقيدته.

وبقي الإمام أحمد في السجن حوالي ثلاثين شهراً ولسان حاله يقول ما قال سيدنا يوسف ﴿ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ وافتتح مدرسة القرآن والسنة والفقه في السجن، وكان يصلي بهم، وكان أقسى شيء عليه أنه كان لا يستطيع أن يجلس جلسة التحيات كهيئة جلوس سيدنا رسول الله ﷺ .

عطش مرة فطلب ماءً، فجيء إليه بماء وثلج، فلما وضعه على فمه ونظر إليه تركه بدون أن يشرب، فقال له السجنان : لماذا لا تشرب ؟ . قال : وكيف أشرب ومن معي في السجن لا يشربون.

وكان رئيس شرطة بغداد يبعث إليه بالمنظرين المعتزلة يناظرونه وهو مقيد بالقيود، فكلما انصرفوا عنه زادوا في قيوده، وهو يقول في كل مرة:

كلام الله قديم غير مخلوق.

وراحت التهديدات تتوالى، يهددونه بالسيف وأنه لا يقتلك بالسيف إنه حلف إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه شمساً ولا

قمرًا، أليس قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً .

فقال الإمام أحمد : قد قال الله تعالى ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أفخلقهم؟ قال : فسكتوا.

معشر السادة الكرام : استُدعي الإمام أحمد إلى مقر الخلافة العباسية، فدخل على الخليفة المعتصم، فأدناه الخليفة وأجلسه بين يديه فاستأذنه الإمام أحمد بالكلام والمناظرة مع المعتزلة الذين هم حول الخليفة، فطلب منهم الإمام أن يعطوه شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله على أن القرآن مخلوق، وبقي على هذا الحجة ثلاثة أيام ثم بدأت الشياطين تنهال على جسد الإمام وقد شُد إلى خشبتين، وهو ثابت لا يلين فلما ضُرب السوط الأول قال : بسم الله .

فلما ضُرب الثاني قال : لاحول ولا قوة إلا بالله .

فلما ضُرب الثالث قال : كلام الله غير مخلوق.

فلما ضُرب الرابع قال : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

وراحت الأسواط تتوالى على جسد الإمام حتى أصابت تكة سرواله فانقطعت، فرفع الإمام طرفه إلى السماء وحرك شفتيه فإذا بالسروال يرتفع إلى بطنه ثانية ويثبت عليه.

وكلما لان قلب الخليفة المعتصم على الإمام حرّض عليه ابن أبي دؤاد المعتزلي، فيضربه حتى يغمى عليه.

يقول الإمام أحمد رحمه الله فأفقت بعد ذلك فإذا القيود وقد أُطلقت عني وكان ذلك في ٢٥ / رمضان سنة ٢٢١ / هـ فقال له رجل: إنا كبيناك على وجهك وطرحناك على ظهرك ودرسناك، فقال الإمام : ما شعرت بذلك. وجيء بشيء يشربه فرفض الإمام أحمد أن يفطر.

وحضرت الصلاة، فصلى والدماء عليه، فقال له أحدهم : صليت والدم يسيل على ثوبك. فقال الإمام : قد صلى عمر وجرحه يَثْعَبُ دماً.

وضج الناس في بغداد، وتجمهروا عند قصر الخليفة حتى خاف الخليفة وصاروا ينادون: أَيُضْرَبُ سيدنا لاصْبِرْ ، أَيُضْرَبُ سيدنا لاصْبِرْ.

وخاف الخليفة مَعْبَةً فعله فأطلق الإمام أحمد إلى منزله بعد ثمانية وعشرين شهراً في السجن، وراح الناس يعودونه في بيته، دخل رجل عليه وكان قد شهدده وهو يُجلد فقال له: يا أبا عبد الله رأيتك وقد انحل سروالك فرفعت طرفك نحو السماء فثبت، ما الذي قلت؟ ال قلت : « اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم إني على الصواب فلا تهتك لي سراً » .

وراح الطبيب يداويه وهو يقول : لقد رأيت من ضُرب ألف سوط مارأيت ضرباً مثل هذا، وراح يقطع اللحم الميت من جسده ﷺ ، وبقي أثر الضرب فيه نحواً من عشرين سنة حتى وفاته ﷺ .

فلما سمع الإمام أحمد أن المعتصم فتح عمورية وانتصر لامرأة مسلمة نادته وامعتصماه سامحه على ما فعل به .

وجاء عصر الواصل بعد المعتصم وأرسل للإمام أحمد قائلاً: لاتساكني بأرض واحدة، فاخفى الإمام طيلة حياته، وبدأ الواصل يضرب بالسيف كل من ينكر أن القرآن مخلوق، ويعلق رؤوس الناس على الأبواب في بغداد شهوراً .

وقدم شيخ مقيد ذو شبيبة على الواصل فاستحي منه الواصل وأدناه، وبدأ يناظر ابن أبي دؤاد الفاسق.

أيها الإخوة : أنقل لكم هذه المناظرة من قاعة الواصل على الموجة الإيمانية من جامع الدرويشية بعد أن تصلوا على الحبيب الأعظم ﷺ .

قال الشيخ لأحمد بن أبي دؤاد : أخبرني عن مقالتك هذه؟ أهى مقالة واجبة داخله في عقد الدين فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ماقلت؟ . قال ابن أبي

دؤاد : نعم. فقال الشيخ : أخبرني عن رسول الله حين بعثه الله هل ستر شيئاً مما أمر به ؟.

قال أحمد : لا. فقال الشيخ: فدعا إلى مقاتلك هذه؟.
فسكت أحمد بن أبي دؤاد. قال الشيخ : يا أمير المؤمنين. واحدة. فقال الواثق :
واحدة.

فقال الشيخ ما تقول عن الله تعالى حين قال : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أكان الله هو الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه حتى تقول مقاتلك؟. فسكت ابن أبي دؤاد..

فقال الشيخ : ثنتان. فقال الواثق: نعم.
فقال الشيخ : أخبرني عن مقاتلك هذه ، أعلمها رسول الله أم جهلها؟ فقال
ابن أبي دؤاد :علمها. فقال الشيخ : فدعا الناس إليها
فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ثلاث. قال الواثق : نعم .
قال الشيخ فاتسع لرسول الله ﷺ أن يمسك عنها ولم يطالب أمته بها؟. فقال ابن
أبي دؤاد: نعم . فقال الشيخ : واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك ؟.
قال ابن أبي دؤاد : نعم .

فقال الشيخ : شيء لم يدع له رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا
علي تدعو أنت الناس إليه، ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه فإن قلت علموه
وسكتوا عنه فقد وسعني وإياك من السكوت ما وسعهم، وإن قلت جهلوه وعلمته
أنت فيا لكع بن لكع يجهل النبي والخلفاء الراشدون شيئاً وتعلمه أنت .

وهنا قال الخليفة : نعم، كذا هو، قطعوا قيد الشيخ. فلما قطعه ضرب الشيخ بيده
إلى القيد فأخذه، فقال الواثق : لم أخذته ؟.

فقال : إني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه إذا أنا متُّ أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، فأقول : يارب لم قيدني ورّع أهلي. ثم بكى، فبكى الواصل، وبكى من حوله.

كانت هذه المناظرة من أروع المناظرات هُزم فيها ابن أبي دؤاد هزيمة منكرة وأطفاً بها هذا الشيخ فتنة طال أمدّها وذهب ضحيتها كبار المحدثين.

ودخل بعد هذه المناظرة مهرج الخليفة يقول له : أعظم الله أجرك في القرآن.

قال : ويلك.. القرآن يموت؟!!

قال : يا أمير المؤمنين، كل مخلوق يموت. ب الله يا أمير المؤمنين من يصلي

بالناس التراويح إذا مات القرآن.؟!!

ومات الواصل ثم ولي بعده المتوكل سنة ٢٣٢ هـ وكان محباً للسنة وأهلها، واستبشر الناس بولايته، وما أن تولى حتى كتب إلى الآفاق بإيقاف هذه الفتنة العمياء، ومنع كل من يقول بهذه المقالة، واستقدم المحدثين والفقهاء وأكرمهم وأجزل لهم العطايا، وأمرهم بأن يحدّثوا بأحاديث الصفات وجواز رؤية الله يوم القيامة.

وشدد على المعتزلة وبعث إلى نائبه في مصر أن يخلق لحيه قاضي القضاة وأن يضربه ويطوف به على حمار لأنه كان من الضالين المضلين.

وكتب إلى نائبه على بغداد أن يكرم الإمام أحمد، وأوفد إليه عشرة آلاف درهم فقبلها الإمام على مضض وأنفقها على الفقراء مباشرة.

وفي سنة ٢٣٧ هـ استدعاه الخليفة معزراً مكرماً، وكان في الطريق إلى (سر من رأى) يقدم للإمام أنواع الطعام والفاكهة والثلج وهو لا يأكل منها شيئاً حتى وصل إلى الخليفة، فقرر له راتباً شهرياً أربعة آلاف درهم رفضها الإمام أحمد فقال المتوكل : هي لأهلك وأولادك، فسكت الإمام عنها وعاد إلى دياره معزراً مكرماً مودعاً بمثل ما استقبل به من حفاوة وتكريم.

وبقي الإمام بعدها مريضاً ضعيفاً منذ أن خرج من السجن، وزاد من ضعفه كثرة الصيام والعبادة.

يقول ولده عبد الله: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسواط صار يصلي في كل يوم وليلة مئة وخمسين ركعة، وكان قد قرب من الثمانين.

وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام، ويدعو بالليل والناس نيام: «اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ونعوذ بك من الذل إلا لك اللهم لا تكثر علينا فطغي، ولا تُقلِّ علينا فننسى، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا في دينانا، وغنى من فضلك اللهم وكما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصن وجهي عن المسألة لغيرك، يادليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين، اللهم أمتنا على الإسلام والسنة» .

معشر السادة الكرام : عاقبة الظلم وخيمة، وكل من اشترك في محنة خلق القرآن العظيم عاقبهم الله ﷻ في الدنيا، وسوف يعذبهم إن شاء يوم القيامة، لأن الله ﷻ يمهّل ولا يمهّل، أما ابن أبي دؤاد المعتزلي فكان قاضي القضاة زمن المعتصم والواثق، فلما جاء المتوكل أخرجه من (سرّ من رأى) إلى بغداد بعد أن أشهد على نفسه بيع ضياعه وأملاكه وأخذها المتوكل كلها، ثم أصيب بالفالج حتى صار ميتاً بين الأحياء، وكان يدخل عليه الناس ليروا عاقبة الظلم في هذا العبد الذي أذله الله ﷻ.

وأما من ضرب الإمام أحمد فقد أصابه البرص.

وأما الجلال الذي جلد الإمام أحمد فبقي خمسة وأربعين يوماً ينبح كما ينبح الكلب.

أيها الإخوة : بقي الإمام مريضاً في بيته والناس يعودونه، وأولاده وتلامذته حول فراشه: أولاده ستة: صالح وعبد الله والحسن ومحمد وسعيد وزينب. عمل عبد الله بالحديث، وكان صالح قاضياً فقيهاً.

وأما تلامذته فكثروا جداً على رأسهم الإمام البخاري والإمام مسلم والإمام أبو داود السجستاني والإمام الترمذي والإمام البزار وأبو زرعة الدمشقي وأبو القاسم البغوي.

دخل عليه رجل يحب اللغة والنحو فنصحه الإمام شعراً فقال :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت و لكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ماتخفي عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تنابت ذنوبٌ على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ماضى ويأذن في توبتنا فنتوب
ودخل آخر يسأله عن صحته فقال :

تفنى اللذازة ممن نال صفوها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها لاخير في لذة من بعدها النار

أيها الإخوة الكرام : اسمعوا .. الباب يُطرق على الإمام أحمد، هاهو رجل يقول له : أصاب أمي الفالج وأرسلتني لتدعو الله لها. قال الإمام : ومن يدعو لنا نحن؟.

وخرج الرجل وقد استحميا من الإمام، ونظر من في الدار عند الإمام إلى الإمام أحمد وهو يحرك شفتيه، ولحق السائل رجل من الدار فقال له: لا تحزن قد دعا الإمام لأمك فقد رأيته يحرك شفتيه. وعاد السائل إلى بيت والدته فما أن طرق الباب حتى قامت إليه أمه تفتح له الباب وقد شفاها الله تعالى مباشرة. (يارب بجاه سيدنا الإمام أحمد عندك تشفينا وتشفي أحبابنا) .

وأصبح الإمام حديث عصره، وسيد وقته ، وإمام الدنيا ، ديناً وعلماً وعملاً وتقوى

وورعاً ، وهو يزداد في كل يوم مرضاً على مرضه، دخل عليه أبو بكر المروزي فقال له: كيف أصبحت يا إمام ؟.

فقال : كيف أصبح من ربه يطالبه بالفرض، ونييه يطالبه بالسنة والمكان يطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تكالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، ومملك الموت يطالبه بقبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة.

كانت هذه الكلمات نابعة من قلب الإمام أحمد، فقد حضرته الوفاة بعدها وسمعه ابنه يردد: لا بَعْد.. لا بَعْد، فسأله ابنه. فقال: إبليس لعنه الله قائم حذائي يريد أن يفتني عن ديني وأنا أقول لا بعد حتى أموت.

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٢٤٢/ هـ توفي عظيم القرن الثالث، وأعظم سند للسنة وأهلها، توفي وله من العمر سبع وسبعون سنة وأيام رحمته الله أيها الإخوة أنقل إليكم وصفاً حياً على الهواء مباشرة أعظم فاجعة حلت في القرن الثالث الهجري :

فما أن بلغت وفاة الإمام أحمد الناس حتى اجتمعوا حول داره وازدحموا على أسقف المنازل وفي الشوارع حول بيته وحضر غسله نحو مئة بيت من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا يقبّلون ما بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه وصلّوا عليه داخل داره أولاً وقبل أن يخرج، ثم خرجت جنازته في شوارع بغداد وصارت الجنازة تتوقف في الطرقات ليصلي عليها أهل الأحياء في بغداد، فلما وصلت إلى المقبرة صلى عليه جماعة كبيرة، ثم لما دُفن صلى عليه جماعة على قبره.

ولم يبقَ أحد علم بوفاته إلا وقدم للتشييع بدون دعوة، لم يدعهم أحد، بل جميعهم أقبلوا بقلوب حزينة وأعين باكية حتى بلغ عدد من صلى عليه نحواً من ألف ألف وسبعمئة ألف سوى الذين كانوا في السفن.

وكان الإمام أحمد يقول للمبتدعة والمعتزلة: بيننا وبينكم يوم الجناز وهذا يوم الجناز، أعز الله به الإسلام وكبّت أهل البدع والزيف والضلالة.

ومكث الناس أسبوعاً كاملاً رجاء أن يصلوا إلى قبر الإمام أحمد، فلم يصلوا إليه من شدة الازدحام.

وكتب على قبره: هنا قبر تاج السنة، بَر الأمة، العالي المهمة، العالم العابد،
الفقيه الزاهد، الإمام أحمد بن حنبل.

وشوهد في المنام من عدة صالحين وهو بآتم خير وعافية، منهم أبو بكر المروزي الذي قال : رأيت أحمد بن حنبل، كأنه في روضة وعليه حلتان خضراوتان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها، فقلت : يا أحمد ما هذه المشية التي لم أكن أعرفها.

فقال : هذه مشية الخدام في دار السلام.

فقلت : ماهذا التاج الذي على رأسك.؟

فقال : إن ربي ﷻ أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً، وحباني وقرّني، وأبا حني النظر إليه، وتوجني بهذا التاج وقال لي : هذا تاج الوقار توجّتك به كما قلت : القرآن كلامي غير مخلوق.

هذا هو الإمام أحمد بن حنبل المدرّس الرابع في مدرسة الفقه والفقهاء مدرسة سيدنا محمد ﷺ، فما هو حكم تقليد أحد المدرسين الأربعة في هذه المدرسة الفقهية الإسلامية، هل يجب علينا أن نقلد مذهباً منها أم لا؟. أُعْلِقُ هذه الأسئلة لأجيب عنها إن شاء الله تعالى في الجمعة القادمة وأعود بكم من هناك إلى هنا، هنا مدرسة الفقه الإسلامي من مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك ياسيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك.

وَسَلِّمْ
عَلَيْهِ
صَلَّى
اللَّهُ

(١٣٦)
**الإمامان أبو الحسن الأشعري
و أبو منصور الماتوردی**

الحمد لله الذي يتحير العقل عن أوصافه ويقف، ولا يجوز تشبيهه فمن شبهه هلك ومن عطّله تلف.

أحمده سبحانه وتعالى على جزيل نعمه التي منها نغترف.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، إله أقسم بالسماء ذات الحُبك: إنكم لفي قول مختلف.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله رافع لواء التوحيد، هو البطل الذي أعلنها صريحة مدوية في قلعة الأصنام، اسمعه وهو يقول (أحمد-حاض): «أيها الناس جددوا إيمانكم. قالوا: وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله» و«لقد موتاكم لا إله إلا الله» (م)، «ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» (م).

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي هو من بحر فيض الكريم يغترف، وعلى آله وصحبه الذين كل منهم بالكمال متصف، وسلم تسليمًا.
أما بعد:

فيقول عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة في اليوم ابتغاء مرضاة الله نزع الله الفقر من بين عينيه، وجعل غناه في قلبه وحشى قلبه بالحكمة».

قل هو الله أحد هي سورة الإخلاص، هي سورة التوحيد.
قال ذات يوم ﷺ لأبي ذر: يا أبا ذر إن جبريل يقرئك السلام.

قال أبو ذر: وهل يعرفني جبريل يارسول الله.
قال الحبيب الأعظم: قد سألت جبريل هذا السؤال، أتعرف أبا ذر يا جبريل؟
قال سيدنا جبريل: وكيف لا أعرف أبا ذر وجميع ملائكة السماء تعرفه!
قلت: وكيف عرفته ملائكة السماء؟!
قال سيدنا جبريل: عرفته بكثرة قراءته لقل هو الله أحد.

أيها السادة الموحدون

من الأحد؟ من الصمد؟ من العدل؟ من المقسط؟ من المبدئ؟ من الرحيم؟ من الرحمن؟ من علم القرآن، من خالق الإنسان، من علمه البيان؟ من الذي له النجم والشجر يسجدان؟ من بيده الأمر كله؟ من الواحد؟ من الماجد؟ من الواحد؟ إنه الواحد الأحد.

لا إله إلا الله: أخلو بها وحدي، لا إله إلا الله، أفني بها عمري، لا إله إلا الله: يغفر بها ذنبي. لا إله إلا الله: أدخل بها قبري، لا إله إلا الله: ألقى بها ربي.
الله ربي لا أريد سواه هل في الوجود حقيقة إلا هو

أيها الإخوة

وقفت فيكم اليوم لأفتح معكم ملفاً هو أفضل من ملف الفقه، إنه ملف التوحيد أو العقيدة.

لأن الدين الإسلامي أيها الإخوة ذو ثلاثة أركان:

علم الإسلام وهو (الفقه) ومحله الجسم،
وعلم العقائد (وهو الإيمان) ومحله القلب،
وعلم الإحسان (وهو الإخلاص) ومحله الروح،
وكلامنا سيكون في الأمر الثاني وهو العقيدة.

نعم العقيدة التي بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يدعو أهلها لأن يقولوا: لا إله إلا الله، العقيدة التي لا يقبل الإسلام إلا بها، لأنها تعني:

الإيمان بالله تعالى موجد الأكوان بلا شريك:

وتعني الإيمان بملائكة الله الذين لا يدركهم البصر ولا المجهر إلا للخواص.
وتعني الإيمان بكتب الله وشريعة الله التي أنزلها ليسير على هديها العباد والبشر.

وتعني الإيمان برسول الله الذين اخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وب: اليوم الآخر يوم ينتصف المظلوم من الظالم، ويجازى كل بعمله، وب: القضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى خالق النفع والضر.
هذه هي أركان العقيدة الستة، وسميت عقيدة لعقد قلبنا عليها، كأننا ربطنا (عقدنا) قلوبنا بذلك الأمر، والعرب تُسمي الأمر المحتم عقداً.

ولكنني وقبل أن أفتح هذا الملف في القضايا الاعتقادية، أريد أن أعرفكم بإمامين جليلين اشتهرا بهذا العلم فنسب إليهما، فكما أن لدينا في الفقه مذاهباً أربعة، فهناك مذهبان في العقيدة لا ثالث لهما، سمي كل مذهب باسم إمامه الداعي إليه، أما الأول: فهو: الإمام أبو الحسن الأشعري، وإليه تنسب عقيدة الأشاعرة، وهي عقيدة اتباع الإمام مالك والشافعي والحنابلة وبعض الحنفية. من المتأخرين.

وأما الثاني فهو: الإمام أبو منصور الماتريدي، وإليه تنسب العقيدة الماتريدية وهي أتباع الإمام أبي حنيفة النعمان وبعض الشافعية والمالكية. المتأخرين.

هذان الإمامان الجليلان هما إماما المتقدمين من أهل السنة، ظهر الأول بالبصرة، وظهر الثاني بسمرقند، وكثيراً ما نرى الإشارة إليهما في كتب العقيدة، ونسمع إلى جوارهما أسماء أئمة آخر شاركوا في نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، أمثال:

حجة الإسلام الإمام محمد بن محمد الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي، وإمام

الحرمين الجوي، والإمام أبو اسحق الشيرازي، وأبو اسحق الاسفراييني، هؤلاء هم أبطال الأمة في العقيدة، ولعن نسينا هذه الأسماء فلا ينبغي علينا أن ننسى اسمي اللذين دوناً لنا العقيدة ونشرها حتى اشتهرت باسماء البطلين الإمامين أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي.

أما سيدنا وقدوتنا (١) إلى الله سيدنا أبو الحسن فهو علي بن اسماعيل الأشعري، يصل نسبه إلى سيدنا أبي موسى الأشعري، الصحابي الجليل، فقد اشتهر هذا الإمام بذكائه المفرط، وقوة فهمه، وتبحره في العلم، وله مؤلفات كثيرة جداً.

بدأ حياته بدراسة مذهب المعتزلة (كان معتزلياً)، وبرع فيه حتى أصبح رأساً من رؤوس المعتزلة، وكان لفصاحته يتولى الجدل نائباً عن شيخه الجبائي، ثم كره مذهب الاعتزال، وتبرأ منه على منبر البصرة، وأنه تاب إلى الله تعالى وعاد إلى عقيدة أهل السنة والجماعة، وقف في إحدى الجمع فقال:

كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن الشر فعلي ليس بقدر، وإني تائب معتقد الرد على المعتزلة.

وما أن نزل منبر البصرة حتى سارع إليه الناس يهنئونه، واستقبله شيخه الجبائي المعتزلي ليرده إلى مذهب الاعتزال، فقال له سيدنا أبو الحسن الأشعري:

- أناظرك أمام الناس في مسألة فإن أقنعتني أعود إلى الاعتزال، (وكان الإمام الأشعري يقول بأن الله يجوز أن يفعل الصلاح والأصلح، والجبائي يقول يجب عليه ذلك، فأراد الأشعري أن يرده عن هذه المسألة بمثال بسيط)، فقال لشيخه الجبائي: - ماذا تقول في ثلاثة صغار، مات أحدهم، وكبر اثنان، فأمن أحدهم وكفر

الآخر. فما العلة في احترام الطفل (في وفاته باكراً قبل البلوغ).

قال الجبائي: لأن الله تعالى علم أنه لو بلغ لكفر، فكان احترامه أصلح له.

قال الإمام الأشعري: فقد أحيا أحدهما فأمن.

قال الجبائي: إنما أحياء ليعرّضه أعلى المراتب.
قال الإمام الأشعري: فلم لا أحيى الطفل ليعرّضه لأعلى المراتب.
قال الجبائي: وسوست!!؟

قال الإمام الأشعري: لا، ولكن وقف حمار الشيخ في العقبة.
وهكذا **معشر السادة** ردّ الامام الأشعري على شيخه ماكان يدعيه، وبين أنه لايجب على **الله** شيء عقلاً فكانت هذه المناظرة وأشباهاها سبباً في تركه مذهب الاعتزال وعودته إلى مذهب أهل السنة والجماعة.
أيها الإخوة:

صنف هذا الإمام ٣٠٠ مؤلف، رد في أكثرها على المعتزلة والفرق الضالة، حتى توفاه **الله** تعالى سنة ٣٢٤هـ.

وأما الإمام أبو منصور الماتريدي فأكثر متبعيه من السادة الحنفية، وهو إمام ماوراء نهر دجلة (أي في إيران)، وهو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، نسبةً إلى قرية ماتريد بسمرقند.

درس آراء الإمام أبي حنيفة النعمان في العقيدة، ونظر فيها واستقى علمه منها ثم شرحها بأسلوبه ومعارفه التي حصل عليها طيلة حياته العلمية، وآراؤه لا تختلف عن آراء الإمام الأشعري. من حيث النتائج، وإنما اختلفا في طريقة العرض والمقدمات، لكنه يختلف عن الإمام الأشعري بأنه جعل لمصدر العقيدة النقل والعقل، فإذا اختلفا قدم النقل والشرع على العقل، وجعل للعقل استقلالاً أن يتعرف على **الله** تعالى ولو لم يبعث **الله** نبياً يبين ذلك.
توفي هذا الإمام بسمرقند سنة ٣٣٣هـ.

أيها الإخوة:

هذه المقدمة اللطيفة البسيطة التي عرضتها على حضراتكم كان لا بد منها. وها نحن في الصفحة الأولى من هذا الملف، فإن الذي دعاني لأفتح لكم هذا الملف أن عقيدة العباد في عصرنا الفاسد أصيبت بهزة عنيفة، وأزمة حادة كادت تقضي عليها، وانتشرت ألفاظ الكفر والردة في الطرقات والشوارع دون مبالاة أو انتباه، وارتفعت أصوات المصلحين تنادي بالعودة إلى الدين والتشبث بالعقائد الموروثة عن أنبياء الله ﷺ ورسله قبل أن يعم الظلام نواحي الحياة، ويطغى الضلال طغياناً لا قبل لأحد بمقاومته، ولن ينفع عندها التقدم العلمي ولا الثقافي، ولن يوفر للناس الأمن والسلام، وستصاب الإنسانية بنكسة خطيرة لتركها الدين وعقيدة التوحيد، ولقد حذر المصطفى من هذا الترك فقال: (د-ت-ن-ه-أحمد).

«افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» (د-ت: حسن صحيح). وقال: «أقبلت الفتن يتبع آخرها أولها».

ولم يجد المصلحون لإصلاح قلوب العباد مثل غرس العقيدة الصحيحة، لأن العقيدة إذا امتزجت في قلب العبد ودمه، وغذاها بالعمل الصالح ونماها بالبر والتقوى أكرمه مولانا بخوارق وكرامات كالتى نسمعها عن سلفنا الصالح كمصعب بن عمير الذي:

«كان يحمل لواء سيدنا النبي يوم أحد، حين اختلّ الموقف في ميدان القتال، فثبت فيه، وتشتدّ صدمة قريش على المسلمين، فينكشفون بسبب مخالفتهم أمر القائد الأعظم للأمة، ويتفرقون عن اللواء، ولكن مصعباً أثبت قدمه في الأرض محتفظاً بلواء سيدنا رسول الله ﷺ جهد الاستطاعة، ويقبل على حامل اللواء فارس من قريش فيضرب يده بالسيف فيقطعها، ويسقط اللواء فيسرع سيدنا مصعب ويتناول اللواء بيده الآخرة ويرفعه عالياً، ولكن فرسان قريش تتكاثر عليه ويضربه أحدهم

على يده الأخرى فيقطعها، وتبقى قدمه ثابتة، لا يزول ولا يميل، ومازال اللواء مرفوعاً يضم عليه عضدية، ويغيظ ذلك فرسان قريش، فيكرون على مصعب وينفذون رماحهم في صدره فيسقط ويسقط معه اللواء، فيتلقى اللواء أخوه أبو الروم، وما يزال اللواء لواء رسول الله ﷺ مرفوعاً حتى يبلغ المدينة. (مرسل بن عمير بسند صحيح) (١).

ويرى رسول الله ﷺ مصعباً في ميدان القتال مضرجاً بدمه، فيتلو قول مولانا عز وجل:

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ / الأحزاب: ٢٣.

ثم يقول: «إن رسول الله ﷺ يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة». وأنا أسأل: لم هذه التضحية؟ ولم هذا الإقدام وهذه البسالة، أليست هي العقيدة، أليس هو الإيمان الراسخ؟ جعلهم ينطلقون في الأرض كالشعلة في الهشيم تحيله ناراً ونوراً، أليست هي العقيدة التي جعلت لقاء الله ﷻ في سبيل الشريعة أحب إليهم من لقاء أهلهم وأبنائهم.

وإذا العقيدة لامست قلب امرئ كانت له في التضحيات روائع لذلك أوجب الله تعالى على عباده معرفته، أوجبها على كل مكلف سليم الحواس، بلغته دعوة الاسلام، ولا يكفي الظن في أمر التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ / محمد: ١٩.

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة قاطعة على أن الانسان يجب عليه أن يؤمن إيماناً جازماً ليس فيه مجال للشك أن الله تعالى واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله.

وعليك . أيها العبد . أن تؤمن بذلك بدون تقليد لأحد، يعني مثلاً في الصلاة والعبادات أقول عن نفسي أنا حنفي أو شافعي، أما في معرفة الله فلا يوجد تقليد، عليك أنت أن:

تعتقد أنه لا إله إلا الله، اسمع إلى ناظم العقيدة:

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

إلا في حالة واحدة: أن يجزم المقلد جزمًا لا رجعة عنه بصحة قول المقلد، بحيث لو رجع المتبوع لم يرجع التابع، عندها يكفيه ذلك في الإيمان.

اسمعوا أيها الإخوة: إن تارك العبادات عن غير عمد قد يغفر الله تعالى له، أما إذا أشرك بالله تعالى فلا غفران له لقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ / النساء: ٤٨ /.

أيها الإخوة فما هي الكلمة الجامعة للعقيدة؟

إننا في الصفحة الثانية من ملف التوحيد، والكلمة الجامعة للعقيدة هي:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

هذه الكلمة الجامعة لكل معاني ومراتب التوحيد، ورمز لكل ما يعتبر من أركان العقيدة.

والتوحيد . أيها الإخوة . ينقسم إلى ثلاثة أركان:

إلهيات . نبويات . سمعيات

إلهيات: أمور تتعلق بالذات الإلهية.

نبويات: أمور تتعلق بالأنبياء.

سمعيات: أمور تتعلق بالأمر التي وردتنا سماعاً من الكتاب والسنة.

هذه الأقسام الثلاثة كلها تشتمل على كلمة التوحيد . الوحدانية، لكنني اليوم أتدبر معكم هذه الصيغة: لا إله إلا الله. لأنه مرة سألني أحد تلامذتي قال: كيف

اشتق العلماء الصفات الإلهية من هاتين الشهادتين، مع أنها لاتدل إلا على
الوحدانية.

فقلت له: إنها اعتراف بأنه سبحانه هو المعبود بحق، والمعبود بحق جامع لكل
كمال، ومنزه عن كل نقص، إذ لا يستحق العبادة التي هي نهاية التعظيم، وغاية
المحبة والخشية إلا من كان كذلك.

والألوهية تقتضي استغناء الإله عما سواه، وافتقار كل ماعداه إليه، اسمعوا هذا:
معنى كلمة لا إله إلا الله، أنه يستغني عن كل ماسواه، ويفتقر إليه كل ماعداه.
والمستغني عن كل ماسواه يجب أن يكون قائماً بنفسه (لا يحتاج لأحد)، موجوداً
قديماً باقياً، وغير مشبه بالمخلوقات، ومنزه عن النقائص.

ومن كان منزهاً عن النقائص فيجب أن يكون سمياً بصيراً متكلماً، لأنه لو لم
تجب له هذه الصفات لكان محتاجاً إلى من يوجده، أو من يدفع عنه سبحانه
النقائص.

وإذا قلنا يفتقر إليه كل ماسواه فيعني أنه حي قادر مريد عالم.
فما هي أسس التوحيد؟ أو بعبارة أخرى لماذا ذكر الله بكلمة لا إله إلا الله ذكر
صفة الوحدانية فقط.

للإجابة عن هذا السؤال أدعكم أولاً لتوحيدوا الله تعالى لا إله إلا الله لعلكم
عرفتم الجواب: إنه هذه الكلمة بالذات: الوحدانية.

لأن الوحدانية أهم مقصد من مقاصد التوحيد، فالناس منذ زمن سيدنا نوح وهم
يشركون بالله، بل إن مولانا عز وجل قال:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾. /يوسف: ١٠٦/.

نحن عندما نعظم الملوك والأغنياء نكون قد أشركنا بالله، ولا أنسى إن نسيت
شاعراً منافقاً، وما أكثرهم. قام يريد أن يمدح رئيس بلده يوماً، أتعرفون ماذا قال له،
اسمعوا الكفر، وناقل الكفر ليس بكافر، قال له:

فاحكم فأنت الواحد القهار

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

أسمعتكم كفراً وشركاً أعظم من هذا؟.

النصارى أرادوا أن يمدحوا سيدنا عيسى فقالوا عنه: إنه ابن الله، (باسم الآب والابن).

ولذلك سيدنا رسول الله ﷺ الله يقول (خ- أحمد): « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا عبد الله ورسوله ». عبد الله أي حادث = مخلوق = أي سيموت = سيفنى.

وكل عظيم، وكل غني، وكل حي على وجه البسيطة لن يعيش إلى الأبد، بل سيموت وقد قال الله لنبيه ومصطفاه: ﴿انك ميت وأنهم ميتون﴾ / الزمر: ٣٠ / ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ / الأنبياء: ٣٤ / لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله ولا رب إلا الله. يروي سيدنا عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان على المنبر يوماً فسأل أصحابه . هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب، فقالوا: ما فينا غريب يا رسول الله، فقال أغلقوا الباب . باب المسجد . ثم قال: ارفعوا أيديكم، قال: فرفعنا أيدينا، فقال: قولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا إله إلا الله محمد رسول الله، عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق.

قال: ... : فرفعنا أيدينا ساعة، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم انك بعثتني بهذه الكلمات ووعدتني عليها الجنة ثم قال: قوموا فقد غفر الله لكم. وأنا أنقل لكم هذه البشارة على لسان سيدنا رسول الله ﷺ قوموا فقد غفر الله لكم.



(١٣٧) الإمام أبو مسلم الخولاني

توفي ٦٢ هـ

الحمد لله الموجود بلا أولية الباقي بلا آخرية ، الواحد في الربوبية والإلهية الفعال لما يريد وهو على كل شيء قدير ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له غمر صفوة عباده بلطائف رحمته وامتنان ، وألف بين قلوبهم فهم بنعمته إخوان .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد الإنس والملك والجان شهادة تسلك بنا إلى مقام الإحسان .

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ذوي القدر والشان ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فبما معشر الإخوة الكرام: ما زلت أنزل وإياكم ضيوفاً على أهل داريا ، ونحن اليوم مع قارئ أهل الشام وحكيم من حكماء أمة سيدنا محمد ﷺ وزاهد من زهاد العصر ، وسيد من سادات التابعين .

مع رجل أصله من اليمن ، أدرك الجاهلية والإسلام آمن بسيدنا محمد ﷺ ولم يره ، كان في عهده لكنه دخل في سلك التابعين لأنه لم يلتق برسول الله ﷺ إنه الإمام العلم المجاهد .

سيدنا أبو مسلم الخولاني (عبد الله بن ثوب) رحمه الله .

ومع الحلقة سبعة وثلاثين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا أبي مسلم الخولاني .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: قبل أن أُلج مع حضراتكم عتبة حياة هذا الإمام أريد أن أشهد مع حضراتكم مشهداً فريداً يدلنا على عظمة أمة سيدنا محمد ﷺ عند الله تعالى ، اسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم على جناح السرعة إلى هناك إلى اليمن السعيد الذي قال فيه الحبيب الأعظم (الإيمان يمان والكفر قبل المشرق) (ت-حم).

نحن اليوم أمام مشهد عظيم أراه بعين الإيمان واليقين، فقد ادّعى النبوة في اليمن الأسود العنسي (ابن قيس) وصار يفتن الناس بإدعائه حتى أصبح له جماعة ووصوله ، ومن وقachtته أنه أرسل إلى سيدنا أبي مسلم الخولاني يدعوه إليه، فجاءه وسأله: أتشهد أنني رسول الله فقال: سيدنا أبو مسلم: لا أسمع، قال فتشهد أن محمداً رسول الله قال: نعم. فلما رأى أنه لا يجيبه أمر بنار عظيمة فأججت ثم قذف فيها أبا مسلم ، فلما خمدت النار خرج منها سيدنا أبو مسلم دون أن يمسّه سوء وهو يردد ويقول: الله أكبر.

فقال أتباع الأسود الكذاب: إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك أمر من اتبعك فأمره بالرحيل، فغادر إلى أرض الحجاز ، إلى مكة والمدينة حاجاً وزائراً سيدنا رسول الله، واشترط على مرافقيه أن يسافروا معه متوكلين على الله بلا زاد ولا مزاد. فقالوا: سبحان الله وكيف يسافر قوم بلا زاد ولا مزاد. قال لهم: ألا ترون إلى الطير تغدو وتروح بلا زاد ولا مزاد والله يرزقها ، وهي لا تبيع ولا تشتري ولا تحث ولا تزرع والله يرزقها؟! فقالوا: فإننا نسافر معك على هذا الشرط. فقال: تهيؤوا على بركة الله تعالى. فلما انتهوا إلى أول استراحة قالوا: يا أبا مسلم طعام لنا وعلف لدوابنا؟ قال: نعم. فتنحى عنهم غير بعيد واستقبل القبلة فصلى ركعتين ثم جثا على ركبتيه وقال: إلهي قد تعلم ما أخرجني من منزلي وإنما خرجت زائراً لك، وقد رأيت البخيل من ولد آدم تنزل الجماعة من الناس فيوسعهم قرى، وأنا أضيافك وزوارك فأطعمنا واسقنا واعلف دوابنا.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فما أتم دعاءه حتى كان الطعام ممدوداً بين أيديهم بإذن الواحد الأحد، فلم تزل تلك حالهم طول الرحلة.

وقدم سيدنا أبو مسلم على الحبيب الأعظم، وأناح راحلته بباب المسجد وعمد إلى سارية من سواري المسجد ليصلي إليها فأبصره سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقبل إليه وقال: السلام عليك، قال: وعليك السلام. قال من أين أقبلت؟ قال: من اليمن. قال: فما فعل الذي حرّقه الكذاب بالنار. قال: ذاك عبد الله بن ثوب قال: أنشدك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال فاعتنقه سيدنا عمر وبكى وأخذ بيده وانطلق إلى سيدنا الصديق حتى أجلسه، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراي من أمة محمد من هو على قدم إبراهيم خليل الرحمن فلم تضرّه النار.

إخوتي في الله: وما أن قضى سيدنا أبو مسلم حجه حتى توجه قبَل الشام ، هاهو يدخل مدينتكم فسلموا عليه وقلوا : السلام عليك يا أبا مسلم. أرحب باسمكم واسمي شخصياً بالإمام العلم وأدعوا الله لي ولكم أن يجمعنا جميعاً به تحت لواء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واتخذ سكناً له في داريا جارة دمشق، وكان حريصاً على أن يصلي الصبح جماعة في الجامع الأموي يأتي من داريا ليكون أول من يدخل المسجد لصلاة الفجر.

وكان يصلي من الليل ما شاء الله تعالى فإذا غلبه النوم ضرب ساقيه بالسوط ويقول: أنت أحق بالضرب من البهائم. لذلك كان يرفع صوته بالذكر ليبقى يقظاً حتى ظنه بعضهم أنه مجنون ، فكان أبو مسلم يحبيه: ليس هذا الجنون يا أخي ولكن هذا دواء الجنون. ولهذا كان يوصي الناس بكثرة الذكر ويقول: اذكر الله تحت كل شجرة وعند كل حجر حتى يحسبك الناس من ذكر الله مجنون.

فلما استقرَّ به المقام أحب أن يسلم على أمير دمشق سيدنا معاوية، كان أميراً قبل أن يكون خليفة عشرين سنة.

معشر السادة الكرام: أنتقل بكم الآن إلى جوار جامع بني أمية الكبير إلى القصر الأخضر مقابل الباب الجنوبي للمسجد حيث دار الإمارة، ها هو سيدنا أبو مسلم الخولاني يسلم على سيدنا معاوية ملك الإسلام فبقول: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: بل الأمير يا أبا مسلم. فقال سيدنا أبو مسلم: السلام عليك

أيها الأجير . فقال الناس: الأمير . فقال سيدنا معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول . فقال أبو مسلم: إنما أنت أجير استأجرك ربُّ هذه الغنم لرعايتها ، فإن أنت هنأت جرباها ودأويت مرضاها وحبست أولاها على آخرها (حافظت عليها) وفكَّ سيدها، وإن أنت لم تهنأ جرباها ولم تدأو مرضاها ولم تحبس أولاها على آخرها عاقبك سيدها .

وهكذا كان سيدنا أبو مسلم صداعاً بالحق لا يخشى في الله لومة لائم ، لأنه يرى من واجبه النصيحة لكل مسلم ، لذلك نراه لما تولى سيدنا معاوية الخلافة قدم إليه أبو مسلم وقال: يا معاوية إنما أنت ميت لا محالة إن جئت بشيء كان لك شيء، وإلا فلا شيء لك .

يا معاوية لا تحسب أن الخلافة جمع المال وتفريقه إنما الخلافة القول بالحق والعمل بالعدل وأخذ الناس في ذات الناس، يا معاوية إنا لا نبالي بكدر الأنهار إذا صفا لنا رأس العين،/ يا معاوية إن عدلت مع أهل الأرض جميعاً ثم جرت على رجل واحد مال جورك بعدلك ، فصاح سيدنا معاوية يرحمك الله يا أبا مسلم وجزاك الله خيراً، ثم قال: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، وإنهم اليوم شوك لا ورق فيه، إن سبتهم سبوك وإن ناقدتهم ناقدوك وإن تركتهم لم يتركوك . وإن فررت منهم أدركوك .

معشر الإخوة الكرام: هذا الكلام يقوله سيدنا أبو مسلم وهو فقير الحال، لم يمالئ الخليفة ليقدم له الأعطيات ، لم يداهن ، ولم يتملق الخليفة بمعسول الكلام من أجل شيء من الدنيا ، مع أنه كان شديد الفقر، كانت زوجته تطعمه كسرات من الخبز يدخل إليها فيكبر وتكبر امرأته فينزعه عنه ثيابه ويأكل، إلا يوماً أتى فكبر فلم يسمع تكبيرها، فتعجب وقد وجدها لم تتحرك عندما رآته ولا طعام في البيت ، استقبلته قائلة ألا تأتي معاوية فيأمر لنا بخادم وعطاء، الناس بخير وأنت لا تجد ما تأكله، تعجب سيدنا أبو مسلم وقد ذهب عنها الصبر والتوكل ، فقال: اللهم من أفسد على أهلي فأعم بصره يقول الراوي يا سادة يا كرام : وكانت أيتها جارحتها فحرّضتها على زوجها، فبينما الجارة في بيتها إذ ذهب بصرها بدعوة أبي مسلم،

فأقبلت كما هي إلى أبي مسلم تناشده وتتوب على يديه وتعتذر فقال: اللهم إن كانت صادقة فردّ عليها بصرها، قال فردّ الله عليها بصرها.

قال أبو مسلم لزوجته: هل عندك شيء قالت: درهم بعنا به غزلاً، قال: هاتيه وهاتي الجراب، فدخل السوق ليشتري بالدرهم فوقف على رجل يبيع الطعام ، وإذا بسائل يقول يا أبا مسلم: تصدّق علي، فهرب منه إلى حانوت آخر فتبعه السائل: صدقة لله.

فلما أخرجته وأضجره وأخجله أعطاه الدرهم، وعمد إلى جراب ملأه من نشارة النجارين مع بعض التراب، وأقبل على منزله وطرق الباب ففتحت امرأته ورمى لها بالجراب، وهرب إلى المسجد.

ففتحت زوجته الجراب فإذا فيه دقيق لم تر عيناها أفضل منه. فعبجت وخبزت فلما مضى النهار ودخل الليل جاء أبو مسلم فنقر الباب ودخل ، فإذا بين يدي زوجته خواناً وأرغفه فقال: من أين لكم هذا؟ قالت: من الدقيق الذي جئت به، فجعل أبو مسلم يأكل ويكي، ويكي ويأكل ويحمد الله تعالى أن لم يخذله أمام زوجته.

هكذا من علق قلبه بالله وتوكل عليه وأصلح ما بينه وبينه ، وجاءته جاريته تعترف أمامه قائلة: لقد جعلت لك السم في طعامك منذ كذا وكذا فما آراه يضرك فقال: لم فعلت ذلك قالت: لأنك لا تدنيني من فراشك وأنا شابة، فقال لها: كنت أقول إذا قرّب إلي طعامي بسم الله خير الأسماء الذي لا يضر مع اسمه داء رب الأرض ورب السماء، والله لولا أن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لأوجعتك، فقالت: يرحمك الله فوالله إنني لمن يرجو أيام الله فمالك لا توجعني، قال: إن الله يأمرني أن اغفر للذين لا يرجون أيامه فعمن يرجو أيامه أخرى، انطلقني فأنت حرة.

ثم إن زوجته بقيت تظنّ وتئن عليه أن يطلب من سيدنا معاوية عطاء يكفيه ، فتركها وخرج إلى المسجد فجعل يصلي ويركع ، فدخل عليه رجلان يسألان عنه

فوجداه يصلي فأحصيا عليه ركوعه فإذا به ركع ثلاثمئة ركعة ثم أخذ يدعو الله تعالى ويقول: يارب أن أم مسلم تريد مني أن أذهب إلى معاوية ليعطيني كذا وكذا ، وكذا وكذا ، وأنا لا أحب أن أطرق إلا بابك ، يا رب اكفني أم مسلم واكفنا لذهاب إلى معاوية ، وراح يدعو ويدعو ، فغادر الرجلان إلى سيدنا معاوية وأخبراه ما سمعاه من أبي مسلم . فقال: ويحك هل تحفظان ما قال؟ قالوا نعم. كذا وكذا ، وكذا وكذا، فأمر سيدنا معاوية بأضعاف أضعاف ما قال سيدنا أبو مسلم. وما أن جاء سيدنا أبو مسلم إلى بيته حتى رأى المونة والأشياء التي طلبتها أم مسلم فراح يحمد ويحمد ويسبح ويسبح بالسبحة التي يحملها حتى غفلت عيناه ، ولكن السبحة لم تتوقف عن الحركة، صارت السبحة تدور حول معصم أبي مسلم وهي تسبح وتسبح بصوت واضح فاستيقظ على صوتها سيدنا أبو مسلم فأشهد زوجته السبحة وهي تسبح كما سبحت الحصى بكف سيدنا رسول الله ﷺ (وما كان معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي) .

أيها الأحبة والصحب: ونادى المنادي بالجهاد في سبيل الله ، وهذه اللحظة كان ينتظرها أبو مسلم منذ شبابه ، فتجهز وخرج مع قطعة الجيش وكان صائماً فوجدوه يتبرد بالماء من شدة الحر وراوده على الفطر في السفر والجهاد ولكنه أبي وقال لو حضر القتال أفطرت ، ولكني أصوم لأيام قادمة لها نعمل، وعرض للجيش ظبي مرّ بهم فرجوا سيدنا أبا مسلم أن يدعو الله ليحبسه لهم حتى يصطادوه فرفع أبو مسلم يديه يدعو فحبس الله الظبي حتى اصطاده المجاهدون.

وعرض نهر للجيش في أرض الروم خافوا أن يخوضوه ، فوقف أبو مسلم يشجعهم ويخطب فيهم ويذكر لهم سير بني إسرائيل في البحر، ثم انطلق أمامهم بفرسه وقال: أجزوا بسم الله تعالى فمشى الجيش على الماء وأمامهم أبو مسلم بإذن الله.

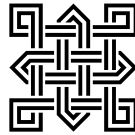
ثم وقفوا على أطراف أرض الروم وأرسلوا سرية تستكشف لهم الطريق فأبطأت بقدمها فأحزن ذلك الجيش ، فوقف سيدنا أبو مسلم يصلي ويستنجد ويستغيث

بالله وقد أقام رحمه أمامه سترة يصلي إليها ، فإذا بطائر يقف على سنان الرمح ينادي أبا مسلم ويقول: أبشر يا أبا مسلم بنصر الله وبشر المؤمنين بأن السرية سالمة غامة وستأتيكم يوم كذا وكذا. ونصر الله جيشه.

وقفلت مجموعة منه قافلة نحو الشام ، فلما وصلت حمص خرج عليهم راهب وقال: هل تعرفون أبو مسلم الخولاني ؟ قالوا: نعم. قال فإذا أتيتموه فأقرؤه السلام وأعلموه أنا نجده في الكتب رفيق عيسى ابن مريم وإن لم تسرعوا فستصلون دمشق ولا تجدونه حياً. قال فما وصلت قطعة الجيش الغوطة حتى وصلها نبأ وفاة سيدنا أبي مسلم بأرض الروم سنة ٦٢ هـ .

قيل دفن هناك، وقيل: إنهم جاؤوا به فدفنوه بداريا وقبره اليوم يزار. وهكذا قضيت مع حضراتكم مع بطل من أبطال الأمة الإسلامية وسيد من سادات التابعين مستجاب الدعوة، فيه توسلوا هنا أن يكشف عن هذه الأمة الغمة، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد، الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية له وتحيتنا لك يا سيدي يا رسول الله. الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



سير أعلام النبلاء ٧/٤ . حلية الأولياء ١٢٠/٢ . ٣ / ١٢٢
من وحي المنبر ٢٩ للمحاميد رحمه الله . مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ١٢ / ٥٥
حياة الحيوان الكبرى ٢ / ١٩٠ . صفة الصفوة ٣ / ٤٢٦ . أسد الغابة ٣ / ١٢٩ . الإصابة في تمييز
الصحابه . البداية والنهاية ٨ / ١٤٦ . تهذيب التهذيب ١٢ / ٢٣٥ . شذرات الذهب ١ / ٧٠ .
فوات الوفيات ١ / ٢٠٩

فهرس

الرقم العام	الرقم الخاص	رقم الحلقة	عنوان الشخصيات	الصفحة
٢٧	١	٧٩	آل البيت النبوي	٥
٢٧	٢		سيدنا القاسم بن سيدنا رسول الله	
٢٨	٣		السيدة زينب بنت سيدنا رسول الله	
٢٩	٤		السيدة رقية بنت سيدنا رسول الله	
٣٠	٥		السيدة أم كلثوم بنت سيدنا رسول الله	
٣١	٦		السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله	
٣٢	٧		السيد ابراهيم بن سيدنا رسول الله	
٣٣	٨	٨٠	السيدة خديجة بنت خويلد قبل الإسلام	١٩
	٨	٨١	السيدة خديجة أم المؤمنين	٢٧
	٨	٨٢	وفاة السيدة خديجة أم المؤمنين	٣٥
٣٤	٩	٨٣	السيدة سودة بنت زمعة	٤٣
٣٥	١٠	٨٤	السيدة عائشة بنت الصديق	٥١
	١١	٨٥	السيدة عائشة بنت الصديق وحديث الإفك	٥٩
		٨٦	السيدة عائشة بنت الصديق ونهاية حديث الإفك	٦٧
		٨٧	السيدة عائشة ومعركة الجمل	٧٣
٣٦	١١	٨٨	السيدة حفصة بنت سيدنا عمر	٨١
٣٧	١٢	٨٩	السيدة زينب بنت خديجة	٨٩
٣٨	١٣	٩٠	السيدة أم سلمة بنت خديجة	٩٥
٣٩	١٤	٩١	السيدة زينب بنت جحش	١٠١
٤٠	١٥	٩٢	السيدة جورية بنت الحارث	١٠٩
٤١	١٦	٩٣	السيدة صفية أم المؤمنين	١١٧

١٢٥	السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان	٩٤	١٧	٤٢
١٣٣	السيدة مارية وريحانة	٩٥	١٩-١٨	٤٤-٤٣
١٤١	السيدة ميمونة بنت الحارث	٩٦	٢٠	٤٥
١٥١	سيدنا الصديق أبو بكر خليفة رسول الله	٩٧	٢١	٤٦
١٦١	سيدنا عمر بن الخطاب - إسلامه	٩٨	٢٢	٤٧
١٦٩	أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب - خلافته	٩٩		
١٧٥	سيدنا عمر بن الخطاب - عدله	١٠٠		
١٨٥	سيدنا عمر بن الخطاب - دولته	١٠١		
١٩٥	استشهاد الخليفة سيدنا عمر	١٠٢		
٢٠٩	سيدنا عثمان بن عفان إسلامه وصفاته	١٠٣	٢٣	٤٨
٢٢١	سيدنا عثمان بن عفان - خلافته	١٠٤		
٢٣٥	سيدنا علي بن أبي طالب فتى قریش	١٠٥	٢٤	٤٩
٢٤٩	سيدنا علي بن أبي طالب - خلافته	١٠٦		
٢٦١	سيدنا الحسن بن علي الخليفة الخامس	١٠٧	٢٥	٥٠
٢٧١	سيدنا طلحة بن عبيد الله	١٠٨	٢٦	٥١
٢٧٧	سيدنا الزبير بن العوام	١٠٩	٢٧	٥٢
٢٨٣	سيدنا عبد الرحمن بن عوف	١١٠	٢٨	٥٣
٢٩١	سيدنا سعد بن مالك (بن أبي وقاص)	١١١	٢٩	٥٤
٢٩٧	سيدنا سعد بن زيد وسيدنا أبو عبيدة بن الجراح	١١٢	٣١-٣٠	٥٥
٣٠٣	سيدنا عبد الله بن العباس	١١٣	٣٢	٥٦
٣١١	سيدنا معاوية بن أبي سفيان قبل الخلافة	١١٤	٣٣	٥٧
٣٢٣	سيدنا معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين	١١٥		
٣٣٥	سيدنا الحسين بن علي واستشهاده	١١٦	٣٤	٥٨
٣٤٩	نهاية يزيد بن سيدنا معاوية	١١٧	٣٥	٥٩

٣٥٧	سيدنا عبد الله بن الزبير الخليفة السادس الراشدي	١١٨	٣٦	٦٠
٣٧١	مروان بن الحكم وولد عبد الملك بن مروان	١١٩	٣٨-٣٧	٦٢-٦١
٣٧٩	الوليد بن عبد الملك وأخوه سليمان بن عبد الملك	١٢٠	٤٠-٣٩	٦٤-٦٣
٣٩٣	عروة بن الزبير	١٢١	٤١	٦٥
	سليمان بن عبد الملك وفتح الاندلس			
	طارق بن زياد		٤٢	٦٦
٣٩٩	سيدنا عمر بن عبد العزيز سابع الخلفاء الراشدين	١٢٢	٤٣	٦٧
٤١٥	سيدنا أويس القرني	١٢٣	٤٤	٦٨
٤١٩	سيدنا سعيد بن المسيب	١٢٤	٤٥	٦٩
٤٢٥	سيدنا الحسن البصري	١٢٥	٤٦	٧٠
٤٣١	سيدنا عطاء بن أبي رباح	١٢٦	٤٧	٧١
٤٣٩	الإمام أبو حنيفة النعمان	١٢٧	٤٨	٧٢
٤٤٧	فقه الإمام الأعظم	١٢٨		
٤٥٩	الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة	١٢٩	٤٩	٧٣
٤٧٣	الإمام الشافعي - ولادته ونشأته	١٣٠	٥٠	٧٤
٤٨٣	إمامة سيدنا محمد بن إدريس الشافعي	١٣١	٥٠	٧٤
٤٩١	وفاة الإمام الشافعي في مصر	١٣٢		
	تلامذة الإمام الشافعي: الإمام يوسف البويطي			
	الإمام المري اسماعيل بن يحيى			
	الإمام الربيع بن سليمان المرادي			
	الإمام محمد بن عبد الله بن عبد الحكم			
٤٩٩	الإمام أحمد بن حنبل - ولادته ونشأته	١٣٣	٥١	٧٥

٥٠٥	فقه الإمام أحمد بن حنبل	١٣٤		
٥١٣	عقيدة الإمام أحمد بن حنبل ووفاته	١٣٥		
٥٢٧	الإمام أبو الحسن الأشعري - أبو منصور الماتريدي	١٣٦	٥٣-٥٢	٧٧-٧٦
٥٣٧	الإمام أبو مسلم الخولاني	١٣٧	٥٤	٧٨